« رَوْضَة الناظِر ونُزهة الخاطر »

الجزاء من جنس العمل

الجزء الأول

تأليف

الدكتور سيد حسين العفانى

قدّم له

أبو بكر جابر الجزائري

الشيخ محمد صفوت نور الدّين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أبو إسحاق الحويني

الشيخ عائض بن عبد الله القرني

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة
هاتف ٥٨٦٤٢٤٠

توزيع
دار ماجد عسيري
للنشر والتوزيع - جدة

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ
الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

هذا البحث على طوله لو كُتبت فيه مجلدات لكانت قليلة .
والموضوع في منتهى الجلالة عن طريق إيضاحه بالأمثلة .

الشيخ عبد الرحيم الطحان .

❊ ❊ ❊



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

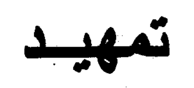
فإن هذا الموضوع الذي أكتب فيه بإذن الله وعونه وهو : (الجزاء من جنس العمل) كما يقول الشيخ الطحان : هذا البحث على طوله لو كُتبتْ فيه مجلدات لكانت قليلة . ويقول أيضًا : الموضوع في منتهى الجلالة عن طريق إيضاحه بالأمثلة . فمن صفّى صُفي له ، ومن كدّر كُدِّر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، وإنما يكال للعبد كما كال ، ومن صحت بدايته صحت نهايته .

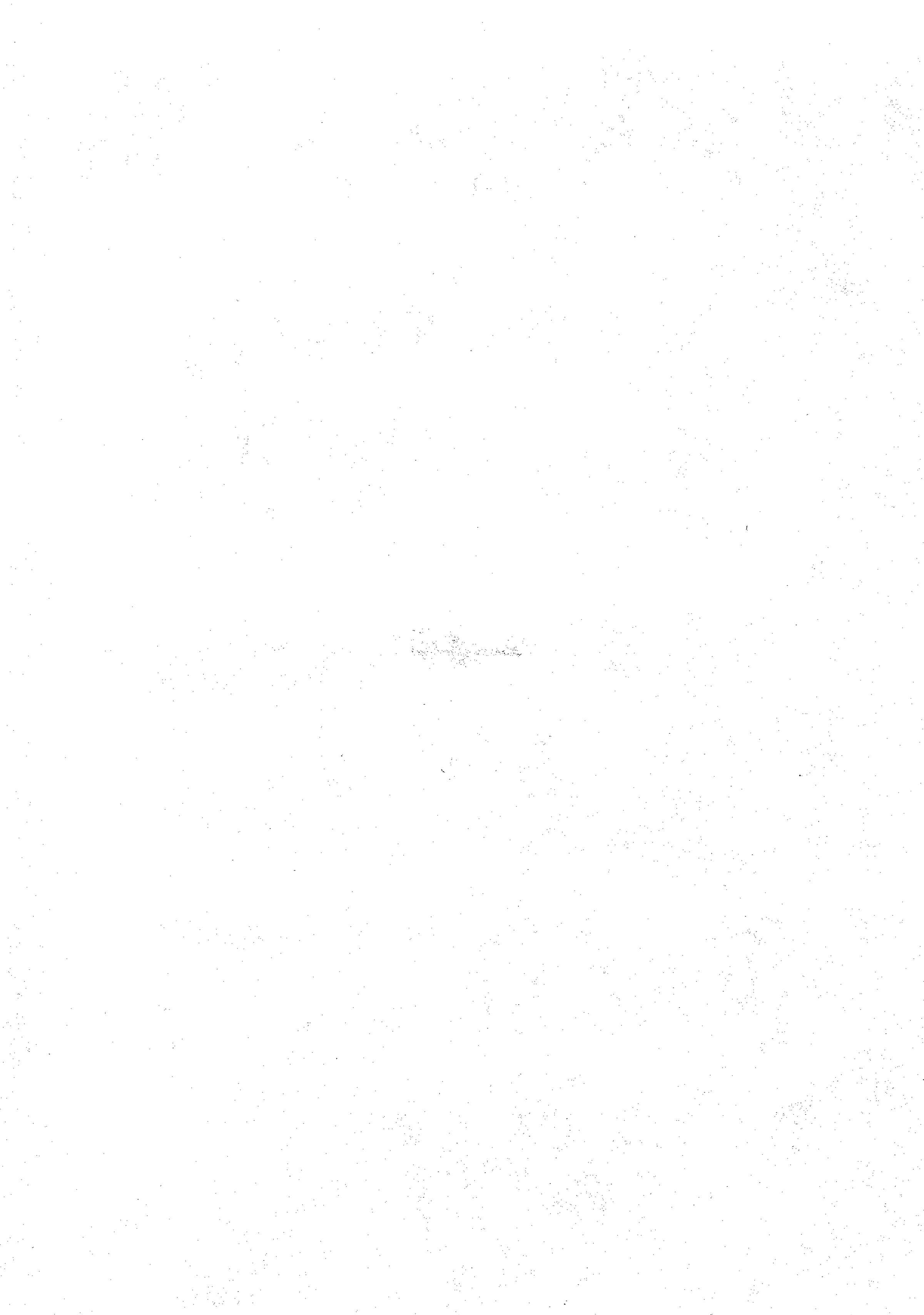
وكنت قد شرعت منذ وقت في جمع أقوال السادة علماء السلف ، ومن سار على دربهم من رجالات الخلف ، من أقوال علماء التفسير ، وشراح الكتب الحديثية ، وعباد هذه الأمة وزهّادها ، قدر طاقتي وجهدي الضئيل ، وعزوتُ الأقوال إلى قائليها ما أمكنني ؛ فإن من بركة العلم عزوه إلى قائله ، ثم

استمعت بعد ذلك لتسجيل للشيخ الطحان في نفس الموضوع ضمنت الكثير منه في جمعي هذا ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، والفضل لله أولًا وآخرًا ثم لمشايخنا وعلمائنا ، واعتمدت في التصحيح والتحسين على كتب مجدد العصر في الحديث محدث ديار الشام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - حفظه الله -.

فاللهم ضع له القبول بين الصادقين ، وتقبل ولو حرفًا منه ، وتجاوز عن زلاتي وجرأتي ، ولا تجعل حظي من ديني لفظي ، وارزقني الصدق في نيتي وقولي وعملي ، واشغلني بك عن غيرك ، واجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم المزيد ، وارزقنا لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *





□ تمهيد □

اعلم يا أخي ، أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته ، ويجمع قلبه على محبته ، شرح صدره لقبول صفاته العلى ، وتلقيها من مشكاة الوحي ، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول ، وتلقّاه بالرضا والتسليم ، وأذعن له فاستنار به قلبه ، واتسع له صدره ، وامتلأ سرورًا ومحبة ، وأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة ، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليها حاجة ، فاشتد بها فرحه ، وعظم بها غناؤه ، وقويت بها معرفته ، واطمأنت إليها نفسه ، وسكن إليها قلبه ، فجال من المعرفة في ميادينها ، وأسأم عين بصيرته في رياضها وبساتينها ؛ لتيقنه أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته ، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه ، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ، ومحبته وذكره والابتهاج به ، وطلب الوسيلة إليه ، والزلفى عنده ، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف ، وله أطلب ، وإليه أقرب ، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل ، وإليه أكره ، ومنه أبعد .

والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه ، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا ، وعنها نافرًا ومنفرًا ، فالله له أشد بغضاً ، وعنه أعظم إعراضاً ، وله أكبر مقتاً . حتى تعود القلوب إلى قلبين .

فالقلب الأول :

قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ، ونعيمه وقرة عينه ، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث .

فلسان حاله يقول :

يُراد من القلب نسيانكـمْ ... وتأبى الطبـاع على الناقـلِ

ويقول :

وإذا تقاضيتُ الفؤاد تناسيًا ... ألفيت أحشائي بذاك شِحاحَا

ويقول :

إذا مرضنا تداوينا بذكركمُ ونتركُ الذكر أحيانًا فننتكسُ

فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى ، وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك ، وكفى بالعبد عمًى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها ، والنفرة والتنفير ، والاشتغال بما لو كان حقًا لم ينفع إلا بعد معرفة الله ، والإيمان به وبصفاته وأسمائه .

والقلب الثاني :

قلب مضروب بسياط الجهالة ، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود ، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود ، قد قمّش شُبهًا من الكلام الباطل ، وارتوى من ماء آجن غير طائل ، تعجُّ منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا ، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا ، بما يسومها تحريفا وتعطيلًا ، ويؤول معانيها تغييرًا وتبديلًا[1].

وهذا البحث على طوله يدور حول ثلاثة من أسماء ربنا عز وجل وهي : الحَكَمُ ، والحكيم ، والعدل .

والجزاء من جنس العمل يرتبط بهذه الأسماء الثلاثة ، ويجازي الله عباده على حسب ما يصدر منهم من أعمال[2].

أما الحكم :

فقد قال ﷺ : « إن الله هو الحَكُم ، وإليه الحُكم »[3].

[والحَكَمُ والحاكم بمعنى واحد ، قاله الزجاج .

وقال الراغب الأصفهاني : الحكم أبلغ من الحاكم ؛ فالحكم هو المتخصص بالحكم ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**فابعثوا حكما من أهله ...**﴾ الآية [النساء:٣٥]

---

(١) النونية لابن القيم ص١٠-١٢.

(٢) شريط : الجزاء من جنس العمل للشيخ الطحان .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك وابن حبان عن هانىء بن يزيد وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٨٤١ .

أي حكمًا متخصصًا ذا دراية به .

والله حكم وحاكم في الدنيا والآخرة][(١)].

والله حكم في الدنيا بحكمه الكوني ، وحكمه الديني الشرعي .

وحكمه الكوني متعلق بربوبيته وخلقه ، قال تعالى : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ [الأنبياء : ١١٢] فالعباد في قبضته ، والله عز وجل يتصرف فيهم بمشيئته ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن .

وحكمه الديني الشرعي متعلق بإلاهيته قال تعالى : ﴿ **ذلكم حكم الله يحكم بينكم** ﴾ [الممتحنة : ١٠] وقوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[(٢)] [المائدة : ٥٠] وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ . وقد يرد بالمعنيين معا كقوله : ﴿ **ولا يشرك في حكمه أحداً** ﴾ [الكهف : ٢٦] .

والله تعالى هو الحكم في الآخرة فيوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وهو المنفرد بالحكم :

قال تعالى : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٨٨].

وقال تعالى على لسان يعقوب : ﴿ **وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ [يوسف : ٦٧].

وهو خير الحاكمين ، وأحكم الحاكمين :

قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ [هود : ٤٥] .

---

(١) كلام الشيخ الطحان .

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٠ .

وقال تعالى على لسان شعيب : ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**﴾ [الأعراف : ٨٧].

وقال تعالى : ﴿ ... **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾ [يوسف : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ [التين : ٨] .

وهو الحكيم :

[وهو إما أن يكون فعيل بمعنى فاعل ، فيكون الحكيم بمعنى الحاكم أيضًا ، وإما أن يكون الحكيم بمعنى المحكم المتقن لأمره الكوني والشرعي .

فأوامره الكونية في غاية الإحكام قال تعالى : ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [الملك : ٣] .

وأوامره الشرعية في غاية الإحكام والإتقان قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

فحكم الله جلّ وعلا على حسب حكمته ، وهي إصابة الحق قولًا واعتقادًا وعملًا، فالله جل وعلا ليس في وعده ريب ، وليس في فعله جل وعلا عيب][(١)].

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته :

وهُو الحكيمُ وذاك من أوصافهِ ... نوعان أيضًا ماهما عدمانِ
حُكمٌ وإحكامٌ فكل منهما ... نوعان أيضًا ثابتا البرهـانِ
والحُكمُ شرعي وكوني ولا ... يتلازمـانِ ومـا هما سيّـانِ
بل ذاك يُوجدُ دون هذا مفردًا ... والعكس أيضًا ثم يجتمعـانِ
لكنما الشرعي محبـوبٌ لـه ... أبدًا ولن يخلو من الأكوانِ
هو أمره الديني جاءت رسْلُه ... بقيامـه في سائـر الأزمـانِ
لكنما الكوني فهْـو قضاؤهُ ... في خلقه بالعدلِ والإحسانِ
والحكمة العليا على نوعين أيـ ... ـضاً حُصّلا بقواطعِ البرهانِ

(١) شريط الشيخ الطحان : الجزاء من جنس العمل .

إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضًا ليس يفترقانِ
أحكام هذا الخلق إذ إيجادُهُ في غاية الإحكام والإتقانِ
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كلّ لسانِ
والحكمة الأخرى فحكمة شرعهِ أيضًا وفيها ذانك الوصفانِ
غاياتها اللائي حُمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان[1]

قال ابن القيم :

وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، **فلا تناقض حكمته رحمته ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع** عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه ، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته ، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله : إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلًا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة[2] .

---

(١) شرح النونية (٢ / ٨١ / ٨٣) .

(٢) ينفي الأشاعرة قطعًا أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة ، تقتضي إيجاد ذلك الفعل أو عدمه ، وهذا نص كلامهم تقريبًا ، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله ، حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن ، وقالوا : إن كونه يفعل شيئًا لعلة ينافي كونه مختاراً مريداً . وهذا الأصل تسميه بعض كتبهم : نفي الغرض عن الله . ويعتبرونه من لوازم التنزيه ، وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ، ولا تعليق لصفة أخرى - كالحكمة مثلًا - بها ، ورتبوا على هذا أصولًا فاسدة كقولهم بجواز أن يخلد الله في النار أخلص أوليائه ، ويخلد في الجنة أفجر الكفار ، وجواز التكليف بما لا يُطاق ونحوها. وسبب هذا التأصيل الباطل ؛ عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة ، أو المشيئة والرحمة . ولهذا لم يثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع ، واكتفوا بإثبات الإرادة ، مع أن الحكمة تقتضي الإرادة والعلم وزيادة حتى إن من المعاصرين من أضافها مثل سعيد حوى . وقد أطال ابن القيم في رد شبه الأشاعرة في شفاء العليل ، حيث رد عليهم من ٣٦ وجهًا ، وانظر منهاج السنة (١ /١٢٨) ، والنبوات ص ١٦٣ - ٢٣٠ ، =

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلًا بالرد على هذه المقالة ، وإنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الرب عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون** ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] . فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيىء ، ونزَّه نفسه عنه .

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا .

وقد فطر الله عقول عباده ، على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة . فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار ، واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام ، في موضع العقوبة والانتقام ، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء ، من أموالهم وحريمهم ، فأكرمه غاية الإكرام ، ورفعه وكرمه . فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه مَنْ فعله . هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أَوْلى المحالِّ بها ، وأحقها بالعقوبة ؟ وأنها لو أدليت بالنعم لم تحسن بها . ولم تَلِقْ ، ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر :

نعمةُ الله لا تعابُ ولكن ربما استُقبحَتْ على أقوامِ

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادِّين عن سبيله ، الساعين في خلاف مرضاته .

ولا تستطل هذا البسط ، فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ، ونزولها منه منازلها في الدنيا ، لتنزل في جوار ربها في الآخرة ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ [النساء : ٦٩] .

قال ابن القيم : الحكيم الذي إذا أمر بأمر كان حسنًا في نفسه ، وإذا نهى

= ومجموع الفتاوى (١٦ /٢٩٩) ، والمواقف ص٣٣١ ، وبحث الشيخ سفر الحوالي : منهج الأشاعرة في العقيدة . المنشور ضمن مجلة البحوث الإسلامية .

عن شيء كان قبيحًا في نفسه ، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا ، وإذا فعل فعلًا كان صوابًا ، وإذا أراد شيئًا كان أوْلَى بالإرادة من غيره . وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده(١) .

وهو العدل :

قال ابن القيم في النونية :

والعدلُ من أوصافِهِ في فعله ومقاله والحُكْمِ في الميـزانِ
فعلى الصراط المستقيم إلهنـا قولًا وفعلًا ذاك في القـرآنِ

قال الهراس : من أسمائه سبحانه العدل ، وهو في الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، وأصل العدل والمعادلة المساواة ، يقال : هذا عدل ذلك ، وعديله ، أي نظيره ، ومساويه .

وهو سبحانه موصوف بالعدل في فعله ، فأفعاله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة . ليس فيها شائبة جور أصلًا ، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة ، وما ينزله سبحانه بالعُصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا ، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة ، فإنما فعل بهم ما يستحقونه ، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة .

وأقواله كلها عدل ؛ فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ، ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة .

وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ، ووزنه لأعمالهم لاجوْرَ فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله وحكمه(٢) .

[وقال ﷺ : « عَدْلٌ فيَّ قضاؤك » ، فالله عدل في جميع أقضيته في عبده ؛ قضائه السابق فيه قبل إيجاده ، وقضائه فيه المقارن لحياته ، وقضائه فيه بعد

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٦٠) .
(٢) شرح النونية (٢ / ١٠٤ ، ١٠٥) .

مماته ، وقضائه فيه يوم معاده ، ويتناول قضاءه فيه بالذنب وقضاءه فيه بالجزاء عليه ، ومن لم يثلج صدره لهذا ويكون له كالعلم الضروري لم يعرف ربه وكماله ونفسه وعينه ، ولا عدل في حكمه ، بل هو جهول ظلوم .

وقال الله على لسان نبيه هود : ﴿ **إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابَّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ [هود : ٥٦] . فقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ مثل قوله ﷺ : « عدل فيّ قضاؤك » وأخبر في النحل أنه يأمر بالعدل ويفعله . وهو أعدل العادلين فما قضى في عبده قضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره ، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد][١].

[والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾ [آل عمران : ١٨] . والقسط هو العدل ، فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده ، وبالوحدانية في عدله ، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال ، فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا ، حيث شهد بها ، وأخبر وأعلم عباده ، وبين لهم تحقيقها وصحتها ، وألزمهم بمقتضاها ، وحكم به وجعل الثواب والعقاب عليها ، فالدين كله من حقوقها ، والثواب كله عليها ، والعقاب كله على تركها ، وقيامه بالقسط مختص به ، كما أنه مختص بالإلهية ، فهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل فالشرع والقدر والخلق والأمر ، والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك ، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإن كان هو الذي جعله مستحقًا][٢] .

[والله يفعل ما يريد ، وحكمه ماض في العبيد ، على النهج السديد][٣]

---

(١) شفاء العليل ص ٢٧٤ – ٢٧٧ . (٢) مدارج السالكين (٣/٤٥٧-٤٦٠).

(٣) الشيخ الطحان من شريط : الجزاء من جنس العمل .

﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ [الكهف : ٤٩] . وهذا الكمال عدل ، فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [النساء : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئًا** ﴾ [يونس : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٠ ، ١٠٢].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخْذَهُ أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ [الكهف : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت : ﴿ ... **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

فالله لا يظلم الناس شيئا في دنياهم ، وإنما يؤاخذهم بظلمهم .

ولا يظلمهم في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [الزخرف : ٧٦ ، ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون**﴾ [الصافات : ٢٢-٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا**

يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى : ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [يس : ٥٤] .

وقال تعالى في آخر آية أنزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] . ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف منتفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ [الأنعام : ١٣١] . فمع ثبوت الظلم لهم ، إلا أن الله لا يحاسبهم ؛ فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة ، فالتكليف مُنتَفٍ .

ويوم القيامة هو يوم الدين ، والله مالك يوم الدين وملكه ، والدين هو الجزاء والحساب والقضاء ، على حسب ما عمله العباد من أعمال ، والمعاني مترادفة ، كما قال القرطبي :

حصادُك يومًا ما زرعتَ وإنَّما   يُدانُ الفتى يوما كما هُو دائنُ

يقول القائلُ :

إذا ما رمَوْنا رميناهُمُ   ودنَّاهمُ مثل ما يقرضونا

والدِّين هو الجزاء في الخير والشر ، كما تدين تدان .

ومن أسماء الله الديّان :

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ، عن عبد الله بن أنيس ، قال : قال النبي ﷺ : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه مَنْ قرب : أنا الملك أنا الديّان »(١).

قال الحافظ في الفتح : قال الحليمي : هو مأخوذ من قوله : ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾ [الفاتحة : ٤] . وهو المحاسب المجازي لا يضيع عمل عامل.انتهى .

وقال الكرماني : المعنى : لا ملك إلا أنا ، ولا مجازي إلا أنا(٢). اهـ .

---

(١) كتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

(٢) فتح الباري (١٣ / ٤٦٦) .

وعن عمر بن الخطاب قال : ويل لديّان الأرض من ديّان السماء ، إلا من عدل[١] .

وفي مرسل أبي قلابة : البر لا يبلى ، والإثم لا يُنسى ، والديّان لا يموت كن كما شئت ، كما تدين تدان[٢] .

والديّان يطلق على الله كما يطلق على المخلوق ، ولكل موصوف معنى يناسبه من ذلك الاسم ، فقد سمى الأعشى الحرمازي به النبي ﷺ وأقره ، في قصة امرأته عندما هربت منه ، فأتى النبي ﷺ وقال له :

يا سيد الناس وديّان العربْ
إليك أشكو ذِرْبة من الذِّرَبْ
خَرَجْتُ أبغيها الطعام في رجبْ
فَخَلَفَتْني بنزاعٍ وحَرَبْ
أخلفَتِ العهدَ ولَطَّتْ بالذَّنَبْ
وتركتني وَسْطَ عِيصٍ ذي أَشَبْ
تَكُدُّ رِجْلَيَّ مساميرُ الخَشَبْ
وَهُنَّ شرُّ غالبٍ لمنْ غَلَبْ[٣]

فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم : « وهنَّ شرُّ غالبٍ لِمَنْ غَلَب » .

---

(١) سنده صحيح : ورد في كتاب الرد على الجهمية وفوائد سموية ، ورواه البخاري معلقًا ، قاله الشيخ الطحان ، ونسبه إلى أحمد والطبراني في الكبير وأبي يعلى بسند صحيح ، والبزار ورجاله ثقات .

(٢) قال ابن حجر: أخرجه البيهقي في الزهد ، ورجاله ثقات . انظر الفتح (١٣/٤٦٦).

(٣) نسب صاحب لسان العرب هذه الأبيات إلى أعشى بني مازن ، وقال أيضًا عن ابن الأعرابي : إن هذا الرجز للحرمازي ، أعشى بني حرماز . والذربة : امرأته ، كنى بها عن فسادها وخيانتها إياه في فرجها ، وقيل : أراد سلاطة لسانها ، فخلفتني أي : خالفت ظني فيها . وقوله : لطّت بالذنب . يقال : لطّتِ الناقة بذنبها ؛ أي : أدخلته بين فخذيها لتمنع الحالب . انظر لسان العرب (٣/١٤٩٢) .

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة : كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد[١].

فتب إلى مولاك من قريب ، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد يوم القيامة : يا رب ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني ، فيقول : ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا** ﴾ ، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لَكُنّ وسُحقا ، فعنكنّ كنت أناضل »[٢].

تباركَ من أجرى الأمورَ بحكمه كما شاءَ لا ظلمًا أراد ولا هضمَا

أخي ، فحاسب نفسك لنفسك ، وأخلص تخلص ، فالناقد بصير .

العمر ينقصُ والذنوب تزيدُ وتُقال عثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطيعُ جحودَ ذنبٍ واحدٍ رجلٌ جوارحه عليه شهودُ[٣]

والآن تعال معي لترى مصداق القول المبارك لابن القيم : دل الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل .

* * *

---

(١) اقتضاء العلم العمل .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .. وفي رواية : « ثم يختم على فيه » .

(٣) الكثير مما قلناه في هذا التمهيد من الجمع المبارك للشيخ المبارك الشيخ الطحان من شريطه الجزاء من جنس العمل نقلناه تبركًا بكلامه ، وما بعد ذلك من فصول وأبواب يظهر فيها جهدي الضعيف القاصر .

الجزاء من جنس العمل في القرآن الكريم



☐ الجزاء من جنس العمل في القرآن الكريم ☐

○ آيات في الجزاء من جنس العمل ○

[الآية الأولى]

قال تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ [البقرة : ٩] .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ أي : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ [المجادلة : ١٨] ، ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ يقول : وما يَغُرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ومن القراء من قرأ : ﴿ **وما يخادعون إلا أنفسهم** ﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد[١] اهـ .

قال القشيري : ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتك الله أستارهم وقال : عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم ، فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استخفوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبال فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينهم ، ومن كان عالمًا بحقائق المعلومات ، فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه[٢] اهـ .

قال الرازي: ثم ذكروا في قوله تعالى: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾ وجهين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧٤،٧٣/١).

(٢) لطائف الإشارات (٦١/١) .

الأول : أنه تعالى يجازيهم على ذلك ، ويعاقبهم عليه ، فلا يكونون في الحقيقة خادعين إلا أنفسهم ، عن الحسن .

الثاني : بما ذكره أكثر المفسرين : وهو أن وبال ذلك راجع إليهم في الدنيا ؛ لأن الله تعالى كان يدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويصرفه إليهم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] و ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً** ... ﴾[1] [النمل : ٥٠] اهـ .

قال سيد قطب: إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور ، إن الله بخداعهم عليم ، والمؤمنون في كنف الله ، فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم ، أما أولئك الأغفال ، فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها ، يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق ووقوها مغبة المصارحة بالكفر بين المؤمنين ، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه ، والنفاق الذي يظهرونه .. وينتهون بها إلى شر مصير[2] اهـ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم** ﴾ نفي وإيجاب ؛ أي ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم ، ومن كلامهم ، من خدع من لا يُخدع ، فإنما يخدع نفسه[3] . اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالًا ، فسروا مخادعتهم لله بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقة ؛ وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة ، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار ، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم ، فالجزاء من جنس العمل[4] اهـ .

[الآية الثانية]

قال الله تعالى : ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [النساء:١٤٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١ / ٤٣٩) .
(٢) الظلال (١ / ٤٣) .
(٣) تفسير القرطبي (١ / ١٧١) .
(٤) تفسير المنار (١/ ١٥٠) .

قال ابن كثير :

ولا شك أن الله تعالى لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس ، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله ، وأن أمرهم يروج عنده . كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد .

وقوله : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك في القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٣ - ١٥] . وقد ورد في الحديث : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى ، راءى الله به »[١].

قال ابن جرير :

إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم ، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان ، مع علمه بباطن ضمائرهم ، واعتقادهم الكفر ، استدراجًا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة ، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم[٢].

قال الرازي :

قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم بالعقاب على خداعهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه تعالى خادعهم في الآخرة ، وذلك أنه تعالى يعطيهم نورًا كما يعطي المؤمنين ، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٨٩) .
(٢) جامع البيان للطبري (٤ / ٣٣٤) .
(٣) مفاتيح الغيب (٥ / ٤٩٦) .

قال القرطبي :

والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله . قال الحسن : يُعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نورًا يوم القيامة ، فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا ، فإذا جاءوا إلى الصراط طُفيء نور كل منافق ، فذلك قولهم : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾[1] [الحديد : ١٣] .

قال القاسمي :

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ أي : يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، والله يفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع ، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة[2] .

قال البقاعي :

وما أضلهم حيث خادعوا من لا يجوز عليه الخداع ؛ لعلمه بالخفايات ، فقال معللًا لمنعهم السبيل : ﴿ **إن المنافقين** ﴾ لإظهارهم لكل من غلب أنهم منه ، ﴿ **يخادعون الله** ﴾ أي : يفعلون بإظهار ما يسر وإبطان ما يضر ، فعل المخادع مع من له الإحاطة الكاملة بكل شيء ؛ لأنه سبحانه وتعالى يستدرجهم من حيث لا يشعرون ، وهم يخدعون المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ﴿ **وهو** ﴾ الذي أمر المؤمنين بما أمرهم فكأنهم يفعلون ذلك معه ، وهو ﴿ **خادعهم** ﴾ باستدراجهم من حيث لا يعلمون ؛ لأنه قادر على أخذهم من مأمنهم ، وهم ليسوا قادرين على خدعه بوجه[3] .

قال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله** ﴾ أي : يعملون عمل المخادع ،

---

(١) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٩١) .
(٢) محاسن التأويل (٥ / ١٦١٨) .
(٣) نظم الدرر (٥ / ٤٤١) .

وقيل : يخادعون نبيه ، ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم على خداعهم ، وقال الزجاج : لما أمر بقبول ما أظهروا كان خادعاً لهم بذلك[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وأما قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ فقد قيل : إن معناه يجازيهم على خداعهم ، وأنه عبَّر عن ذلك بالمخادعة للمشاكلة ، كما قال في آية أخرى : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ .

وقال : أي : هو تعالى يغلبهم في الخديعة بجعل خداعهم عليهم لا لهم[٢] .

قال سيد قطب : ويقرر عقب هذه اللمسة ، أنهم يخادعون الله . ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ .. أي : مستدرجهم وتاركهم في غيهم ، لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم .. تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا ، وذلك هو خداع الله سبحانه لهم[٣] ..

قال القشيري : خداع المنافقين إظهار الوفاق في الطريقة ، واستشعار الشرك في العقيدة ، وخداع الحق إياهم ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كشف الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[٤] [الزمر : ٤٧] .

[الآية الثالثة]

قال تعالى : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ [البقرة : ١٠] .

---

(١) زاد المسير (٢ / ١٢٣١) .
(٢) المنار (٥ / ٤٦٩ ، ٤٧٠) .
(٣) الظلال (٢ / ٧٨٤) .
(٤) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٧) .

قال ابن كثير :

عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وأناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : شك . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكًا .

وعن عكرمة وطاووس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ يعني : الرياء

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : نفاق . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : نفاقًا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : هذا مرض في الدين ، وليس مرضا في الأجساد ، وهم المنافقون ، والمرض : الشك الذي دخلهم في الإسلام . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : زادهم رجسًا ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم ..** ﴾[التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] . قال : شرًّا إلى شرهم ، وضلالة إلى ضلالتهم . وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله ، حسن ، **وهو الجزاء من جنس العمل** ، وكذلك قاله الأولون ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[محمد : ١٧](1) اهـ .

قال ابن جرير :

القول في تأويل قول الله عز وجل : ﴿ **فزادهم الله مرضًا** ﴾ :

قد دللنا آنفا على تأويل المرض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين ؛ هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم ، وما هم عليه في أمر محمد رسول الله ﷺ ، وأمر نبوته وما جاء به – مقيمون .

فالمرض الذي أخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنه زادهم على مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة . فزاد الله بما أحدث من حدوده وفرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين ، من الشك والحيرة ،

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٤) .

إذا شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف ، من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك ، كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود ، إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه ، إيمانا . كالذي قال جلّ ثناؤه : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهم كافرون** ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة هو ما وصفنا ، والزيادة التي زيّدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا ، وذلك هو التأويل المجمع عليه .

وقال عن ابن عباس ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكا .

وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ فزادهم الله ريبة وشكًّا[1] .

قال القشيري :

في قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضا بتوهمهم أنهم نجوا، لما لبَّسوا على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يخلص وجعه إليهم في المآل .

وقال : ثم العقوبات العاجلة لهم تشتتُ همومهم ، ثم تُنغصُّ عيشهم ، فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع وراحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفي معناه قيل :

تبدلتْ فتبدلنا واحسرتا ... لمن ابتغى عوضًا عنها فلم يجد[2]

قال سيد قطب :

﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ في طبيعتهم آفة .. في قلوبهم علة ، وهذا يحيد بهم

---

(١) تفسير ابن جرير (١ / ١٢٢) .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١ / ٦١ - ٦٢) .

عن الطريق الواضح المستقيم ، ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما فيه ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ .

فالمرض ينشيء المرض ، والانحراف يبدأ يسيرًا ، ثم تنفرج الزاوية في كلّ خطوة وتزداد ، سنة لا تتخلف(١)

[الآية الرابعة]

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [البقرة : ١٤- ١٥] .

قال ابن كثير : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا . أي : أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة ، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتقية ، وليَشْركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم .

﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ يعني : وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم و ﴿ **شياطينهم** ﴾ يعني سادتهم وكبراءهم ، ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين .

وقال مجاهد: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم**﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقوله تعالى : ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ ، روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس : أي : إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي إنما نستهزىء بالقوم ، ونلعب معهم .

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ .

قال ابن جرير : أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، في قوله تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة**

---

(١) الظلال للشيخ سيد قطب (١ / ٤٣) .

وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية [الحديد : ١٣].

قوله تعالى: **﴿لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين ﴾** [آل عمران : ١٧٨]. قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك ، عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل .

وقال آخرون قوله : **﴿ إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ﴾** وقوله : **﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾** [النساء : ١٤٢] . وقوله : **﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾** [التوبة : ٧٩] . و **﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾** [التوبة : ٦٧] وما أشبه ذلك – إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء ، ويعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم – مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان ، كما قال تعالى : **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾** [الشورى : ٤٠] . و **﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾** [البقرة : ١٩٤] . فالأول ظلم ، والثاني عدل ، فهما وإن اتفق لفظاهما قد اختلف معناهما .

قال : وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك[1].

قال القرطبي : قوله تعالى : **﴿ الله يستهزىء بهم ﴾** أي : ينتقم منهم ، ويعاقبهم ويسخر بهم ، ويجازيهم على استهزائهم ، فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء . والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلًا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوج

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١ /٧٦ -٧٨) .

الكلام ، فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ، وكانت العرب إذا وضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه ، وإن كان مخالفًا له في معناه ، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ، وقال الله عز وجل : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقال : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء ؛ لأنه حق وجب ، ومثله ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . و ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥،١٦] . و ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم** ﴾ وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ، وكذلك : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾[1] [التوبة : ٧٩] اهـ .

قال ابن جرير :

وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الله عز وجل أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد - ﷺ - وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم : صدقنا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما جاء به - مستهزءون ، يعنون أنا نظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حق ولا هدى ، قالوا : وذلك هو معنى من معاني الاستهزاء فأخبر الله أنه يستهزىء بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، كما أظهروا للنبي - ﷺ - والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم[2] .

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ١٨٠) .
(٢) جامع البيان للطبري (١ / ١٣٣) .

قال ابن الجوزي :

والرابع : أن المراد به : يجازيهم على استهزائهم ، فقوبل اللفظ بمثله لفظا وإن خالفه معنى ، فهو كقوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾[(١)] [الشورى : ٤٠] .

قال البقاعي :

ثم استأنفوا في موضع الجواب لمن قال : ما بالكم تلينون للمؤمنين ؟ قولهم : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي : طالبون للهزء ، ثابتون عليه ، فيما نظهر من الإيمان ، والهزء : إظهار الجد وإخفاء الهزل قاله الحرالي ، فأجيب من كأنه قال : بماذا جوزوا ؟ بقوله : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ . أي : يجازيهم على فعلهم بالاستدراج ، بأن يظهر لهم من أمره المرذي لهم ، ما لا يدركون وجهه فهو يجري عليهم في الدنيا أحكام أهل الإيمان ، ويذيقهم في الدارين أعلى هوان مجددًا لهم ذلك بحسب استهزائهم ، وذلك أنكأ من شيء دائم توطن النفس عليه[(٢)] .

قال الرازي :

إن ما يفعله الله بهم جزاءً على استهزائهم سماه بالاستهزاء ؛ لأن جزاء الشيء يسمى باسم ذلك الشيء قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال :وفيه أن الله تعالى هو الذي يستهزىء بهم استهزاء العظيم الذي يصير استهزاؤهم في مقابلته كالعدم .

وفيه أيضًا أن الله تعالى هو الذي يتولى الاستهزاء بهم ؛ انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم باستهزاء مثله[(٣)] .

---

(١) زاد المسير (١/٣٦) .

(٢) نظم الدرر (١ / ١١٥ ، ١١٦) .

(٣) مفاتيح الغيب (١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩) .

قال سيد قطب :

هؤلاء المنافقون كانوا : ﴿ **إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ ؛ أي بالمؤمنين ، بما نظهره من الإيمان والتصديق .

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسي . ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ وما أبأس من يستهزىء به جبار السموات والأرض وما أشقاه !!....

وهنا كذلك تبدو الحقيقة التي أشرنا من قبل إليها ، حقيقة تولي الله سبحانه للمعركة التي يراد بها المؤمنون ، وما وراء هذا التولي من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المتروكين في عماهم يخبطون المخدوعين بمد الله لهم في طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك وهم غافلون[1] .

قال القشيري :

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا : نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمرين فَنُفُوا عنهما : قال الله تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء : ١٤٣] . وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ؛ فالضدان لا يجتمعان ، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا ، أدبر النهار من ها هنا ، ومن كان له في كل ناحية خليط ، وفي زاوية من قلبه ربيط ، كان نهبا للطوارق ، ينتابه كل قوم فقلبه أبدًا خراب ، ولا له في التحقيق رزق من قلبه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرونَ على طعام

---

(١) الظلال (١ / ٤٥) .

ولما قال المنافقون : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ أي : يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزمّتهم في أيدي الشهوات ، استهوتهم أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام ، فتطوحوا في متاهات الغيبة .

وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون ، يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم ، أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملًا ، ذلك جزاء ما عملوا ؛ ووبال ما صنعوا وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة(١) أجلّ مصيبة لهم(٢) .

[الآية الخامسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ [البقرة : ١١ -١٢] .

قال ابن كثير : عن ابن عباس ، وعن مُرّة الطيب الهمداني ، عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ أما ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ قال : الفساد هو الكفر ، والعمل بالمعصية .

وعن أبي العالية : ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لا تعصوا في الأرض . وكان فسادهم ذلك معصية الله .

وعن ابن عباس : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ : أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب .

يقول الله : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ يقول : ألا إن هذا الذي يتعمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من

---

(١) رجوع عن الإرادة وخروج منها ، أو سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .
(٢) لطائف الإشارات (١ / ٦٤ ، ٦٥) .

جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً[١] .

قال ابن جرير :

﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم ، إذا أمروا بطاعة الله فيما أمرهم به ، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه ، ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ لا مفسدون ، ونحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لا ضالون . فكذبهم الله عز وجل في ذلك من قيلهم فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون** ﴾ المخالفون أمر الله عز وجل ، المتعدون حدوده ، الراكبون معصيته ، التاركون فروضه ، وهم لا يشعرون ولا يدرون أنهم كذلك[٢] .

قال القشيري :

ويقال : كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال في وجهه : كذبت . فهم لمّا قالوا : إنما نحن مصلحون ، أكذَبهم الحق سبحانه فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ أنا نعلمهم فنفضحهم[٣] .

يقول سيد قطب :

﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا ...** ﴾ .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل جاوزوه إلى التبجح والتبرير ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٥) .

(٢) تفسير الطبري (١ / ١٢٧) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٦٣) .

(٤) الظلال (١ / ٤٤) .

[الآية السادسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٣] .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ **وإذا قيل** ﴾ للمنافقين ﴿ **آمنوا كما آمن الناس** ﴾ أي : كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، والجنة والنار وغير ذلك ، مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر ، وترك الزواجر ، ﴿ **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله - ﷺ - رضي الله عنهم . قاله أبو العالية والسدي في تفسيره ، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود ، وغير واحد من الصحابة ، وبه يقول الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ؟!

والسفهاء جمع سفيه ، كما أن الحكماء جمع حكيم ، والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضارّ .

وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم .

﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾ يعني : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى[١] .

قال ابن جرير :

﴿ **وهم[٢] يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ [الكهف : ١٠٤] . وذلك هو عين السفه ؛ لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح ، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ ، فكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه ، ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به ، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إليها ، كما وصفهم ربنا جل ذكره ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٧) .

(٢) المنافقون

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ دون المؤمنين المصدقين بالله ، وبكتابه وبرسوله ، وثوابه ، وعقابه . ﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾[(١)] .

قال القشيري : إن المنافقين لما دعوا إلى الحق ، وصفوا المسلمين بالسفه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أمروا بترك الدنيا ، وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز ، ويقولون : إن الفقراء ليسوا على شيء ؛ لأنه لا مال لهم ولا جاه ، ولا راحة ، ولا عيش .

وفي الحقيقة هم الفقراء ، وهم أصحاب المحنة ، وقعوا في الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، وشيدوا القصور ، ولكن سكنوا القبور ، زينوا المهد ، ولكن أدرجوا اللحد ، ركضوا في ميدان الغفلة ، ولكن عثروا في أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنيْ عنهم شيء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفـــرسٌ تحتك أم حمارُ[(٢)]

يقول سيد قطب : وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول - ﷺ - ويرونه خاصًا بفقراء الناس ، غير لائق بالعلية ذوى المقام !

ومن ثم قالوا قولتهم هذه : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ؟!.. ومن ثم جاءهم الرد الحاسم والتقرير الجازم :

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾[(٣)] .

[الآية السابعة]

قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ [النساء : ١٤٥] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم شر أهلها ، بما جمعوا بين الكفر والنفاق ، ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ، وأنفسهم أخس الأنفس ، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد ، وغلب عليهم

---

(١) تفسير الطبري (١/١٢٩) . (٢) لطائف الإشارات (١/٦٣-٦٤).

(٣) الظلال (١ / ٤٤) .

الجهل بحقيقة التوحيد ، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره ، باتخاذهم شفعاء عنده ، ووسطاء بينهم وبينه قياساً على ملوكهم المستبدين وأمرائهم الظالمين ، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ، ومخادعة الله والمؤمنين ، والإصرار على الكذب والغش ومقابلة هذا بوجه ، وذاك بوجه . فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحًا وعقولًا ، كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار .

﴿ **ولن تجد لهم نصيرًا** ﴾ ينقذهم من عذابها ، أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها[1] .

يقول سيد قطب :

﴿ **في الدرك الأسفل** ﴾ إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون ، ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ، الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ، ومداراة المؤمنين.. فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين ﴿ **في الدرك الأسفل من النار** ﴾ بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا فأنى ينصرهم الكفار[2]؟!

قال القشيري :

لما أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين ، كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره ...

ويقال : نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم ..

فالمنافق اليوم في الدرك الأسفل من الهجر ، فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار ، والدرك الأسفل من الهجر اليوم - لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية ، وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال : استوجبوا ذلك ؛ لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بألسنتهم

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٥ / ٤٧٤) .

(٢) الظلال سيد قطب (٣ / ٧٨٥) .

وسوء الأدب يوجب الطرد[1] .

قاعدة هامة :

قال الشيخ محمد الصالح العثيمين حفظه الله :

إذا كانت الصفة كمالًا في حال ، ونقصًا في حال ، لم تكن جائزة في حق الله ، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، فلا تثبت له إثباتًا مطلقًا ، ولا تنفى عنه نفيًا مطلقًا ، بل لابد من التفصيل ، فتجوز في الحال التي تكون كمالًا ، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا ، وذلك كالمكر والخداع ونحوها ، فهذه الصفات تكون كمالًا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ؛ لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد ، وتكون نقصًا في غير هذه الحال ؛ ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها ، كقوله تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقوله : ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] . وقوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] . وقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ، ١٥] .

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه فقال تعالى : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾ [الأنفال : ٧١] . فقال : ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان ، وهي صفة ذم مطلقًا[2] اهـ .

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٨ - ٣٧٩) .

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد الصالح العثيمين ص٢٠ دار الكتب السلفية .

وقال الشيخ عمر سليمان الأشقر :

قد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله – عز وجل – على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال ، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . وقوله: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ [التوبة : ٦٧]. وقوله: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ،١٥] . فلا يطلق على الله أنه مخادع ماكر ناسٍ ، مستهزىء ، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال : الله يستهزىء ، ويخادع ويمكر ، وينسى على سبيل الإطلاق ، وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيرًا ؛ لأن الخداع والمكر يكون مدحًا ويكون ذمًا ، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيدًا بما يزيل الاحتمال المذموم عنه ، كما ورد مقيدًا في بعض الآيات[1] .

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، والمجازاة على ذلك يعتبر حسنة من المخلوق فكيف من الخالق[2] اهـ .

[الآية الثامنة]

قال تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [التوبة : ٧٩] .

قال ابن كثير: قوله: ﴿**فيسخرون منهم سخر الله منهم**﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم

---

(١) معارج القبول (١ / ٧٦) .

(٢) العقيدة في الله للدكتور عمر سليمان الأشقر ص ١٨٧ ، ١٨٨ مكتبة الفلاح ودار النفائس .

معاملة من سخر بهم ؛ انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

قال تعالى في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين : ﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ هذا التعبير يسمى مشاكلة ، وما هو إلا العدل في جزاء المماثلة ، أي جزاهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية للمؤمنين ، وللناس أجمعين ، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم ، ولهم فوقه عذاب أليم ، تقدم بيانه في هذا السياق بهذا اللفظ وغيره[٢] .

قال القرطبي :

ومعنى : ﴿ **سخر الله** ﴾ مجازاتهم على سخريتهم[٣] .

قال الرازي :

وقال الأصم : المراد أنه تعالى قبل من هؤلاء المنافقين ما أظهروه من أعمال البر ، مع أنه لا يثيبهم عليها ، فكان ذلك كالسخرية[٤] .

قال سيد قطب :

﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ويا لهولها سخرية .. ويا لهولها عاقبة .. فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين .. وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم ، وعذابه يترقبهم ؟! ألا إنه للهول المفزع الرهيب[٥] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

أسرّوا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات

---

(١) تفسير القرآن الكريم (٤ / ١٢٨) .
(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٦٤) .
(٣) تفسير القرطبي (٥ / ٣٠٥٤) .
(٤) تفسير مفاتيح الغيب (٨ / ١١٣) .
(٥) الظلال (٣ / ١٦٨١) .

اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقّاد ، كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ [محمد : ٣٠] . فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق ، وتجلى الله - جلّ جلاله - للعباد وقد كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم ، وهو أدق من الشعرة ، وأَحَدُّ من الحسام . وهو دَحَض مزَلَّة ، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام . فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ . وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب وأُعْطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام . كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام . فلما توسطوا الجسر عَصَفَت على أنوارهم أهوية النفاق . فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح . فوقفوا حيارَى لا يستطيعون المرور . فضُرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب . ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح ، باطنه - الذي يلي المؤمنين - فيه الرحمة ، وما يليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان ، ومشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم . تبدو لناظر الإنسان ﴿ **انظرونا نَقْتَبِس من نوركم** ﴾ [الحديد : ١٣] . لنتمكن في هذا المضيق من العبور . فقد طفئت أنوارنا . ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ [الحديد : ١٣] . حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار ! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق ؟ فهل يلوي اليومَ أحد على أحد في هذا الطريق ! وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق ؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار . كما يذكّر الغريب صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ [الحديد : ١٤] . نصوم كما تصومون ، ونصلي كما تصلون . ونقرأ كما تقرؤن ، ونتصدق كما تصدقون ونحج كما تحجون ؟ فما الذي فرق بيننا اليوم ، حتى انفردتم دوننا بالمرور ﴿ **قالوا بلى** ﴾ [الحديد : ١٤] . ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل

ملحد ، وكل ظلوم كفور ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصْتُم وارتبتم وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فِدْية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٤ ، ١٥] .

لا تستطل أوصاف القوم . فالمتروك والله ، أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور . فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات . وتتعطل بهم أسباب المعايش ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات . سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول : اللهم أهلك المنافقين . فقال : « يا بن أخي ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك » .

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم نبات النفاق وبنيانه . ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار . فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلَى السرائر ، وكُشف المستور ، وبعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حَصَّلها كانت كالسراب ﴿ **يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ [النور : ٣٩] . فهذه والله ، أمارات النفاق ، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية ، إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسول صَدَفوا ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا ، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران ، فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلى وعودهم ، فإنهم فيها كاذبون ، وهم لما سواها مخالفون ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدقن ولنكوننَّ من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله**

ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾[1] [التوبة : ٧٥ -٧٧] .

[الآية التاسعة]

قال تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا** ﴾[النساء : ١٢٣] .

قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنزل الله : ﴿ **ليس بأمانيكم ...** ﴾ ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ [النساء : ١٢٥] . فأفلج[2] الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[3] .

قال القرطبي :

عن ابن عباس قال : قالت اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله: ﴿**ليس بأمانيكم ..**﴾[4] الآية.

قال القاسمي :

﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ أي : ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون ، أن تنفعكم الأصنام ﴿ **ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا : ﴿ **نحن أبناءُ الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] . ﴿ **لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة** ﴾ [البقرة : ٨٠] . ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ أي:

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٥٦ - ٣٥٩) .

(٢) نصرها وأعلاها .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٦٩) .

(٤) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .

من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله : ﴿ **ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا**﴾ وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده: ﴿**ومن يعمل من الصالحات...**﴾[١] الآية [النساء : ١٢٤].

قال ابن الجوزي :

عن مجاهد : ... فأخبر الله عز وجل أن دخول الجنة والجزاء بالأعمال لا بالأماني[٢] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ السوء هنا الشرك . قال الحسن : هذه الآية في الكافر وقرأ : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

وقال الضحاك : يعني اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب .

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر مجازًى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار ؛ لأن كفره أوبقه.وأما المؤمن فبنكبات الدنيا ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : لما نزلت : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ **بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا ، فقال رسول الله - ﷺ -: « قاربوا وسددوا،** ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة يُنكبها ، والشوكة يُشاكها »[٣] .

قال البقاعي :

ولما كانت أمانيهم أنهم لا يُجازون بأعمالهم الخبيثة ، أنتج ذلك لا محالة قوله : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ أي : بالمصائب من الأمراض وغيرها عاجلًا ، إن أريد به الخير ، وآجلًا إن أريد به الشر[٤] .

---

(١) محاسن التأويل (٥ / ١٥٧٣ ، ١٥٧٤) .

(٢) زاد المسير (٢/ ٢٠٩) .

(٣) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .

(٤) نظم الدرر (٥ / ٤١٠) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ليس شرف الدين وفضله ولا نجاة أهله به ، أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل وأحق وأثبت ، وإنما عليه إذا كان موقنا به أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور[١] .

وقال :

﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ . والمعنى أن كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه ؛ لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء وينزل في غيرهم - كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون[٢] .

قال سيد قطب :

ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء .. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولًا إلى الأماني .. إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي ، قانون تستوي أمامه الأمم ، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون .. إن صاحب السوء مجزي بالسوء وصاحب الحسنة مجزيٌّ بالحسنة ، ولا محاباة في هذا ولا مماراة[٣] .

قال القشيري :

من زرع الحنظل لم يجْتَن الورد والعبهر[٤] ، ومن شرب السم الزعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك من ضَيَّع حق الخدمة ، لم يستمكن على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشقوة ، لم يُرزق الصفوة ، ومن نفته القضية ، فلا ناصر له من البرية .

قوله : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ... ﴾ مَنْ تَعنّى في خدمتنا ، لم

---

(١) المنار (٥ / ٤٣٢) .

(٢) السابق (٥ / ٢٣٤) .

(٣) الظلال (٢ / ٧٦٢) .

(٤) العبهر : الياسمين وقيل : النرجس .

يبق عن نيل نعمتنا ، من عنَّيناه في طلبنا ، أكرمناه بجودنا ، بل من جرَّعناه كأس اشتياقنا ، أنلناه أنس لقائنا[(١)] .

قال البقاعي :

ولما أبدى جزاء المسيء تحذيرًا ، أولاه أجر المحسن تبشيرا ، فقال . ﴿ **ومن يعمل ...** ﴾[(٢)] [النساء : ١٢٤] .

○ ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] ○

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه ، يا مشغولًا بلهوه مفتونًا بلعبه ، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ ..

جُز على قبر الصديق ، وتلمح آثار الرفيق ، يخبرك عن حسنه الأنيق ، أنه استُلب بكف التمزيق ، هذا لحده وأنت غدًا بهْ .. ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

كم نُهي عن الخطايا وما انتهى ، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها ، هذا ركنه القويم قد وهى ، وها أنت في سلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

أين من عتا وظلم ، ولقي الناس منه الألم ، اقتطعه الردى اقتطاع الجلم ، فما نفعه ما جمع ، لا والله ، لم يدفع عنه عز منصبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

بات في لحده أسيرًا ، لا يملك من الدنيا نقيرًا ، بل عاد بوزر ذنبه عقيرا ، وأصبح من ماله فقيرا ، على عز نسبه ، وكثرة نشبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

اللذات تفنى عن قليل وتمرّ ، وآخر الهوى الحلو مرّ ، وليس في الدنيا شيء يَسُرّ ، إلا يغرّ ويضرّ ، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة ، والحساب يأتي على الذرة ، وخاتمة كأس

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

(٢) نظم الدرر (٥ / ٤١١) .

اللذات مرة ، والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾

تقوم في حشرك ذليلًا ، وتبكي على الذنوب طويلًا ، وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلًا والويل للعاصي من قبيح منقلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

يجمع الناس كلهم في صعيد ، وينقسمون إلى شقي وسعيد ، فقوم قد حل بهم الوعيد ، وقوم قيامتهم نزهة وعيد ، وكل عامل يغترف من مشربه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ .

إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى غدًا غبّ أفعالك ، وقد قصدنا إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظًا فاعمل لذلك ، وإن كنت نائمًا فانتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

[الآية العاشرة]

قال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله عزيز حكيم** ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن كثير : ﴿ **جزاء بما كسبا** ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيىء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك .

والجزاء من جنس العمل[1] .

قال سيد قطب :

وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة ؛ أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره ، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه عن طريق الحرام ... وهو لا يكتفي بثمرة عمله ، فيطمع في ثمرة عمل غيره . فالدافع الذي يدفع إلى السرّقة هو زيادة الكسب ، أو زيادة الثراء ... وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع ؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب ، إذ اليد أو الرجل كلاهما أداة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ١٠٣) .

عمل أيًا كان . ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء ، وهذ يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق والظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف على المستقبل[1] .

[الآية الحادية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام : ١١٠] .

قال ابن القيم : هذا عطف على قوله : ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ١٠٩]. أي: تحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله : ﴿ **كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ فقال كثير من المفسرين : المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي . قال : وهذا كقوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وقال آخرون : المعنى ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ لتركهم الإيمان به أول مرة ، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم . وهذا معنى حسن . فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل ، كقوله : ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : ٧٧] . وقوله : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر[2] .

فهذا نص من شيخ الإسلام في تفسيرها بأن الجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٢ / ٨٨٤) .

(٢) التفسير القيم ص ٢٢٦ .

[الآية الثانية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

قال ابن كثير :

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس؛ تلك الطائفة التي أغْوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم ببعضهم من بعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم(١) .

قال البقاعي : ولّى الكفرة من ظالمي الجنّ ظالمي الإنس ، وسلطهم عليهم ، هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل ، يجمع بين الأشكال في الأوصاف الباطنة والخصال ، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال ، بما كانوا بجبلاتهم يكسبون ، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون ، وينقاد بعضهم لبعض ، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها ، فيظلم بعضهم بعضًا ، ويهلك بعضهم بعضًا .

يولي بعض الظلمة بعضا ليهينهم؛ بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوي الأعمال، ورديء الخلال، وغث الخصال، فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال(٢).

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

روى أبو الشيخ عن الأعمش عن قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا** ﴾ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم . والأعمش تابعي فهو إنما يسأل عن أقوال الصحابة وكبار التابعين(٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٣٢) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٧ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٣) تفسير المنار (٨ / ١٠٢) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

هو من قبيل قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ [النساء: ١١٥] أي: نلزمه ما ألزم نفسه.

قال المفسرون : يجوز أن يكون معنى ﴿ نولي بعض الظالمين بعضًا ﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض ؛ أي نسلط بعضهم على بعض ، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمين مسلّطين على المشركين ، والمشركون ظالمون ، فكل يظلم بمقدار سلطانه ، والمراد بالظالمين في الآية المشركون .

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم ، فتدلّ على أن الله سلّط على الظالم من يظلمه ، وقد تأوّلها على ذلك عبد الله بن الزبير أيّام دعوته بمكة ؛ فإنه لمّا بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عَمْرو بن سعيد الأشدق ، بعد أن خرج عمرو عليه ، صعد المنبر فقال : ألا إن ابن الزرقاء – يعني : عبد الملك بن مروان ؛ لأن مروان كان يلقب بالأزرق وبالزرقاء ، لأنه أزرق العينين – قد قتل لَطِيم الشيطان[1] ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

ومن أجل ذلك قيل : إن لم يُقلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر .

قال الفخر : إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم .

وقد قيل : وما ظالم إلا سَيُبْلى بظالم[2] .

[الآية الثالثة عشرة]

قال تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ١٣٩] .

قال الرازي :

هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة ، كانوا يقولون في أجنة البحائر

---

(١) كلمة يُنبّز بها عمرو بن سعيد ؛ لاعوجاج في شدقه فلقبوه الأشدق . وقالوا : لطمه الشيطان .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ٧٣ – ٧٤) .

والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور ، لا تأكل منها الإناث ، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ والمراد منه الوعيد . ﴿ **إنه حكيم عليم** ﴾ ليكون الزجر واقعًا على حد الحكمة ، وبحسب الاستحقاق(١) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم** ﴾ يقال : جزاء كذا ، وبكذا ؛ أي جعله جزاء له على عمله ، قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] . وقال : ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ [يونس : ٥٢] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] . وجعل الجزاء عين العمل ، وقد تكرر في سورةٍ أخرى ، وقدروا له كلمة جزاء ، أو ثواب أو عقاب بناء على أن العمل هو ما يجازى عليه ، لا ما يجازى به(٢) .

[الآية الرابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [الأعراف : ٥١] .

قال ابن جرير : يقول الله جلّ ثناؤه : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : ففي هذا اليوم ، وذلك يوم القيامة ننساهم ، يقول : نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا ، بغير طعام ولا شراب ، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله ..

عن مجاهد ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ قال : نُسوا في العذاب ،.. وعنه : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا(٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٥ / ٥٩٧) .
(٢) تفسير المنار (٨ / ١٢٩) .
(٣) تفسير الطبري (٥ / ٢٠٢) .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : نعاملهم معاملة من نسيهم ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ **في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ [طه : ٥٢] .

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾[1] [الجاثية : ٣٤] .

قال الرازي :

إن معنى ﴿**ننساهم كما نسوا**﴾ أي : نعاملهم معاملةَ مَنْ نسيَ، فنتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا ، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] ، والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم . ثم بين تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون[2] .

قال القرطبي :

﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ أي : نتركهم ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : تركوا العمل به وكذبوا به و« ما » مصدرية ، أي : كنسيهم ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ عطف عليه ، أي : وجحدهم[3] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ هذا من قول الله عز وجل ، مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب ، والمراد باليوم : يوم الجزاء ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٢٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (٧ / ٩٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٢٦٥٢ - ٢٦٥٣) .

وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء ، وإن لم يعرف له مقدار ، والمراد نعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفتقده أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له ، والظاهر أن الكاف هنا للتعليل ، كقوله : ﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ [البقرة : ١٩٨] . أي : لهدايته لكم - لا للتشبيه - على أنه يصح في هذه الجملة على حد المثل : الجزاء من جنس العمل(١) .

قال القشيري :

كما تركوا أمره وضيعوه تركهم في العقوبة ، فتأتي عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب ، ذلك جزاءٌ لمن لم يعرف قَدْر الوصلة في أوقات المهلة(٢) .

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك مُلاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول الله : اليوم أنساك كما نسيتني »(٣) .

[الآية الخامسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ [النساء : ٨٥] .

قال القاسمي :

﴿ **من يشفع شفاعة حسنة** ﴾ أي : يتوسط في أمر ، فيترتب عليه خير ، من دفع ضر أو جلب نفع ؛ ابتغاء لوجه الله تعالى ، ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار .

﴿**يكن له نصيب منها**﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب إلى الخير الواقع بها.

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٤٠) .

(٢) لطائف الإشارات (أ / ٥٣٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، ورواه أحمد ومسلم وابن خزيمة .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة** ﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت في أمر غير مشروع .

﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ أي : نصيب من وزرها الذي ترتب على سعيه ، مساوٍ لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء[١] .

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ أي : من سعى في أمر ، فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾ أي : يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال ابن عباس : ﴿ **مقيتا** ﴾ أي: حفيظًا ، وقال مجاهد : شهيدا ، وفي رواية عنه : حسيبا .

وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن رواحة - وسأله رجل عن قول الله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال : يقيت[٢] كل إنسان على قدر عمله[٣] .

قال الرازي :

فبين تعالى في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، والغرض منه بيان أنه عليه الصلاة والسلام لما حرضهم على الجهاد ، فقد

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٥ / ١٤١٩) .

(٢) ومعنى المقيت في الحديث: يعطي قوت كل منهم، من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته أو المعنى: يحفظ كلا منهم .

(٣) ابن كثير (٢ / ٣٢٤) .

استحق بهذا التحريض أجرًا عظيمًا[١] .

قال ابن جرير :

عن الحسن قال : من يشفع شفاعة حسنة كتب له أجرها ، ما جرت منفعتها[٢].

قال القرطبي :

وقيل : المعنى من يكن شفعًا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ، ومن يكن شفعا لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوزر . وعن الحسن أيضًا: الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه ، وكأنّ هذا القول جامع ..

وقال : والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يُشفّع ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ **من يَشْفَع** ﴾ ولم يقل : يُشَفّع[٣].

وقال سيد قطب :

فالذي يشجع ويحرض على القتال في سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها ، والذي يبطيء ويثبط ، تكون له تبعة فيها وفي آثارها .. وكلمة كفل توحي بأنه متكفل بجزائها[٤] .

قال القاسمي :

اختيار النصيب في الحسنة والكفل في السيئة ، ما أشرنا إليه ، وذلك أن النصيب يشمل الزيادة ؛ لأن جزاء الحسنَات يضاعف ، وأما الكفل فأصله المركب الصعب ، ثم استعير للمثل المساوي ، ولذا اختير إشارة إلى لطفه بعباده إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات[٥] .

قال الألوسي

في قوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ :

عن الجبائي : أنه المجازي ؛ أي : يجازي على كل شيء من الحسنات

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/٣٤٨) .
(٢) تفسير الطبري (٤ / ١٨٦) .
(٣) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٦٥) .
(٤) الظلال (٢/ ٧٢٥) .
(٥) محاسن التأويل (٢/ ١٤٢٢) .

والسيئات[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وحاصل معنى الجملة : وكان الله - وما زال - على كل شيء مقيتا ؛ أي : مقتدرًا ومقدّرا ، فهو لا يعجزه أن يعطي الشافع نصيبًا ، أو كفلا من شفاعته ، على قدرها في النفع والضر ؛ لأن سننه الحكيمة مضت بأن يكون هذا الجزاء مرتبطًا بالعمل .

أو : شهيدًا حفيظًا على الشفعاء لا يخفى عليه أمر محسنهم و مسيئهم ، فهو يعطي الجزاء على قدر العمل[٢]. اهـ .

يعطي الجزاء على قدر العمل ، ومن جنسه ﴿ **يكن له نصيب منها** ﴾ ﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ .

قال القشيري :الشفيع يخلِّص للمشفوع له حالَه ، ويستوجب الشفيع - من الله سبحانه - على شفاعته عظيم الرتبة ، ومن سعى في أمرنا بالفساد ، تحمّل الوزر واحتقب الإثم[٣] .

[الآية السادسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

قال ابن جرير : ويعني بقوله : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يقول : ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق ، والكفر بالله ، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء ، كما وافى الله به من عمله السيىء ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ يقول: ولا يظلم الله الفريقين : لا فريق الإحسان،

---

(١) روح المعاني (٥ / ٩٨) .

(٢) المنار (٢ / ٣١١) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٣٥٠) .

ولا فريق الإساءة ، بأن يجازي المحسن بالإساءة ، والمسيء بالإحسان ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له ؛ لأنه جلّ ثناؤه حكيم ، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه ، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحق من الجزاء[١] .

قال القرطبي :

والحسنة هنا : الإيمان ؛ أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله ، فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يعني : الشرك ﴿ **فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ وهو الخلود في النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ يعني : جزاء وافق العمل .. ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أي : لا ينقص ثواب أعمالهم[٢] .

قال القاسمي :

قال القاشاني في قوله تعالى : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾: هذا أقل درجات الثواب ، وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب ، والسيئة بظهور النفس ، فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب ، الذي يتلو مقام النفس في الارتقاء ، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد .

وأما في السيئة فلأنه لا مقام أدون من مقام النفس ، فينحط إليه بالضرورة ، فيجزى جزاءه في مقام النفس بالمثل[٣] .

قال سيد قطب :

وبمناسبة الحساب والجزاء ، قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده ، فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن – فليس مع الكفر حسنة – ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴿ **ولا يظلم ربك أحدًا** ﴾[الكهف : ٤٩] ولا يبخسه حقه .

---

(١) تفسير الطبري (٨ / ١٠٧) . (٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٥٨٧) .

(٣) تفسير القاسمي محاسن التأويل (٦ / ٢٥٨٨) .

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي : ومن جاء ربه يوم القيامة بالصفة السيئة التي يطبعها في نفسه الكفر ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها ، بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها ، وتقديره الجزاء عليها بالعدل[٢] .

قال القشيري :

قوله: **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾** .

ويقال : الحسنة من فضله تعالى تصدر ، وبلطفه تحصل ، فهو يجري ، ثم يقبل ويُثني ، ثم يُجازي ويُعطي .

ويقال : إحسانه – الذي هو التوفيق – يوجب إحسانك الذي هو الوفاق .

وإحسانه – الذي هو خلق الطاعة – يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة فالعناء منك فعله ، والجزاء لك فضله .

وقوله جلّ ذكره : **﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾** .

يعني : يُكال عليه بالكيل الذي يكيل ، ويوقَف حيث يرضى لنفسه أن يكون له موقفا[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٢٤٠) .

(٢) تفسير المنار (٨ / ٢٣٤) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٥١٣ ، ٥١٤) .

[الآية السابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ أي : إن رحمته تعالى الفعلية ، التي يعبر عنها بالإحسان قريبة من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب ، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح ، ومن أحسن في الدعاء استجيب له ، أو أعطي خيرًا مما طلبه ...

والإحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة، الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة.

وجزاؤه الإحسان في كل شيء بحسبه ، قال الله عز وجل : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] كما أن الإساءة محرمة في كل شيء ، وجزاؤها من جنسها ، قال عز وجل : ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[1] [النجم : ٣١] .

[الآية الثامنة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ [التوبة : ٨٢] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

والمعنى على هذا فليكونوا بقدرتنا وتقديرنا قليلي الضحك ، كثيري البكاء ؛ لأن سبب سرورهم وفرحهم بتخلفهم ونفاقهم قد زال ، وأعقبهم الفضيحة والنكال ، ويؤيد كونه تكوينًا قدريًّا ، لا تكليفًا شرعيًّا ، جعله عقابا جزائيا لهم على عملهم بقوله : ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فإن جزاء كل عمل من جنسه ، وكما يدين المرء يدان[2] .

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٦٢) .

(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٧١) .

[الآية التاسعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فإن رجَعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معيَ أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨٣] .

قال ابن كثير : ﴿ **فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا** ﴾ أي تعزيرًا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ..

وقوله تعالى : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة(١) .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رضوا بالقعود أول مرة فليقعدوا ولا يخرجوا أبدًا .

[الآية العشرون]

قال تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

قال القرطبي : ﴿ **ويمكرون** ﴾ . والمكر : التدبير في الأمر في خفية .

﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ .. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون(٢) .

قال ابن جرير : عن ابن إسحاق قوله : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ : أي فمكرت لهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم(٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٢١ - ١٢٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٨٣٣) .

(٣) تفسير الطبري (٦ / ٣٢٠) .

والجزاء من جنس العمل .

قال القشيري :

والمكر إظهار الإحسان مع قصد الإساءة في السر ، والمكر من الله الجزاء على المكر(١) .

قال سيد قطب : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ . صورة عميقة التأثير .. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من ورائهم محيط يمكر بهم ويبطل كيدهم .. وهم لا يشعرون ...

فأين هؤلاء البشر .. الضعفاء المهازيل .. من تلك القدرة القادرة .. قدرة الله الجبار القاهر فوق عباده الغالب على أمره .. وهو بكل شيء محيط(٢)؟..

[الآية الحادية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كذأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ [الأنفال : ٥٣ ، ٥٤] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وماهم من دونه من وال** ﴾ [الرعد : ١١] ، وقوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات ، وعيون ، وزروع ، وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين(٣) .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (٦٢٠/١). (٢) الظلال لسيد قطب (١٥٠١/٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٢١) .

[الآية الثانية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة ؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها آمن لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا** ﴾ [القصص : ٥٧] ، وهكذا قال ها هنا : ﴿ **يأتيها رزقها رغدا** ﴾ هنيئًا سهلًا ﴿ **من كل مكان فكفرت بأنعم الله** ﴾ أي : جحدت آلاء الله عليها ، وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ [إبراهيم: ٢٧،٢٨]. ولهذا بدّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع ، بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وذلك لما استعصوا على رسول الله - ﷺ - وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العِلْهِز[1]؛ وهو وبر البعير، يجعل بدمه.

وقوله : ﴿ **والخوف** ﴾ وذلك بأنهم بُدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوة سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل ما لهم في سفال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم ، وامتن به عليهم في قوله : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ .

---

(١) في النهاية لابن الأثير : « العلهز » هو شيء يتخذونه في سني المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . وقيل : العلهز شيء ينبت ببلاد بني سليم ، له أصل كأصل البردي .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العَيْلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم ، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .

وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة ، قاله العوفي ، عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله[١] .

يقول الشيخ سيد قطب : ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ؛ لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس ، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ، ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس .

يقول البقاعي في نظم الدرر :

صار الجوع بشموله لهم لباسا ، وبشدة عركهم ذواقا ، فكأن النظر إلى المستعار له ، وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق ، ولو نظر إلى المستعار لقال : فكساها ، فكان يفوت الذوق ، فبانت فضيحة ابن الراوندي في زندقته حين قال لابن الأعرابي : هل يذاق اللباس ؟. فقال له : لا بأس أيها النسناس ! هب أن محمدًا ما كان نبيًّا أما كان عربيًّا[٢] .

[الآية الثالثة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين** ﴾ [الحجر : ٧٥] .

قال ابن القيم : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة ، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [النور : ٣٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٢٧ - ٥٢٨) .

(٢) نظم الدرر (١١ / ٢٦٥ - ٢٦٦) .

وسر هذا ، أن الجزاء من جنس العمل ، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه تعالى من جنسه ، ما هو خير منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات ، أطلق الله نور بصيرته وقلبه ، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى .

قال أبو شجاع الكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة .

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[1] [النور : ٣٥] .

قال ابن القيم :

وسببها : نور يقذفه الله في قلب عبده ، يفرق بين الحق والباطل ، والحالي والعاطل والصادق والكاذب .

وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضادّه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف ، حيث قال لامرأته : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ [يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها : ﴿ **استأجره** ﴾ [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه . وفي رواية أخرى : امرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾[2] [القصص : ٩] ، وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة . وبعده عمر رضي الله عنه ، ووقائع فراسته مشهورة . فإنه ما قال لشيء : أظنه كذا . إلا

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٤٨) .

(٢) رضي الله عن ابن مسعود . بل أفرس الناس خديجة رضي الله عنها في رسول الله عند بدء نزول الوحي .

كان كما قال . ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة .

كان الجنيد يومًا يتكلم على الناس ، فوقف عليه شاب نصراني متنكرًا . فقال : أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »(١) فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه . وقال : أسلم . فقد حان وقت إسلامك . فأسلم الغلام(٢) .

[الآية الرابعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] .

قال القرطبي : هل تجزون إلا جزاء أعمالكم .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ومقتضى الظاهر أن يقال : هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون . فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم ؛ وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم ، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة(٣) .

[الآية الخامسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [التحريم : ٧] .

[الآية السادسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٩] .

قال الفخر الرازي : إن قيل: قال في حق الكفار: ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ وقال في حق المؤمنين : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فهل بينهما فرق ؟

قلت : بينهما بون عظيم من وجوه :

---

(١) حول الحديث كلام كثير في نسبته له ﷺ . وهو ضعيف.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٤ - ٤٨٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠ / ٥٣) .

الأول : كلمة ﴿ **إنما** ﴾ للحصر ؛ أي لا تجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ، ويزيده من فضله ، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب .

الثاني : قال هنا : ﴿ **بما كنتم** ﴾ وقال هناك : ﴿ **ما كنتم** ﴾ أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة ، كما تقول : هذا عين ما عملت .

وقال في حق المؤمن : ﴿ **بما كنتم** ﴾ ، كأن ذلك أمر ثابت ، مستمر بعملكم هذا .

الثالث : ذكر الجزاء هناك ، وقال هاهنا : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ ؛ لأن الجزاء ينبيء عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئًا آخر .

فإن قيل : فالله تعالى قال في مواضع : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] في الثواب .

نقول : في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل نجزي ؛ وإنما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع[1] اهـ .

قال البقاعي في نظم الدرر : ولا يبعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله ، بحيث لا يشك أنها عمله ، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه[2] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

[الآية السابعة والعشرون]

قال تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾** [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤ / ٥٧٠ - ٥٧١) .

(٢) نظم الدرر (٢٠ / ١٩٩ - ٢٠٠) .

قال القشيري : ويقال : لمّا حمل آدم الأمانة وأولاده ، قال تعالى : ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ [الإسراء : ٧٠] .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان[١] ؟.

وقال أيضًا :

ويقال : لمّا حمل بنو آدم الأمانة ، حملناهم في البر ، فحملٌ هو جزاء حملٍ ، حملٌ هو فعل من لم يكن ، وحملٌ هو فضلُ مَنْ لم يزل[٢] .

[الآية الثامنة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ [الروم : ١٠] .

قال ابن كثير : أي كانت السوءى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون[٣] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والمعنى : ثم عاقبة كل من أساءوا السوءى مثلهم ، فيكون تعريضًا بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى : ﴿ **دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ [محمد : ١٠] فالمراد بالذين أساءوا السوءى كل مسيء من جنس تلك الإساءة وهي الشرك ..

وقال : أي أن سبب عاقبتهم السوءى هو إساءتهم . وأصل الكلام : ثم كان عاقبتهم السوءى[٤] .

---

(١) لطائف الإشارات (٥ / ١٧٣) .

(٢) من لم يكن هو الإنسان ، ومن لم يزل هو الرب سبحانه ، لطائف الإشارات (٤ / ٣٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٢١ / ١٥) .

قال البقاعي :

﴿ ثم كان ﴾ أي : كونا تعذر الانفكاك عنه ، وهو في غاية الهول ﴿ عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين أساءوا السوءى ﴾ أي الحالة التي هي أسوأ ما يكون ، وهي خسارة الأنفس بالدمار في الدنيا ، والخلود في العذاب في الآخرة ، جزاءً لهم بجنس أعمالهم ، فإنهم كما أساءوا الرسل ساءهم الملك ؛ لأجل تكذيبهم الرسل ، مستهينين بآيات الله المنسوبة إلى الملك الأعلى ، الذي له الكمال كله ، الدالة على عظمها بعظمه ﴿ وكانوا ﴾ أي : كونا كأنه جبلة لهم ﴿ يستهزئون ﴾ بها مع كونها أبعد شيء عند الهزء ، ويستمرون على ذلك بتجديده مع كل حين حتى كان استهزاؤهم بغيرها كأنه عدم .

إنهم لما أساءوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى ارتكسوا في العمى ، فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء ، الذي هو أقبح الحالات ، عكس ما يجازى به المؤمن مع أنه يزداد بإيمانه هدى[1] .

قال الفخر الرازي :

في هذه الآية لطائف :

إحداها : قال في حق الذين أحسنوا ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ [يونس : ٢٦] وقال في حق من أساء ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر ؛ فإن الحسنى اسم للجنة ، والسوءى اسم للنار ، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ؛ لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين .

وأما الذين أساءوا فالسوءى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها .

الثانية : ذكر الزيادة في حق المحسن ، ولم يذكر الزيادة في حق المسيء ؛

---

(١) نظم الدرر (١٥ / ٥٣ - ٥٤) .

لأن جزاء سيئة سيئة مثلها .

الثالثة : لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر في المسيء أن له السوءى بأنه كذب ؛ لأن الحسنى للمحسنين فضل ، والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ .

وأما السوءى للمسيء عدل ، والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلًا ، فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب في الثواب[1] .

[الآية التاسعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **استكبار في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلًا ولن تجد لسنت الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **استكبارًا في الأرض** ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله .

﴿ **ومكر السيء** ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله .

﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ ، أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم[2] .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ يقول : ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله ، يعني : بالذين يمكرونه ، وإنما عني أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم[3] .

قال القرطبي :

﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢ / ٤٤٣) .
(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٤٥ .
(٣) تفسير ابن جرير ١٠ / ١٤٦ .

أشرك ، وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وعن ابن عباس أن كعبا قال له : إني أجد في التوراة : من حفر لأخيه حفرة وقع فيها . فقال ابن عباس : فإني أوجدك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلّا بأهله ﴾ وفي أمثال العرب : من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه منكبًّا ...

وقال بعض الحكماء :

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تحصي المصائب وتنسى النعم(١)

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ولهذا قيل في المثل : وما ظالم إلا سيبلى بظالم .

وقال الشاعر :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المِبْرد

ومن كلام عامة أهل تونس : يا حافر حفرة السّوْء ، ما تحفر إلا قياسك .

فيكون موقع قوله : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله - ﷺ - مكرهم ، ويحيق ضر مكرهم بهم .

وقال : والمعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ، ولا يترك عقاب الجاني ، وفي هذا المعنى قول الحكماء : ما بالطبع لا يتخلف ، ولا يختلف(٢) .

قال سيد قطب :

﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

فما يصيب مكرهم السيىء أحدًا إلا أنفسهم ، وهو يحيط بهم ويحيق

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٥٥٤١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢ / ٣٣٥) .

ويحبط أعمالهم ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟. إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم ، وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد .

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلًا ﴾[1] .

[الآية الثلاثون]

قال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم .. ﴾** [المجادلة : ١١] .

قال ابن كثير : **﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾** وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة » . وفي الحديث الآخر : « من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة »[2] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

﴿ يفسح الله لكم ﴾ وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسح من جنس الفعل ، إذ جعلت توسعة الله على المتمثل جزاءً على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره[3] .

قال الفخر الرازي :

أما قوله تعالى : **﴿ يفسح الله لكم ﴾** .

واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة[4] .

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٤٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨ / ٣٨) .

(٤) مفاتيح الغيب (١٥ / ٤٥١) .

[الآية الحادية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

قال ابن كثير : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ سر بديع ، وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم والفضل العميم[1] .

يقول ابن القيم في الرضا :

رضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه .

فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه عنه بالقليل من العمل .

وقال :

إن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وقال أيضًا :

إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ؛ لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] بعد قوله : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال[2] اهـ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٩) .

(٢) مدارج السالكين (جـ٢ / ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٧) .

[الآية الثانية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

قال ابن كثير : أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم[١].

قال محمد الطاهر عاشور :

وأشعر فاء السبب بأن إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله ؛ أي لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم ، عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم[٢] .

قال القرطبي :

وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، قاله سفيان[٣] .

قال ابن جرير : يقول تعالى جلّ ذكره : ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ يقول : فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات[٤] .

قال سيد قطب :

يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا ﴿**كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ .
وهي حالة عجيبة .. ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٤٢) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٨ / ١٣) .
(٣) القرطبي (٩ / ٦٥٢٢) .
(٤) تفسير ابن جرير (١١ / ٥٢) .

وفي هذا نسيان لإنسانيته ، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادًا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد(١) .

[الآية الثالثة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **إنهم يكيدون كيدًا . وأكيد كيدًا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا** ﴾ [الطارق : ١٥ - ١٧] .

قال القاسمي :

﴿ **إنهم** ﴾ أي المكذبين به الجاحدين لحقه .

﴿ **يكيدون كيدًا** ﴾ أي يمكرون مكرًا ؛ لإبطال أمر الله ، وإطفاء نوره .

﴿ **وأكيد كيدًا** ﴾ قال ابن جرير : أي وأمكر مكرًا . ومكره جل ثناؤه بهم ، إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم(٢) .

قال سيد قطب : فهذا كيد ، وهذا كيد ، وهذه هي المعركة ، ذات طرف واحد في الحقيقة وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء(٣) .

قال البقاعي : ﴿ **إنهم** ﴾ أي الكفار .

﴿ **يكيدون كيدا** ﴾ بما يعملون في أمره من الحيل ، في إبطاله ، وإطفاء نوره ، بإثباتك أو إخراجك أو قتلك أو تنفير الناس عنك ، والحال أنه لا قوة لهم أصلًا على ذلك ، ولا ناصر لهم بوجه من الوجوه ، وسمي جزاؤه لهم سبحانه كيدا : مشاكلة ؛ ولأنه خفي عنهم ومكروه إليهم فهو على صورة الكيد ، فقال : ﴿ **وأكيد** ﴾ أي : أنا بإتمام اقتداري كيدا باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني ؛ ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون(٤) .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٣١) .
(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٧ / ٦١٢٦) .
(٣) الظلال (٦ / ٣٨٨١) .
(٤) نظم الدرر (٢١ / ٣٨٤ - ٣٨٥) .

[الآية الرابعة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ [مريم : ٨١، ٨٢] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة ؛ لتكون لهم تلك الآلهة عزا ويعتزون بهم ، ويستنصرونهم .

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : يوم القيامة : ﴿ **ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] .

وقال السدي : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : بعبادة الأوثان .

وقوله : ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم[(١)] .

والجزاء من جنس العمل ، خذلوهم أحوج ما كانوا إليهم .

[الآية الخامسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الإمام ابن القيم: قول الله تعالى ذكره: ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾

الغشاوة هي الغطاء ، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب ؛ فإن ما في القلب من الخير والشر يظهر على العين ، فالعين مرآة القلب ، تظهر ما فيه ، وأنت إذا أبغضت رجلًا بغضًا شديدًا أبغضت كلامه ومجالسته ، فتجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته ، فذلك أثر البغض والإعراض عنه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٥٦ - ٢٥٧) .

وغلظت الغشاوة على الكفار ؛ عقوبة لهم عن إعراضهم ونفورهم عن الرسول ﷺ ، وعما جاء به من الهدى ومن الحق .

وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحتها كالغمامة ، ولما غشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشي غشاوة على أعينهم ، فلا تبصر مواقع الهدى[1] اهـ .

[الآية السادسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن كثير :

﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أي : والذين قصدوا الهداية ، وفقهم الله لها ، فهداهم إليها ، وثبتهم عليها ، وزادهم منها ، ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ أي ألهمهم رشدهم[2] .

قال الألوسي :

قال الطيبي : ومن كان في الهداية منهما ، يزيد الله تعالى هدايته ، فيجمع سبحانه له خير الدارين ، وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم[3] .

قال سيد قطب :

فالذين اهتدوا بدءوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾[4] .

قال ابن القيم :

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء ، فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى ، يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة ، الضلالة بعدها ، قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا**

(١) شفاء العليل ص ٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢٧٠) .
(٣) روح المعاني (١٦ / ١٢٨) .
(٤) الظلال (٦ / ٣٢٩٤) .

زادهم هدى ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانيًا ، وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم(١) .

وقال ابن القيم : وللهداية مرتبة أخرى – وهي آخر مراتبها – وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم . وعلى قدر سيره على هذا الصراط ، يكون سيره على ذاك الصراط ، فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطّرف ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعيًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردس في النار(٢) .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حذو القذة بالقذة ، جزاء وفاقا ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] .

[الآية السابعة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] .

قال ابن كثير : هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا ، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه ، من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣) .
(٢) السابق (١ / ١٠) .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعنه أنها السعادة .

وقال الضحاك : هي العمل بالطاعة ، والانشراح بها .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة ؛ يعطى بها في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا » . انفرد بإخراجه مسلم[1] .

وقال ابن كثير :

من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة[2] .

[الآية الثامنة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [النحل : ٣٢] .

طيبة نفوسهم بلقاء الله معافين من الكرب وعذاب الموت ، يقولون سلام عليكم طمأنة لقلوبهم ، وترحيبا بقدومهم ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى ، وهم على أعتاب الآخرة جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون[3] .

قال ابن كثير : أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ؛ أي مخلَّصون من الشرك والدنس وكل سوء[4] .

وقال الفخر الرازي :

﴿ **طيبين** ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أُمروا ، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم مبرئين

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٠-٥٢١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٧) .

(٣) الظلال (٤ / ٢١٦٩) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٨٧) .

من العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها .

وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح ، وأنه الحشر يقول : إنه وفاة الحشر(١) .

وقال الألوسي: قال مجاهد: المراد- بطيبين- زاكية أقوالهم وأفعالهم.

وقال الراغب : الطيب من الإنسان من تعرّى عن نجاسة الجهل والفسق ، وقبائح الأعمال ، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال(٢) .

[الآية التاسعة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ [الزمر : ٧٣].

قال ابن كثير :

طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم(٣) .

وقال سيد قطب : فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب ، وبيان السبب طبتم وتطهرتم ، كنتم طيبين ، وجئتم طيبين ، فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون ، وهو الخلود في ذلك النعيم(٤) .

[الآية الأربعون]

قال تعالى : ﴿ **ويدخلهم الجنة عرّفها لهم** ﴾ [محمد : ٦] .

على أحد قولي علماء التفسير قال ابن عباس : عرّفها ؛ أي طيبها ؛ أي جعل فيها عرفًا ؛ أي ريحًا طيبًا ، والتطييب من تمام حسن الضيافة(٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/٥١٨) .
(٢) روح المعاني للألوسي (١٤/١٣٣) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٦٨) .
(٤) الظلال (٥ / ٣٠٦٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٦ / ٨٤) .

﴿ **فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ [الفجر : ٢٩ ، ٣٠] .

كحالة من يهدي العروس إلى بيتها ، فإذا أبلغها بابه خلّى بينه وبين بيتها ، كأنهم يقولون : هذا منزلكم فدونكموه .

طابت وزكت منهم الأعمال ، والأخلاق والأحوال ، فكانوا في دار الدنيا طيبين ، وخدموا الطيب عز وجل ، وأنهكوا الأبدان ، طاعة للجميل الرحمن ، فطاب نزعهم وموتهم ، فروح وريحان ، وجنة نعيم ، تخرج منهم رائحة كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض .

وطاب حشرهم ونشرهم ، وطاب زفهم إلى ديارهم ، وفدا وركبانا ، بل تقرب إليهم الجنة ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ [ق : ٣١] .

وطاب دخولهم الجنة ، لايدخلونها إلا وعلى رؤوسهم التيجان ، تحفهم الملائكة ، وطُيبت الجنة لهم ، طاب مأواهم لما طاب عملهم ومسعاهم .

والجزاء من جنس العمل .

إن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر :

أحدها : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله ، وعرف أن ربه محسن كريم كان راضيا بكل ما قضاه وقدّره ، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا في الحزن والشقاء .

ثانيها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله ، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا .

ثالثها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة ، فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها ، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها ، فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها .

رابعها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا سريعة التَّقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه ، بخلاف الجاهل ، فإنه يكون غافلًا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ، ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه ، فعند فوته وزواله

يحترق قلبه ، ويعظم البلاء عنده ، هذا إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا .

قال السدي : إن هذه الحياة الطيبة ، إنما تحصل في القبر .

وقال الحسن وسعيد بن جبير : إن الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة في الجنة ؛ لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا مرض ، وملك بلا زوال ، وسعادة بلا شقاء[1] اهـ .

والأولى أنها في كل أحواله وأوقاته .

قال ابن القيم : قد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته ، فقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ الآية ، وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا ، والرزق الحسن وغير ذلك ، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ، ولا نعيم فوق نعيمه ، إلا نعيم الجنة ، كما كان بعض العارفين يقول : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال غيره : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال غيره : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف .

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث ، والمعيشة الضنك تكون أيضًا في الدور الثلاث : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، فالأبرار في النعيم هنا وهناك والفجار في الجحيم هنا وهناك ، قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير** ﴾ [النحل : ٣٠] .

[الآية الحادية والأربعون]

وقال تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا**

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٩ / ٦٣١ - ٦٣٢) .

إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ [هود : ٣] . فذكر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة .

وأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد فإنه محب محبوب ، متقرب إلى ربه ، وربه قريب منه إن سمع سمع بحبيبه ، وإن أبصر أبصر به ، فإن صعب عليك فهم هذي المعاني :

خـل الهوى لأنـاس يعرفـون بـه قد كابدوا الحب حتى لان أصعبُهـم

وأعلى أنواع التقرب ، تقرب العبد بجملته بظاهره وباطنه وبوجوده إلى حبيبه ، فمن فعل ذلك قد تقرب بكله ، قد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جُوزي على ذلك بقرب هو أضعافه ، وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعاف ما تقرب به ، فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله ؟. وعلى هذا فكما جاء لحبيبه بنفسه ، فإنه أهل أن يجاد عليه ، بأن يكون ربه هو حظه ونصيبه عوضًا عن كل شيء ، جزاءً وفاقًا فإن الجزاء من جنس العمل ، وشواهد هذا كثيرة ، فهذه الحياة هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ، ففقده لحياته أولى به ، هذي حياة الفتى ، فإن فقدت ففقده للحياة أليق به .

ووراء هاتيكَ الستورِ محجَّبٌ بالحسنِ كل العزِّ تحت لوائِهِ
لو أبصرتْ عيناك بعضَ جماله لبذلت منك الروحَ في إرضائِهِ
ما طابتِ الدنيا بغير حديثه كلا ولا الأخرى بدون لِقائِهِ
يا خاسرًا ، هانت عليه نفسه إذ باعها بالغبن من أعدائِهِ
لو كنت تعلم قدر ما قد بعته لفسختَ ذاك البيعَ قبل وفائِهِ
أو كنت كفوًا للرشاد وللهدى أبصرت لكن لست من أكفائِهِ[1]

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٥٨ - ٢٩٠)

جزاء النبيين والمرسلين



□ جزاء النبيين والمرسلين □

○ سيد ولد آدم رسول الله ﷺ ○

إن القلم ليعجز في هذا المقام ، وإن قميصًا نسج من ثمانية وعشرين حرفًا عن وصفه يقصر .

وعلى تفنن مادحيه بمدحهِ يفنى الزمانُ وفيه ما لم يُوصَفِ

تسلّينا عنه بالحلم فجهلنا قدره .

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلقِ الله كلِّهِمِ

وهل يستطيع قلم أن يعدد جزاء رسولنا ﷺ على عمله وجنس عمله ؟! فاللهم عذرًا .

إن النبي ﷺ إمام الزاهدين ، عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردّها ، وقال : « بل أشبع يومًا ، وأجوع يومًا »[١] .

وراودته الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيما شَمَمِ

وروى الإمام أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : دخلت عليّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنيَّة ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ ». فقلت : فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك ، فبعثت إليَّ بهذا ، فقال : « ردّيه » . فلم أردَّه ، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : « يا عائشة ، ردّيه ، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذّهب والفضة » . فرددته[٢] .

وقال ﷺ : «لو أن لي مثل أحد ذهبا ما سرّني أن تأتي عليَّ ثلاث ليال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود . (٢) صحيح : رواه أبو داود .

وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدين »[١] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : تُوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي ، بثلاثين صاعًا من شعير[٢] .

ونبي الله ﷺ ما أكل على خوان قط ، وما رأى شاة سميطًا قط ، وما رأى منخلا منذ أن بعثه الله إلى يوم قبض . ما أخذ من الدنيا شيئًا ، ولا أخذت منه شيئًا .

وصدق ﷺ إذ يقول : « ما لي وللدنيا ، إنما أنا كراكب استظل بظلّ شجرة ، ثم راح وتركها » .

وروى ابن كثير من حديث أبي مويهبة – مولى رسول الله ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فَخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة » . قال : فقلت : بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : « لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة »[٣] .

وقال ﷺ في مرضه : « يأيها الناس ، إن عبدًا من عباد الله قد خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » . ففهمها أبو بكر – رضي الله عنه – مِنْ بين الناس فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا[٤] .

فماذا كان جزاؤه ؟ وهل هو من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلي عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .
(٣) البداية والنهاية (٥ / ١٩٧) .
(٤) البداية والنهاية (٥ / ٢٠١) .

فمنْ سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة »[١] .

وقال ﷺ : « الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة » .

لما كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا كان جزاؤه أن يكون أول قارع للجنة ، وأعلى الناس فيها منزلة .

قال ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ . فأقول : محمد ، فيقول : بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك »[٢] .

وقال ﷺ : « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأُقعقعها »[٣] .

وقال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع ولا فخر »[٤] .

فجزاؤه من جنس عمله .

احفظ الله يحفظك :

كذّبه قومه فسلّمت عليه الأشجار والحجارة والجمادات بالنبوة .
قال ﷺ : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث »[٥].
لما كذّبه الكذابون كان أكثر الأنبياء تصديقًا من الصادقين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن أنس .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي عن أنس .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد ، ورواه ابن حبان عن عبد الله بن سلام .

(٥) رواه مسلم وأحمد والترمذي عن جابر بن سمرة .

قال ﷺ : « أنا أول شفيع في الجنة ، لم يُصدق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد »[(١)] .

ادّعوا خيانته ، وأنه يأتي بالقرآن مِنْ قبل نفسهِ ، فأتى خبر السماء ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وقال ﷺ : « أما والله ، إني لأمين في السماء ، وأمين في الأرض »[(٢)] .

لمّا قالوا : إنْ له رئيًّا من الجنّ ، يأتي إليه بالقرآن ، فقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك ؟ قال : « وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »[(٣)] .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟. قال : « وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم »[(٤)] .

وانظر أخي ، كيف يكون الجزاء العاجل في الدنيا لأطهر قدمين وطيء بهما ثرى الأرض ؟؟ وكيف نالهما الأذى في ذهابه ﷺ إلى الطائف ؟؟.

فيما رواه الإمام ابن كثير عن موسى بن عقبة :

وقعد أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه ، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب ، وفي ذلك الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة . فماذا يكون الجزاء ؟.

سلوا عدّاسا عن أطهر قدم دميت في سبيل الله ، والكل يعلم ما جرى

---

(١) رواه مسلم عن أنس .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن ابن مسعود .

(٣) رواه مسلم عن عائشة .

(٤) رواه مسلم عن عائشة .

بين عدّاس مولى ابن ربيعة وبين النبي ﷺ ، فقد [أكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قالا له : ويلك يا عدّاس ، مَالَكَ تُقَبِّلُ رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟.][١] إنه ما يفعل هذا بسيده أبدا . فهذه القدم التي أصابها ما أصابها ، وسالت منها الدماء تُقَبل ، والجزاء من جنس العمل .

عذابه فيك عـذبُ　　وبعده فيك قـربُ
وأنت عندي كروحي　　بل أنت منها أَحَبُّ
حسبي من الحب أني　　لمـا تـحب أحبُّ

وفي السنة السادسة من الهجرة رجع رسول الله ﷺ من الحديبية ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ؛ ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة منهم عمر رضي الله عنه .

يقول ابن كثير :

لما كان أطوع خلق الله لله ، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » . فلما أطاع الله في ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله له : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ... ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] . أي في الدنيا والآخرة ﴿ ... **ويهديك صراطًا مستقيمًا** ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ **وينصرك الله نصرًا عزيزًا** ﴾ [الفتح : ٣] بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ١٣٤) .

وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . فرسولنا ﷺ لما منعوه من دخول مكة وحبسوه عنها ، وأجابهم للصلح تعظيمًا لحرمات الله ، سمى الله هذا الصلح فتحًا ؛ مع أن الفتح يكثر إطلاقه على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب ، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض ، فيقال : فتح خيبر ، وفتح مكة . ولا يقال : فتح بدر ، وفتح أحد .

قالوا عنه : إنه الأبتر : ولنا هنا معهم وقفة :

قال تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾ [الكوثر : ١ -٣] .

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ . فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

والكوثر : صيغة من الكثرة ، وهو مطلق غير محدود ، يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه السفهاء ﴿ **إنا أعطيناك** ﴾ ما هو كثير فائض غزير ، غير ممنوع ولا مبتور ، فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ، فهو واجده حيث نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة ، في هذا الاتصال بالحق الكبير ، وماذا فقد من وجد الله ؟.

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه ، وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته ، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته .

---

(١) البخاري تفسير سورة الكوثر ، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضًا .

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه ، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون في أرجاء الأرض ، وفي الملايين بعد الملايين على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه ، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ؛ سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض .

وهو واجده في مظاهر شتى ، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها .

إنه الكوثر الذي لا نهاية لفيضه ، ولا إحصاء لعوارفه ، ولا حد لمدلوله ، ومن ثم تركه النص بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد .

ونهر رسول الله ﷺ هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول ، فهو كوثر من الكوثر ، وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات[1] .

فانظر يا أخي ، كيف جازى الله نبيه بنقيض ما وسمه به الكافرون .

وانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال تعالى : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر ، بل هو صاحب الكثير ، وفي هذه الآية يرد على كائديه ويؤكد سبحانه أن الأبتر ليس هو محمد ﷺ . إنما هم شانئوه وكارهوه .

قال تعالى لنبيه : ﴿ **وإن لك لأجرًا غير ممنون** ﴾ [القلم : ٣] أي غير

---

(١) الظلال (٦/ ٣٩٨٧ - ٣٩٨٨) .

مقطوع عنهم .

قال ابن كثير :

إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ، ولا يبيد ؛ على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم .

قال سيد قطب :

إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأزل المنقطع ذكره .

قال ابن عباس ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . كان العاص إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك ، انقطع ذكره ، فأنزل الله هذه السورة .

وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضًا وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

روى البزار بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبَر[1] المنبتر عن قومه ؟. يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ وهذا يعم جميع من اتصف بذلك .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذِكْره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًّا على دوام

---

(١) نبت في جذع النخلة ، إذا قلع انقطع ؛ وكذا محمد إذا مات فلا عقب له .

الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد[1].

يقول الشيخ سيد قطب معلقًا على كيد الكافرين لرسول الله ﷺ ، ووسمه بأنه الأبتر :

كان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعًا ، وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله – ﷺ – وشانئيه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ، ومسّته بالغم أيضًا .

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير والباقي الممتد الذي اختاره له ربه ، وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله ، فقد انقطع ذكرهم وانطوى ، بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا ، ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون .

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر ، فهو ممتد الفروع ، عميق الجذور ، وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر ، مهما ترعرع وزها وتجبر .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر ، ولكن البشر ينخدعون ويغترون ، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ، وأمامنا هذا المثل الخالد ، فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد ، وقطعوا عليه الطريق ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٢٤/٨ -٥٢٥) .

أين هم ؟ وأين ذكراهم ؟ وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه الأبتر[١]؟! .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح : ٤].

قال مجاهد : لا أذكر ، إلا ذكرت معي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها ..

ورفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .

رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله ، كأنما تحركت به الشفاه : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والحب العميق العظيم .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر ، لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود[٢] .

قال حسان :

ضمَّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه ... إذ قال في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ

---

(١) الظلال (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) الظلال (٦ / ٣٩٣٠) .

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وقال الشاعر :

ألم تر أنّا لا يصح أذاننا ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

○ نوح عليه السلام ○

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ٧٨ -٨٠] .

قال جماعة من المفسرين ، منهم مجاهد وغيره : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ الثناء الحسن ، ولسان الصدق للأنبياء كلهم . وهذا قول قتادة أيضًا ..

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : أبقى الله عليه ثناءً حسنًا .

قال ابن القيم : معلوم أن هذا السلام فيهم هو سلام العالمين عليه ، كلهم يسلم عليه ، ويثني عليه ، ويدعو له .

وأما سلام الله عليه فليس مقيدًا بهم ، فالله سبحانه وتعالى أبقى على أنبيائه ورسله سلامًا وثناءً حسنًا فيمن تأخر بعدهم ، جزاءً على صبرهم وتبليغهم رسالات ربهم ، واحتمالهم للأذى من أممهم في الله . وأخبر ان هذا المتروك على نوح هو عامٌّ في العالمين ، وأن هذه التحية ثابتة فيهم جميعًا ، لا يخلون منها ، فأدامها عليه في الملائكة والثقلين طبقًا بعد طبق ، وعالمًا بعد عالم ، مجازاةً لنوح عليه السلام بصبره ، وقيامه بحق ربه ، وبأنه أول رسول أرسله إلى أهل الأرض . وكل المرسلين بعده بُعثوا بدينه ، كما قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ...** ﴾[1] [الشورى : ١٣] الآية . كذبه المشركون وسخروا منه ، وهو

---

(١) التفسير القيم جمع محمد أويس الندوي ص ٤١٢ – ٤١٦ ، مكتبة السنة المحمدية .

يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكان هذا الجزاء مقابلًا لسخرية هؤلاء .
شتم وسخرية واستهزاء تقابل بثناء وسلام ومدح ودعاء .

○ خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ○

قال ابن عباس : ما قام أحد بدين الله كله إلا إبراهيم عليه السلام قدّم بدنه للنيران ، وطعامه للضِّيفان ، وولده للقُربان .

قال الله تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ -٦٩] .

احفظ الله يحفظك :

﴿ **قالوا حرقوه ...** ﴾ ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد ؛ ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد .. ﴿ **كوني** ﴾ هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] [يس : ٨٢] .

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق وآزر ، ثم بعث إليه البيان فأعان وَوازر ، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ، ولم يتزود إلا التسليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

عبد بذل نفسه لنا ، فبلَّغناه منا المُنَى ، وعرَّفناه المناسك عند البيت ومِنى ، ولما رمي في النار لأجلنا ، قلنا لها بلسان التفهيم : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

قدَّم ماله إلى الضِّيفان ، وسلَّم ولده إلى القربان ، واستسلم للرمي في النِّيران ، فلما رأينا محبًّا في بيداء الوجد يهيم ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على**

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٨٧) .

إبراهيم ﴾ .

ابتليناه بكلماتٍ فأتمهنّ ، وأريناه قدرتنا يوم ﴿**فَصُرْهُنَّ** ...﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وكسّر الأصنام غيرة لنا منهنَّ ، فلما أُججَتِ النَّار ذهبت بلطفنا حرارتُهنَّ ، وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

بنوا له بُنيانا إلى سفح جبل ، واحتطب من أجله من شرب وأكل ، وألقوه فيها ، وقالوا : قد اشتعل ، فخرج نمروذُ ينظر ماذا فعل ، وقد خرج توقيع القِدَمِ مِن العليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

اعترضه وتعرّض لحوائجه المَلَك ، حين قطع بيداء الهوى وسلك ، فقال له بلسان الحال : مَعِي مَنْ مَلَك ، إياك والتعريض بما ليس لك ، فلمّا لم يتعلّق بخلْقٍ دوني إذّ أُضيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تعرضت له الأملاك فكّفها كفًّا ، فلما رأيناه لا يمدُّ إلى غيرنا كفًّا ، مدحناه ويكفي في مدحنا له ﴿ **الذي وفّى** ﴾ [النجم : ٣٧] ، واجتمع الخلائق صفًّا ، ينظرون من صفًّى ، فلما أتانا بقلب سليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تنحَّ يا جبريل فماذا موضعُ زحمة ، وخلّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلتُ له إلا لحَمْةً تَبْلَى أو شَحْمة ، فلمّا وطّن نفسه على أن يصير فحمة ، وحُوشي من ذاك الكريم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

كانت الأملاك تدّعي الفناء بالطاعة ، فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة ، وشاهدوا يوم الخليل ما ليس لهم به استطاعة ، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه ، رأيناه ساكنًا والأملاك في مُقعد مقيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾[1] .

---

(١) التبصرة (١ / ١١٦ - ١١٨) .

جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا ، إذ لمّا كان سليمَ القلب من الأغيار ، وجد سلامة النفس من البلايا والأعلال ، ومن كان مشغولًا بالله لم يتول الانتقام له إلا الله .

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « أول من يكسى من الخلائق إبراهيم »[١] .

قال ابن حجر :

يقال : إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك ، لكونه ألقي في النار عريانا ، وقيل : لأنه أول من لبس السراويل[٢] .

قال المناوي :

أول من يكسى يوم القيامة من الخلائق على اختلاف أنواعها وطبقاتها ، وتباين أممها ولغاتها ، بعد ما يحشر الناس كلهم عراة أو الغالب ، أو بعد خروجهم من قبورهم بثيابهم التي ماتوا فيها ، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر ، فيحشرون عراة ، ثم يكون أول من يكسى من ثياب الجنة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه جرّد في ذات الله حين ألقي في النار ، ولأنه لم يكن أخوف لله منه فتعجّل كسوته؛ إيناسًا لَهُ ليطمئن قلبه ، أو لأنه أول من استنّ السراويل؛ مبالغة في الستر وحفظًا لفرجه ، فلما اتخذ هذا النوع الذي هو أستر للعورة من جميع الملابس جوزي بأنه أول مَنْ يكسى ، ثم يكسى المصطفى ﷺ حلة أعظم من كسوة إبراهيم عليه السلام ؛ لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة .

وجزاء إبراهيم عليه السلام من جنس عمله .

قال علي – رضي الله عنه – : أول مَنْ يكسى إبراهيم قبطيتين ، ثم

---

(١) صحيح : رواه البزار وابن عساكر عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٥٨١ و السلسلة الصحيحة رقم ١١٢٩ .

(٢) فتح الباري (٦ / ٤٤٩) .

يكسى النبي ﷺ [حلة] حبرة وهو عن يمين العرش[1] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [الصافات : ٨٤].

سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير .. صورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة والإخلاص .. فقال الله تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم ﴾ [الصافات : ٧٨] سلام على إبراهيم من ربه .. سلام يسجل في كتابه الباقي .. ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

يقول الله تعالى عن خليله : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : ٩٩] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٢] .

[إنها الهجرة .. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية ، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته .. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه ، وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ، ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء ، طارحا وراءه كل شيء ، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومِنْ أواصر شتّى إلى آصرة واحدة ، لا يزحمها في النفس شيء - إنه التعبير عن التجرد

---

(١) صحيح الإسناد موقوف على علي : أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في الأسماء وأخرجه أحمد ، والذهبي في العلو وصححه ، وصححه الألباني في مختصر العلو ص ١٢٥ ، وهناك حديثان مرفوعان يشهدان للحديث الموقوف ، ويدلان على أنه في حكم المرفوع والله أعلم . وقال الألباني أيضًا : وله عند الحاكم شاهد آخر عن عبد الله بن سلام وصححه .

والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى .. وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها][١] .

[لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطنًا وأهلًا وقومًا ، فعوّضه الله الأرض المباركة وطنًا خيرًا من وطنه ، وعوّضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلًا خيرًا من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قومًا خيرًا من قومه ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم .

لقد ابتلاه بالضَّراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل][٢] .

لما آيس من أصله ، آنسه الله بما أكرمه من نسله .

وانظر يا أخي ، كيف كان جزاء الخليل عليه الصلاة والسلام ، من جنس عمله ، لمّا هان عليه ولده وذَبْح ولده ، وهو الشيخ الكبير الطاعن في السن ، وعزم على ذلك واستعد ، وقال لابنه : ﴿ **إني أرى في المنام أني أذبحك ...** ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فلما وفّى لله وفّى الله له وقال الله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ [الصافات : ١٠٧] كما قرت عينك بنا سنقر عينك بولدك جزاءً وفاقًا .

من اختار الله على من سواه اختاره الله على من سواه ، تتعلق شعبة من قلب إبراهيم بحب ابنه البكر ، والله غيور أراد أن يطرد المزاحم من قلب خليله ، فلما تحقق المقصود ، وهمّ بالذبح عوضه الله بذبح عظيم .

هان عليه ولده[٣] في الله فقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب**

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٩٤) .

(٢) الظلال (٤ / ٢٣٨٨) .

(٣) الذبيح هو : إسماعيل عليه السلام .

كلًّا هدينا ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحٰق يعقوب** ﴾ [هود : ٧١] .

قال ابن كثير :

بشروه مع وجوده[1] بنبوته وبأن له نسلًا وعقبًا ، ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد ؛ لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب – لضعفه – وقعت البشارة به وبولده ، باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، تقر بهم عينه كما قال : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلًّا جعلنا نبيًّا** ﴾ [مريم : ٤٩] وقال هاهنا : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كلًّا هدينا** ﴾[2] [الأنعام : ٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ [الطور : ٤] .

قال ابن كثير :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء ، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » . يعني يتعبدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم . كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . ولهذا وجد إبراهيم الخليل – عليه السلام – مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضيّة ، والجزاء من جنس العمل ، وهو

---

(١) الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٩٠ – ٢٩١) .

بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة ، والله أعلم[١] .

○ إسماعيل عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢].

يتلقى إسماعيل عليه السلام الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضًا كذلك ، وفي يقين !!. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده ، بل لا يفقده أدبه ومودته ، لبَّى بغير لجلجة وبغير تمحل وارتياب.... نبل طاعة وعظمة تسليم ... الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية . لا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ، لا تستبقي لنفسها في نفسها شيئًا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه ، إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

لم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه ، وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

لما جاء إسماعيل بأعز شيء تلبية لأمر الله فناب ذبح عن ذبح ، يفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت يفديها بذبح عظيم ، يليق بعظمة إسماعيل ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٤) .

○ يوسف عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن كثير :

ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] اهـ[١] .

قال الطبري :

هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه ؛ فأحسن في الدنيا عمله وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه ؛ بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف .

قال قتادة : عملوا خيرًا فجوزوا خيرًا .

وقال ابن زيد : حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسنا إليهم ، أدخلناهم الجنة .

قال ابن المنكدر : هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة .

وقال محمد بن الحنفية ، هي مسجلة للبر والفاجر[٢] .

قال الزمخشري :

مسجلة للبرّ والفاجر ؛ أي مرسلة يعني أن كل من أحسن أحسن إليه ، وكل من أساء أسيء إليه . اهـ[٣] .

وقال الألوسي :

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٠) .

(٢) تفسير الطبري (١١ / ٨٩) .

(٣) الكشاف (٤ / ٥٤) .

ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب[1] .

قال القرطبي :

قال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد[2] .

قال تعالى : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغَلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنَّا لنراها في ضلال مبين** ﴾ [يوسف : ٣٠] .

إن من يهتك الستر الذي بينه وبين الله يهتك الله الستر الذي بينه وبين الناس . قد بلغت السرية كمالها عند إغلاق الأبواب ، والتي كانت سبعة أبواب ، حيث الإرادة أن يتم المنكر معها وحدها ، لكنَّ إرادة الله شاءت أن يطلع على ذلك الشهود وزوجها ونساء المدينة بصورة علنية وعامَّة .

وقال تعالى : ﴿ **قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ [يوسف : ٣٢ -٣٤] .

ويقول الله تعالى : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ [يوسف : ٣٥] .

يقول ابن كثير :

ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات على صدقه في عفته ونزاهته . فكأنهم - والله

---

(١) روح المعاني (١٢٠/٢٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٦٣٥٣/١٠) .

أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لمّا طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبيّن براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ [يوسف : ٥٠] .

قد وردت السنة بمدح يوسف عليه السلام على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعلوّ قدره وصبره .

ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ **رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ : « عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه ، والله يغفر له ، حيث أرسل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت لصبره وكرمه ، والله يغفر له ، أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل »(١) .

صَبَر يوسف ، والمرأة التي اتهمته بالمراودة هي التي تعلن أمام الجميع : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ [يوسف : ٥١] شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه ، لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، كذلك تبينت له كرامته ، وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك ، وأي ملك ؟

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٧٩ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١١٤١ .

ملك مصر . ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلمًا ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله ، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ، كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام يوسف عليه السلام وحبه ، فقال : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ [يوسف : ٥٤] .

فيا ليت رجالًا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ، وهم أبرياء مطلقو السراح – فيضعون النِّير في أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتون على حظوة الأتباع لا مكان الأصفياء ، فياليت رجالًا من هؤلاء يقرءون القرآن ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء تُدِرُّ من الربح – حتى المادي – أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء .

وفي الصحيح في مسند أحمد عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم »[1] .

قال المناوي :

وأي كريم أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوة ، وحسن الصورة ، وعلم الرؤيا ، ورئاسة الدنيا ، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ؟؟.

قال الشاعر :

إن السريّ إذا سرى فبنفسه وابن السريّ إذا سرى أسراهما[2]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] .

قال ابن جرير :

يتخذ منها منزلًا حيث يشاء ، بعد الضيق والحبس والإسار[3] .

وقال ابن كثير :

---

(١) رواه البخاري من حديث عمر .

(٢) فيض القدير للمناوي (٥ / ٦٤) .

(٣) تفسير الطبري (١٦ / ١٥١) .

وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ؛ فلهذا يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولّاه ملك مصر الرَّيَّان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق : ولّاه فيما ذكروا عمل إطفير عما كان عليه ، فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الرّيَّان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير : راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال : أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين ؟ . قال : فيزعمون أنها قالت : يأيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترى ، حسناء ، جميلة ، ناعمة ، في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك ، على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف . وولد لأفرائيم نون والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق ، حين مرّ يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته ، والملوك عبيدًا بمعصيته[1] .

قال سيد قطب :

على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد ، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود ...

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢١) .

البشرى في الآخرة جزاءً وفاقًا على الإيمان والصبر والإحسان .[١] .

يقول ابن القيم :

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن جِنسه ، لما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء اهـ[٢].

عفّ يوسف عن شهوة فمكنه الله منها ، ترك شهوة واحدة فنال شهوات الأرض بأسرها .

إن الذي يستلفت النظر كثرة تكرار صفة الإحسان ، فكان محسنا مع ربه وأيضًا مع الناس – وهما متلازمان – فقد سمى الله قصته ﴿ **أحسن القصص** ﴾ [يوسف : ٣] أي من أحسنه ، ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [يوسف : ٢٢] ووصفه السجناء بذلك ﴿ **نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٣٦] وبه مكنه الله تعالى في الأرض ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] وقال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٧٨] وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ **قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٩٠] ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿ **وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن القيم :

﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] وإنما اختص أهل

---

(١) الظلال (٤ / ٢٠١٤) .

(٢) روضة المحبين لابن القيم ص٤٤٣ .

الإحسان بقرب الرحمة منهم ؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته . وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب ، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومَنْ تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته[1].

فائدة :

قال تعالى : ﴿ **ولقد هَمّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ...** ﴾ الآية.ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه ؛ ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي ، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة الله له بذلك واعْتراف إبليس به .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم يوسف ، والمرأة ، وزوجها والنسوة والشهود .

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية ، فذكره تعالى في قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ [يوسف : ٢٦] وقوله : ﴿ **قال رب السجن أحبّ إلي مما يدعونني إليه** ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ [يوسف : ٣٢] .

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ [يوسف : ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين** ﴾ إلى قوله: ﴿ **قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ [يوسف : ٢٦-٢٨] .

---

(١) التفسير القيم ص ٢٥٨ .

وأما شهادة الله عز وجل ببراءته ففي قوله : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقد شهد الله على طهارته أربع مرات :

أولها : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال له في صفة عباد الرحمن : ﴿ **ولا يزنون** ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

والرابع : قوله : ﴿ **المخلصين** ﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل . وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص . وو روده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته . وعلى كِلَا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ من تفسير الرازي .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ، ففي قوله تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] . فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من سادات المخلصين بنص القرآن الكريم .

أما شهادة النسوة، فقد قال الله تعالى : ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ [يوسف : ٥١] .

قال الفخر الرازي[1] :

هؤلاء الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ؛ ولَعَلّ منهم من يقول : كنا في أول الأمر تلامذة إبليس ، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه ، كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

(١) كلامه بتصرف من تفسيره مفاتيح العنيب .

فلوْ مات قبلي كنتُ أحسن بعده　　　طرائقَ فسقٍ ليس يحسنها بعدي

ولكن ماذا نقول في قوله تعالى : ﴿ **وَهَمَّ بِهَا** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

الجواب من وجهين :

الأول : أن المراد بهمِّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوى .

وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي ، والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى ، وهذا لا معصية فيه ؛ لأنه أمر جِبِلِّي لا يتعلق به التكليف ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » . يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد ، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم . وقد قال ﷺ : « مَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة » ؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله وامتثالًا لأمره ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وهَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهمِّ يوسف هذا ، بدليل قوله : ﴿ **إذْ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ [آل عمران : ١٢٢] لأن قوله : ﴿ **والله وليهما** ﴾ يدل على أن ذلك الهمّ ليس بمعصية ؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله للعاصي – لو كان هذا الهم معصية – إغراء على المعصية .

بخلاف همّ امرأة العزيز ، فإنه همّ عزم وتصميم ، بدليل أنها شقت قميصه من دبر . ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها ، بدليل الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » . قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟. قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » . فصرح ﷺ بأن تصميمه وعزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار .

وأما تأويلهم همّ يوسفْ بأنه قارب الهم ولم يهمّ بالفعل ، وتأويل الهم بأنه همَّ بضربها ، أو همّ بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد عن الظاهر ، ولا دليل عليه .

الثاني : وهو اختيار الشيخ أبي حيان : أن يوسف لم يقع منه همّ أصلًا .

قال الشنقيطي :

هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله : ﴿ **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : ٨٤] أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه .

فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ؛ لأن جواب الشروط وجواب لولا لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلًا عليه ، كالآية المذكورة ، وكقوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة : ١١١] أي إنْ كنتم صادقين فهاتوا برهانكم . وعلى هذا القول : فمعنى الآية : وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه . أي لولا أن رآه همَّ بها ، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف ، كما هو الغالب في القرآن واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ [القصص : ١٠] أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا في قوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ **وهمّ بها** ﴾ وإلى جواز لتقديم المذكور ذهب الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : المبرد ، وأبي زيد الأنصاري .

قال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه : والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله .

يقول الشيخ الشنقيطي :

وأما أقوال السلف : فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ؛ لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقض بعضها بعضًا ، مع كونها قادحة في بعض فسّاق المسلمين فضلًا عن المقطوع لهم بالعصمة .

ويقول مرة أخرى – يرحمه الله –:

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين :

قسم: لم يثبت نقله عمّن نقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال في سقوطه.

وقسم : ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك ، فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين : أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ[1] .

يا لمكانة نبي الله يوسف حين يقول في حقه : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] . كاد له إخوته فعوقبوا بكيد .. كادوا فكِيد لهم .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن كثير :

وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] .

إن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام ، بأن جمع بينه وبين أخيه ، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم ، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره .

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي ، فقالوا : ﴿ **يأيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين** ﴾ [يوسف : ٨٨] ، فهذا الذُّل والخضوع في مقابلة ذلِّه وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد .

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي من أجلها سجدوا له ، هم وأبوه وخالته ، في مقابلة كيدهم له ، حذرًا من وقوع ذلك ، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم ، فكادوه خشية

(١) أضواء البيان (٣ / ٤٩-٦٠) .

ذلك ، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك ، كما رآه في منامه .

وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ [القصص : ٤] خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه ، فكاده الله سبحانه ، بأن أخرج له هذا المولود ، ورباه في بيته ، وفي حجره ، حتى وقع به ما كان يحذره ، كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مقدّرا وفررت منه فنحوه تتوجَّهُ[١]

لقد حسّن الله خُلُق يوسف عليه السلام وخَلْقَه .

قال رسول الله ﷺ : « أعطي يوسف شطر الحسن »[٢] .

وقال ﷺ : « أعطي يوسف وأمه شطر الحسن »[٣] .

ففي موقفه مع امرأة العزيز كان مثالًا للعفة ؛ فكل الظروف من حوله كانت تدفعه دفعاً إلى الفاحشة ، ولكنه يوسف المحسن المخلص عليه السلام .

فقد كان شابًّا عزبًا ، وقد كان غريبا والغريب لا يستحي من الناس ؛ لأنهم لا يعرفونه .

وأنه كان عبدًا لها ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر .

وهي سيدته ، وهي الآمرة ، فدافع الشهوة أكبر حين تكون المرأة طالبة .

وهي حسناء جميلة ، وقد غاب الرقيب ، وغلّقت الأبواب .

وهي تهدّده بالسجن إن لم يفعل .

وتكرّر الطلب منها أكثر من مرة .

---

(١) إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان (٢ / ١١٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، عن أنس ، وكذا رواه ابن عدي في الكامل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٧٣ ، والصحيحة رقم ١٤٨١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، ورواه ابن عدي في الكامل وابن عساكر ، وزادا : يعني سارة .

فياليت أناسًا ينزجرون ويكفون ، يقول الواحد منهم :

لو خلوت بالحور العين لعففت ، وهو لو خلا بجارية سوداء لفعل وفعل ، وكأنه قد أشهد على صداقها أبا هريرة .

○ نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ○

قد لاقى نبي الله موسى في سبيل الدعوة إلى الله ما لاقى .

وبعد قتله القبطي خرج من مصر خائفًا يترقب ، وحيدًا فريدًا مطاردًا ، في قلب المخافة بعد فترة من الأمن ، وحيدًا مجردًا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يبحثون عنه في كل مكان ؛ لينالوا منه اليوم مالم ينالوه منه طفلًا ، ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ألم يقل له ربه : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قال تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من النَّاس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولّى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ [القصص : ٢٣ - ٢٤] .. حتى نهاية القصة .

لم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح في وقت القيظ والحر. عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن موسى - عليه السلام - لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم(١) .

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا ، فما وصل مَدْيَن حتى سقطت نعل قدمه . وجلس

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ، وقال ابن كثير في التفسير (٦ / ٢٣٧) ، إسناده صحيح .

في الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : حثثت على جمل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملي - وكان جائعا - فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت[1] .

﴿ **فسقى لهما** ﴾ يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله .

﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ . مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحرّ ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر .

﴿ **فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العظيم ظل الله الكريم المنّان بروحه وقلبه ﴿ **رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ رب إني في الهاجرة ، رب إني فقير ، رب إني وحيد ، رب إني ضعيف ، رب إني إلى فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج .

رفرفة ومناجاة قريبة ، وهمس موحي ، وانعطاف رفيق ، واتصال عميق ، ويسارع مولاه بالاستجابة لقلبه الضارع ، دعوة من الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير ، دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان ﴿ **إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ...** ﴾ الآية [القصص : ٢٥] .

﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢٥] . فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد ، ومن ثم كان أول لفظ للشيخ الوقور : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . فلا سلطان لهم على مدين .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٧) .

خرج خائفًا فأمّنه الله ، وكان جائعًا فرزقه الله ، وكان وحيدًا فريدًا فآواه الله إلى ابنة الرجل الصالح .

ويا لله .. هذه الغنم التي شربت بسقي موسى ، وهو لا يبتغي على ذلك أجرا يكن له منها النصيب الوافر بعد أن قضى الثماني حجج في خدمة الشيخ .. يالكرم الله وفرجه ونداه .

إشكال :

إن موسى سقى أغنامهما تقربًا إلى الله تعالى ، فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه ، فإن ذلك غير جائز في المروءة ولا في الشريعة ؟

والجواب : أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلبًا للأجرة ، بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ ، وروي أنها لما قالت : ليجزيك كره ذلك ، ولمّا قدِّم إليه الطعام امتنع ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا ، حتى قال شعيب[1] عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

وأيضًا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله ، فقبل ذلك على سبيل الاضطرار .

وقال الرازي أيضًا :

إنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ، ولم يكره ذلك

---

(١) قد اختلف المفسرون في هذا الرجل والد الفتاتين من هو ؟ على أقوال :
أحدها : أنه شعيب النبي - عليه السلام - وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد .
وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد ، ثم من المُقَوِّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من ذكر اسمه فلا يصح إسناده . اهـ .

مع الخضر حين قال تعالى : ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرًا** ﴾ [الكهف : ٧٧] والفرق أن أخذ الأجرة على الصدقة لا يجوز ، وأما الاستئجار ابتداءً فغير مكروه[١] .

كما لاقى الكريم الذي صُنع على عين الله من اللئيم الذي استخفه الشيطان وأغواه .

يقول تعالى عن شخرية فرعون من موسى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] .

﴿ **مهين** ﴾ أي حقير ، ﴿ **ولا يكاد يبين** ﴾ لا يكاد يفصح عن كلامه ، فهو عيي حصر .

قال ابن كثير :

وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : مهين : كذب ، بل هو المهين الحقير خلقة وخُلُقًا ودينًا ، موسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد .

وقوله : ولا يكاد يبين افتراء أيضًا ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله أن يحل عقدة لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله له في قوله : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[٢] [طه : ٣٦] .

بل لم يسلم موسى - عليه السلام - من أذى بني إسرائيل ، وهو الذي

---

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢١٨ - ٢١٩) .

أخرجهم الله على يديه من ظلمات الكفر والحبس والذبح .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى عليه السلام كان رجلا حييًا سِتّيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص ، وأما أدرة[١] ، وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أنْ يُبرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلى يومًا وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حَجَر ثوبي حجر[٢] .. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانًا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون، وقام[٣] الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ .

والنبي ﷺ لما قسم ذات يوم قسمًا ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... فقال ﷺ : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »[٤] .

وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته . كان ألين لنا منك وأشد حياءً ،

---

(١) الأدرة : نفخة في الخصية ، ويقال للرجل : آدر .
(٢) معناها : أي ثوبي يا حجر .
(٣) أي وقف وثبت .
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم[١] .

بل نسبوا إلى موسى عليه السلام أشد من ذلك ، فقد روى ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حُوّلت من موسى إلى يوشع بن نون في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله : ما أحدث الله من الأوامر والنواهي . حتى قال له : يا كليم الله ، إني كنت لا أسألك عمّا يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك . فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت ... وفي هذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه في جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززًا مكرمًا مدلّلا وجيهًا عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثوره ، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ . قال : الموت . قال : فالآن يا رب.. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك - صلوات الله وسلامه عليه - فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق : إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان[٢] .

صبر موسى على « لن » :

قال له الله تعالى : ﴿ **لن تراني** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] عند سؤاله الرؤية في الطور .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٧٥) نقلًا عن تفسير ابن أبي حاتم ، والطبري .

(٢) البداية والنهاية (١ / ٢٩٨) .

وقال له الخضر عليه السلام : ﴿ **لن تستطيع معي صبرًا** ﴾ [الكهف : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥] .

وقال له قومه : ﴿ **لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ..** ﴾ الآية [المائدة : ٢٤] .

وقال له قومه : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ [البقرة : ٥٥] .

جزاء موسى على صبره :

قال الله تعالى : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ [طه : ٣٩] وأي شرف فوق هذا ؟.

وقال الله تعالى : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قالوا عنه : إنه مهين فأخبر الله تعالى بوجاهته : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عيّروه بالعي في لسانه ، فاختاره الله كليمًا له ، وأي شرف فوق هذا ؟.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

قال ابن كثير :

« لا أدري أصعق فأفاق قبلي » أي كانت صعقته خفيفة ؛ لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، أو جوزي بصعقة الطور ، يعني فلم يصعق بالكلية ، وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيًّا** ﴾ [مريم : ٥٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢٦٦) .

قال ابن كثير :

أي وأَجَبْنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيًّا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **وأخي هٰرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءًا يصدقني إني إخاف أن يكذبون** ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ [طه : ٣٦] ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا[1] .

وقال أيضًا :

ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم مِنّة على أخيه من موسى على هارون – عليهما السلام – فإنه قد شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال في حق موسى : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾[2] [الأحزاب : ٢٦٩] .

قال الهروي في كلامه على منزلة المُراد :

الدرجة الثانية : أن يضع عن العبد عوارض النقص ، ويعافيه من سمة اللائمة ، ويملكه عواقب الهفوات ، كما فعل بسليمان – عليه السلام – حين قتل الخيل ، فحمله على الريح الرخاء ، فأغناه عن الخيل ، وفعل بموسى – عليه السلام – حين ألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه ، ولم يعتب عليه كما عتب على آدم – عليه السلام – ونوح ، وداود ، ويونس – عليهم السلام – .

يقول ابن القيم :

إذا عرضت له أسباب النقيصة ، التي يستحق عليها اللائمة ، لم يعتبه عليها ولم يلمه ، وهذا نوع من الدلال ، وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه فإن الحبيب يُسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه . وإذا هفا هفوة ملكه

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٣٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٤٦) .

عاقبتها ، بأن جعلها سببًا لرفعته ، وعلوّ درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح ، وذلٍّ خاصٍّ ، وانكسارٍ بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسناتٍ كثيرة ، وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه .

قال ابن القيم :

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، ولم يعتب عليه ربه ، وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي - ﷺ - إذ رفعه فوقه ، ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال : لأن موسى - عليه السلام - قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال ، فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى ، وتصدى له ولقومه ، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه ، فاحتمل له ما لم يحتمل لغيره .

وذو النون لما لم يكن في هذا المقام : سجنه في بطن الحوت من غضبة ، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا[1] .

والجزاء من جنس العمل .

○ داود عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ [ص : ١٧-٢٠] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٥٥ - ٤٥٦) .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلًا يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير** ﴾ [سبأ : ١٠ - ١١] .

وقال تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ [الأنبياء : ٧٩ - ٨٠] .

﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الأيد : القوة في الطاعة ، يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . وقال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام .

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كان داود أعبد البشر »[١] .

وقال ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا[٢] ... ولا يفر إذا لاقى »[٣] .

كان الله تعالى قد وهب داود - عليه الصلاة والسلام - من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويردد ، ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه ، كلما سبح

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في تاريخه ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٢٩) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمرو .

(٣) ثابتة في الصحيحين .

بكرة وعشيا .

وقال عبد الله بن عامر : أعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحد قط ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجّل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا(١) .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ على داود القراءة فكان يأمر بدوابه فتُسرج ؛ فيقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده »(٢) .

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذي أنزل عليه وأُوحي إليه .

داود البكاء الأواب ، الذي ما أكل طعامًا إلا بلّله بدموعه ، وما شرب قدحًا إلا مزجه بدموعه ، داود – عليه الصلاة والسلام – الذي كان يقول : أوه من عذاب الله ، أوه قبل ألّا تنفع أوه ، يارب إني لا أستطيع حر شمسك فكيف أستطيع حر نارك ؟ يارب إني لا أستطيع سماع صوت رحمتك وهو الرعد فكيف أستطيع سماع صوت غضبك؟.

عن ابن شهاب قال : قال داود : الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود .

يقول الله تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب**

---

(١) البداية والنهاية (٢ / ١٠ – ١١) .

(٢) رواه البخاري وأحمد في مسنده .

فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [ص : ٢٤ -٢٥] .

قال تعالى : **﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾** [ص : ٢٦] .

قوله تعالى : **﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** [ص : ٢٥] .

أي إنَّ له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ، ويُدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يُقْسِطُون في أهليهم وحكمهم وما ولوا » .

قال مالك بن دينار : **﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود ، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

كما كان أعبد الناس في الدنيا ، وكما كان يمجده في الدنيا ، فكذا اليوم يمجده على منبر من نور مع نعيم القرب والزلفى .

والجزاء من جنس العمل .

صوت الأوّاب مزامير ... فلتصغ جبال البلدان

والطير بأجمعه سبح ... ويرجع ذكر الرحمن

○ سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : **﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب إذ عرض عليه**

بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحًا بالسوق والأعناق ﴾ [ص : ٣٠-٣٣] .

عرض على سليمان – عليه السلام – في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات .

قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع .

وروى ابن جرير عن إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرسًا ذات أجنحة .

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي : كانت الخيل التي شغلت سليمان – عليه الصلاة والسلام – عشرين ألف فرس فعقرها .

قال ابن كثير : وهذا أشبه ، والله أعلم .

قال ابن كثير :

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا ، كما شُغِل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه .

ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة – رضي الله عنهم – في فتح تُستَر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما . والأول أقرب ؛ لأنه قال بعدها : **﴿ ردوها عليّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾** .

قال الحسن البصري : قال : لا ، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر

ما عليك . ثم أمر بها فعقرت . وكذا قال قتادة .

وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبًّا لها .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة ، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر لها ، ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضبًا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة[1] .

وقال ابن كثير :

قد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقووا بها، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة[2] .

قال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ...** ﴾ [الأنبياء : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ...** ﴾ الآية [سبأ : ١٢] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر ، فيتغدى بها ، ويذهب رائحا منها ، فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ - ٥٧) .

(٢) البداية والنهاية (٢ / ٢٣) .

وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

وقال تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ [ص : ٣٦] حيث أراد ؛ قاله مجاهد .

وهذه الريح عاصفة في بعض الأوقات ، ولينة رخاء في بعضها ، بحسب الحاجة ؛ كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده ، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب .

ما ذكره الزمخشري قال :

فإن قلتَ : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟

قلتُ : كانت في نفسها رخيّة طيبة كالنسيم ، فإذا مرّت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** .. ﴾ [سبأ : ١٢] . فكان جمعها بين الأمرين : أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم اهـ .

وقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض .

وقوله : ﴿ **تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها** ... ﴾ لأن مسكنه فيها ، وهي الشام ، فترده إلى الشام . وعليه فقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ في حالة الذهاب . وقوله : ﴿ **إلى الأرض التي باركنا فيها** ... ﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ – ٥٧) .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٤ / ٦٧٦ – ٦٧٧) .

وفي مسند أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علّمه الله عز وجلّ وقال : « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرًا منه »[١] .

فكيف كان جزاء سليمان – عليه السلام – من جنس عمله ؟

قال الحسن البصري – رحمه الله – : لمّا عقر سليمان الخيل غضبًا لله عز وجلّ ، عوّضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر[٢] .

وقال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرًا منه .

لما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح ؛ يسير على متنها حيث أراد[٣] .

قال البقاعي : ذلّلنا بمالنا من العظمة له الريح ؛ لإرهاب العدو وبلوغ المقاصد ، عوضًا عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا ، تجري رخاء لينة غاية اللين منقادة ، يدرك بها ما لا يدرك بالخيل : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ وكل من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه[٤] .

○ نبي الله أيوب عليه السلام ○

الصالح الصابر الأوّاب .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٦٤) .

(٣) روضة المحبين ص ٤٤٣ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١٦ / ٣٨٤) .

كان من ذرية إبراهيم عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهٰرون** ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

والمشهور أن زوجه بنت منشا بن يوسف بن يعقوب عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسّني الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب - عليه السلام - وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليمًا سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسُلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته - رضي الله عنها - فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريبا . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، قال : رب ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، قيل : بنصب في بدني ، وعذاب في مالي وولدي ، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل فأنبع الله عينًا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت

جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر ، فأنبع له عينًا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا .

فماذا كان جزاء صبره ؟

قال ابن عباس : رد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم .

وقال الحسن وقتادة : أحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقيل : آجره فيمن سلف ، وعوّضهم عنهم في الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة[1] .

صحة ظاهرة وباطنه وجمال تام والله ، ما مُدّ سجاف ﴿ **نعم العبد** ﴾ على قبة ﴿ **ووهبنا له** ﴾ حتى جرب في أمانة ﴿ **إنّا وجدناه صابرًا** ﴾ .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا ، خرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك »[2] .

انظر إلى أدب أيوب - عليه الصلاة والسلام - ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ولم يقل : فعافني واشفني[3] .

يقول ابن القيم :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ جمع في هذا الدعاء بين : حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة

(١) البداية والنهاية (١ /) ، وتفسير ابن كثير (٧ / ٦٦) .
(٢) رواه البخاري وأحمد .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٨٠) .

إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين .

والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه .

يقول الشيخ سيد قطب :

قصة ابتلاء أيوبْ من أروع قصص الابتلاء .. وأيوب هنا في دعائه لا يزيد وصف حاله : ﴿ **أني مسني الضر** ﴾ ووصف ربه بصفته : ﴿ **وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبرًا على بلائه ، ولا يقترح شيئًا على ربه ، تأدبا معه وتوقيرا ، فهو نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضرّ الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ؛ اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه بالسؤال ، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء .

إن في بلاء أيوب لمثَلًا للبشرية كلها ، وإن في صبر أيوب لعبرةً للبشرية كلها ، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

العابدون معرضون للابتلاء والبلاء ، وتلك تكاليف العبادة والعقيدة وتكاليف الإيمان(١) .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن ، فلم يشكني إلى عُوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »(٢) .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٩٢) .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٧٧ ، والصحيحة رقم (٢٧٢) .

والجزاء من جنس العمل – نعم العبد إنه أواب .

○ ذو الكِفْل عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ [الأنبياء : ٨٥ – ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ واذكر إسمٰعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ [ص : ٤٨] .

الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه ، مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيّ – عليه من ربه الصلاة والسلام – وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا ، وإنما كان رجلًا صالحًا وحكمًا مُقْسِطًا عادلًا ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلًا على الناس ، يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس فقال : من يتقبل لي بثلاثٍ أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجلٌ تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟! قال : نعم . قال : فردّهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل ، فقال : أنا . فاستخلفه ... فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفّل بأمر فوفّى به[1] .

من وفى لله وفى الله له ، وألبسه رداء عمله ، والجزاء من جنس العمل .

غلب عليه ما وفى به ، وسماه الله به ، وجعله قرآنًا يُتلى ، فأي شرفٍ وجزاء فوق هذا ؟ فكيف بجزاء المتهجدين الصائمين المقسطين في حكمهم ؟ .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢١٠ – ٢١١) .

○ يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠] .

وقصة ذي النون يونس بن متى عليه السلام رواها جمع من علماء التفسير .

قال ابن كثير :

إن يونس بن متّى - عليه السلام - بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث . فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصْلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحُمْلانها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا**

ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : ٩٨] .

وأما يونس – عليه السلام – فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فَلَجَّجَت[١] بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضا ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا ، قال الله تعالى : ﴿ **فساهم فكان من المدحضين** ﴾ ، أي وقعت عليه القرعة ، فقام يونس – عليه السلام – وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى بنفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى من البحر الأخضر – فيما قاله ابن مسعود – حوتًا يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحما ، ولا تهشم له عظما ؛ فإن يونس ليس لك رزقًا وإنما بطنك له يكون سجنًا .

﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، يروى نحو هذا عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روي عن ابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها ، حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك** ﴾ .

وقال عوف : لما صار يونس في بطن الحوت ، ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجليه ، فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى : يارب ، اتخذت لك مسجدًا في موضع ما اتخذه أحد[٢] .

---

(١) خاضت اللُّجَّة ، ولجة البحر : حيث لا يدرك قعره .

(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٦٠ – ٣٦١) .

واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام ، قاله قتادة . وقيل : جمعة ، قاله جعفر الصادق . وقيل : أربعين يوما ، قاله أبو مالك . وعن الشعبي : التقمه ضحىً ، وقذفه عشية . والله أعلم بمقدار ذلك .

وفي شعر أمية بن أبي طالب :

وأنت بفضل منك نجيّتَ يونسا   وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليًا

وقوله : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء . قاله الضحاك بن قيس ، وأبو العالية ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، وغير واحد . واختاره ابن جرير .

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحّاك ، وعطاء بن السائب ، والسدي ، والحسن ، وقتادة : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ يعني المصلين .

وقيل المراد : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ هو قوله : ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره .

وصرّح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك[١] .

سمع تسبيح دواب البحر ، فصلى وسبح وهو في بطن الحوت ، فسمع الملائكة تسبيحه ، فقالوا : يا ربنا ، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟ . قال : نعم . قال : فشفعوا فيه عن ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **وهو سقيم** ﴾ .

قال أبو هريرة : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ - ٣٤) .

يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ؟ . قال : شجرة الدّباء . قال أبو هريرة : وهيّأ الله له أُرْوِيَّة[١] وحشية تأكل من خشاش الأرض - أو هشاش الأرض - قال : فتتفشح[٢] عليه ، فترويه من لبنها كل عشية وبُكرة حتى نبت .

قال تعالى : ﴿ **فنبذناه** ﴾ أي ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ قال ابن عباس : وهي الأرض التي ليست بها نبت ولا بناء .

و ﴿ **سقيم** ﴾ أيْ ضعيف البدن . قال ابن مسعود - رضي الله عنه - كهيئة الفرخ ليس عليه ريش . وقال السدي : كهيئة الصبي حين يولد ، وهو المنفوس . وقاله ابن عباس ، وابن زيد أيضًا .

﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وسعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وهلال بن يَسَاف ، وعبد الله بن طاووس ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع .

﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت .

قال ابن كثير :

ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولًا ، أُمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ **أو يزيدون** ﴾ : بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا .

---

(١) الأروية : بضم فسكون ، فواو مكسورة ، فياء مشددة : الشاة الجبلية ، وخشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

(٢) أي تفرج ما بين رجليها ، ويقال بالجيم والحاء المهملة .

وقال ابن جبير : يزيدون سبعين ألفا .

وقال مكحول : كانوا مائة وعشرة آلاف .

فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس جميعهم ، فمتعناهم إلى وقت آجالهم(١) اهـ .

فكيف كان جزاء يونس من جنس عمله ؟ .

إن يونس – عليه السلام – لم يصبر بدايةً على تكاليف الرسالة ، فضاق صدره بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضبًا ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ أي مستحق للوم .

والجزاء من جنس العمل .

عن ابن مسعود بإسناد صحيح : فانطلق مغاضبا حتى ركب سفينة ، فقال لهم يونس إن معهم عبدًا آبقًا من ربه ، وأنها لا تسير حتى تلقوه ، فقالوا : لا نلقيك يا نبي الله أبدًا ، قال : فاقترعوا ، فخرج عليه ثلاث مرات ، فألقوه ، فالتقمه الحوت ، فبلغ به قرار الأرض .

أصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذء من أجلها .

وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ويعيدوا .

إن طريق الدعوات ليس هينًا لينًا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل و الضلال والتقاليد والعادات ، يجثم على القلوب ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ - ٣٦) .

ولا بد من إزالة هذا الركام .

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدىء الأعصاب .. ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟.

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ، فليكظم ويمضي ، والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الهدى ، والهدى هدى الله[1] .

تَعَرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ .

احفظ الله يحفظك .

فيونس صاحب الصلاة والتسبيح قبل التقام الحوت له .. ويونس المسبح المصلي في الظلمات في مسجد – بطن الحوت – ما اتخذه أحد قبله .. فنجّاه الله من شدته .

والجزاء من جنس العمل .

○ يحيى بن زكريا الشهيد ابن الشهيد عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : **﴿ وزكريا إذْ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون**

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٣٩٣ – ٢٣٩٤) .

في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : ٨٩- ٩٠].

وقال تعالى : **﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين ﴾** [آل عمران : ٣٨- ٣٩] .

قال تعالى : **﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداءً خفيًّا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًّا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا ﴾** [مريم : ٢ - ٧] .

وقال تعالى : **﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا . وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيًّا . وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا ﴾** [مريم : ١٢ - ١٥] .

في شرف مناجاة ولذاذة انفراد بالخلوة يقوم زكريا عليه السلام ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب . فقال الله : لبيك ، لبيك ، لبيك[1] .

لأنهم **﴿ كانوا يسارعون في الخيرات ﴾** فسارع الله في استجابة الدعاء .

مسارعة بمسارعة والجزاء من جنس العمل .

يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء » . فماذا يطلب زكريا وهو الشيخ الكبير ، وقد وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيبًا ، وكانت امرأته عاقرًا ، لا تلد وهي في شبابها ، عقيمًا وهي في شبابها ، ولكن

(١) انظر ابن كثير (٣ / ٢٠٦) .

زكريا لم يكن بدعاء ربه شقيًّا ، قد عوّده الله أن يستجيب إليه إذا دعاه فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته ، وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يتم الله عليه نعمته .

إن زكريا سأل الولد ، وهو مطلب عجيب غريب ، يسأله وقد بلغ من الكبر ما بلغ ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه ، فكيف الآن ؟ سأل الولد ليكون عونًا له على الطاعة ووارثًا من نسله في النبوة ؛ ليكون قائمًا بحق الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ لأن السؤال إذا كان لحق الحق لا لحظ النفس لا يكون له الرد .

يقول الشنقيطي :

خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي أن يضيعوا الدين بعدي ، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام ، فارزقني ولدًا يقوم بعدي بالدين حق القيام ، فهو إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله والقيام بدينه[1] .

إن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم من الزهاد لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها ، والله إن النبي أعظم منزلة وأجلّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، أن يأنف من وراثة عصباته له ، وإنما يريد ولدًا يكون نبيًّا من بعده ، ليسوسهم بنبوته وما يُوحى إليه .

لما سأل زكريا عليه السلام السؤال الفذ ، ولازم الباب أتته الإجابة ، إنّ منْ له إلى المملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة ، ما يطلب للدنيا والحظ شيئًا ، إنما يطلبه للدين والعقيدة ، فاستجاب الله له ، فانظر

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢٠٦) .

إلى يحيى .

﴿ **إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا** ﴾ .

[إن الله هو الذي سمّاه ، ولم يكل تسميته إلى أبيه . وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى][1] ما أظن أن أحدًا من البشر حازها سواه .

قال ابن عباس : لم يسم يحيى قبله غيره . وقال أيضا : هل تعلم له مثلًا أو شبهًا ، يحيى مسمى بصيغة الدوام أما ترى إلى أنه مات شهيدًا .

﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ والكتاب هو التوراة . يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة ؛ لأن مشهد النداء رائع عظيم يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا ، فها هو ذا أول موقف ليحيى موقف انتدابه لحمل الأمانة الكبرى .

﴿ **وآتيناه الحكم صبيًّا** ﴾ فهمًا وعلمًا ، وجدًّا وعزمًا وإقبالًا على الخير ، وانكبابًا عليه ، واجتهادًا فيه وهو حدث صغير .

قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقنا .

وقال أبو حياة : النبوة .

آتاه الحكم صبيًّا ، فكان فذًّا في زاده ، كما كان فذًّا في اسمه وفي ميلاده ، فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا .

﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ قال ابن عباس : رحمةً من عندنا . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا . موهبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ، إنما هو مطبوعٌ عليه ومطبوع به .

وقال عكرمة : محبةً عليه . وكذا قاله ابن زيد ، وقال مجاهد : وتعطفًا من ربه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيمًا من لدنا .

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢١٤) .

﴿ **وزكاة** ﴾ قال ابن عباس : طَهُر فلم يعمل بذنب .

وقال ابن كثير : الطهارة من الدنس والآثام والذنوب .

وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح .

بل قالوا : إنه لم يهم بمعصية أبدًا ، والله أعلم .

﴿ **وكان تقيا** ﴾ قال مجاهد : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإن كان ليبكي من خشية الله ما لو كان القار على عينيه لخرقته دموعه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرًى في وجهه(١) .

وقد ذكروا أن يحيى - عليه السلام - كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعم منك يا يحيى .

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه ، فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا ؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبرًا ، وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني ، أنا أطلبك من ثلاثة أيام ، وأنت في قبر قد احتفرته قائمًا تبكي فيه . فقال : يا أبت ، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين . فقال له : ابك يا بني . فبكيا جميعًا . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد نحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألَّا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل(٢) .

---

(١) زيادات الزهد لابن المبارك .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير (٢ / ٤٩) .

﴿ **وبرًّا بوالديه** ﴾ كثير البِرِّ لهما ، محسنًا إليهما ، لطيفًا بهما ، لين الجانب لهما .

لقد كان ميلاد يحيى برا بوالديه أيضًا والله ، فقد أصلح الله لزكريا زوجه ، فجعلها ولودًا بعد العقم ، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد أو جعلها حسنة الخُلق كما قال عطاء . وهذه سنة الله في إكرام أنبيائه وأوليائه .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

﴿ **إن الله يبشرك بيحيى** ﴾ قال قتادة : إنما سمي يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان .

﴿ **مصدقًا بكلمة من الله** ﴾ أي بعيسى بن مريم . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الشعثاء ، والسدي ، والربيع بن أنس ، والضحاك .

قال الربيع بن أنس : هو أول من صدّق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : على سنته ومنهاجه .

﴿ **وسيدًا** ﴾ قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وسعيد بن جبير : الحكيم .

وقال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة .

وقال ابن عباس والثوري : الحكيم المتقي .

وقال مجاهد : هو الكريم على الله .

﴿ **وحصورًا** ﴾ حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن ؛ تبتلًا وانقطاعًا لعبادة الله ، وكان ذلك جائزًا في شريعته .

أما إنه محصور عن النساء ؛ لأنه عِنِّين ، لا يقدر على إتيانهن فليس بصحيح ؛ لأن العنة عيب ونقص في الرجال ، وليس من فعله حتى يثني الله عليه بها .

﴿ **ونبيا من الصالحين** ﴾ هذه بشارة ثانية بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى ، كقوله تعالى لأم موسى : ﴿ **إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ [القصص : ٧] ، بشر بولد ، وبشر بنبوته .

﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموتِ ويوم يبعث حيًّا** ﴾ قال سفيان بن

عيينة : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد ، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه ، ويوم يموت ، فيرى قومًا لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم . قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا ، فخصَّه بالسلام عليه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ .. أي أمان له .

قال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف من الأمان ، فالأمان مُتَحَصَّل له بنفي العصيان عنه ، إنما الشرف في أن سَلَّم الله عليه ، وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر إلى الله .

لم يذنب قط ، ولم يهمّ يحيى بذنب .

خاف الله خوفًا جعله ينفرد في البراري ، حتى ضرب بخوفه المثل ، فأمنه الله في مواطن الخوف .

والجزاء من جنس العمل .

ما همّ بخطيئة ، وكان حصورًا .. وكان فذًّا كاسمه ، ومولده ، وحياته .

سلم لله ، فسلم الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

ما كان للدنيا طرفة عين ، فسلم الله عليه .

عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى – عليهما السلام – التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي ، أنت خير مني . فقال له : استغفر لي فأنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمت على نفسي ، وسلّم الله عليك ، فعُرف والله فضلهما[1].

قد كان سلام الله على يحيى خيرٌ من سلام عيسى على نفسه .

وعيسى نبي ورسول من أولي العزم خير من يحيى ، ولكن السلام الذي

(١) تفسير الطبري (١٦/٤٥) .

خصّ به يحيى أفضل ، فسلام عليه يوم ولد ، وسلام عليه يوم مات ، وسلام عليه يوم يبعث حيا .

○ عيسى عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ...** ﴾ الآية [المائدة : ٧٥] .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض ، وسياحته فيها ، وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ؛ لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض سياحة في الله ، وفرارا بدينه ، وسجل هذا الاسم في كتاب الله فكان جزاءً عاجلًا في دار الدنيا من جنس عمله .

وقال تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ...** ﴾ [الحديد : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ [البقرة : ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا . وجعلني مباركًا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا . وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًّا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** ﴾ [مريم : ٣٠- ٣٤] .

ما نطق ببراءة أمه أول ما نطق ، وقد قذفوها وهي الطاهرة العفيفة ، وإنما نطق بعبوديته لله ، فصلاة الله وسلامه عليه .

وقال تعالى في حقه : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون .**

ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولًا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقًا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ٤٥ - ٥١] .

اليهود عليهم لعائن الله أعداء نبي الله عيسى وأمه الذين قال الله فيهم : **﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينًا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ﴾** [سورة النساء : ١٥٦ -١٥٩] .

كانوا يصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، وهو الوجيه عند الله في الدنيا والآخرة ، وَوَشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة - داود بن نورا - فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة[1] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط ، فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنّه عيسى فصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلّم لليهود عامّة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالًا مبينًا فاحشًا بعيدًا .

قال ابن عباس : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ،

---

(١) الكوة .

وفي البيت اثنا عشر رجلًا منهم من الحواريين يعني : فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً. فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم أيكم يلقى عليه شبهي ، فيقتل مكاني ، فيكون معي في درجتي ، فقام شاب من أحدثهم سنًّا ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ؛ فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله . وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[1] [الصف : ١٤] .

نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام - آخر الزمان

في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال ، ثم نزول عيسى - عليه السلام - قال ﷺ : « إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[2] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قَطَر ، وإذا رفعه تحدّر منه جُمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه » -

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢ / ٨٥ - ٨٦) : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي ، نحوه .

(٢) المهرودتان : لابس مهرودتين ؛ أي ثوبين مصبوغين بورس ، ثم زعفران .

أي يطلب الدجال - « حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »[١] .

قال الله تعالى : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ [الزخرف : ٦١] .

روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة[٢] .

عن ابن عباس : ﴿ وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ .

قال : قبل موت عيسى بن مريم .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح[٣] .

قال الحسن : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

روى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل ابن مريم حكمًا عدلًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ .

وروى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذ أنزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٤ / ٢٢٥٠) .

(٢) مسند أحمد ، قال الشيخ أحمد شاكر ، وقال : إسناده صحيح حديث رقم ٢٩٢١ .

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ١٣١) . وأثر ابن عباس صححه الحافظ في الفتح (٦ / ٤٩٢) .

وروى مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم : صل لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمة الله لهذه الأمة » .

وقال ﷺ : « الأنبياء إخوة لعَلّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه »[1] .

فائدة :

أنكر قوم نزول المسيح في آخر الزمان ، وردّوا الأحاديث الواردة في ذلك ، وقالوا : إنه لا حجة فيها ؛ لأنها أحاديث آحاد ، وأنكروا أيضًا رفع عيسى ببدنه.

ومسألة رفع عيسى وهل هو ببدنه أو بروحه ؟ مسألة خلافية بين العلماء ولكن الحق أنه رفع ببدنه وروحه ، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين كالطبري ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابن كثير .

أما الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام فمتواترة .

صرّح بذلك الطبري في تفسيره (٣ / ٢٩١) ، وابن كثير في تفسيره (٧ / ٢٢٣) ، وابن حجر ، وصديق حسن خان في الإذاعة ، والشيخ صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود والشيخ أحمد محمد شاكر في حاشية تفسير الطبري (٦ / ٤٦٠) ، وحاشية مسند الإمام أحمد (١٢ / ٢٥٧) ، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد رواه أكثر من خمسة وعشرين صحابيا ، رواه عنهم أكثر من ثلاثين تابعيًا ، والشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه التصريح بما تواتر في نزول المسيح .

---

(١) الحديث صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وصححه الشيخ شاكر في هامش عمدة التفسير (٤ / ٣٦) ، وصدر هذا الحديث . رواه البخاري ، ورواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

ما الحكمة في نزول عيسى عليه السلام ؟

الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - فبيّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، ويقتل رئيسهم الدجال ، ورجح هذا الحافظ ابن حجر[١] على غيره .

أساء اليهود إلى نبي الله عيسى ما وسعهم ذلك ، وآذوه ، ولما أراد اليهود قتله لم يمكنهم الله من قتله ، بل إنه الذي يقتلهم آخر الزمان .

والجزاء من جنس العمل .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال من يهودية أصبهان ، معه سبعون ألفًا من اليهود »[٢] .

وروى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة »[٣] . وفي رواية للإمام أحمد : « سبعون ألفًا عليهم التيجان » .

« يلحق عيسى عليه السلام بالدجال عند باب لد ، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح ، فيقول له عيسى عليه السلام : إن لي فيك ضربة لن تفوتني ، فيتداركه عيسى ، فيقتله بحربته ، وينهزم أتباعه ، فيتبعهم المؤمنون ، فيقتلونهم ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله . إلا الغرقد ؟ فإنه من شجر اليهود » .

وروى الإمام أحمد عن جابر - رضي الله عنهما - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم .. » فذكر الحديث ، وفيه : « ثم ينزل عيسى بن مريم ، فينادي من السَّحَر : أيها الناس ! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث . فيقولون : هذا رجل جني . فينطلقون ، فإذا

---

(١) انظر فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) مسند أحمد ، قال ابن حجر : صحيح ، فتح الباري (١٣ / ٣٢٨) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن باب : في بقية من أحاديث الدجال .

هم بعيسى بن مريم ﷺ ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله . فيقول : ليتقدم إمامكم ، فليصل بكم . فإذا صلى صلاة الصبح ، خرجوا إليه . قال : فحين يرى الكذاب ينماث[١] كما ينماث الملح في الماء ، فيمشي إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي : يا روح الله ! هذا يهودي . فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله »[٢] .

كانوا يبحثون عن المسيح في كل مكان لقتله .. فالآن ينطق كل حجر وشجر إلا الغرقد .. ينادي على المسيح ليقتلهم .

ويقتل المسيحُ الصديق المسيحَ الضِّلِّيل .

يقتل مسيح الهدى مسيحَ الضلالة .

ينزل مكذبًا للنصارى ، فيظهر زيفهم في دعواهم صلبه ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام .

عظموا ما ادعوا أنه صلب عليه فيكسره المسيح .

قال ابن حجر : « يكسر الصليب » أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه[٣] .

« ويقتل الخنزير » « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا ، فليكسرنَ الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية»[٤] .

روى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « ... وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وأنه لنازل ... فيهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل،

---

(١) ماث الملح في الماء : أي أذابه .

(٢) رواه أحمد ، قال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . الفتح الرباني (٢٤ / ٨٥ - ٨٦) .

(٣) الفتح (٦ / ٥٦٧) .

(٤) رواه مسلم ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام حاكمًا .

والنِّمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم »(١) .

أما حجه : فقد روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ؟ ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا »(٢) .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه لنازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، بين ممصرتين(٣) ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها ، إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتُوفى فيصلي عليه المسلمون »(٤) .

بماذا يحكم عيسى عليه السلام ؟

يحكم بالشريعة المحمدية ، ويكون من أتباع محمد ﷺ ، فإنه لا ينزل بشرع جديد ؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة ، لا ينسخ ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة ، ومجددًا لأمر الإسلام ، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ، أما وضع عيسى للجزية عن الكفار - مع أنها مشروعة قبل نزوله عليه السلام - فليس هذا نَسْخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا ؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى - عليه السلام - بإخبار

---

(١) مسند أحمد ، قال الحافظ : سنده صحيح . فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب جواز التمتع في الحج والقران (٢٣٤/٨) شرح النووي .

(٣) ثياب فيها صفرة خفيفة .

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٣٦٣٥ .

نبينا ﷺ ، فهو المبيِّن للنسخ بقوله لنا : « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية » .

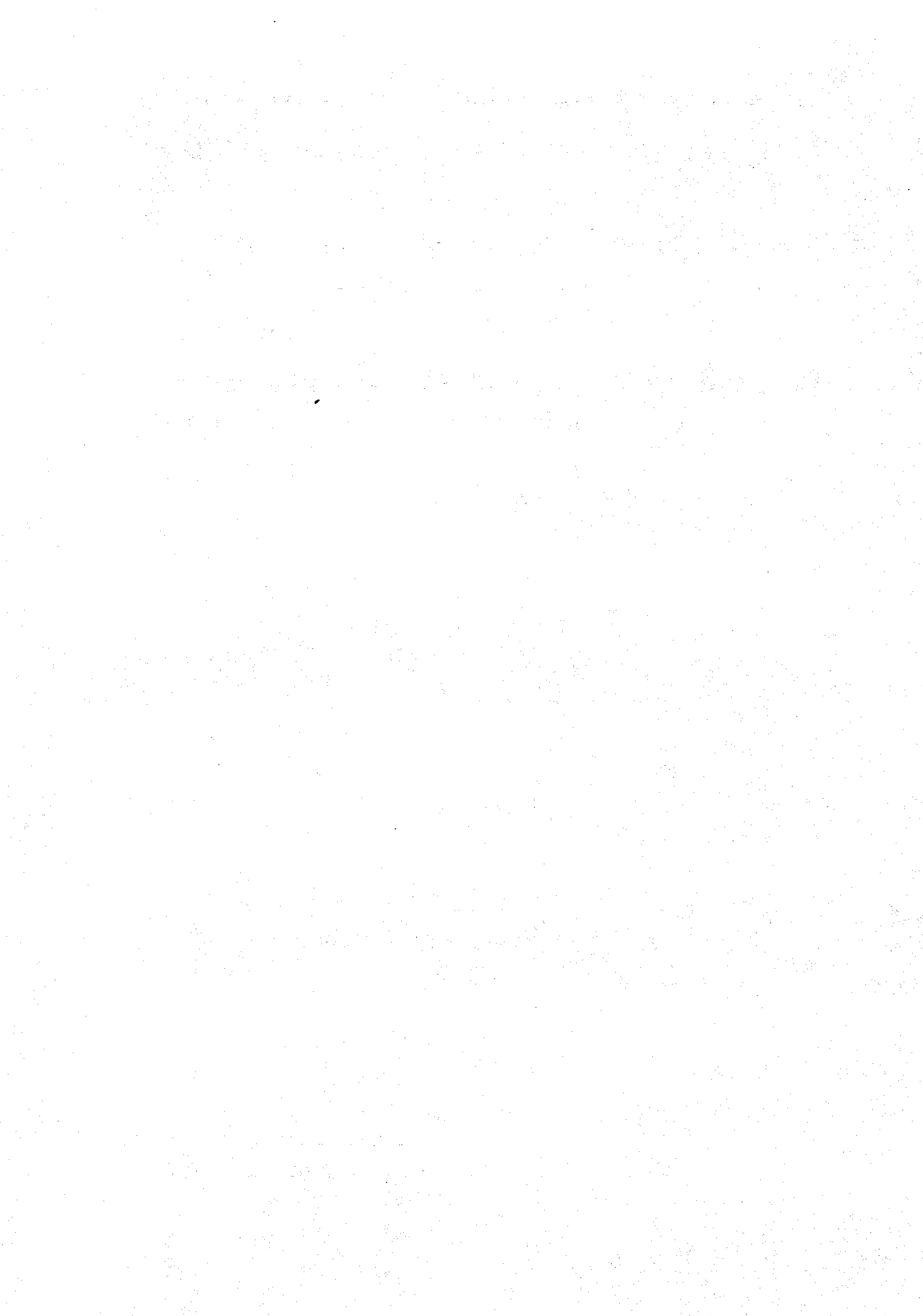
فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء ، وآخر مجدديها نبي على ملة رسول الله وشريعته ، بل آخر صحابي نبي .

قال الذهبي :

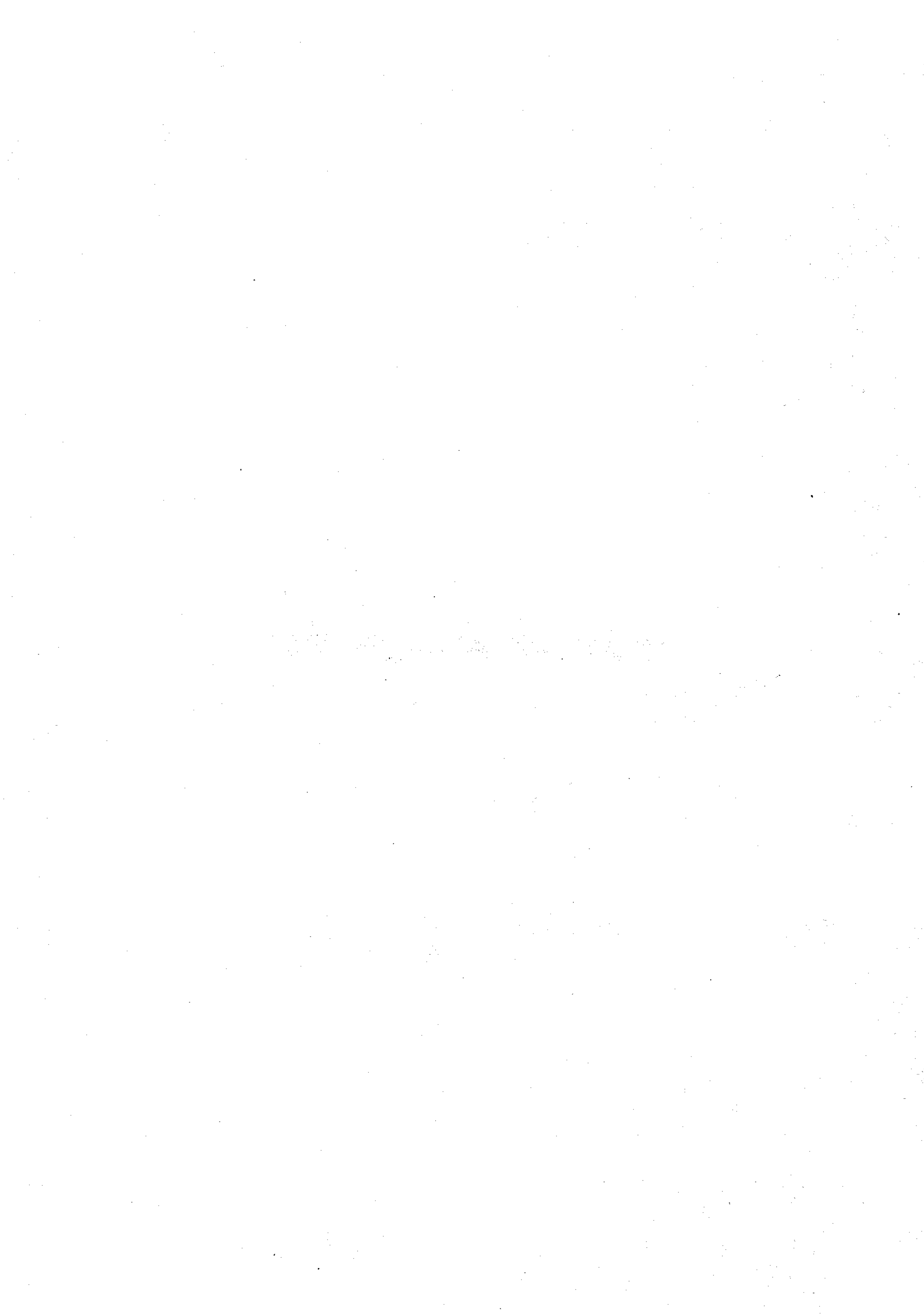
عيسى ابن مريم عليه السلام : صحابي ، ونبي ، فإنه رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وسلم عليه ، فهو آخر الصحابة موتا[1] .

* * *

(1) تجريد أسماء الصحابة (1 / 432) .



ذلك جزيناهم بما كفروا



□ ذلك جزيناهم بما كفروا □

سبحان الحكم العدل الحكيم ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون** ﴾ [الروم : ٩ - ١٠] .

قال ابن كثير :

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وقتادة وهو الظاهر(١) .

إنما أوتوا من قِبل أنفسهم كما قال : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

من زرع الشوك لا يحصد الورد ، ومن استنبت الحشيش لم يقطف الثمار ، ومن سلك طريق الغيّ لم يحلل بساحة الرشد ، في الدنيا الهلاك والبوار ، وفي الآخرة مصيرهم إلى النار .

إنّ السَّفاهةَ صِيغتْ من خلائقهمْ   لا بارك الله في القوم الملاعينِ

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم أساءوا ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه القيم أضواء البيان :

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٢ - ٣١٣) .

أغرق الله فرعون وقوم نوح ، وأخذ ثمود بالصيحة ، وعادًا بريح ، وقوم لوط بقلب قُراهم ، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل ، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها ، أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله، والواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلًا[١] .

فهل كان نوع العذاب لكل قوم من جنس عملهم ؟

هذا الذي سنحاول توضيحه بعون الله تعالى في هذا الفصل .

○ قوم نوح ○

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[٢] .

قال الحافظ :

وقصة الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك[٣] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم عُبدت[٤] .

فأرسل إليهم نوحًا أول رسول للبشر ، وهو أحد أولي العزم من الرسل ، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل ، في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا .

---

(١) أضواء البيان (٨/٤٤١ - ٤٤٢) .

(٢) رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفًا ، وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي .

(٣) فتح الباري (٨ / ٥٣٧) . (٤) فتح الباري (٨ / ٥٣٥) .

وقد كان نوح مفصحًا مع هذا عن نذارته ، مبينًا عن حُجته ، لا يتمتم ولا يجمجم ، لا يتلعثم في دعوته ، ولا يدع لبسًا ولا غموضًا في صفة ما يدعو إليه ، وهم لا يواجهونه إلا بإعراض واستكبار واستهزاء : ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ [العنكبوت : ١٤] وكان كلما انقرض جيل وصوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش ، ودائمًا ما بقي .

بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء ، وبعد كل هذا التوجيه ، والتنوير ، والإنذار ، والإطماع ، والوعد بالمال والبنين والرخاء ، بعد هذا كله كان العصيان ، وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصه في كتابه : ﴿ **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] . فدعا نوح على قومه : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** ﴾ [الصافات : ٧٥] .

وأوحى الله إلى نبيه نوح: ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] حتى ما تحمله أرحامهم إن قُدِّر لهم الخروج إلى الدنيا ، لا يسوءنك فإن النصر قريب ، والنبأ عجب عجيب .

وهنا دعا على قومه : ﴿ **وقال نوحٌ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ - ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ [هود : ٣٨ - ٣٩] .

قال العلامة الألوسي - رحمه الله :

استهزءوا به لعمله السفينة ؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها ، فتعجبوا من ذلك ، وسخروا منه ، وإما لأنه - عليه السلام - كان

يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون ، ويقولون : يا نوح ، صرت نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا .

قال : إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب ، فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض . إنها منه - عليه السلام - لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح[1] .

وقال ابن جريج :

إن تسخروا منا في الدنيا ، فإنا نسخر منكم في الدنيا والآخرة ، في الدنيا عند الغرق ، وفي الآخرة عند الحَرَق .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا :

نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدًا لما يحل عليكم ، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل ، وبما سيكون من عاقبة أمرنا، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يذله ، ويجلب له العار والتبار في الدنيا ، ويحل عليه عذاب مقيم بعد ذلك في الآخرة[2].

اليوم لكم فرح وغدًا ترح ، اليوم حبرة وغدًا عبرة ، اليوم لطف وغدًا أسف ، اليوم لقاء وغدًا بكاء ، يوم ينكشف المستور عن المحذور !

يقول الشيخ الشنقيطي :

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وأصبحوا لا يلدوا[3] إلا فاجرا كفارا ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان[4] .

وقال الشيخ سيد قطب :

قد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص ، الذي انتهى إليه القوم في زمانه ؛ ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ، وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير ﴿ **وقيل بعدًا للقوم الظالمين** ﴾ [هود : ٤٤] بُعدًا لهم من

---

(١) روح المعاني (١١ / ٥٠ - ٥١) .
(٢) تفسير المنار (١٢ / ٧٤) .
(٣) هكذا في الأضواء ، وصوابها يلدون .
(٤) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

الحياة فقد ذهبوا ، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لُعنوا ، وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى[١] .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدًا للقوم الظالمين ﴾ [هود : ٤٤] .

قال ابن كثير :

الجودي : قال مجاهد : هو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال القرطبي :

لما تواضع الجودي وخضع عزّ ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ ، وهذه سنة الله في خلقه ، يرفع من يخشع ، ويضع من ترفّع ، ولقد أحسن القائل :

وإذا تذللتِ الرقابُ تخضُّعًا منّا إليك فعزها في ذلك[٣]

يذكر الله مصرع هؤلاء الملاعين بآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستذلت مصافع العرب فسفعت بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنها نطاق البيان ، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات المؤمنة .

والعجيب أن هذه الآية كانت كطوفان نوح على أهل الفصاحة ومن أرادوا أن يعارضوا القرآن .

---

(١) الظلال (٣٧١٧/٦) ، (١٨٧٩/٤) .

(٢) ابن كثير (٢٥٦/٤) ، الطبري (٣٣٧/١٥) .

(٣) القرطبي (٥ / ٣٢٧٠) .

يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن ، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يومًا ؛ لتصفو أذهانهم ، فلما أخذوا فيما قصدوه ، وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا .

ويروى أيضًا أن ابن المقفع - وكان كما في القاموس فصيحًا بليغًا ، بل قيل : إنه أفصح أهل وقته - رام أن يعارض القرآن فنظم كلامًا ، وجعله مفصلا ، وسماه سورا ، فاجتاز يوما بصبي يقرؤها في مكتب ، فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا وما هو من كلام البشر[1] .

لطيفة :

لمّا عمّ أهل الأرض العمى عمّا خُلقوا له ، بُعث نوح بجلاء أبصار البصائر فمكث يداويهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكلهم عن المحجة تعامى ، فلاح للاحي عدم فلاحهم ، وناله اليأس من صلاحهم ، وبعث شكاية الأذى في مسطور : ﴿ **رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا**﴾ [نوح : ٢١] فأذن مؤذن الطرد : ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ [هود : ٣٦] ، فقام نوح في محراب : ﴿ **لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] .

فات النور ﴿ **وفار التنور** ﴾ [هود : ٤٠] ، وقيل : يا نوح قد حان الحين : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ [القمر : ١١ - ١٢] .

أتى الماء في موج كالجبال ، يغسل ويطهر الأرض من جبال الخطايا ودنس الشرك ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) روح المعاني (١١ / ٦٣) .

○ قصة عاد ○

وقد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهي جبالِ الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر ، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وقد أعطاهم الله بسطة في الجسم .

قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منَّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ [الأعراف : ٦٩] فجعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش .

قال تعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩] أرسل الله إليهم نبيه هودًا ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فلما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أهلكهم الله .

أما تفصيل إهلاكهم : فقد قال ابن إسحاق : لما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه ، إنما يطلبونه منه بحرمه ومكان بيته - وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون - ، وكان سيدهم[1] إذ ذاك رجلًا يقال له : معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم

---

(١) أي سيد العماليق .

عاد واسمها : جلهذة بنة الخيبري – قال : فبعثت عاد وفدًا قريبا من سبعين رجلًا ؛ ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه ، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان – قينتان لمعاوية – وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومهم ، واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرِّض لهم بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيلُ ويحكَ قمْ فَهَيِّمْ ... لعلّ اللهَ يمنحنا غمامَا
فيسقي أرض عاد إنّ عادًا ... قد امسوا لا يُبِينُونَ الكلامَا
من العطشِ الشديدِ فليس نرجو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... لقد أمستْ نساؤهمُ أَيامَا
وإن الوحش يأتيهم جهارًا ... ولا يخشى لعاديٍّ سهامَا[1]
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتمْ ... نهارُكُمُ وليلكُمُ تمامَا
فَقُبِّحَ وفدكُمْ من وفد قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلامَا

قال : فعند ذلك تنبه القوم لِمَا جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعَوْا لقومهم فدعا داعيهم – وهو قيل بن عنز – فأنشأ الله سحابات ثلاثًا : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء : اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب . قال : فاخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً . فناداه : اخترت رمادًا رمددًا ، لا تبقي من عاد أحدًا ، لا والدًا تترك ولا ولدًا إلا جعلته همدًا ، إلا بني اللودية الهمدا . قال : وهو بطن من عادٍ كانو مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم ، قال : ومَنْ بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة . وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له : المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ﴿ **فلمَّا رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم**

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥] ، أي كل شيء أُمرت به ، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها : فهد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا فهد ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار ، أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك ، قال : واعتزل هود عليه السلام فيما ذُكر لي ، هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلّا ما يلين عليهم الجلود ويلذ الأنفس ، وإنما تمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض . قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ [الحاقة : ٦] لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن : ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] كوامل متتابعات ، ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ [الحاقة : ٧] مصروعين مجدلين متناثرين ، كأنهم أعجاز نخل بجذوعها وأصولها فارغة ، تآكلت أجوافها ، فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ، كانت الريح تجيء إلى أحدهم فتحمله ، فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ [القمر : ١٩ ، ٢٠] وقال تعالى : ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات: ٤١ ،٤٢]. هذه الريح ما أنتجت خيرًا ، ما نثرت سحابًا ولا لقحت شجرًا .

وقال ابن حجر في قوله تعالى : ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ [الحاقة : ٨] قال البخاري : بقية ، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوي ، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة[١] اهـ .

وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٥) .

وعن عليّ موقوفًا ، فيما أخرجه ابن أبي حاتم ، قال : « لم ينزل الله شيئًا من الريح إلا بوزن على يدي ملك ، إلا يوم عادٍ فإنه أُذن لها دون الخزّان فعتت على الخزّان »[١].

قال الحافظ في الفتح : كانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جنانا فلما سخط الله - جل وعلا - عليهم جعلها مفاوز[٢] .

عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال : قدمت المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت عنده وافدَ عاد ، فقلت : أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله ﷺ : **«وما وافد عاد؟» قال: فقلت: على الخبير** بها سقطت ؛ إن عادًا لما أقحطت بعثت قيلًا ، فنزل على بكر بن معاوية ابن وائل ، فسقاه الخمر ، وغنته الجرادتان ، ثم خرج يريد جبال مهرة ، فقال : اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ، ولا لأسير فأفاديه ، فاسق عبدك ما كنت مسقيه ، واسق معه بكر بن معاوية - يشكر له الخمر الذي سقاه - فرفع له سحابات ، فقيل له : اختر إحداهن ، فاختار السوداء منهن ، فقيل له : خذها رمادًا رمددًا ، لا تذر من عاد أحدًا . وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة - يعني حلقة الخاتم - ثم قرأ : ﴿ **إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] .

قال ابن حجر في حديث : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » أي قتلًا فلا يبقي منهم أحدًا .

لطيفـة

لمّا تجبر قوم عاد ، في ظل ظلل ضلالهم ، حين أملى الأمل وطول البقاء ، وزوي ذكر زوالهم . ومرّوا في مشارع عذاب الملاهي . ناسين مرّ عَذابها ، رافلين في حلل الغفلة عن المنية وآدابها ، أقبل هود يهديهم ، ويناديهم في ناديهم

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٤ - ٤٣٥) ومن طريق قبيصة بن ذؤيب أحد كبار التابعين ، نحوه بسند صحيح .

(٢) فتح الباري (٦/٤٣٤) .

﴿ **اعبدوا الله** ﴾ [الأعراف : ٦٥] فبرزوا في عتو ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] ، فسحب سحاب العذاب ذَيلَ الإدبار بإقباله إلى قبالتهم ، فظنوه لما اعترض عارض مطر ، فتهادوا تباشير البشارة ، بتهادي بشارة ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فصاح بلبل البلبال فبلبل ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ [الأحقاف : ٢٤]، فكان كلما دنا وترامى ، ترى ما كان كأن لم يكن ، فحنظلت شجرات مشاجرتهم هودا ، فجنى مَنْ جنى من جنا ما جنى(١) ، في مغنى ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم** ﴾ [الأحقاف : ٢٦] فراحت ريح الدبور ، لكي تَسِمْ الأدبار بكيِّ الأدبار ، فعجّوا منها عجيج الأدبر . فلم تزل تكوى تكوينهم بميسم العدم ، وتلوى تلوينهم إلى حياض دم الندم . وتكفأ عليهم الرمال فتكفى تكفينهم . وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقينًا يَقِينَهم(٢) .

فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس ﴿ **تنزع الناس** ﴾ [القمر : ٢٠] وإذا أمست أوقعت عريضهم في عرض ﴿ **كأنهم أعجاز نخل** ﴾ [الحاقة : ٧] فما برحت بارحهم(٣) عن براحهم حتى برّحت بهم ، ولا أقلعت حتى قلعت قلوع(٤) قلاعهم ، فدامت عليهم آفة وداء ، لا تقبل فداء ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] فحسوا ما أذاقهم من سوء ما سوما ، ونسفوا في قفر ﴿ **ألا بعدًا** ﴾ [هود : ٦٠] إلى يمٍّ ﴿ **وأتبعوا** ﴾ [هود : ٦٠] . فلو عبرت في معبر الاعتبار ، لترى ما آل إليه مآلهم لرأيت التَّوى(٥) كيف التوى عليهم ، وكفّ النَّوى كيف نوى الدنوّ إليهم ، فانظر في عواقب الخلاف ، فإنه شافٍ كافٍ(٦) .

فانظر كيف كان عقاب عاد من جنس أعمالهم .

فعاد لطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] وسواء عماد بيوتهم وقصورهم فهو كناية عن طول أجسادهم ووفرة أموالهم ، وتوافر القوة عندهم ،

---

(١) جنى : من جنى الثمر، ما جنى: من الجناية. (٢) يمنعنهم .

(٣) الريح الحارة . (٤) الشراع . (٥) الهلاك . (٦) المدهش ص٧٧-٧٨.

فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة[١] .

﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كلّ جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ألا إن عادًا كفروا ربهم ألا بعدًا لعادٍ قوم هود ﴾ [هود : ٥٩ - ٦٠] .

○ ثمــود ○

وهم قوم نبي الله صالح - عليه السلام - وكانوا عربًا من العاربة ، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، بعث الله فيهم رجلًا منهم وهو صالح عبد الله ورسوله ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئًا ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وقد بلغت قلوبهم من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر بشاشة قول نبي الله صالح **﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾** [هود : ٦٢] .

إنها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيالخيبة الرجاء فيك[٢]

قال ابن كثير :

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح ﷺ فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ، ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك[٣]- ناقة من صفتها كيت وكيت[٤] ، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبي صالح - عليه السلام - :

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) . (٢) الظلال (٤ / ١٩٠٧) .

(٣) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : يقال لهذه الصخرة : الكاتبة .

(٤) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : ناقة عشراء تمخض أي يأخذها الطلق .

أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم ، على الوجه الذي طلبتم أتأمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ . قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له ، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلمّا عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيمًا ، ومنظرًا هائلًا ، وقدرة باهرةً ، ودليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ولهذا قال : ﴿ **فظلموا بها** ﴾ [الإسراء : ٥٩] وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو ، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهمّ بالإسلام ، فنهاه المشركون فمال إليهم ، وفي هذا يقول رجل من المسلمين يقال له : مهرش بن غنمة بن الذميل - رحمه الله - :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابَا
عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهَمَّ بأن يجيب ولو أجابَا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهمْ ذُؤابَا
ولكنَّ الغواة من ال حجر ... تولوا بعد رشدهمُ ذئابَا[1]

وقال لهم صالح - عليه السلام - : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ [هود : ٦٤] ، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يومًا بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ [الشعراء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾ [القمر : ٢٨] ، فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم على أن

(١) وفي بعض الروايات ذبابا .

يعقروا الناقة ؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم[(١)] .

قال قتادة : بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها ، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قال ابن كثير :

وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها** ﴾ [الشمس : ١٤] وقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ [الأعراف : ٧٧] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة فدلّ على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم[(٢)] .

قال ابن كثير :

ذكر الإمام ابن جرير - رحمه الله - وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة أن امرأة منهم ، يقال لها : عنيزة بنة غنم بن مجلز ، وتكنى أم غنم ، كانت عجوزًا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوةً لصالح - عليه السلام - ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل ،وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرى يُقال لها : صدوف بنة المحيا بن دهر بن المحيا ، ذات حسب وجمال ، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت صدوف رجلًا يقال له : الحباب . وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة ، فأبى عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج ابن المحيا ، فأجابها إلى ذلك . ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جُندع وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا ، يزعمون أنه ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه - وهو سالف - وإنما هو من رجل يقال له : صهياد[(٣)] ،

---

(١) البداية والنهاية بتصرف (١ / ١٢٦ - ١٢٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٣٧) .

(٣) في البداية والنهاية (١ / ١٢٧) : صبيان .

ولكن ولد على فراش سالف ، وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة ! فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ [النمل : ٤٨] ، وكانوا رؤساء في قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة ، فطاوعتهم على ذلك ، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى ، فمرّت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهًا لقدار وذمرته[١] ، فشد على الناقة بالسيف ، فكسف عرقوبها[٢] ، فخرّت ساقطة إلى الأرض ، ورغت رغاة واحدة تحذر سقْبها[٣] ، ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلًا منيعًا ، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا . ويقال : إنه رغا ثلاث مرات ، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعقروه مع أمه ، والله أعلم[٤] .

فلمّا فعلوا ذلك ، وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحا - عليه السلام - فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى ، وقال : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ [هود : ٦٥] .

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقًا عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته : ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] فلما عزموا

---

(١) ذمرته : شجعته وحثته وحرضته . (٢) كسف عرقوبها : أي قطعه .

(٣) السّقب : ولد الناقة . (٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨) .

على ذلك وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح ، أرسل الله - سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة . فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذًا بالله من ذلك ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس ، فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] صرعى لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى - قالوا : إلا جارية كانت مقعدة - واسمها : كلبة ابنة السِّلْق . ويقال لها : الزريقة . وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أُطْلِقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأتت حيًا من الأحياء ، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها ، ثم استسقتهم من الماء ، فلما شربت ماتت .

وفي مسند أحمد عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجّ ، وتصدر من هذا الفجّ ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يومًا ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله » . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رِغال ، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه »[1].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦ / ٤٣٩) : رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن عن جابر يرفعه . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٣٦) : هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين ؟ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه ، حتى يبلَّ منها هذه »[١] .

قال تعالى : ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾ [القمر : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة** ﴾ [القمر : ٣١] .

قال الشنقيطي :

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ؛ لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببًا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية[٢].

والجزاء من جنس العمل .

لم تبق منهم باقية ، خمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات .

قال تعالى : ﴿ **فقالوا أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر** ﴾ [القمر : ٢٤- ٢٥].

إنها الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، ولكن إلى الداعية ، فتستكبر من اتباع فرد من البشر ؛ مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم ، ومِنْ ثم يقولون لأنفسهم : ﴿ **أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر** ﴾ [القمر : ٢٤] أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم في سُعُر - لا سعير واحد - إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن عمار بن ياسر ، وأحمد في مسنده والنسائي في الخصائص ، والطحاوي ، والبزار ، وقال الهيثمي : رجال البزار موثقون ، غير أن التابعي لم يدرك عمارًا ، وصححه السيوطي والألباني انظر صحيح الجامع ٢٥٨٦ ، والصحيحة ١٧٤٣ .

(٢) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

قال صاحب المنار :

في عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف أنهم أخذتهم الرجفة كما في آيتي ٧٧/٩٠ .

وفي مدين من سورة العنكبوت الآية ٣٧ ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ .

وفي فصلت في ثمود : ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ [فصلت : ١٧].

وفي سورة الذاريات : ﴿ **فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون** ﴾ [الذاريات : ٤٤].

والرجفة هي الهزة والاضطرابة الشديدة ، وهي تصدق باضطراب أبدانهم وأفئدتهم كأرضهم ، فالجامع بين هذه الألفاظ أن الله تعالى أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد ، فرجفوا أو رجفت أرضهم ، وزلزلت من شدتها وخروا ميتين(١) .

قال القاسمي :

قال الرازي : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهي الرجفة ، والطاغية ، والصيحة .

والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة ، ويقال : طغى طغيانًا ، وهو طاغٍ وطاغية وقال في غير الحيوان : ﴿**إنا لما طغا الماء**﴾ [الحاقة : ١١] . أي غلب وتجاوز الحد.

وأما الرجفة : فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد . فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها .

وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة .

وأما الصاعقة : فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿ **فإنما**

---

(١) المنار (١٢ / ١٥٠) .

هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] فبطل ما زعمه ذلك البعض[١] .

ما ألطف قول عمادة اليمن :

لا تعجبًا لقدار ناقة صالح فلكل عصر ناقة وقـدار[٢]

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

قال القاسمي :

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزوع الروح .

﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها .

يقول الشيخ سيد قطب في لفتة طيبة ، رابطًا بين العمل والجزاء ، مبينًا أن الجزاء مِن جنس العمل :

﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : **﴿ عتوا ﴾** لإبراز سمة التبجح فيها ؛ وليصور الشعور النفسي المصاحب لها ، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير .

ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك : **﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾** [الأعراف : ٧٨] .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ؛ فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتي أن يرتجف ، وما أجدر المعتدي أن يعجز . جزاءً وفاقًا في المصير . وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٧ / ٢٧٩٦) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٦٨/٧)، (١٦٨/٨) .

ويدعهم السياق على هيئتهم : ﴿ **جاثمين** ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه : ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ [الأعراف : ٧٩] إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب ...

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين[١] .

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة** ﴾ [القمر : ٣١] وإن كانت في موضع آخر في سورة فصلت توصف بأنها صاعقة ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ [فصلت : ١٣] وقد تكون كلمة صاعقة وصفًا للصيحة ، فهي صيحة صاعقة ، وقد تكون تعبيرًا عن حقيقتها فتكون الصيحة والصاعقة شيئًا واحدًا . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة ، أو تكون الصاعقة أثرًا من آثار الصيحة .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، فعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم ﴿ **كهشيم المحتظر** ﴾ [القمر : ٣١] والمحتظر صانع الحظيرة ، وهو يصنعها من أعواد جافة ، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيمًا . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيمًا تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف .

وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الخامدة !

وهو مشهد مفجع مفزع ، يعرض ردًّا على التعالي والتكبر ، فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين كهشيم المحتظر[٢]!

وقال تعالى : ﴿ **ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ **وكانو ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين . فأخذتهم الصيحة**

---

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٣١٤) . (٢) الظلال (٦ / ٣٤٣٣) .

مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٨٢ - ٨٤] .

هذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئًا يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة ، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور ، وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع ، فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصن موهوب ، صيحة تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين[١] .

لطيفة :

لما أعرضت ثمود عن كل فعل صالح ، بُعث إليهم للإصلاح صالح ، فتعنت عليه ناقة أهوائهم بطلب ناقة ، فخرجت من صخرة صماء تقبقب[٢] ثم فصل منها فصيل يرغو ، فأرتعت حول نهي نهيهم منها ، في حمى حماية : **﴿ ولا تمسوها ﴾** [هود : ٦٤] ، فاحتاجت إلى الماء ، وهو قليل عندهم ، فقال حاكم الوحي : **﴿ لها شرب ﴾** [الشعراء : ١٥٥] ، فكانت يوم ورودها ، تقضي دَيْن الماء بماء درها . فاجتمعوا في حلة الحيلة ، على شاطىء غدير الغدر ، فدار قدار حول عطن[٣] **﴿ فتعاطى ﴾** [القمر : ٢٩] ، فصاب عليهم صيب صاب صاعقة العذاب الهون ، فحين دنا وديدن ، دمغهم دمار **﴿ فدمدم ﴾** [الشمس : ١٤] فأصبحت المنازل لهول النازل : **﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾** [يونس : ٢٤] صيحة كانت البداية . وصيحة كانت جزاء ونهاية .

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين ، وانظروا سوء تدبير الخاسرين ، لا بالناقة اعتبروا ، ولا لتعويضهم اللبن شكروا ، وعتَوْا عن النِّعَمِ وبطروا ، وعَمُوا عن الكرم فما نُظِروا ، وأُوعدوا بالعذاب فما حذروا ، كلما رأوا آية من الآيات كفروا .

---

(١) الظلال (٤/٢١٥١-٢١٥٢) .   (٢) تقبقب : تصوت.   (٣) مناخ .

الطبع الخبيث لا يتغيّر ، والمقدَّر ضَلَالُه لا يزال يتحير ، خرجت إليهم ناقة من أحسن النَّعَم ، ودرّ لبنها لهم فتواترت النِّعَم ، فكفروا وما شكروا ، فأقبلت النقم .

أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من موجبات الخسران إنه إذا لطف صان[1].

○ قوم إبراهيـــم ○

يقص الله تعالى ما كان بين إبراهيم وقومه ، بعد علمهم بتكسيره كبير أصنامهم : ﴿ **قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ - ٧٠].

وقال تعالى : ﴿ **قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال ابن كثير - رحمه الله -:

شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى جوبة[2] عظيمة ، فوضعوا فيها الحطب ، وأطلقوا فيه النَّار ، فاضطرمت ، وتأججت ، والتهبت ، وعلا لها شرر لم ير مثله قط[3] ، ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد ، يقال له : هزن[4].

فماذا كان جزاؤه ؟

قال الألوسي :

---

(١) التبصرة ١ / ٩٥ -٩٦ .
(٢) حفرة .
(٣) حتى إن الطير تمر بها فتحترق من شدة وهجها .
(٤) البداية والنهاية (١ / ١٣٧ - ١٣٨) .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال : أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم - عليه السلام - بالنار ؟ قلت : لا . قال : رجل من أعراب فارس يعني : الأكراد . ونص على أنه من الأكراد ابن عطية ، وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، واسمه على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي : هيون[1].

وقال ابن كثير :

وجعلوا إبراهيم في كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شعيب الجبائي : اسمه هيزن - فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[2] .

وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله : أراد وضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق ؛ ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا .

﴿ قالوا حَرِّقوه ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

يُروى أنهم بنوا لإبراهيم بنيانًا وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعرق عرقًا ، فقال لهم حارث أبو لوط : إن النار لا تحرقه ؛ لأنه سحر النار ، ولكن اجعلوه على شيء ، وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله ، فجعلوه فوق شيء وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته[3] .

وروى نفس القصة الألوسي في روح المعاني وغيّر اسم أبي لوط إلى هاران.

وزاد : أخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي ﷺ أن أبا لوط قال - وكان عمه - : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني ،

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧/٦٧-٦٨). (٢) تفسير ابن كثير (٥/٣٤٥) .

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش تفسير الطبري (٩ / ٣٦) طبعة دار الريان للتراث .

فأرسل الله تعالى عنقا من النار فأحرقه[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وانظر - رحمك الله - كيف يبدو لك بجلاء أن الجزاء من جنس العمل من هذه الآية : ﴿ **فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال العلامة القمي :

أججوا نارًا عظيمة وبنوا بناءً عاليًا ، ورفعوه إليه ورموا به إلى أسفل ، فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من السافلين ، وفي العقبى من السافلين[2] .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٧٠] أي : المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك[3].

وقال الألوسي :

فأرادوا به كيدا بسوء احتيال ، فإنه - عليه السلام - لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك ؛ لئلا يظهر للعامة عجزهم : ﴿ **فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] الأذلين بإبطال كيدهم ، وجعله برهانًا ظاهرًا ظهور نار القِرى ليلًا على علم ، على علوّ شأنه - عليه السلام - حيث جعل سبحانه النار عليه بردًا وسلامًا[4].

جزاء الوزغ من جنس عمله :

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله ؛ إذ كان مشاركًا لهم ، فقد روى البخاري عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[5] ، وقال : « وكان ينفخ على إبراهيم »[6] ووقع في حديث عائشة : أن إبراهيم لما ألقي في

---

(١) روح المعاني (١٧ / ٦٩) .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٩ / ٣٦) .

(٣) ابن كثير (٥ / ٣٤٧) .

(٤) روح المعاني (٢٣ / ١٢٦) .

(٥) سام أبرص .

(٦) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

النار لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه ، إلا الوزغ ، فإنها كانت تنفخ عليه ، فأمر النبي ﷺ بقتلها[1] .

وجزاؤها من جنس عملها .

لا بارك الله أرواح الملاعين من قوم إبراهيم .

قال ابن كثير :

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يَغْلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا وسلاما ، ولا يلقّون فيها تحية ولا سلاما ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾[2] اهـ .

النمرود بن كنعان :

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال ابن جرير :

قال مجاهد : ﴿ **أنا أحيي وأميت** ﴾ أقتل من شئت وأستحيي من شئت أدعه حيّا فلا أقتله ، وقال : ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران : بختنصر ، ونمرود بن كنعان لم يملكها غيرهم .

قال زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض نمرود ، فكان الناس يخرجون

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٥٥) ، والحديث عند ابن ماجة وأحمد .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٣٨) .

فيمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع مَنْ يمتار ، فإذا مرّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت حتى مر إبراهيم ، فقال له : من ربك ؟ قال : ﴿ **الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر** ﴾ قال : فرده بغير طعام . قال : فرجع إبراهيم على أهله فمر على كثيب من رمل أعفر ، فقال : ألا آخذ من هذا فآتي به أهلي ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم . فأخذ منه فأتى أهله ، قال : فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هي بأجود طعام رأته فصنعت له منه ، فقربته إليه وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به . فعلم أن الله رزقه فحمد الله .

ثم بعث الله إلى الجبار مَلَكًا أن آمن بي وأتركك على ملكك . قال : وهل رب غيري ؟ فجاءه الثانية : فقال له ذلك ، فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه ، فأمر الله الملك ففتح عليه بابًا من البعوض ، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم ، فأكلت من لحومهم ، وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه ، وكان جبارًا أربعمائة عام ، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذي بنى صرحًا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد ، وهو الذي قال الله : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾[1] [النحل : ٢٦] .

قال ابن كثير :

مكثت في منخره أربعمائة سنة ، عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها[2] .

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ١٨) .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٤١) .

هذا خذلان لرأس الطاغين فكيف بالأذناب الأرذلين .

انظر إلى الذي جادل إبراهيم فجَدَّ لَهُ فجدله[(١)] ، وأبرز نور الهدى في حجة ﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ ، فقابله نمرود يسهى السهو في ظلام ﴿ **أنا أحيي** ﴾، فألقاه كاللقا على عجز العجز بآفات : ﴿ **فأت بها ... فبهت ..** ﴾ .

لما استكبر وادّعى الربوبية عاقبه الله بأضعف شيء ؛ بالبعوضة في منخره الذي هو علامة العزة ، فانظر كيف أذله الله ، ونفس مدة ملكه عذبه الله .

والجزاء من جنس العمل .

حكاية سارة - رضي الله عنها - مع جبار من الجبابرة :

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل - قوله : ﴿ **إني سقيم** ﴾، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ » وقال : « بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة ، فقيل له ، إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : مَنْ هذه ؟. قال : أختي . فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأُخِذَ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي ، فأومأ بيده : مَهْيَم ؟ . قالت : رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره ، وأخدم هاجر ».

قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء[(٢)].

---

(١) غلبه في الجدل .

(٢) رواه أيضًا مسلم ، والبخاري ، وقد صرّح برفعه في النكاح ، والنسائي ، والبزار ، وابن حبان ، وأحمد .

قال ابن حجر :

اسم الجبار المذكور عمرو بن امرىء القيس بن سبأ ، وأنه كان على مصر ، ذكره السهيلي ، وهو قول ابن هشام في التيجان ، وقيل:اسمه : صادوق ، وحكاه ابن قتيبة وكان على الأردن ، وقيل : سنان بن علوان حكاه الطبري ، ويقال : إنه أخو الضحاك الذي ملك الأقاليم[١].

وعند مسلم : **فلما دخلت عليه - أي على الملك - لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة .**

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دُعي إلى آلهتهم فقال : ﴿ **إني سقيم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ ، وقوله لسارة : « إنها أختي » ، ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ، أو جبار من الجبابرة ، فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟. قال:أختي . قال : فأرسل بها . فأرسل بها إليه ، وقال : لا تكذبي ، قولي فإني قد أخبرته أنك أختي ، إنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم ، إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر ، فغُطّ[٢] حتى ركض برجله ، قال أبو هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هي قتلته ، قال فأُرسل ، قال : ثم قام إليها ... وكذا في الثانية والمرة الثالثة أو الرابعة . فقال : ما أرسلتم إليّ إلا شيطانًا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، فرجعت فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين ، وأخدم وليدة[٣].

قال ابن حجر :

---

(١) الفتح (٤٥١/٦) .

(٢) أي : كُبِس وعُصِر عصرة شديدة حتى ليكاد يختنق .

(٣) تفرد به أحمد ، وهو على شرط الصحيح ، انظر البداية والنهاية (١٤٣/١) .

ويمكن الجمع بأنه عوقب تارة بقبض يده وتارة بالصراعة[1] .

فانظر لمّا مدّ الجبار يده قبضت يده ، ولما خطا برجله غُطَّ ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

○ قـوم لـوط ○

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأردن ، بطريق الشام مكان البحر الميت الآن ، وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوّية ، وأردأهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحلَّ الله بهم من البأس الذي لا يُرَدّ ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مُثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألِبَّاء من العالمين ، ولهذا ذكر الله – تعالى – قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين ، فقال تعالى : ﴿ **ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسرِ بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ إلى أن قال تعالى :

---

(١) فتح الباري (٤٥٣/٦) .

﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم﴾ [الحجر :٦١-٧٦].

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر ﴾ [القمر : ٣٤ - ٣٩] .

لنقف مع هؤلاء القوم وتصوير القرآن لجرمهم وقفة .

قال المفسرون : لما فصلتِ الملائكة من عند إبراهيم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان ؛ اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطًا – عليه السلام – وذلك عند غروب الشمس ، فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره ، وحسبهم بشرًا من الناس ﴿ سيىء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب ﴾ [هود : ٧٧] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما نعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحدًا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه ، وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا ، فاستحى منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية ، وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمِروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1].

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط ، قال تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ [الحجر : ٦٧] .

لقد تسامعوا أن في بيت لوط شبابًا صباحَ الوجوه ، ففرحوا بأن هناك

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير (١ / ١٦٨) .

صيدًا ، والتعبير على هذا النحو يكشف مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور ، في الفاحشة الشاذة المريضة ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعةً يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع ، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، أو يتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء ، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس ، وإن الفطر السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية ، بل حين تكون شرعية ، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك ، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ؟ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

وفي موقف آخر يقول الله تعالى : ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ [هود : ٧٨] . رأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر** ﴾ [القمر : ٣٦ - ٣٧] بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - قد حسبوهم غلمانًا صباحًا فهاج سعارهم الشاذ الملوّث القذر ، وساوروا لوطًا ، يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

ولقد حاول نبي الله لوط أن يوقظ فيهم الفطر السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال : ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم** ﴾ [هود : ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم - وهن بناته شرعًا ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، وهو الذي نص عليه مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن إسحاق ، وقتادة ، وهو الصواب - أطهر بكل معاني الطهر : النفس ، والحس ، فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة : نظافة

فطرية ، ونظافة أخلاقية ، ودينية . ثم هن أطهر حسيا ، حيث جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرًا نظيفًا .

﴿ **فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي** ﴾ [هود : ٧٨] قالها يلتمس نخوتهم ، وتقاليد البدو في إكرام الضيف ، وقف يستثير النخوةَ الآدمية فيهم ، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع .

﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ [هود : ٧٨] فالقضية قضية رشد وسفه ، إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة ، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة ، وظلت الفورة المريضة في اندفاعها المحموم .

وبدلًا من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء ، إذا هم يَتَبَجَّحُون ، فيؤنبون لوطًا على استضافة الرجال ، كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة ، ودفعهم إليها ، وهم لا يملكون له دفاعا !! ﴿ **قالوا أولم ننهك عن العالمين** ﴾ [الحجر : ٧٠] .

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ [هود : ٧٩] وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأُسقط في يد لوطٍ وأحس ضعفه ، وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾ [هود : ٨٠] وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد ، ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه ، كما قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية[1] :

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا – عليه السلام – جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم ،

---

(١) (١ / ١٦٩) .

وينهاهم من وراء الباب ، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه ، فطمست أعينهم ، حتى قال : إنها غارت بالكلية ، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن . فتقدمت الملائكة إلى لوط ، آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه ، إلا امرأتك سيصيبها ما أصابهم .

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ - وكُن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعمائة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ [الحجر : ٧٤] ، [هود : ٨٢] وهو الشديد الصلب القوي ﴿ **منضود** ﴾ [هود : ٨٢] أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء ، ﴿ **مسومة** ﴾ [هود : ٨٣] يعني معلمة ؛ مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه .

فكيف كان جزاؤهم من جنس عملهم ؟

قال تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ [النمل : ٥٦] .

تهكموا منهم بالتطهر من هذا الرجس القذر ، وقد يكون إنكارًا عليه أن يسمى هذا تطهرًا فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة ، وقد يكون ضيقًا بالطهر والتطهر ، إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!.

لمّا عميت بصيرتهم أعمى جبريل أبصارهم ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ [القمر : ٣٧].

لمّا قلبوا الفطرة ، قلب الله قراهم ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها** ﴾ [هود : ٨٢]، [الحجر : ٧٤] .

يقول الشنقيطي :

قوم لوط لكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم ، والعلم عند الله تعالى . اهـ[١].

قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : ٥٣] يعني المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها .

﴿ وجعلنا عاليها سافلها ﴾ [هود : ٨٢] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها ، وهذا القلب ، وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة ، المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين ﴾ [النمل : ٥٨] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله -:

ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له ، وهو أن يكون مادة حياة وخصب ، والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره ، إن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشيخ سيد قطب :

وقد أمطروا مطرًا مهلكًا ، مع ما صاحبه من عواصف ، ترى كان هذا

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٣) . (٢) الظلال (٤ / ١٩١٥) .

(٣) الظلال (٥/٢٦٤٨) .

المطر المغرق والماء الدافق ؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه ، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه[١] .

وقال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل ﴾ [هود : ٨٢] .

حجارة ملوثة بالطين ، وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام .

﴿ منضود ﴾ [هود : ٨٢] متراكم متتابع ، مثل تتابعهم على بيت لوط .

﴿ مسّومة عند ربك ﴾ [هود : ٨٣] كما تسوم الماشية أي تربى وتطلق بكثرة ، فكأنما هذه الحجارة مرباة ومطلقة ؛ لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة .

قال الشنقيطي : السجيل هو الطين الشديد القوي يصدق ذلك : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ [الذاريات : ٣٣] وقال الراغب : حجر وطين مختلط .

﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : ٧٦] .

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غيّر الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة[٢] ؟ . وجعل مكانها بحيرة منتنة .

لما أعرضوا عن الطهارة ماذا كان جزاؤهم ؟

يقول ابن كثير :

جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة ، لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها ؛ لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة ، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذّب رسله ، واتبع هواه ، وعصى مولاه .

فناسبت نتانة البحيرة نتنهم .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٣١٦) .

(٢) البداية والنهاية (١/١٧١).

قال القاسمي :

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة عذاب .

لطيفة :

نهى لوط قومه عن تعاطي الفواحش التي ذكر الله عنهم ، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا حتى ولا رجلٌ واحد منهم ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون ، إلا أن قالوا : ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾.

فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلتهم خالدين ، لكنْ بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأججّ ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أُجاج .

ولهذا صاروا مُثْلَة فيها ، وعبرة لمن عليها ، كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، يأتون في ناديهم المنكر ، حتى قيل : إنهم يتضارطون في مجالسهم ، ولا يستحيون من مجالسهم .

أمرهم لوط بقربان نسائهم ، وحذرهم من طريقتهم وسيئاتهم ، وهم في ذلك لا ينتهون ، ولا يرعوون ، بل كلما نصح لهم يبالغون ويحرضون ، لم يعلموا ما حمّ به القدر وما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى: ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [الحجر : ٧٢] .

عن أبي جعفر - محمد الباقر - قال : قلت لمحمد بن علي - بن الحنفية - : أعذّب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟. قال : الله أعدل من ذلك ؛ استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال ، قال حذيفة - رضي الله عنه -: إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال[١].

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب ، من إتيان ما خلق

(١) تفسير المنار (٨/٥٢٢) .

من الزوجات الحلال ، والجواري من السراري ذوات الجمال ، ولا يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [هود : ٨٣] .

لطيفة :

لما تنادى قوم لوط جهات جهلهم : ﴿ **أخرجوا آل لوط** ﴾ بُعثت الأملاك لانتزاع مِلاك الحياة من أيديهم ، فنزلوا من منزل لوط منزل التنزيل ، وهم في أفسح بيت بني من الكرم ، غير أن حارس حذره ينادي ﴿ **وضاق بهم ذرعا** ﴾ ، فخاف من قومه أذاهم ، لما تهاووا في هُوّة هواهم ، لا يرعوون ، جاءه ضيف ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه**﴾ فدافع بمشورة: ﴿**هؤلاء بناتي**﴾ وتارة بتقاة : ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ ، وتارة بسؤال : ﴿ **ولا تخزون** ﴾ وتارة بتوبيخ : ﴿ **أليس منكم** ﴾ فلما كَلّ كل سلاحه ، وأعيته جهات جهاده ،أَنَّ برمز ﴿ **لو أنّ** ﴾ ، فحجبهم جبريل بحجاب : ﴿ **فطمسنا** ﴾ ، وانتاشه مِنْ أَسْرِ الغَم بلفظ : ﴿ **فأسر** ﴾ ، فلما علم أن الملأ ملائكة ، تشوق إلى تعجيل التعذيب ، فنادت عواطف الحلم : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ ، فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة ، إلا عجوز العَجْز عن عرفان المعجز فإنها لحقت بالعجزة ، فلما لاح مصباح الصباح ، احتمل جبريل قُرى مَنْ جَنَى على قَرَا[1] جناحه ، فلم يُكسَّرْ وقتَ رفعهم إناء ، ولم يُرق وقت صعودهم ماء ، فلما سمع أهل السماء نُباح كلابهم ، أسرعت كفّ القِلى بهم في انقلابهم .

فتفكر بالقلب ، كيف جوزوا على قَلْب الحكمة بالقلب ، ثم بعث إليهم سحاب : ﴿ **وأمطرنا** ﴾ فاستقل لهم سد ، سد جرمه الأفق على وفق جرمهم ، فأجيل على الجيل سجل السجيل ، فما برح حتى برح ، ودار هاتف العبرة على دارس دارهم ينادي : ﴿ **ولقد تركنا منها آية ...** ﴾ [العنكبوت : ٣٥] .

قولوا لمن خرج عن الشرع في طلب هذه الفاحشة وشَرَد ، قد رمى القوم

---

(١) القَرَا : الظهر .

بالحجارة وخوفهم بالبَرَد . فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

○ مدين قوم شعيب ○

كان أهل مدين قومًا عربًا ، يسكنون مدينتهم مدين ، التي هي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا .

وعن أبي ذر الغفاري قال رسول الله ﷺ : « أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر »[1] .

قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٨٧] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٤ - ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، وهو صحيح .

ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٨٩] .

كان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك ، حولها غيضة[1] ملتفة بها ، وكانوا من أسوإ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون[2] فيهما ، يأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص ، فبعث الله إليهم شعيبًا ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد .

ونهاهم عن الظلم **﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾**[3] .

قال ابن عباس : كانوا قومًا طغاة بغاة ، يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس يعني يعشرونهم ، وكانوا أول من سن ذلك .

﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية .

وذكّرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة : **﴿ واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾** وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في أخراهم .

﴿ بقية الله خير لكم ﴾ القليل من الحلال خير لكم من الكثير من

---

(١) مجتمع الشجر . (٢) الطفيف : القليل .

(٣) أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ، وتخيفون السبل .

الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قلّ ، وإن الحرام ممحوق وإن كثر .

﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : ٨٩] معناه في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ممّا بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم .

وقيل : معناه ما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان .

وقيل : في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية ، بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات .

فماذا كان موقف أهل مدين :

في تبجح تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، يقولون قولة فاجرة : **﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا ﴾** [الأعراف : ٨٨] .

وقالوا أيضًا : **﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾** [هود : ٨٧] .

وهو رد واضح التهكم ، بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه ، يتوقّح القوم بالسخرية فيقولون : **﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾** وهم يعنون عكس معناها ، فالحلم والرشد عندهم ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق .

وقالوا أيضًا : **﴿ يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾** [هود : ٩١] فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه ، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة **﴿ وإنّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ﴾** [هود : ٩١] ففي حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب ، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على

أوليائه ، فلا يضعونها في الحساب .

﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ [هود : ٩١] . حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة ، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ، ولا تتحرج عن البطش بالداعية ، إلا أن تكون عصبة تؤيده ، وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه ، أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

يقول لهم نبيهم شعيب : ﴿ **يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ [هود : ٩٢] أهؤلاء أشد قوةً ورهبة في نفوسكم من الله ، لا تلتفون إليه : ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ ترك وإعراض وشناعة فعل .

وقالوا له أيضًا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ [الشعراء : ١٨٥] فهو عندهم من المسحورين يخلط ويهذي ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا**[١] **من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦، ١٨٧] في تحدي المستهتر الهازىء المستهين ، طلبوا منه أن يسقط عليهم جانبا من السماء ، أو كما يقول قتادة : قطعا من السماء إن كان من الصادقين .

قال ابن حجر :

جاء عن قتادة : أنه – أي شعيب – أرسل إلى أمتين : أصحاب مدين ، وأصحاب الأيكة ، ورجّح بأنه وُصف في أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة ، وقال في أصحاب مدين ﴿**أخذتهم الرجفة**﴾ و ﴿**الصيحة**﴾ وفي أصحاب الأيكة ﴿ **أخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ .

والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة ، وأجابوا عن ترك ذكر الأخوة في أصحاب الأيكة ؛ بأنه لما كانوا يعبدون الأيكة ، ووقع في صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب ألا يذكر الأخوّة ، وعن الثاني بأن المغايرة في أنواع العذاب إنْ كانت تقتضي المغايرة في المعذبين فليكن الذين عُذبوا بالرجفة

---

(١) يقول أبو عبيدة : الكَسْف جمع كِسْفَة ، والكِسْف والكِسَف جمع كِسْفَة .

غير الذين عذبوا بالصيحة ؛ والحق أنهم أصابهم جميع ذلك ، فإنهم أصابهم حر شديد ، فخرجوا من البيوت فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فرجفت بهم الأرض من تحتهم ، وأخذتهم الصيحة من فوقهم[(١)]. اهـ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردًا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها فأُجّجت نارًا ، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عُذِّبُوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلّا أطيب ولا أبردَ من هذا ، هلمّوا ، أيها الناس ، فدخلوا جميعًا تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ .

وسُئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : بعث الله عليهم وَمَدَة[(٢)] وحرًّا شديدًا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله على الناس ، قال ابن عباس : فذلك : ﴿ **عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾[(٣)] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٨ - ٥١٩) .
(٢) ندي من البحر يقع على الناس في شدة الحر وسكون الريح .
(٣) ابن كثير (٦ / ١٧٠ - ١٧١) .

فكيف كان الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن كثير :

قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات ، وصنوفًا من المثلات ، وأشكالًا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ؛ سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدتِ الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار في سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طباقها :

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودنّ في ملتهم راجعين ، فقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ ، فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ، ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ﴿ **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ [هود : ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم ، مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦- ١٨٧] .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان :

أحدهما: أنه قال: ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب**﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٧٧] ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾ [هود: ٨٤].

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ [الشعراء : ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا ، ولمَّا نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان ؛ وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن .

قال ابن كثير :

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٠ - ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾[1] .

والجزاء من جنس العمل .

ولننظر إلى عبارات المفسرين التي تدور حول هذا المعنى .

قال الألوسي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا[2] فيها** ﴾ [الأعراف : ٩٢] أي لم يقيموا في دارهم ، عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج ، وصاروا هُم المخرجين من القرية إخراجًا لا دخول بعده دون شعيب[3] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ١٧٧ - ١٧٨) .

(٢) قال البخاري : يغنوا : يعيشوا .

(٣) روح المعاني للألوسي (٩ / ٦ - ٧) .

وقال الألوسي: في قوله تعالى : ﴿ **الذين كذّبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] .

الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بقولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠]فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم ، لا المتبعون لشعيب عليه السلام ، الرد عليهم بعين ما تلفظوا به ، ما جعلوه نصيحة صار فضيحة(١) .

قال القرطبي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ولما قالوا : من اتبع شعيبًا خاسر ، قال الله:الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول(٢) .

قال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

يقول الشيخ سيد قطب :

الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ، ويرد السياق على قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠] وهي التي قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ، فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنما كان من نصيب قوم آخرين .

﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين ، لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار .

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن

---

(١) روح المعاني (١٩ / ١٢٠) .
(٢) القرطبي (٤ / ٢٦٨٨) .

مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين ﴿ **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ [الأعراف : ٩٣][1] .

خلت منهم الدُّور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأنْ لم يعمروها حينًا من الدهر ، مضوْا مشيعين باللعنة ، طُويت صفحتهم السوداء في الوجود ، وصفحتهم في القلوب ﴿ **ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٥] .

يقول ابن كثير :

لما قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] أرجفوا بنبي الله ومَنْ اتبعه ، فأخذتهم الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا .....** ﴾ [هود : ٨٧] .

قال ابن كثير :

لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ، وتهكموا به ، فجاءت الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

وقال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ...** ﴾ [الشعراء : ١٨٧ - ١٨٩] وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءً وفاقًا ، فقال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم ، قالوها على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه .

---

(١) الظلال (٣ / ١٣٢٢) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ .

كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بدارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، ثم قال مقابلًا لقيلهم : ﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

وقال - رحمه الله- :

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن في الأعراف ، وهود ، والشعراء ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا(١) .

يقول الألوسي :

في إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها ؛ إيذانًا بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة ، وفي ترك بيانه تعظيم لأمره(٢) .

نكـت بلاغيــة :

قال تعالى في سورة هود في قصة ثمود ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا** ﴾ [هود : ٦٦] وقال في هود ومدين ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودًا** ﴾ [هود : ٥٨] ، ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ [هود : ٩٤] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

من دقيق نكت البلاغة في الآيات في قوله تعالى في إهلاك مدين هنا ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ فعطف لمّا على ما قبلها بالواو ، ومثله في قوم هود ، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود وقصة قوم لوط ، ووجه هذا الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب ، واستحقاقه وحلول موعده ، فعطفتا بالفاء الدالة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٤٤٥) ، (٤ / ٢٧٧) ، (٥ / ١٧٠) .
(٢) روح المعاني للألوسي (١٩ / ١٢٠) .

على التعقيب ، وأما عطف مثلهما في قوم هود ، وقوم شعيب فليس كذلك ، فعطف بالواو على الأصل ، أما الأول فظاهر ؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب ، وأما الثاني ففيه وعيد مسوّف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب ، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال ، فهلْ تَصَادَق مثل هذه الدقائق اللغوية في غير القرآن[1]. اهـ .

لطيفــة :

وبقي من أهل العيب قوم شعيب ، لما رأى شعيب شعاب قومه قد امتلأت بالجور ، صعد منبر التذكير بالإنعام ، ولكن بَيْنَ الأنعام ، فخوّفهم من قحل[2] القحط في إشارة ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ فتلقوه باستهزاء ﴿ **أصلاتك** ﴾ ، ومدوا نحوه باع النخوة : ﴿ **لنخرجنك** ﴾ وتعللوا . بحجة ﴿ **ما نفقه** ﴾ ، وانتهوا إلى عتو ﴿ **فأسقط علينا** ﴾ ، فأظل على ظلل ضلالهم : ﴿ **عذاب يوم الظلة** ﴾ ، فارتجت أرجاء بيوتهم برجّ الرجفة ، وشدّت عليهم شدة الحر ، فهربوا إلى البَرِّ لا إلى البِرّ ، فإذا سحابة تسحب ذيل بُرْد البَرَد ، فتنادوا هلموا إلى راحة الرَّوْح ، فلما تم اجتماعهم في قصر الحصر ، وظنوا أنها من حَرُوقَتِهم وَقَتْهُم ، نزلت بهم نار فأحرقتْهم ، فساروا إلى جهنم في أسر إدبارهم ، وسار بعد بعدهم في أدبارهم ، نذير التحذير من تبديرهم ، وعابهم في عقاب عقابهم ﴿ **ألا بعدًا لمدين** ﴾ فليحذر العصاة مثل أفعى أفعالهم ، وليتقِ أعمى البصيرة شبه أعمالهم ، وليخف المطففون من أخذ التطفيف في مكيالهم ، وليسمعوا نذير العبرة ، فقد أوحي إليهم بشرح أعمالهم .

○ فرعــون ○

انظر كيف كان جزاء هذا الطاغوت المطموس المتعجرف المتكبر من جنس

---

(١) تفسير المنار (١٢ / ١٥٠) .

(٢) يبس .

قوله وعمله .

انظر كم ذبح من الأطفال من أجل ذبح موسى ، ولسان القدر يصيح به : لن نربيه إلّا في حجرك .

قال الله تعالى : ﴿ **إن فرعون عَلَا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ [القصص : ٤ - ٦] .

تجبر وعتا وطغا وبغى وآثر الحياة الدنيا ، وجعل أهلها شيعًا ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذا ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح ؛ أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك مصر على يديه ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ؛ حذرًا من وجود هذا الغلام ، فجعل رجالًا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته .

لقد ولد موسى والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه تهمّ أن تحتز رأسه ، وها هي ذي أمه خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ، ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته

الفطري أن ينمّ عليه .

ويوحي الله إليها أن ترضعه ، فإذا خافت عليه فلتلقه في اليم ، فهو في رعاية الله الذي لا أمن إلا في جواره ، لا خوف معه ، لا تقرب المخاوف من حماه ، الذي جعل النار بردًا وسلاما ، ويجعل من ثبج البحر ملجأ ومنامًا .

يقدر الطاغوت شيئا ، ويقدر الله شيئا غيره ، والله يريد غير ما يريد فرعون .

وإرادة الله وقدرته تتحدى ، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم ليتبعون الذكور من بني إسرائيل خوفًا على ملكهم وعرشهم وذواتهم ، ويبثون العيون والأرصاد كي لا يفلت منهم ذكر ، فها هي ذي إرادة الله تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكي وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ، ها هي ذي تلقيه في أيديهم ، مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزًا عن نفسه ، أو حتى يستنجد ، ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه ، وهو الطاغية السفّاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهن الوالدات ، ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية ؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، عدوًّا يتحداهم ، وحزنًا يدخل الهمّ على قلوبهم .

يا فرعون: موسى لن يكون مربّاه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولن يُغَذَّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعدّاه ، ولا تطلع على سر معناه ، لتعلم أن رب السموات هو الفعّال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد .

اقتحمت إرادة الله على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال ، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة ، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الرضيع الضعيف بغير هذا الستار الشفيف ، إرادة الله وقدرته ترعى موسى ، تدبر أمره .

قال تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون** ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء مُوكل بالمنطق ، يداك أوكتا وفوك نفخ ، فكان كذلك وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه .

إرادة الله تكيد لفرعون وآله ، كما كادوا لبني إسرائيل ، تحرم عليه المراضع ، يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وهم يخشون عليه الموت والذبول ، حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه فتقول : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ [القصص : ١٢] ، فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو العزيز المحبوب ، ويعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة .

من لجأ إلى الله وتوكل عليه ، وفوّض الأمور إليه ، يكن حاله كحال أم موسى ترضع ولدها ، وتأخذ كظئر أجرها .

فكيف كان جزاء فرعون من جنس قوله وعمله ؟

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل ، فأعرض واستكبر ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** ﴾ [الزخرف : ٥١] .

أليس لي ملك مصر !! يا هذا حمارك ينهق من كف شعير ، وما تساوي مصر ؟ إن كانت الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

وقال موسى : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ [يونس : ٨٨] .

قال ابن عباس ومجاهد : اطمس على أموالهم : أهلكها .

وقال الضحّاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .

وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحولت .

وقال محمد بن كعب القرظي : اجعل سكرهم حجارة .

فما كانت النهاية : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ [الدخان : ٢٥] .

قال فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي .. ﴾ [الزخرف : ٥١] .

إن الذي ينسى نعمة الله عليه . ويتيه بها ، يعذبهِ الله بها وينغص عليه بها ، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذي تاه به واستكبر . هذا في حياته .

﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذّكّرون** ﴾ [الأعراف : ١٣٠].

﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين** ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

يا فرعون ، الطوفان ماء من جنس ما تفتخر به ، ولكنه متلف للزروع والثمار .

والقُمَّل : قال ابن جرير : واحدتها قمّلة ، وهي دابة تشبه القَمْل ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : البراغيث .

كأن الماء لم يُجْد شيئًا في نظافتك ، فها هي البراغيث والضفادع ، تتعصى عليك في قدحك وآنيتك وثوبك .

والدم ، استحال نهرك دما عبيطًا ، فما جدوى نهرك ومياهك .

الآيات التي نغّصت عيشك من جنس ما استكبرت به ، ومتعلقة بالماء .

قال ابن جرير :

عن سعيد بن جبير قال : لمّا أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل ، فأرسل الله عليهم الطوفان ، وهو المطر ، فصبّ عليهم منه شيئًا ، خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنّا المطر ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ ،

فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى ، فقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك ، ليكشف عنّا الجراد ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فدرسوا الحب وأحرزوه في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا . قال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ . فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل [فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا] . وأرسل الله عليهم الدم ، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان في أوعيتهم ، وجدوه دمًا عبيطًا[1] ، فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم !! فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دما عبيطًا[2] ؟

قال ابن إسحاق :

تابع الله عليهم الآيات ، وأخذه بالسنين ، فأرسل عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا أو

---

(١) أي دمًا طريًا .

(٢) ابن جرير (٦ / ٢٥) .

يعملوا شيئًا ، حتى جُهدوا جوعًا ، فلما بلغهم ذلك: ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر - فيما بلغني - حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فُذكر لي أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملًا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فأجهدهم ، قالوا له مثلما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية والأطعمة ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلّا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل الله ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دمًا ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا .

يالله .. هان فرعون على ربه حتى ما يساوي ضفدعًا ولا جرادًا .

هانوا عليه فعصوه وكفروا به ؛ ولو عزوا عليه لعصمهم .

أيها المعرض عنَّا إن إعراضك منَّا
لو أردناك جعلنا كل ما فيك يُردنَا

عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برّية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، وجعلت تغرق أنفسها في القدور وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا تقتلوا الضفادع ... »[١] .
وقال ﷺ : « لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم »[٢] .
وكان غرقه في جنس ما افتخر به .
قال الشنقيطي :
أما فرعون ، فقد كان يقول : ﴿ **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي** ﴾ [الزخرف : ٥١] فلمّا كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها ، أي في جنسها[٣] .

قال تعالى : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾ [طه : ٦٠] .
كاد فرعون فكيد له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأذل وأذيق البأس .

﴿ **قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى . قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ [طه : ٦١ - ٧٣] .
هزأ به من جمعهم لموسى ومن قالوا له يومًا : ﴿ ... **أئنّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين** ﴾[الشعراء : ٤١] ومَنْ قالوا يوما : ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان

---

(١) صحيح : رواه النسائي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٧ ، وانظر الأحاديث الضعيفة ٤٧٨٨ .
(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي عن أبي زهير ، والطبراني في الأوسط ، وابن منده ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٥، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٤٢٨ .
(٣) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق .

وقال تعالى : ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٣] .

قال القشيري :

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستئصالهم وأراد الحق نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحق لا ما أراد اللعين[1].

وقال تعالى : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون** ﴾ [الشعراء : ٥٤ - ٥٦] .

يقول ابن كثير :

نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم ، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم[2].

وقال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ...** ﴾ [القصص : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر : ٢٥] .

منطق الطغيان الغليظ ، فكلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلي الحق .

قال ابن كثير :

نكل فرعون ببني إسرائيل قبل ولادة موسى ؛ حذرًا من وجوده ، فكان خلاف ما رامه ، وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا ، إنما

---

(١) لطائف الإشارات (٤/٤٤) . (٢) تفسير ابن كثير (٦ / ١٥٢) .

أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، نصرهم الله عليه ، وأذله وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده(١) .

لما استذل فرعون بني إسرائيل أورثهم الله ملكه .

قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ٥٧ - ٥٩] .

لقد خرجوا يتبعون خطى موسى وقومه ، ويقفون أثرهم ، فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة ، وكانت إخراجًا لهم من كل ما هم فيه ، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والبطر والبغي الوخيم ، لما اقتفوا أثر المؤمنين .

وقال تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ [الدخان : ٢٥ - ٢٩] .

يقول سيد قطب :

انظر إلى هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطىء له الملأ المفتونون به ، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثي له أحد على سوء المآل ، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها ، ذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض ، يطأون الناس بالنعال ، ذهبوا غير مأسوف عليهم(٢) .

يقول القشيري :

تكبر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق ، وتجبّر بغير استحقاق ، فأذله الله

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٥٧) .

(٢) الظلال (٥/٣٢١٤) .

باستحقاق ، ﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ [القصص : ٣٩ - ٤٠] .

أبى إلا أن يدوم جحوده وعنُوده ، فأغرقه الله في البحر ، كما أغرق قلبه في بحر الكفر(١) .

« من لا يرحم لا يُرحم » .

هذا الطاغية الذي ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة ، ولثغتها التي تبتسم لها القلوب والوجوه ، كذا لم يرحم في دنيا ولا آخرة .

يقول رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حمأ البحر(٢) ، فأدسه في فيّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة »(٣) .

قال تعالى : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾ [القصص : ٤٢] واللعنة طرد من الرحمة .

صار مآله إلى الطين المنتن ، ألم يقل يوما لهامان : يا هامان ، أوقد لي على الطين .

واليوم كما يقول الله تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم** ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

يقول صاحب الظلال :

ضربة واحدة فإذا هم هالكون ، ومن التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهويّ في الأعماق والأغوار جزاءً وفاقًا(٤) .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (٥ / ٥٤) .

(٢) حمأ البحر : طينه الأسود المنتن .

(٣) صحيح ، رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٥ ، والطيالسي ، وابن جرير ، والخطيب في التاريخ - صحيح الجامع ٤٢٢٩ . قال الحاكم : صحيح على شرطهما ، وأقره الذهبي في التلخيص .

(٤) الظلال (٣ / ١٣٦٠) .

لقد سقطت من فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي كل أرديته التي تنفخ فيه ، فتضاءل وتصاغر واستخذى ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ [يونس : ٩٢] لا تذهب منكرًا مع التيار ، هذا الذي تطاول وقال : ﴿ **ذروني أقتل موسى وليدع ربه** ﴾ [غافر : ٢٦] كلمة فاجرة من فرعون كانت تبجحًا واستهتارًا ، لقي جزاءه بها في نهاية مطافه .

قال تعالى : ﴿ **كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ [القمر : ٤٢].

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغي والظلم ، ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم ، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقًا ، أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت .

لما تطاول فرعون وقال : ﴿ **فأوقد لي يا هامان على الطين..** ﴾ [القصص : ٣٨] ، فكان ألهويّ إلى الأعماق والأغوار ، ونتن الطين في فمه يوم الغرق في عاشوراء جزاء للقولة الفاجرة .

﴿ **فأوقد لي يا هامان** ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ [غافر : ٤٦] .

قال ابن كثير :

الغرق في اليم ، ثم النقلة إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار .

قال تعالى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، قالها فرعون لقومه الذين استخفهم ، ويعني بها نبي الله موسى ، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد ، فكان جزاؤه من جنس قولته ، أنه هو المهين الحقير خلقة ودينًا ومالًا ..

قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

يقول القشيري :

لا لشرفهم جعلهم أئمة ، ولكن لسبب تلفهم قدّمهم في الخزي والهوان على كل أمة ، ولكن لم يُرشدوا إلّا إلى الضلال ، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال ، وما حصلوا إلا على سوء الحال ، وما ذاقوا إلا خزي الوبال ، أفاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم ، فافتضحوا في خسة مطلوبهم .

كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته ، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق .

يقول سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ..** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ...** ﴾ فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة الهزيمة في الدنيا والهزيمة في الآخرة ، جزاء البغي والاستطالة ، وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعنة في الأرض ، والتقبيح في يوم القيامة ، و ﴿ **المقبوحين** ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التَّقزُّز والاشمئزاز ، ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله[1] .

وقال تعالى : ﴿ **يَقْدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ [هود : ٩٨- ٩٩] .

قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة .

---

(١) الظلال (٥/٢٦٩٥) .

قال ابن كثير :

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا ، وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رَدَاه ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر[١] .

يقول سيد قطب :

لما كانوا تبعا لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ويتبعون خطواته الضالَّة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، لما كانوا كذلك ، فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعًا .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ، ووعدًا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النَّار ، وانتهى فأوردهم النار ، أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم ، ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير ، ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ ويا بئساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى إنما يشوي البطون والقلوب ﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ .

﴿ **وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ . هذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلًا ورفدًا مرفودًا ، فهذا رفده لمن اتبعه .. النار ﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ و ﴿ **بئس الرفد المرفود** ﴾[٢] .

○ بلعام بن باعوراء ○

اختلف المفسرون في هذه القصة اختلافًا كثيرًا ، فمنهم من ضعفها

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٧) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٩٢٤) .

كالقاسمي في محاسن التأويل ، ومن ذهب إلى أن الآيات من سورة الأعراف لم تنزل في معين ، وهناك روايات كثيرة أوردها الطبري وابن كثير والألوسي في تفاسيرهم .

قال ابن كثير :

وهذا الذي ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف[(١)] .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : بلعام . وكان يعلم اسم الله الأعظم .

قال محمد بن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر أنه حدث : أن موسى عليه السلام لما أنزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إليه ، فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم . قال : ويلكم ! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتتن ، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حُسبان ، فلما سار عليها غير كثير ، ربضت به فنزل عنها فضربها ، حتى إذا أذلقها[(٢)] قامت فركبها ، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت : ويحك يا بلعام، أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة تردني عن وجهي هذا؟. أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها بضربها ، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٣٠٠) .
(٢) الإذلاق : أن يبلغ منه الجَهد .

موسى وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ! قال : فهذا ما لا أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ! . قال : واندلع[1] لسانه فوقع على صدره . فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال : جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه ، ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها ، فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كُفيتموهم ، فافعلوا .

فلما دخل النساء المعسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها : كُسبى ابنة صور رأس أمته . برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو زمري بن شلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحق - عليهم السلام - فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى - عليه السلام - فقال : إني أظنك ستقول:هذا حرام عليك ؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله ، لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل الله - عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

اختلف المفسرون في معناها ، فأما على سياق ابن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر : أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك .

---

(١) خرج من الفم ، واسترعى كلسان الكلب .

وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان ، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته ، فهو يلهث في الحالتين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه[1] .

فلما اندلع لسانه – الذي دعا به على نبي الله موسى – على صدره كان جزاؤه من جنس عمله .

يقول سيد قطب :

آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وتعرى عنها ، ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، استولى عليه الشيطان ، وأمسى مطرودًا من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتيه الله آيات ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ، ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه ، أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟.

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقي ، وينحرف عن الهدى ؛ ليتبع الهوى ، ويهبط من الأفق المشرق ، فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضًا للشيطان ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، مشهد بائس نكد ، إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين ، ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، مشهد اللهاث القلق الذي لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا ، والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ، فهو منطلق فيه أبدًا .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١١ – ٥١٢) .

مسخ شائه الكيان ، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان ، مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين ، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عِلِّيِّين ، وكان من فطرتـه الأولى في أحسن تقويـم ، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين .

فخلِّ سبيلَ العين بعدكَ للبكا فليس لأوقات الصفاء رجوعُ

لطيفة :

أيها المتعبد خف من الفتن ولا تأمن ، كم أُخذ آمنٌ مِن مَأمن ، إنه لم ينجُ من بحر الفتن الأعظم ، حافظ الاسم الأعظم ، بل عام بلعام ، كان ظاهره لثقا بالتقى ، وباطنه باطية[1] لخمر الهوى .

ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه الولي ، فلا تظنن أن الشيطان غلب ، وإنما العاصم أعرض ، وإن شككت فاسمع هاتف القدر ، يخبر عن عزة القادر ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ .

فانظـر ما عرض لمن سبقت شقاوته في الأزل من الحور بعد الكور ، فبينما تراه وأحواله حالية ، وأعوامه من شوائب الكدر خالية ، وغصون أنسه متدلية ، ورياض قربه مونقة ، قلب الدهر ظهر المجنّ ، وغزاه بجيوش المحن ، وهبت على هاتيك الرياض عاصفات القضاء ، وضاقت عليه فسيحات الفضاء ، وذهب السرور والأنس ، وجعل حصيدًا كأن لم يغن بالأمس ، وأنشد لسان حاله :

قف بالديـار فهـذه آثارهــم تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرًا عن أهلها أو صادقًا أو مشفقا

---

(١) إناء عظيم من الزجاج يتخذ للشراب والجمع بواطِ .

فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقت من تهوى فعزّ الملتقى[١]

وكان جزاء فنحاص - قاتل الزاني - أيضًا من جنس عمله :

قال ابن كثير :

وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى ، وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع ، فجاء الطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت من حديدٍ كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لِحْيَيْه - وكان بكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ..

فانظر إلى جزائه :

فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَة[٢] والذراع واللَّحْي - لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحييه - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار[٣] .

○ أصحاب الأخدود ○

قال تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها**

---

(١) روح المعاني للألوسي (١١ / ١٢٣) .

(٢) القبة : بكسر القاف وفتح الباء مخففة : من الكرش .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١٢) .

قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السمٰوات والأرض . والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : ٤ - ١٠] .

وعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر ، فبعث إليه غلامًا يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال الراهب : أي بنيّ ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هنا لك أجمع إنْ أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟. قال : ربي . قال : ولك رب غيري ؟! قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل به حتى دلّ على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أيْ بنيّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ؟! . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى

فدعا بالمنشار ، فوضع في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه . ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك : فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به ، فاحملوه في قُرْقور[1] فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه ، ولا فاقذفوه ، فذهبوا به ، فقال:اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ . قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي ، حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟. قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام . ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام . ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه ، فوضع يده في صُدْغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأُتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فَخُدَّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له : اقتحم : ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها

---

(١) السفينة الصغيرة .

الغلام : « يا أمَّه ، اصبري فإنك على الحق »[1] .

فكيف كان جزاء الظالمين من جنس عملهم :

القوم الذين أرادوا أن يلقوا بغلام الراهب من فوق الجبل ، رجف بهم الجبل فسقطوا ، والذين أرادوا أن يقذفوا به في البحر غرقوا هم .

قال ابن كثير :

روى ابن أبي حاتم عن الربيع – هو ابن أنس – في قوله تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ سمعنا أنهم كانوا قوما في زمان الفترة ، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحدث حديثهم ، فأرسل إليهم ، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا ، وإنهم أبوا عليه كلهم ، وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت ، فإني قاتلكم . فأبوا عليه ، فخد أخدودًا من نار ، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال : اختاروا هذه أو الذي نحن فيه ، فقالوا : هذه أحب إلينا ، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية ، فقالوا لهم – أي آباؤهم – : لا نار من بعد اليوم ، فوقعوا فيها . فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففي ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾[2].

قال تعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي حرقوا ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

---

(١) أخرجه مسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٦) .

قال ابن جرير : ﴿ إن الذين فتنوا ..﴾ قال قتادة : حرّقوهم بالنار ، قوله تعالى : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

وعن الربيع : ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ في الآخرة ، ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ في الدنيا .

قال الألوسي :

﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ بسبب كفرهم ، ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات ، وفي جعل ذلك جزاء للفتنة من الحُسن ما لا يخفى(١).

قال القرطبي :

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود ، فصارت فوق الملك وأصحابه ، أربعين ذراعًا فأحرقتهم(٢) .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾:

قال : ﴿ عذاب جهنم ﴾ لكفرهم ، ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ في الدنيا ، لإحراقهم المؤمنين بالنار ، وقد تقدم عن ابن عباس ، وقيل : ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم ، بما أحرقوا المؤمنين(٣).

قال القمي النيسابوري في قوله تعالى : ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

عذاب جهنم ، وعذاب الحريق مختلفان في الدركة ، الأول لكفرهم، والثاني لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوز أن يكون الحريق في الدنيا ، لما روي أن النار

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠ / ٩١) .
(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٠) .
(٣) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٦) .

انقلبت عليهم فأحرقتهم[١] .

قال ابن كثير :

قال ابن أبي حاتم عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير ، قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين ، حين حرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتونًا وألقي فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد ، وفي العراق في أرض بابل . بختنصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونًا وألقى فيها الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا ، وأنقذهما منها ، وألقي الذين بغوا عليه ، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار[٢].

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ . ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا ، ﴿ **ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ وينص على الحريق ، وهو مفهوم من عذاب جهنم ، ولكنه ينطق به وينص عليه ؛ ليكون مقابلًا للحريق في الأخدود ، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث ، ولكن أين حريق من حريق ؟! في شدته أو مدته ؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق ، وحريق الآخرة يوقدها الخالق ، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين ، وانتصار لذلك المعنى الإنساني ، ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم[٣] .

---

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للعلّامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش الطبري (٩/٣٦) طبعة دار الريان للتراث .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٤) .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦ / ٣٨٧١) .

○ سبـــأ ○

هذه قصة البطر ، قصة من صدّق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه ونسوا النعم .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبارٍ شكور** ﴾ [سبأ : ١٥ : ١٩] .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس : أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟. فقال ﷺ : « بل هو رجل وُلد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان »[١] .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها . وقال علماء النسب : سُمي سبأ ؛ لأنه كان أول من سبى من العرب ، وقد كان فيهم التبابعة ، وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، وكانت العرب تسمي من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَّعًا ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس .

جاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تبارك وتعالى ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، فمنهم من أقام ببلاده ، ومنهم من نزح إلى غيرها .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وعبد بن حميد ، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/٤٩١): وهذا إسناد حسن .

وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا ، حتى ارتفع الماء وحكم على حافَّات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة ، والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل[1] ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب ، وهذه الجنان عن اليمين والشمال ، ولذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تُذكّر بالمنعم الوهاب ، وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين **﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾** وذكروا بالنعمة ، نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر ، والتجاوز عن السيئات ، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟!

﴿ بلدة طيبة ﴾ ليست بسبخة ، قال ابن زيد : لم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب ، فماهم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب[2] .

يقول ابن جرير :

فأعرضت سبأ عن طاعة ربها ، وصدّت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها .

قال ابن عباس : سيل العرم الشديد ، وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم – فيما ذكر لي – جرذًا ابتعثه الله على سدهم فثقب فيه ثقبا .

---

(١) هو الذي تغترف فيه الثمار .

(٢) تفسير ابن جرير (١٠ / ٥٣) .

وعن قتادة : لما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جرذا يسمى الخلد ، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم ، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم .

ويقول الضحاك : لما طغوا وبغوا بعث الله عليهم جرذًا فخرق السد ، فأغرقهم الله .

وقال ابن زيد : بعث الله عليه[1] جرذًا ، وسلطه على الذي كان يحبس الماء الذي يسقيها ، فأخرب في أفواه تلك الحجارة ، وكل شيء منها من رصاص وغيره حتى تركها حجارة ، ثم بعث الله سيل العرم ، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس ، واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما .

يقول ابن جرير :

وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك ، والأراك هو الخمط[2] .

قال الضحاك : بدلهم الله بجنان الفواكه والأعناب إذ أصبحت جناتهم خمطًا ، وهو الأراك .

عن ابن عباس قال : الأثل الطرفاء .

قال ابن زيد : أذهب تلك القرى والجنتين ، وأبدلهم الذي أخبرك : ﴿ **ذواتي أكل خمط** ﴾ ، قال : فالخمط : الأراك .

قال : جعل مكان العنب أراكًا ، والفاكهة أثلًا ، وشيئًا من سدرٍ قليل .

وقال قتادة : بينما شجر القوم خير شجر ، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ .

يقول ابن جرير :

هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم حتى

---

(١) أي السد .

(٢) تفسير الطبري (٨١/١٠) .

هلكت أموالهم ، وخربت جناتهم ؛ جزاءً منَّا على كفرهم بنا ، وتكذيبهم رسلنا[١].

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ .

قال ابن جرير :

معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله ، فإن قال قائل : أو ما يجزي الله أهل الإيمان به على أعمالهم ، فلم يَخص أهل الكفر بالجزاء ؟. فيقال : إن المجازاة في هذا الموضع المكافأة ، والله تعالى ذكر وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم ، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف، ووعد المسيىء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه ، والمكافأة لأهل الكبائر الكفر ، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل ، فلذلك قال – جل ثناؤه – في هذا الموضع : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ كأنه قال جل ثناؤه : لا يُجازَى لا يكافأ على عمله إلا الكفور ، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه ، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئًا ، ولا يمحص شيئًا منها في الدنيا ، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه .

قال مجاهد : نجازي نعاقب[٢] .

قال القرطبي :

وأولى ما قيل في هذه الآية ، وأجل ما روي فيها أن الحسن قال : مثلًا بمثل[٣] .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل**

---

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٨٢) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٠ / ٥٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٨ / ٥٧٧٠) .

صبار شكور ﴾ [سبأ : ١٨ - ١٩] .

يقول سيد قطب :

كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم ، ضيق الله عليهم في الرزق ، وبدّلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة ، وتبدلت تلك الجنان الفيح ، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة ، ولكن لم يمزقهم ولم يفرقهم ، وكان العمران مايزال متصلًا بينهم وبين القرى المباركة مكة في الجزيرة ، وبيت المقدس في الشام ، وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل .

قال ابن كثير :

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعيم ، والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرضية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سفرهم .

قال تعالى : ﴿ **القرى التي باركنا فيها** ﴾ ، قال مجاهد والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد وغيرهم : قرى الشام .

قال تعالى : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ . بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، ويقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أي جعلناهم بحسب ما يحتاج إليه المسافر .

﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا .

قال قتادة : ﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ لا يخافون ظلمًا ولا جوعًا ، وإنما يغدون فيَقِيلون ويروحون فيبيتون في قرية أهل جنة ونهر ، وكان

الرجل المسافر لا يحمل معه زادًا ولا سقاء[1].

وقال أيضًا :

كانوا يسيرون غير خائفين ، ولا جياع ولا ظماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ، لا يحرك بعضهم بعضًا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه[2].

وقال ابن زيد : إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها ، تروح من قرية ، وتغدوها وتبيت في قرية ، لا تحمل زادًا ولا ماء لما بينها وبين الشام .

قال القمي النيسابوري : والمقصود من ذكر الليالي والأيام تقرير كمال الأمن ولذلك قُدمت الليالي فإنها مظنة الآفات ، ويمكن تقرير الأمن بوجه آخر وهو أن يقال : سيروا فيها ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أيامًا وليالي[3].

قال تعالى : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ .

قال ابن جرير : قالوا يا ربنا باعد بين أسفارنا ، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله وإحسانه إليهم ، وجهلهم بمقدار العافية ، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة ، كما عجل للقائلين : ﴿ **إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [الأنفال : ٣٢] أعطاهم ما رغبوا إليه ، وطلبوا من المسألة .

قال ابن عباس : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم** ﴾ فإنهم بطروا عيشهم ، وقالوا : لو كان جنى جناتنا أبعد مما هو كان أجدر أن نشتهيه ، فمزقوا بين الشام وسبأ ، وبُدلوا بجنتيهم ﴿**جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل**﴾.

وقال قتادة : بطر القوم نعمة الله ، وغمطوا كرامة الله ، قال الله : ﴿ **وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث**﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/٥٨). (٢) تفسير القرطبي (٩/٥٣٧٢).

(٣) القمي النيسابوري (١٠ / ٥٢) .

وقال ابن زيد : ﴿**باعد بين أسفارنا**﴾ حتى نبيت في الفلوات والصحاري[1].

قال ابن كثير :

بطروا هذه النعمة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد ، وأحبوا مفاوز ومهامه ، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور[2] والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد من مَنٍّ وسلوى ، قال تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾ [القصص : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢][3] .

يقول سيد قطب :

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلا مراتٍ متباعدة على مدار العام ، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل التي لا تُشبع لذة الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿ **وظلموا أنفسهم** ﴾ واستجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر[4] . قال تعالى : ﴿ **فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** ﴾ .

قال ابن كثير :

جعلناهم حديثا للناس ، وسمرًا يتحدثون به عن خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر[5].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٥٩/١٠).
(٢) الشمس .
(٣) تفسير ابن كثير (٤٢٧/٦) .
(٤) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠١ .
(٥) تفسير ابن كثير (٤٩٧/٧) .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يقول سيد قطب :

عادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه ، بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة ، أصبحوا أثرًا بعد عين ، وحديثًا يُروى ، وقصة تحكى .

ويقول :

وهناك فهم آخر فقد يكون المقصود بقوله : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ أي قرى غالبة ذات سلطان ، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة ، كثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ، ومواضع الماء ، فلم يصبروا على الابتلاء وقالوا : ﴿ **ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ أي قلل من أسفارنا ، فقد تعبنا ، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم ، ففعل الله بهم ما فعل ، وهو وجه رأيته في الآية والله أعلم بمراده[١] .

قال ابن كثير :

عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعُمان ، فمزقهم الله كل ممزق ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٢] .

يقول الأعشى :

وفي ذاك للمُوتَسي أسوة ... ومأربُ عفّى عليها العَرِمْ[٣]
رخامٌ[٤] بنته لهمْ حميرٌ ... إذا جاء موارُه[٥] لم يرمْ

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٠٢) . (٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٩) .

(٣) العرم : المسَنَّاة التي تحبس الماء . وقال سيد قطب:العرم : الحجارة .

(٤) حجر أبيض .

(٥) الشديد المور – مار يمور مورًا أي جعل يذهب ويجيء ، وعند ابن جرير : إذا جاء ماؤه لم يرم .

فأروى الزروع وأعتابها على سعةٍ ماؤهمْ إذ قسمْ
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفلٍ فُطمْ

والجزاء من جنس العمل .

يقول القشيري في اللطائف :

أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضيعوا الشكر ، فبدلوا وبُدّل بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضًا لسلمى فلم يجد

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلا مما ثَبِطوا[1] ، أو ما وقعوا إلا في الوهدة التي حفروا ، وما قُتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا[2] .

كذلك من الناس من يكون في رغدٍ من المال ، واتصال من التوفيق ، وطرب من القلب ، ومساعدة من الوقت فيرتكب زلة أو يسيء أدبًا أو يتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما هو به ، فيتغير عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا طرب ولا وصال .

فتذكر .. ما الذي سبى قوم سبأ ؟ إن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه ، ومن أهمل ريشها حتى نَبَتَ نَبَتْ من بين يديه ، أخصبت ديار قوم سبأ فطابت ، فما يُخْرِج حيهم حية ، ولا يقال : هذا عقير عقرب ، ولا يُرى في بلادهم بعوضة ، ولا لأذلهم بباب ذباب ، فلما تمت النعمة ، قام متقاضي الشكر يقول : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا** ﴾ ، فقابلوا الرسل مقابلة معاند ، فرفعت قصة الشكوى في مسطور ﴿ **فأعرضوا** ﴾ ، فكان مما أرسلنا عليهم أن أرسلنا ﴿ **سيل العرم** ﴾ ، بعث الله عز وجل عليهم جُرذًا أجرد ، نقب سِكْرَهم[3] ، وهم في سُكرهم فأغرق فيما جنى به عَلِيّ جنابهم ، حتى أغرق جناتهم ، فخرّت الأشجار ، بعد أن فُجرت الأنهار ، وعثت

---

(١) حَمُقَ في عمله .

(٢) اللطائف (٥/١٨٠ - ١٨١) .

(٣) السدّ .

كف الفساد في ديارهم ودام البكاء ، وعلا العويل ، وخَلَف غرابُ البَيْن الوُرقَ على الوَرِق ، وبئس البديل ، ﴿ **وبدلناهم بجنتيهمْ جنتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل** ﴾ .

○ عمرو بن لحي الخزاعي ○

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة »[١] .

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه ، مرفوعًا : « وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام »[٢] .

لما وليت خزاعة البيت ، وصار أمره إليهم ، كانوا قوم سوء في ولايتهم .

يقول الحافظ ابن كثير :

وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي – لعنه الله – فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جدًا ، يقال : إنه ملك عشرين ألف بعير ، وممن ذكر الأزرقي والسهيلي : إنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويَلُتُّ لهم السويق ، قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم[٣] .

قال ابن هشام :

حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم ، والطبراني في الكبير والأوسط ، وحسنه الألباني في الصحيحة ١٦٧٧

(٢) أخرجه الحاكم وابن أبي عاصم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ؛ ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني .

(٣) البداية والنهاية (٢ / ١٧٤ – ١٧٧) .

عملاق ، ويقال : ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنمًا يقال : له هبل ، فقدم به مكّة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1].

قال ابن إسحق :

كانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك .

وقد ذكر السهيلي وغيره . أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي ، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ، ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك ، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد ، وابتدع - لعنه الله - لهم أشياء في الدين غيَّر بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك .

وانظر أيضًا إلى ما ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة ، التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي - قبحه الله - أنها مصلحة ورحمة بالدوابِّ والبهائم ، فهو أول من سيَّب السَّوائب ، وهو كاذب مفترٍ في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام ، بعد ما تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير ، وهو عبادة الأوثان ، وقد قال تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فيا له من قزم دعا رعاعًا فأجابوه !

فهل كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعي يجر قُصْبَهُ[2] في النار ،

---

(١) الروض الأنف ، للسهيلي (١/٣٥٠) .

(٢) القُصْب : بضم القاف وسكون الصاد أمعاءه . قال الزمخشري : القصب واحد الأقصاب ، وهي الأمعاء ومنه القصّاب ؛ لأنه يعالجها . وقال ابن الأثير : اسم للأمعاء كلها ، وقيل : ما كان أسفل البطن من الأمعاء (فيض القدير ٤ / ٩) .

وكان أول من سَيَّب السوائبَ ، وبحرَ البَحيرة »[١] .

قال المناوي :

لكونه استخرج من باطنه بدعة جرّ بها الجريرة إلى قومه[٢] ، فكذا يجر أمعاءه في النار ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « رأيت عمرو بن لُحَي بن قَمْعَة بن خِنْدِف ، أخا بني كعب ، وهو يجر قصبه في النار »[٣] .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من سيّب السوائب ، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيته في النار يجُرُّ أمعاءه فيها »[٤].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا ، ورأيت عمرًا يجر قصبه ، وهو أول من سيّب السوائب »[٥] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار ، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » . فقال أكثم : عسى أن يضرّني شبهه يا رسول الله ؟ قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيَّب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي »[٦] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده ، وابن أبي عاصم في الأوائل عن أبي هريرة .

(٢) فيض القدير (٤ / ٩) .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٢٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٧ .

(٥) تفرد به البخاري .

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل ، وقال الألباني : إسناده حسن ، السلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٦ .

○ أبرهة صاحب الفيل ○

قال ابن جرير :

عن ابن إسحق أن أبرهة– الأشرم – بني كنيسة بصنعاء ، وكان نصرانيا ، وسماها : القليس[1] .

وانظر إلى أبرهة اللعين – صاحب الفيل – والصاحب يكون من جنس القوم . فكأن الله أشار إلى أنه من جنس البهائم بل أضلّ . لما ابتنى كنيسته القليس بصنعاء وأراد حج الناس إليها ، وأراد بذلك صرف الناس عن الحج إلى البيت .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فصرف الله عنها الناس ، وأوقد الحريق فيها كما قال القمي النيسابوري .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشنقيطي في أضواء البيان :

وكذلك جيش أبرهة ، لما جاء مدلا بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿ **فأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾[2]. [الفيل : ٣-٥] .

يقول ابن كثير :

يقول ابن إسحق : أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا يسألون عن نفيل بن حبيب ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٢ / ١٩٦ – ١٩٧) .

(٢) أضواء البيان (٨ /٤٤٢) .

ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، وفي ذلك يقول نفيل :

حمدت الله إذ أبصرت طيرًا وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفير كأن عليّ للحبشان دَيْنا

قال ابن إسحٰق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدّة تمثّ قيحًا ودمًا ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون[1] .

فلما أراد أبرهة هدم البيت حجرًا حجرًا ، كذلك سقط أنملة أنملة .

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه .

لما زها وعتا بنفسه ، وخرج بقوته يريد مكة ، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر .

والجزاء من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **وأرسل عليهم طيرًا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ [الفيل : ٣ - ٥] .

أبابيل : أي متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحٍ شتى ، قال ابن عباس : يتبع بعضها بعضا . وقال عبد الله : فرق . وقال ابن عباس : كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

والسجيل : هو الطين في حجارة ، كما قال ابن عباس .

فانظر رحمك الله .. لما تتابعوا على البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ، يتبع بعضها بعضًا .

ولما أرادوا نقض البيت ، وهدْمه حجَرًا حجَرًا ؛ عذَّبهم الله بالحجارة

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٠-٥٥١) بتصرف . طبع دار التراث

لا هم إنَّ العبد يمـ ـنع رَحْله فامنع رحالك
لا يغلبـن صليبهـمْ ومحالهم غدْوًا محالك .

قال ابن كثير :

قال ابن إسحٰق : بعثت ثقيف أبا رغال مع أبرهة ، ليدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس ، كقول جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكمُ لقبر أبي رغال

فلما أعان القوم كدليل لهدم الكعبة ، وجعلها أنقاضا وحجارة ، فكذا يرجم قبره بالحجارة .

والجزاء من جنس العمل .

أما قائد الفيل وسائسه : روى ابن إسحٰق عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . تحركت أقدامهما بالفيل ، فأصبحا يقادان في شوارع مكة ، وأقعدهما الله .

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزَّ بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا - ويهلك بحيوان صغير ، لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر ، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر[1].

فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿ **وطهر بيتي** ﴾ [الحج : ٢٦] ، قصدها فوج الفيل ، فَفِيلَ[2] مرادهم ، لما باتوا على ما بيتوا ، أقبل الطير الذي رمى كالغمام ، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر ، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم ؛ ليكون معجزًا لظهور بني هاشم ، فأمسوا في بيدر الدياس ﴿ **كعصف مأكول** ﴾[3] .

---

(١) الظلال (٦/٣٩٧٦). (٢) خاب. (٣) المدهش لابن الجوزي ٧٥ .

○ كفار قريش ○

كفار قريش الذين صدوا عن سبيل الله ، وآذوا الرسول ﷺ ، وجرّعوا الصحابة صنوف العذاب ، فلننظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قد قالوا عن رسول الله ﷺ أنه الأبتر وكذبوا ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

يقول سيد قطب :

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ، ولا يمكن أن يكون صاحبها أبتر ، كيف وهي موصولة بالحي الباقي ...؟! إنما يبتر الكفر والباطل والشر ، ويبتر أهله مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور ، وصدق الله العظيم ، وكذب الكائدون الماكرون[١] .

وكم رأت دار الندوة من انتفاش الباطل ورجسه ودنسه ، وهي دار عريقة ذات تاريخ ، وفيها اجتمع سادة قريش ليأتمروا برسول الله ﷺ ، وتمر الأيام وتصير هذه الدار إلى حكيم بن حزام الذي أراد أن يتخلص منها ، وكأنه يريد أن يسدل ستارًا من النسيان على ذلك الماضي البغيض ، فباعها بمائة ألف درهم ، فقال له قائل من فتيان قريش : لقد بعت مَكْرُمة قريش ياعم : فقال حكيم : هيهات يا بني ، ذهبت المكارم كلها ؛ ولم يبق إلا التقوى ، وإني ما بعتها إلا لأشتري بثمنها بيتا في الجنة ، وإني أشهدكم أنني جعلت ثمنها في سبيل الله عز وجل »[٢] .

فالباطل ينتفخ وينتفخ وينفش ، يموه على العين ، ولكنه هش سريع العطب ، كالزبد يطفو على الماء ، ولكنه يذهب جفاءً ويبقى الماء ، أما الحق فله العقبى وله البقاء ولا يزول .

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) صورة من حياة الصحابة (٥/٧٦ - ٧٧) .

○ أبو جهل فرعون هذه الأمة ○

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بعير قريش ، ولما ترك بدرًا بيسار ، نزلت قريش بالجحفة .

يقول ابن إسحاق :

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام ، والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكان بدر موسما من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثَلاثًا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا ، فامضوا .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، وصاروا حديث الناس في الذل والهوان .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا أجهل قال حين التقى القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرف ، فأحِنِهِ[1] الغداة ، فكان هو المستفتح[2] .

قال تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين** ﴾ [الأنفال : ١٩] .

---

(١) أي اجعل حينه غدًا .

(٢) رواه أحمد وابن إسحق ، والنسائي ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، انظر البداية والنهاية (٣ / ٢٨٢) .

وقال الآمدي عن مطرف في قوله تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ . قال : قال أبو جهل : اللهم أعن أعز الفئتين ، وأكرم القبيلتين ، وأكثر الفريقين ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا ..** ﴾ الآية .

وقال الطبراني عن رفاعة بن رافع قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر ، أشفق أن يُخْلص إليه ، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث ، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ، ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي . وخاف أن يخلص القتل إليه ، وأقبل أبو جهل فقال : يا معشر الناس ، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد ، فإن عجلوا فواللات والعزى ، لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ، فلا ألفين رجلًا منكم قتل رجلًا ، ولكن خذوهم أخذًا ، حتى تُعَرِّفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ، ورغبتهم عن اللات والعزى ، ثم قال أبو جهل متمثلًا :

ما تنقم الحرب الشموس مِنِّي
باذلَ عامين حديث سنٍّ
لمثل هذا ولدتني أمي

فانظر كيف كان جزاء هذا المنتفخ من جنس عمله :

روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لفي الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن لمكانهما ، فقال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل . فقلت : يا ابن أخي ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه . وقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله . قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه وهما ابنا عفراء .

وفي الصحيحين أيضًا : من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ينظر ماذا صنع أبو جهل ؟ » . قال ابن مسعود : أنا يا رسول الله . فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، حتى برد . قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبو جهل[١]؟ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه ، أو قال : قتله قومه .

وعند البخاري : عن ابن مسعود : أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزاك الله ؟ . فقال هل أعمد[٢] من رجل قتلتموه .

وقال الأعمش عن ابن إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع وعليه بيضة ، ومعه سيف جيد ، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف[٣] رأسه بسيفي ، وأذكر نقفًا كان ينقف رأسي بمكة ، حتى ضعفت يده ، فأخذت سيفه ، فرفع رأسه فقال : على من كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ ألست رويعينا بمكة ؟. قال : فقتلته ثم أتيت النبي ﷺ فقلت : قتلت أبا جهل . فقال : « آلله الذي لا إله إلا هو ؟ » فاستحلفني ثلاث مرات ، ثم قام معي إليهم فدعا عليهم[٤] .

فكان جزاؤه من جنس قوله ، بل ومن جنس عمله ، فنقف ابن مسعود بالسيف في رأسه مثلما فعل به في مكة .

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٤٢) : والتقدير : أنت المقتول يا أبا جهل ؟ وخاطبه بذلك مقرِّعًا له ومستشفيًا منه ؛ لأنه كان يؤذيه بمكة أشد الأذى .

(٢) كناية عن الهلاك ، وعمد أي هلك ، وقيل : معني أعمد : أعجب أو أغضب ، وقيل : معناه هل زاد على سيد قتله قومه : الفتح (٧ / ٣٤٣) .

(٣) أضرب .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩) .

○ أبو لهب وامرأته حمالة الحطب ○

وأبو لهب هذا الذي أفرد الله ذكره من كفار قريش ، هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب ؛ لإشراق وجهه ، ولتلهب وجنتيه ، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب ، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها ، وامرأته أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان .

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له ، والازدراء به . والتنقص له ولدينه .

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبي لهب لدعوة الرسول ﷺ ، التي عاداها من اليوم الأول للدعوة .

روى الإمام أحمد ، عن ربيعة بن عبّاد من بني الديل – وكان جاهليًا ، فأسلم – قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية، في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وروى محمد بن إسحٰق عن ربيعة بن عباد الديلي قال : إني لمع أبي غلام شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضيء ذو جُمّة ، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعوني ، حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر ، مِنْ خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلة ، فلا تسمعوا له وتتبعوه .

فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب(١) .

قال تعالى : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ [المسد : ١ - ٥] .

روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل ، فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾(٢) .

وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾(٣) .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول ﷺ وتتبع خطوه ، والرد على مقالته ، فأفرد الله ذكره ، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش .

ولما قال للرسول ﷺ : تبًّا لك وقام ينفض يديه ، فتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته ، وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أمر المعركة .

قال : تبا لك ، فكان الجزاء : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ .. دعاءٌ بدعاء ، ولفظٌ بلفظ .

---

(١) رواه أحمد والطبراني .

(٢) رواه البخاري تفسير سورة : ﴿ تبت يدا أبي لهب .. ﴾ .

(٣) البخاري كتاب الجنائز باب ذكر شرار الموتى ، وتفسير سورتي الشعراء وسبأ .

نفض يديه ، فجاء ذكر اليدين : ﴿ **تبت يدا** ﴾ .. واحدة بواحدة .. يداك أو كتا وفوك نفخ أبا لهب .

سائر اليوم : سائر الدهر وأنت بعد في دار الدنيا ﴿ **وتب** ﴾ .

ولم يقيض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا ، ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا ، ولا سرًّا ولا معلنًا ؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[1] .

﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ تباب وهلاك وبوار وقطع .. في آية قصيرة واحدة ، تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهي المعركة ، ويسدل الستار !

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه ؛ تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشًا ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم ، وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدًا ﷺ : وكان قد خطب بنتي الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم ، لولديه قبل بعثة النبي ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما ، حتى يثقل كاهل محمد بهما !

﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ **وما كسب** ﴾ يعني ولده ، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله . لما دعا الرسول ﷺ قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . قال الله – عز وجل – لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

عن عطاء : نزلت في أبي لهب ، وذلكَ حين مات ابن الرسول ﷺ ، فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

والجزاء من جنس العمل .

قال القاسمي :

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده - لعنه الله - ثلاثة : معتب ، وعتبة ، وهما أسلما ، وعُتيبة - مصغرا - وهذا هو الذي دعا عليه النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، وردّ ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» . وفيه يقول حسان - رضي الله عنه -:

من يرجع العام إلى أهله   فما أكيلُ السَّبع بالراجع[(١)]

قال ابن كثير :

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحٰق عن هبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلى محمد ولأوذينه في ربه - سبحانه - فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، هو يكفر بالذي دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي ﷺ : « اللهم ، ابعث إليه كلبًا من كلابك » . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ما قلت له ؟. فذكر ما قال له ، قال : فما قال لك ؟. قال : قال اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه[(٢)].

وفي رواية عروة بن الزبير : أن عتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمدًا فلأوذينه . فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك » وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره[(٣)].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦٢٩٢/١٧). (٢) تفسير ابن كثير (٤٢١/٨) سورة النجم.

(٣) القرطبي (٩ / ٦٢٥٣) .

فسرنا حتى نزلنا الشراة[١] ، وهي مأسدة[٢] ، فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد ، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم ، فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشمّ وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد ؛ تقبض ، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة[٣]، ففضح[٤] رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد .

فانظر أخي يرحمك الله .. لما تفل في وجه رسول الله - ﷺ - أتى الأسد ، فشم وجهه ، وفضح رأسه ، لم يأكله من يديه أو رجليه ، وإنما وجه بوجه ..

بصق في وجه نبي ... وفضح في رأس شقي ، ومعذرة لرسول الله ﷺ .

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فابن أبي لهب لا يناسبه إلا كلب[٥] .

وهل أغنى عنه ولده يوم موته ..؟!

فهل الجزاء إلا من جنس العمل !؟

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : رماه الله بالعدسة فقتلته ، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا ، ما دفناه حتى أنتن ، وكانت قريش تتقي هذه العدسة ، كما

---

(١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ . وفي اللسان : موضع تنسب إليه الأسد . يقال للشجعان : ما هم إلا أسود الشرى ، والشرى طريق في سلمى كثير الأسد .

(٢) الأرض كثيرة الأسود .

(٣) أي ضربه ضربة .

(٤) أي شدخه .

(٥) قال القاسمي في محاسن التأويل (١٧ / ٦٢٩٢) ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب ، ولما أضيف إلى الله كأنه أعظم أفراده .

تتقي الطاعون ، حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكما ، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه ؟ فقالا : إنا نخشى عدوة هذه القرحة . فقال : انطلقا فأنا أعينكما عليه ، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدارٍ ، ثم رخموا عليه بالحجارة .

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا ، إلا تسترت بثوبها حتى تجوز .

﴿ سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب ﴾ .

من للأحول غير أم قبيح ، أم جميل العوراء .

قال ابن العربي : العوراء أم قبيح وكانت عوراء ، من لها غير أبي النار ، أبي لهب ؟! حقق الله نسبه ، لقد صرفهم الله على أن يقولوا : أبو النور .. وأبو الضياء ، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب ، الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن يجعلها مَقَرّه .

قال ابن كثير عن أم جميل :

كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم ، ولهذا قال : **﴿ حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾** يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهيأة لذلك ، مستعدة له[1] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ حمالة الحطب ﴾ عن مجاهد وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، والسدي : كانت تمشي بالنميمة .

وعن ابن عباس ، وعطية الجدلي ، والضحاك ، وابن زيد ، كانت تضع

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٥) .

الشوك في طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال الإمام ابن جرير :

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي هو قول من قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ ؛ لأن ذلك أظهر .

قال الربيع : فكان النبي ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير .

ومثلما حملت الشوك والعضاة تطرحه في طريق رسول الله ﷺ ، فكذا تحمل الحطب تطرحه على زوجها في النار جزاءً وفاقًا ، قال قتادة وغيره : كانت تُعيّر رسول الله ﷺ بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها ، فُعيّرت بالبخل(١) .

بل كان موتها بجنس عملها .

قال مرة الهَمْداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة(٢) من الحسك(٣) فتطرحها في طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أعْيَت ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها(٤) خنقها الله بحبلها .

قال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، دليله قوله تعالى : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ [الأنعام : ٣١] . ولا يظلم ربك أحدًا . والجزاء من جنس العمل .

﴿ **في جيدها(٥) حبلٌ من مسد** ﴾ .

قال سعيد بن المسيِّب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في

---

(١) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٢) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(٣) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم ، وهو السعدان .

(٤) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٥) الجيد : العنق .

عداوة محمد ، فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار .

وعن الثوري : هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا . والجزاء من جنس العمل[1] .

يقول سيد قطب في الظلال :

أبو لهب ﴿ **سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب** ﴾ ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد ، تناسق في اللفظ ، وتناسق في الصورة ، فجهنم هي نار ذات لهب ، يصلاها أبو لهب ، وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه ، والحطب مما يوقد به اللهب ، وهي تحزم الحطب بحبل ، فعذابها في النار ذات اللهب ، أن تُغّل بحبل من مسد ؛ ليتم الجزاء من جنس العمل[2] .

وانظر يأخي ، مثلما أراد أن ينغصا عيش رسول الله ﷺ بتطليق ابنتيه وتتبعه في المجالس بتكذيبه ، مثلما أثارا حربًا شعواء على النبي ﷺ ، وعلى الدعوة لا هوادة فيها ولا هدنة ، انظر إلى وقع السورة في نفس أم جميل ، التي ذعرت لها وجُنّ جنونها ، وحسبت أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر ، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة ، وما تحمله من تهديد ومذمة ، وتصوير رزي لأم جميل خاصة ، تصوير يثير السخرية ، من امرأة معجبة بنفسها ، مُدِلَّةٍ بحسبها ونسبها ، ثم ترتسم لها هذه الصورة ﴿ **حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب .

عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة وفي يدها فهر[3] ، وهي تقول :

مذممًا أبينا
ودينه قلينا
وأمره عصينا

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦) . (٢) الظلال (٦ / ٤٠٠٠) .

(٣) أي بمقدار ملء الكف من الحجارة .

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت ، وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن تراني » وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يأبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني ؟. قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت ، وهي تقول : قد علمت قريش إني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه ، أو غيره : فعثرت أم جميل مِرْطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أُكلّم ، وثقاف[1] فما أُعلّم ، وكلنا من بني العمِّ ، وقريش بعد أعلم[2] .

وروى الحافظ عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ وجاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ، فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيحال بيني وبينها ، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، فقالت : يأبا بكر هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به . فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر - رضي الله عنه - : ما رأتك ؟. قال : لا مازال ملك يسترني حتى ولت »[3].

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرًا ، وكان الهجاء لا يكون إلا شعرًا مما نفاه أبو بكر ، وهو صادق ، ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها قد سجلت في الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضًا ، تنطق بغضب الله وحربه أبي لهب وامرأته ،

---

(١) أي ذات فطنة ومعرفة .

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦ - ٥٣٧) .

(٣) ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية ، جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا ، والنار في الآخرة جزاءً وفاقًا ، والذل الذي يشير إليه الحبل ، في الدنيا والآخرة جميعًا[١] .

○ عقبة بن أبي معيط لعنه الله ○

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ ، وانفرد بما لم يفعله أحد ، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ ، فقطعت عنقه جزاء وفاقا .

قال ابن إسحٰق في أسرى بدر ، وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبرًا :

قال عقبة ، حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد ؟. قال : « النار » . وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وكذا قال موسى ابن عقبة في مغازيه .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت ، قال : يا معشر قريش علام أقتل مِنْ بين مَنْ هنا ؟ قال على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال : لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد ، من بين قريش ؟ قال : « نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي ، جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينيّ ستندران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة ، فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي .

قال ابن هشام : بل قتل عقبة علي بن أبي طالب ، فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم[٢] .

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ .

---

(١) الظلال (٦/٤٠٠١) .

(٢) البداية والنهاية (٣ / ٣٠٦) .

○ أُبَيّ بن خلف ○

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه – يشير إلى راعيته – اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله – ﷺ – في سبيل الله[١] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبي في سبيل الله ، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه نبي الله ﷺ »[٢].

قال ابن إسحٰق : « كان أُبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة ، فيقول : يا محمد ، إن عندي العَوذَ ، فرسًا أعلفه في كل يوم فرقا[٣] من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله »[٤] .

قال ابن كثير :

عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جمع ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » . فلما كان يوم أحد أقبل أُبي في الحديد مقنعا ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله ، فاستقبله مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بالحربة ، فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ، إنما هو خدش ؟. فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « أنا أقتل أبيا » . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون .

---

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) رواه البخاري .

(٣) بفتح الراء وإسكانها : مكيال يسع تسعة عشر منا ، وقيل : اثنا عشر منا .

(٤) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة : أحد ١٦٢ .

فمات إلى النار . ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[(١)] [الملك : ١١] .

وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب نحوه ، وقال ابن إسحق : لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أُبي بن خلف ، وهو يقول : لا نجوتُ إن نجوتَ . فقال القوم : يا رسول الله ، يعطف عليه رجل منا ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوه » . فلما دنا منه ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصُمّة فقال بعض القوم - كما ذكر لي - فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض انتفاضة تطايرنا عنه ، تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفضه ، ثم استقبله رسول الله ﷺ ، فطعنه في عنقه تدأدأ منها[(٢)] مرارًا[(٣)] .

لما رجع إلى قومه ، وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشًا غير كبير ، قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس . قال : إنه قد كان قال بمكة : أنا أقتلك فوالله ، لو بصق عليّ لقتلني ، فكان هذا الشقي هو الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة[(٤)] .

فكان جزاؤه من جنس قوله للرسول ﷺ بمكة .

قال حسان :

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أُبيٌّ يوم بارزه الرسولُ
أتيت إليه تحمل رِمَّ عظمٍ ... وتُوعِدُهُ وأنتَ به جهولُ

وقال أيضًا :

ألا من مُبْلغٍ عني أُبيّا ... فقد أُلقيت في سحق السعيرِ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٣٣ - ٣٤) .
(٢) عدا أشد العدو .
(٣) البداية والنهاية (٤ / ٣٣ - ٣٤) .
(٤) سلسلة معارك الإسلام : أحد ١٦٣ .

تُمَنِّي بالضلالة مِنْ بعيدٍ وتقسمُ إن قدرت مع النذورِ
تُمنّيك الأماني من بعيد وقول الكفر يرجع في غرورِ
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظٍ كريم البيت ليس بذي فجورِ
له فضل على الأحياء طُرّاً إذا نابت مُلِمَّاتُ الأمورِ

○ عبد الله بن قمئة أقمأه الله ○

عن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر :

ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شُج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ، ووهي منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[1] .

وعند ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري : أن عبد الله بن قمئة جرحه – أي الرسول ﷺ في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَرِ في وجنته ﷺ .

فماذا كان جزاء هذا الشقي ؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر : إن الذي رمى رسول الله ﷺ بأحد ، فجرحه في وجهه ، قال : خذها مني وأنا ابن قمئة ، فقال : « أقمأك الله » .. قال فانصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع .

وفي الطبراني ، من حديث أبي أمامه قال : رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد ، فشج وجهه وكسر رباعيته ، فقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يمسح الدم عن وجهه : « ما لك ، أقماك الله » .

---

(١) فتح الباري (٧ / ٤٣١) .

فسلط الله عليه تَيْس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر رحمك الله .. لم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة مَلَكًا ؛ لينتقم لنبيه ﷺ ، وإنما سلط عليه تيسًا قطَّعه ، وألقاه من فوق الجبل ، لهوانه على الله .

يا لذل قَزَمٍ تَطاول على النبي ﷺ ، وشج وجهه ، فأخزاه الله ، وقطعه تيس .. وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية ، ليخزى في الدنيا والآخرة .

○ معذبة زنيرة ○

كانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة في قريش ، لما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار ، وذات يوم جمعت الجواري وأمرتهن أن يضربْنَها على رأسها ، حتى فقدت البصر ، فإذا عطشت قالت : اعطوني ماءً . قالت : الماء أمامك فابحثي عنه . قالت لها سيدتها : يا زنيرة ، إن كان ربك الذي تؤمنين به حقًّا كما تزعمين ، ادعيه فليرد عليك بصرك لكي تري الماء والطعام . فرفعت يديها إلى الله ، وقالت : اللهم ، إني أسألك أن ترد عليَّ بصري : فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه. وتقول للجواري: احملن النعال والقباقيب، واضربوني على رأسي. فضربنها حتى فقدت البصر .

وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل[1] .

وكان العمى جزاءً على الكفر .

○ الوليد بن المغيرة ○

وأخيرًا شيخ أهل الكفر وأشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ .

---

(١) شريط بعنوان : حلاوة الإيمان . للشيخ أحمد القطان .

قال تعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلّاف مهين . همّاز مشاء بنميم . منّاع للخير معتد أثيم . عُتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم** ﴾[القلم : ١٠ - ١٦] .

قال سيد قطب :

وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا ..** ﴾ الآيات [المدثر : ١١] .

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله ﷺ ، وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصدّ عن سبيل الله .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى وفي سواها ، شاهدٌ على شدة دوره – سواء كان هو الوليد أو الأخنس ، والأول أرجح – في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طويته وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

فهو ﴿ **زنيم** ﴾ ، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام ، وما يعادي الإسلام ويصرّ على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم .

والزنيم من معانيه : اللصيق في القوم ، لا نسب له فيهم ، أو أن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة ، وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا في القوم ، وهو المختال الفخور ..

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه ، ويسمع وعد الله القاطع : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ ...

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير .

الأول : الوسم كما يوسم العبد ..

والثاني : جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير ...

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم[1] .

قال الفخر الرازي :

﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ إن في الآية احتمالًا آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول ، وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية .

فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية ، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبّر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ .

قال ابن عباس : سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه ، وفي رواية عنه : سنسمه سيما على أنفه ، وكذا قال السدي ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون سنسمه سمة أهل النار ، يعني : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم ، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٦٣ - ٣٦٦٤) .

في الدنيا والآخرة[١] .

من مات همّازًا لمّازًا ملقبًا للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين .

قال العوفي عن ابن عباس : يقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري ، وليس به .

وقال الرازي : في مفاتيح الغيب :

وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين ، وكان يقول لهم وما قاربهم : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا ، فمنعهم الإسلام .

وعن ابن عباس : أبو جهل ، وعن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث ، وعن السدي ، الأخنس بن شريق[٢] .

قال البقاعي :

لما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر ، فتوقع السامع جزاءه ، قال معلمًا أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة ﴿ **سنسمه** ﴾ أي : نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره ، تقول العرب : وسمه مَيْسم سوء ، ولما كان الوسم منكئًا ، وكان جعله في موجع لا يُستر أنكأ ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان ، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه الأنفة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٥ - ٤٠٦) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٥ / ٦٥٤ - ٦٥٥) .

﴿ **على الخرطوم** ﴾ أي : الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين ، وَسْمًا مستعليا عليه بوضوح جدًّا ؛ ليكون هتكه بين الناس وفضيحة لقومه ، وذلًا وعارًا ، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع ، والذنب القبيح من الكفر وما معه ، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا ، على أنه حقق في الدنيا هذا الخطم حسا بأنه ضُرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه[1] .

قال تعالى : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا . وجعلت له مالًا ممدودًا . وبنين شهودًا ومهدت له تمهيدًا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا . سأرهقه صعودًا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر** ﴾ [المدثر : ١١ - ٢٩] .

يقول الشيخ سيد قطب : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ . التصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا ، فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعَّد كان أكثر مشقة ، وأعظم إرهاقًا ، وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة ، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود ، يندبُّ في طريق وعرٍ شاقٍّ مبتوت ؛ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصَّعَّد في السماء ، أو يصَّعَّد في وعرٍ صلد ، لا رِيّ فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !.

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية ، والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته ، كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولًا يقوله فيه ؛ جدّ مصطنع ، متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء ، وبعد هذا المخاض كله ؛ وهذا الحَزق كله ، لا يفتح عليه بشيء ، إنما يدبر عن النور ، ويستكبر عن الحق .

---

(١) نظم الدرر (٢٠ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات ، عقب عليها بالوعيد المفزع : ﴿ **سأصليه سقر** ﴾ .. وزاد هذا الوعيد تهويلًا بتجهيل سقر ، ﴿ **وما أدراك ما سقر** ﴾ إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ؛ ثم عقب على التجهيل بشيء من صفاتها أشد هولا : ﴿ **لا تبقي ولا تذر** ﴾ فهي تكنس كنسًا ، وتبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، فلا يقف لها شيء ، ولا يقف وراءها شيء ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء[1] !

هذا دين رفيع ، لا يُعْرِض عنه إلا مطموس ، ولا يعيبه إلا منكوس .

قال القاسمي :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره ما رواه ابن إسحٰق ، أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأيًا واحدًا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضًا ، ويردّ قولكم بعضه بعضًا ، قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيًا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر - قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٧٥٦) .

السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ؛ إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإنّ فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** ..﴾ الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله الآيات . رواه ابن جرير[1].

قال محمد الطاهر بن عاشور :

كان الوليد بن المغيرة ، يلقب في قريش بالوحيـد ، لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته ، وهي كثرة الولد ، وسعة المال ، ومجده ، ومجد أبيه من قبله ، وكان مرجع قريش في أمورهم ؛ لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان ، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به . وجاء هذا الوصف بعد فعل : خلقت . ليُصرف هذا الوصف عما كان مرادًا به ؛ أي أوجدته وحيدًا عن المال والبنين والبسطة ، فيغير عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حالُ كل مخلوق .

عن ابن عباس : كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل ، والغنم ، والعبيد ، والجواري ، والجنان ، وكانت غلة ماله ألف دينار في السنة .

﴿ **ومهدت له تمهيدا** ﴾ تيسير أموره ، ونفاذ كلمته في قومه ، بحيث لا يعسر عليه مطلب . ولا يستعصي عليه أمر .

---

(١) محاسن التأويل (١٥ / ٥٩٧٨) ، وابن جرير (٢٩ / ١٥٧) طبعة الحلبي الثانية .

وأكد ﴿ **مهدت** ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ؛ ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد .

﴿ **ثم يطمع أن أزيد** ﴾ ثم للتراخي الرتبي ، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النِّعم .

﴿ **كلا** ﴾ ردعٌ وإبطالٌ لطمعه في الزيادة من النّعم ، وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه ، مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق .

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها[١] . عوقب بنقيض قصده .

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور :

الصَّعود : العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشي ، وهي فعول مبالغة من صعد ، فإن العقبة صَعْدة ، فإذا كانت عقبة أشد تصعدًا من العقبات المعتادة قيل لها : صَعُود .

وقوله : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ تمثيل لضد الحالة المحملة في قوله : ﴿ **ومهدت له تمهيدًا** ﴾ أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سُوأى في الدنيا ، ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة ، وكل ذلك إرهاق له .

قيل : إن طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت ، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا[٢] .

قال ابن كثير :

﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ قال قتادة عن ابن عباس صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه ، وقال السدي : صعودًا ، صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٤-٣٠٦).   (٢) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٧) .

وقال مجاهد : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ أي مشقة من العذاب ، وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه ، واختاره ابن جرير .

﴿ **إنه فكر وقدر** ﴾ : أي إنما أرهقناه صعودًا لبعده عن الإيمان ؛ لأنه فكر وقدر أيْ وتروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال .

وقال ابن كثير أيضًا :

خرج على قريش ، فقال : يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة ، فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا ، وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام . قال : أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل بيته فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟. فقال : ألست أكثرهم مالًا وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا بسحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر** ﴾ قال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقال قتادة :

قال البقاعي في نظم الدرر :

أكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد في زمانه من أهل بيته وفخذه ، بحيث كان يسمى : الوحيد ، وريحانة قريش . فلم يرعَ هذه النعمة[1] العظيمة ، ﴿ **ثم يطمع أن أزيد كلا** ﴾ لم يزد بعد ذلك شيئًا ، بل لم يزل في

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٤٣ - ٤٤٤) .

نقصان حتى هلك ، ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا لا مبدل لكلماته** ﴾ [الأنعام : ١١٥] . ليرتدع عن هذا الطمع ، وليزدجر وليرتجع ، فإنه حمق محض ، وزخرف بحت ، وغرور صرف .

﴿ **إنه كان لآياتنا عنيدًا** ﴾ أي : بالغ العناد ، على وجه لا يعد عناده لغيرها ، بسبب مزيد قبحه عنادًا .

والعناد ، كما قال الملوي : من كبر في النفس ، أو يبس في الطبع ، أو شراسة في الخلق ، أو خبل في العقل . وقد جمع ذلك كله إبليس .

لما كان العناد غلظة في الطبع ، أو شكاسة في الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه ، فقال : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ أي : ألحقه بعنف وغلظة وقهر ، إلحاقًا يغشاه ويحيط به وعيدًا لا خلف فيه .

﴿ **صعودًا** ﴾ أي : شيئًا من الدواهي والأنكاد ، كأنه عقبة .

﴿ **إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إن هذا إلا قول البشر** ﴾ حاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها ، سكت ألفًا ونطق خلفًا ، فكان شبيهًا من بعض الوجوه بما قاله بعضهم :

لو قيلَ كم خمس وخمس لاغتدى ... يومًا وليلته يعـدُّ ويحسبُ
ويقول معضلة عجيبٌ أمرها ... ولئن عجبت لها لأمري أعجبُ
حتى إذا خدرت يداه وغُوِّرتْ ... عيناه مما قد يَخطُّ ويكتبُ
أوفى على شَرَفٍ وقال ألا انظروا ... ويكاد من فرح يُجنُّ ويُسلبُ
خمس وخمس ستة أو سبعة ... قولان قالهما الخليل وثعلبُ

قال تعالى : ﴿ **سأصليه سقر** ﴾ أي : الدركة النارية ، التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجلّ عـن الوصف ، فأدخله إياها ، وألوحه في الشدائد حرُّها ، وأذيب دماغه بها ، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها ، جزاءً على تفكيره هذا . الذي قدره ، وتخيله وصوّره بإرادته في طبقات دماغه ؛ ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه[١] .

---

(١) نظم الدرر (٢١ / ٥١ - ٥٩) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل .

أما قوله تعالى : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ أي : قطَّب وجهه وكلح ، فتربَّد وجهه ، مع تقبض ما بين العينين بكراهة شديدة ، فإنه يقابل بجر هذا الوجه ، وبسواد هذا الوجه وزرقته من اللواحة للبشر ، جزاءً وفاقًا .

○ كسرى ملك الفرس ○

روى محمد بن إسحق عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله ابن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال : « مزق ملكه » .

وعند ابن جرير : عن أيد بن أبي حبيب قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس ، وكتب معه : بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّة ؛ لأنذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين ، فإن تُسلم تَسلم ، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

قال : فلما قرأه شقه ، وقال : يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي . قال : ثم كتب كسرى إلى باذان - وهو نائبه على اليمن - أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك ، جلدين ، فليأتياني به . فبعث باذان قهرمانه ، وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس ، وبعث معه رجلًا من الفرس يقال له : فرخرة ، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لباذويه : ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره . فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلًا من قريش ، في أرض الطائف ، فسألوه عنه ، فقال : هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف - يعني وقريش - بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، وكفيتم الرجل . فخرجا حتى قدما على رسول الله

ﷺ فكلمه باذويه ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك يكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكرِه النظر إليهما ، وقال : « ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ » قالا : أمرنا ربنا – يعنيان كسرى – فقال رسول الله ﷺ : « ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي » . ثم قال : « ارجعا حتى تأتياني غدًا » . قال : وأتى رسول الله الخبر من السماء ، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله في شهر كذا وكذا ، في ليلة كذا وكذا من الليل ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

قال : فدعاهما فأخبرهما . فقالا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك باذان ؟. قال : « نعم ، أخبراه ذلك عني ، وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » . ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، فقال : والله ، ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل نبيًّا ، كما يقول ، وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقًّا فهو نبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيًا ، فلم ينشب باذان أن قدم علي كتاب شيرويه : أما بعد ، فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم ، ونحرهم في ثغورهم ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطاعة ممن قِبلك ، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمري فيه ، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان ، قال : إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس ، من كان منهم باليمن .

قال : وقد قال باذويه لباذان : ما كلمت أحدًا أهيب عندي منه . فقال

له باذان : هل معه شرط ؟ قال : لا .

وكسرى إذ تقاسمه بنوه بأسيافٍ كما اقتسم اللحامُ
تمخضت المنونُ له بيومٍ أتى ولكل حاملة تمامُ

قال الشافعي : لما أُتي كسرى بكتاب رسول الله ﷺ مزقه ، فقال : رسول الله ﷺ : « يمزق ملكه » . وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه في مسك . فقال رسول الله ﷺ : « ثبت ملكه » . ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة ، فأسلم من أسلم منهم ، شكَوْا خوفهم من مَلِكي العراق والشام إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » . فباد ملك الأكاسرة بالكلية ، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية ، وإن ثبت لهم ملك في الجملة ، ببركة دعاء النبي ﷺ لهم حين عظموا كتابه ، والله أعلم(١) .

والجزاء من جنس العمل .

وعند مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فوالذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

قال رسول الله ﷺ : « عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى »(٢) .

وقال: «لتفتحن عصابة من المسلمين كنزًا لكسرى الذي في الأبيض»(٣).

وتم فتح بلاد فارس وتمزيقهم في القادسية .

---

(١) البداية والنهاية (٤/٢٦٨-٢٧١) .
(٢) رواه مسلم وأحمد عن جابر بن سمرة .
(٣) رواه مسلم عن جابر بن سمرة .

فالقادسية ما يزال حديثها عبرًا تضيء بأروع الأمثالِ
صفحات مجدٍ في الخلود سطورها عجب الرجال لها بغير جدال

○ رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ○

قال البخاري في باب قوله تعالى : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأزل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [المنافقون : ٨] .

عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال : كنا في غزاة فكسع[١] رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار . وقال المهاجري : ياللمهاجرين . فسَمَّعَها الله رسوله ﷺ قال : « ما هذا » فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال ﷺ : « دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ » .

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ثم كثر المهاجرون بعد ، فقال عبد الله بن أُبي : أَوَ قَدْ فعلوا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[٢].

وفي البخاري من حديث زيد بن أرقم قال : كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل ... الحديث .

كان ذلك في غزوة بني المصطلق من خزاعة ، وهي غزوة المريسيع وهو ماء من مياههم .

---

(١) المشهور فيه ضرب الدبر باليد أو الرجل ، وذلك عند أهل اليمن شديد .
(٢) رواه البخاري .

قال ابن إسحق :

فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه ، وسنان بن دبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا فصرخ الجهني ، يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث . فقال :أَوَ قَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش[1] هذه إلا كما قال الأول : تُسمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذلّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُر به عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه ،فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفًا عظيمًا ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدَبًا على ابن أُبي ودفعًا عنه ، فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وسلم عليه وقال: يا رسول الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك صاحبك ؟ » أي صاحب يا رسول الله ؟

---

(١) اسم كان يلقّب به المنافقون أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين .

قال : « عبد الله بن أبي » . قال : وما قال ؟. قال : « زعم أنه إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ». قال : فأنت والله يا رسول الله ، تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز . قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنُتَوِّجَه ، فإنه يرى أن قد سلبته ملكًا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أُبي ...

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ابن إسحٰق :

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلًا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله ، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده مني ، وإني أخشىأن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأُدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقي معنا » . وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ، ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب . حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله ، لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . فقال عمر : قد والله ، علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري » .

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما ، أن ابنه عبد الله – رضي الله عنه – وقف لأبيه عبد الله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة ، فقال : قف ، فوالله

لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك ، فأذن له ، فأرسله حتى دخل المدينة[1] .

وفي التفسير عند ابن كثير :

ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستلَّ سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ ، قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله ، لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ ، وكان يسير ساقة[2] ، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله ، لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أمّا إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُز الآن .

وقال أبو بكر بن عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده :

قال هارون المدني : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل . قال : وجاء النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فو الذي بعثك بالحق ما تأملتُ وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإني أكره أن أرى قاتل أبي ..

فانظر إلى رأس النفاق .. الذي لم يهد الله قلبه للإيمان ، ولم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة ، وتقف دون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير إحنة في صدره ؛ أنْ لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج ؛ بسبب مَقْدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى .. ويقول ما قال ، قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة ، فيكون جزاؤه من جنس عمله وقوله، على يد ابنه؛ ليتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ، في

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ١٥٨ - ١٦٠) . (٢) في مؤخرة الجيش .

نفس الواقعة وفي ذات الأوان ولم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز .

ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ، وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ، ويقول : ها نحن أولاء ، هذا لواء الأعزاء ، وهذا هو الصفُّ العزيز .

عزة مستمدة من عزته ، لا تهون ولا تهن ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن في أوجِّ اللحظات ، إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ ، فالعزة معه مستقرة راسخة .

انظر إلى هذا الرجل الذي كان وجيها عند قومه ، جاء إليه رسول الله ﷺ وهو على حمارة مر بها على طريق سبخة ، وجعل يدعوه إلى الإيمان ، وهو يقول له : ابعد عني يا محمد ، فإن رائحة حمارك تؤذيني ، فيقول له ابن عم له ، والله لريح حمار رسول الله أطيب من ريحك .

أي هوان كان هذا ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن المنافقين : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ [المنافقون : ٤] أشباح وقوالب ، ليس وراءهم ألبابٌ وحقائق كالجوز الفارغ ، مزين ظاهره ، ولكنه للعب الصبيان .

هذا الذي تولى كبره ، وخاض في عرض أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك ، فقال الله - عز وجل - : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٣- ٢٤] جزاءً وفاقًا كما استطالت .

ثم انظر إلى كرم الرسول ﷺ معه ؛ ليدل ذلك على أن الجزاء من جنس العمل ، ما يرويه ابن كثير في البداية والنهاية[1] . من أنه لما مات عبد الله بن

---

(١) البداية والنهاية (٣١/٥ -٣٢) .

أبيّ - قبحه الله - ألبسه رسول الله ﷺ قميصه . وفي صحيح البخاري : أنه إنما ألبسه قميصه ؛ مكافأة له لما كان كسا العباس قميصًا حين قدم المدينة ، فلم يجدوا قميصًا يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبيّ .

○ القرطاء البكريون ○

بعث رسول الله ﷺ إلى القرطاء البكريين ، بناحية ضرية في نجد شرقي المدينة ، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فاستهزءوا به وبكتابه ، فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلى التوحيد ، فغسلوها من الحبر ، ثم رقعوا بها است دلوٍ لَهُم وأبوا أن يجيبوا الرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه ، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول ﷺ ، وهي أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخي سيد القوم حارثة بن عمرو ، واستهجنت ما صنعوا ، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة :

إذا ما أتتهم آيةٌ من محمدٍ ... محوْها بماء البئر فهي عصيرُ

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ﷺ ما فعلوا ، فصاروا دائما أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه ، وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عرينة ، يقال له : عبد الله بن عوسجة .

قال الواقدي : رأيت بعضهم عييًا لا يُبين الكلام[1] .

جرد رسول الله ﷺ حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب ، في شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية ، فهزمهم في مكان بنجد يقال له : زجّ لاوة .

---

(١) الواقدي (٢/ ٧٥٤ ، ٣ / ٩٨٢) غزوة تبوك لباشميل ١٦ - ١٧ .

○ مدعو النبوة والألوهية ○
مسيلمة الكذّاب

كذّاب اليمامة ، وكان يُدعى رحمان اليمامة ، ادعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ قصدته سجاح لمّا ادعّت النبوة بجنودها ؛ لأخذ اليمامة منه ، فهابه قومها ، وقالوا : إنه قد استفحل أمره وعظم ، فقالت لهم فيما تقوله : عليكم باليمامة ، دفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة . قال : فعمدوا لحرب مسيلمة ، فلما سمع بمسيرها إليـه خافها على بلاده ، فبعث إليها يستأمنها ، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت ، فقد ردّه الله عليك فحباك به ، وراسلها ، ليجتمع بها في طائفة من قومه ، فركب إليها في أربعين من قومه ، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض ، وقبلت ذلك ، قال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع ، رآكم ربكم فحيّاكم ، ومن وحشته أخلاكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم ... إلى آخر الهراء ، وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعف القلم عن ذكره ... فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا : ما أصدقك ؟ فقالت : لم يصدقني شيئًا ، فقالوا : إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق ، فبعثت إليه تسأله صداقًا ، فقال : أرسلي إليّ مؤذنك ، فبعثته إليه - وهو شَبَثُ بن ربعي - فقال : نادِ في قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضعت عنكم صلاتين ، مما أتاكم به محمد - يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة - ثم أسلمت بعد ذلك سجاح .

هذا الكذّاب الذي كذب على الله ورسوله ، فشانه الله وفضحه بكذبه ، فما يسمى إلا مسيلمة الكذاب ، وكفى به جزاءً في الدنيا ، فكيف بالقتل وقد قتله وحشي العبد ؟.. فكيف بيوم القيامة ، ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ [الزمر : ٦٠] ويقول

تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الكاذبين** ﴾ [هود : ١٨].

وجاء في قرآن مسيلمة الكذاب مما يثير الضحك والعجب العجاب : يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقي لكم نقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين .

وكان يقول :

« والمبذرات ذرعًا ، والحاصدات حصدًا ، والذاريات قحمًا ، والطاحنات طحنًا ، والخابزات خبزًا ، والثاردات ثردًا ، واللاقمات لقمًا ، إهالة وسمنًا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، رفيقكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والناعي فواسوه » .

والله ، إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان ، وهم يلعبون .

قال الصديق لوفد بني حنيفة : ويحكم ، أين كان يذهب بقولكم ؟ إن هذا لم يخرج من أل .

وكان الكذّاب يقول : والفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدامس ، والذئب الهامس .

وفد عمرو بن العاص في أيام جاهليته على مسيلمة ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين ؟. فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ قال : أنزل عليه : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفي خسر** ..﴾ [العصر : ١- ٢] قال : ففكر مسيلمة ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : ولقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هي ؟ فقال مسيلمة : يا وبر يا وبر ، إنما أنت إيراد وصدر ، وسائرك حفر نقر .

ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟. فقال له عمرو : والله ، إنك لتعلم أني

أعلم أنك تكذب .

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ ، بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه ، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية ، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجًا .

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلًا فيبست وهلكت .

وأتي بولدان يبرّك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم ، فمنهم من قرع رأسه ، ومنهم من لثغ لسانه .

والجزاء من جنس العمل ، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له .

ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي .

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة ، فقال : أين مسيلمة ؟ فقال : مه رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاء قال : أنت مسيلمة ؟ قال نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رجس . قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة . فقال : أشهد أنك كذّاب وأن محمدًا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، واتبعه هذا الأعرابي الجلف - لعنه الله - حتى قُتل معه يوم عقربا لا رحمه الله[1] .

قدم هذا اللعين المدينة وافدًا إلى رسول الله ﷺ ، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ ، فسمعه وهو يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته . فقال له : لو سألتني هذا العود - لعرجون في يده - ما أعطيتكه ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت . وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام كأن في يديه سوارين من ذهب ، فأهمه شأنهما ، فأوحى الله إليه في المنام : انفخهما ، فنفخهما فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان ، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرهما، أما الأسود

---

(١) البداية والنهاية (٦ / ٣٢٥ ، ٣٣٠ - ٣٣١) .

فذبح في داره ، وأما مسيلمة فعقره الله على يدي وحشي بن حرب ، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل ، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه ، وذلك بعقر داره في حديقة الموت ، وقد قتل قبله وزيراه : محكم بن الطفيل ، والرجال بن عنفوة .

روى البخاري أن مسيلمة كتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم .

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك .

أما بعد .. فإني قد أشركت معك في الأمر ، فلك المدر ولي الوبر - ويروى فلكم نصف الأرض ، ولنا نصفها - ولكن قريشا قوم يعتدون . فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

لما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقل بالأمر من بعده ، واستخفَّ قومه فأطاعوه ، وكان يقول :

خذي الدف يا هذه والعبي وبُثّي محاسن هذا النبي

تولى نبي بني هاشمٍ وقام نبي بني يعربِ

فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله ﷺ ، حتى سلّط الله عليه سيفًا من سيوفه ، وحتفا من حتوفه ، فعجّ بطنه ، وفلق رأسه ، وعجّل الله بروحه إلى النار، فبئس القرار.

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ [الأنعام : ٩٣] فمسيلمة والأسود وأمثالهما - لعنهما الله - أحق الناس دخولًا في هذه الآية الكريمة ، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة[1] . اهـ .

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٤٥ - ٣٤٦ .

○ بهاء الله مؤسس البهائية ○

الكذاب الملعون ، الذي أعلن على أتباعه بأنّه الموعود الذي أخبر عنه الباب ، وسماه بمن يظهره الله . وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة ، كما كان الشيرازي صاحبها ، وأنه ناسخ لشريعة البيان ، كما كان الشيرازي ناسخًا لشريعة الفرقان ، فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائية ، وأخيرا ارتقى على عرش الربوبية والألوهية ، يدعي النبوة والرسالة ثم الألوهية .

فتعالوا إلى الكذاب حسين علي المازندراني بهاء الله :

انظر إلى دجّال الدجاجلة الذي يقول : لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله ، ولا في جمالي إلا جماله ، ولا في كينونتي إلا كينونته ، ولا في ذاتي إلا ذاته ، ولا في حركتي إلا حركته ، ولا في سكوني إلا سكونه ، ولا في قلمي إلا قلمه العزيز المحمود .

وقال : لم يكن في نفسي إلا الحق ، ولا يرى في ذاتي إلا الله[١] .

ويقول في أقدسه – الأنجس : والذي ينطق في السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء[٢] .

وقال الفاجر أيضًا عن نفسه : قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء[٣] .

ويقول العباس – الخناس – بن البهاء وخليفته : إن الأيام التي ظهر فيها موسى كانت أيام موسى ، والأيام التي ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح ، وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها ، وأما ذلك اليوم – يوم ظهور المازندراني الكذاب – كان يوم الله[٤] .

---

(١) سورة الهيكل للمازندراني .

(٢) مجموعة الأقدس ص ٣٢٥ .

(٣) إشراقات ص ١٨ .

(٤) مفاوضات عبد البهاء للعباس .

ويقول أيضًا : إن الجمال الأقدس الأبهى - حسين المازندراني - قد استوى ذلك اليوم - يوم دعواه الخبيثة - على عرش الربوبية الكبرى ، وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول : وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري، الأقدس المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء ، ومصدر الأمر لمن في الأرضين والسماء[١] .

انظر إلى الدين الذي أتى به دجّال الدجاجلة :

الصلاة : من يطالع كتبهم المقدسة - النجسة - لا يجد فيها طريقة أدائها ، إلا ما كتبه البهاء في كتابه : الأقدس الفقرة ١٩ : قد فصّلنا الصلاة في ورقة أخرى ، طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب .

فأين ذهبت هذه الورقة ؟. قالوا : إن خصوم البهاء سرقوها منه ، وهم لذلك يبكون ويتألمون !!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله : كتب عليكم الصلاة فرادى ، قد رفع حكم الجماعة إلا في صلاة الميت إنه لهو الآمر الحكيم[٢].

الصوم : قد كتب لكم الصيام في شهر العلاء ، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال[٣] . وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر ، ويشمل على الأيام التسعة عشر . وأما فرضية الصوم ، فقد عفي عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول .

وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام ، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد[٤] .

---

(١) الأقدس الفقرة ١٤ . (٢) الأقدس الفقرة ٣٠ .

(٣) لوح كاظم للمازندراني ، وخزينة حدود وأحكام ص٣٦ .

(٤) خزينة حدود وأحكام ص ٣٧ .

الزكاة : قال البهاء : سوف نفصل لكم نصابها إذا شاء الله وأراد ، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم[١] .

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها .

بل قالوا: يعمل في الزكاة كما نزل في الفرقان[٢]– أي القرآن، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها في السنة لا في القرآن .

الحج : الحج للبيت الأعظم في بغداد ، وبيت النقطة في شيراز . وهو واجب على الرجال دون النساء .

الطهارة : رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء – قذرة كانت أم نجسة – وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم[٣] .

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها ، وقذرة نجسة .

المحرمات عند البهائيين :

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم في جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين .

وانظر ما يقول الفاجر : ومن اتخذ بكرًا لخدمته لا بأس عليه ، كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقوماً[٤] . بل من قلم الشيطان أيها العربيد .

أما الزنا : فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين ، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لاعقاب عليه ، بل يؤخذ منه الأجرة ؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة حسنة ، يقول المازندراني : قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل ، وهي تسعة مثاقيل من الذهب .

أما الزاني المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما

---

(١) الأقدس الفقرة ٣٥١ .

(٢) لوح زين المقربين للمازندراني .

(٣) الأقدس الفقرة ١٦١ .

(٤) الأقدس الفقرة ١٤٢ .

بيت العدل . هذا قول نبي البهائية عباس عبد البهاء .

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية ، وقد كانت متزوجة ، والغريب أنها هي التي منحته هذا اللقب : بهاء الله .. فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته : بهاء الله . فهي أول المتفوهين بكلمة بهاء الله ، وكفاه جزاءً هذا .

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر .

الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه :

يقول البهاء في رسالته إلى الشاه : قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء ، وزبالة لمصباحه الذي به أشرقت الأرض والسماء .

يقول أسلمنت داعية البهائية : وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة ، عن النصر السريع للأمور الروحانية .

ولما سئل عباس عبد البهاء إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب : سيؤمن جميع أهل العالم .

وصرح أيضًا : هذا القرن قرن شمس الحقيقة ، وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض . بل وصرح أيضًا بأن سنة ١٩٥٧ تتأسس وحدة الإنسانية ، وكذب الكذاب وابنه .

انظر عميل الروس الذي ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

الجزاء من جنس العمل :

يقول وقد كتب إلى شاه إيران ، يقول : ما وجدت في أيامي مقرا من على قدر أضع رجلي عليه ، كنت في كل الأحيان في غمرات البلايا التي ما اطلع عليها أحد ، كم من أيام اضطربت فيها أحبتي لضُرِّي ، وكم من ليالٍ ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلي ؛ خوفا لنفسي ، ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محرومًا[1] .

---

(١) الرسالة السلطانية للمازندراني ص٤ .

الكذاب الدجال يبكي ، وينوح ، ويشتكي ، ويعلي العويل والصراخ ، ويقول : كم من ليال فيها استراحت الوحوش ، والطيور في أوكارها ، وكان الغلام - الغلام والرب ؟- في السلاسل والأغلال ، ولم يجد لنفسه ناصرًا ولا معينًا[١] .

إله يستصرخ ، ورب يحتاج .. ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا** ﴾ [النساء : ٧٨] .

هذا الكذاب الذي افترى على الله ، وزعم أن كتابه الأكبر - الذي يسمونه : الأقدس - ناسخ لجميع الكتب السماوية : وآية واحدة منه خير من كتب الأولين والآخرين .

حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته ، وكذا بقية كتبه : الإيقان ، ولوح البقاء .

هذا المجنون الذي اعتنق البابية ، ثم ادعى النبوة والرسالة ، ثم الألوهية . ماذا كان جزاؤه في دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية ؟

لقد جُنَّ .

ينقل عن أحد أبناء حسين علي المازندراني البهاء أنه جُنّ في آخر حياته ، وقبل موته بمدة ، كما ذكره عمر عنائت نقلًا عن ابنه : إن البهاء جنّ في أواخر أيامه ، وكان ابنه - عباس عبد البهاء - يعمل كحاجب له[٢] .

جُنّ .. جزاءً وفاقًا .

○ غلام أحمد القادياني دجّال الهند[*] ○

عميل الإنجليز ، الكذاب الدجال ، انظر إلى عقيدته ، ثم انظر بعد ذلك

---

(١) الرسالة السلطانية ص ٣ .

(٢) انظر : البهائية نقد وتحليل لفضيلة الشيخ إحسان إلهي ظهير - رحمه الله - .

(*) من كتاب القاديانية دراسات وتحليل تأليف الأستاذ إحسان إلهي ظهير .

إلى نهايته. يقول المتنبي القادياني غلام أحمد : قال لي الله: إني أصلي وأصوم، وأصحو وأنام[١].

ويقول الكذاب : قال الله : إني مع الرسول أجيب ، أخطىء وأصيب ، إني مع الرسول محيط[٢] .

ويقول أيضًا : أنا رأيت في الكشف بأني قدمت أوراقًا كثيرة إلى الله ، ليوقع عليها ، ويصدق الطلبات التي اقترحتها ، فرأيت أن الله وقع على الأوراق بحبر أحمر ، وكان عندي وقت الكشف رجل من مريدي ، يقال له : عبد الله . ثم نفض الرب القلم ، وسقطت منه قطرات الحبر الأحمر على أثوابي وأثواب مريدي عبد الله[٣] .

ويقول : نستطيع أن نفرض لتصوير وجود له أيادي وأرجل كثيرة ، وأعضاؤه بكثرة لا تعد ولا تحصى ، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها ، ومثل الأخطبوط له عروق كثيرة، التي هي امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافها[٤].

وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامع وباشر نبيهم غلام أحمد ، وليس هذا فحسب ، بل هو النتيجة أيضًا لهذه المباشرة .

فأولًا : الذي باشره الله هو نبيهم غلام أحمد .

ثانيًا : ثم وهو الحامل .

وثالثًا : هو المولود .

قال القاضي يار محمد القادياني : إن المسيح الموعود - أي الغلام - بين

---

(١) البشرى (٢ / ٩٧) للغلام القادياني .

(٢) البشرى (٢ / ٧٩) .

(٣) ترياق القلوب ص ٣٣ .

(٤) توضيح المرام ص ٧٥ للقادياني .

مرة حالته فقال: إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية[١].

ويقول المتنبي القادياني بنفسه : قد نفخ في روح عيسى ، كما نفخ في مريم ، وحُبلتُ بصورة الاستعارة ، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر ، حُوّلت عن مريم ، وجعلت عيسى ، وبهذا الطريق صرت ابن مريم[٢] .

ويقول : إن الله سماني بمريم التي حبلت بعيسى ، وأنا المقصود من قوله في سورة التحريم : ﴿ **ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** ﴾[٣] .

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله ، بل هو عين الله .

يقول المتنبي الكذاب : قال لي الله : أنت من مائنا ، وهم من فشل - أي الجبن[٤] - .

ويقول: خاطبني الله بقوله : اسمع يا ولدي[٥] .

وقال : قال لي الرب : أنت مني ، وأنا منك ، ظهورك ظهوري[٦] .

تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرًا .

ونريد أن نشير بأن الإله ، الذي ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له ، كان إنكليزيًا ، كما صرح غلام أحمد فيقول : أنا أُلهمت عدة إلهامات في الإنكليزية

---

(١) ضحية الإسلام ليار محمد ص ٣٤ .

(٢) سفينة نوح ص ٤٧ للغلام القادياني .

(٣) هامش حقيقة الوحي للغلام ص ٣٣٧

(٤) انجام آتم للغلام ص ٥٥ .

(٥) البشرى (١ / ٤٩) للغلام .

(٦) وحي المقدس ٦٥٠ للغلام .

وفي المرة الأخيرة ألهمت : «I Can What I Will do» يعني أنا أعمل ما شاء ، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزي قائم على رأسي يتكلم[١] .

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما ختمت برسول الله ﷺ ، فيقول هذا الدجال : أحلف بالله الذي في قبضته روحي ، هو الذي أرسلني وسماني نبيًّا ، وناداني بالمسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواي بينات ، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة[٢] .

ويقول : هو الإله الحق ، الذي أرسل رسوله في القاديان ، وأن الله يحفظ القاديان ، ويحرسها من الطاعون ، ولو يستمر إلى سبعين سنة ؛ لأنها مسكن رسوله ، وفي هذا آية للأمم[٣] .

الطاعون يقع بالقاديان ، والجزاء من جنس القول والعمل :

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون في هذه القرية التي أنجسها غلام أحمد ؛ وعمّ القرى المجاورة ، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه ، فيقول في رسالة أرسلها إلى صهره : ودخل الطاعونُ حتى في بيتنا .

والجزاء من جنس قول الكذاب ، ففضحه الله في حياته .

ويقول القادياني : أنا وحدي أعطيت كل ما أعطي لجميع الأنبياء[٤] .

ويقول بنزول جبريل عليه السلام عليه ؛ يقول الغلام : إن جبريل جاء إلّي واختارني ، وأدار أصبعه ، وأشار إلّي بأن الله يحفظك من الأعداء[٥] .

---

(١) براهين أحمدية للغلام القادياني ص ٤٨٠ .

(٢) تتمة الوحي للغلام ص ٦٨ .

(٣) دافع البلاء للغلام ص ١٠ ، ١١ .

(٤) در ثمين ص٢٨٧ لغلام أحمد .

(٥) مواهب الرحمن ص ٤٣ للغلام .

بل وحيه كوحي محمد ﷺ وإلهامته كالقرآن ؛ يقول الغلام : والله العظيم ، أؤمن بوحيي كما أومن بالقرآن ، وبقية كتب أنزلت من السماء ، وأنا أؤمن بأن الكلام الذي ينزل عليّ ينزل من الله ، كما أومن بأن القرآن نزل من عنده[١] .

ويقول : إيماني بالإلهامات التي تنزل علي كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن[٢] .

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل ، وأن الذي أُنزل عليه أكثر مما أُنزل على كثير من الأنبياء ، واسم هذا الكتاب المنزل عليه : الكتاب المبين .

يقول غلام أحمد : نزل عليّ كلام الله بهذه الكثرة ، لو يجمع لما يقل عن عشرين جزءًا .

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة ، وفيها قطعة من قطعات الجنة .

يقول الغلام القادياني : قد أنزل الله قوله في القرآن : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ [آل عمران : ٩٧] وصفًا لمسجدي في القاديان[٣] .

وقال غلام أحمد : إن الذي لا يجيء إلى القاديان أخاف على إيمانه[٤] .

ويقول محمود أحمد بن الغلام : قد انقطع ثمرة مكة والمدينة ، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة[٥] .

الحج : الحج عندهم هو حضور المؤتمر السنوي في القاديان .

---

(١) حقيقة الوحي ص ٢١١ للغلام القادياني .

(٢) تبليغ رسالت (٦ / ٦٤) .

(٣) إزالة الأوهام ص ٧٥ للقادياني .

(٤) أنوار الخلافة ص ١١٧ .

(٥) حقيقة الرؤيا ص ٤٦ .

يقول ابن الغلام : إن مؤتمرنا السنوي هو الحج ، وإن الله اختار المقام لهذا - الحج - القاديان[١] .

وقال الغلام الكذاب : إن البقاء في القاديان أفضل من الحج النفلي[٢] .

وفي قرآن القاديان الكتاب المبين آيات ، ومن بعض آياته :

إن الله ينزل في القاديان[٣] .

يحمدك الله من عرشه ويمشي إليك[٤] .

عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز :

قال المتنبي الدجال: إن هذه الفرقة ، الفرقة القاديانية ، لا تزال تجتهد ليلا ونهارًا ؛ لقمع العقيدة النجسة ، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين[٥] .

المتنبي القادياني وإهانته للأنبياء والصحابة :

يفضل نفسه على آدم فيقول : صار آدم ذليلًا مصغرا ، ثم خلقني الله لكي أهزم الشيطان[٦] .

ويفضل نفسه على نبي الله نوح :

فيقول : إن الله أنزل لصدق دعواي آيات وبينات بهذه الكثرة ، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه[٧] .

ويفضل نفسه على نبي الله يوسف :

فيقول : إن يوسف هذه الأمة يعني أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف

---

(١) بركات الخلافة لمحمود أحمد ص ٥ ، ٧ .

(٢) مرآة كمالات الإسلام ص ٥٢ للغلام .

(٣) البشرى ص ٥٦ للغلام .

(٤) عاقبة آتم ص ٥٥ للغلام .

(٥) عريضة الغلام إلى الحكومة المندرجة في ريويوآف ريليجنز نمرة ٥ ، ١٩٢٢م .

(٦) ما الفرق في آدم والمسيح الموعود للغلام .

(٧) تتمة حقيقة الوحي ص ١٣٧ للغلام .

بني إسرائيل ؛ لأن الله شهد لبراءتي بنفسه ، وبآيات كثيرة ، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس[١] .

ويفضل نفسه على عيسى :

فيقول : إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح ، الذي هو أعظم شأناً من المسيح الأول بمراتب ، والله الذي في قبضته روحي ، إن كان عيسى في زمن الذي أعيش فيه أنا ، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا[٢] .

أفضل من كل الأنبياء :

يقول : جاء أنبياء كثيرون ، ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة الله ، وكل ما أعطي لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله[٣] .

ويقذف الأنبياء :

يقول : أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر[٤] .

ويقول الكذاب : إن أسرة عيسى أسرة عجيبة ، كانت جداته الثلاث فاجرات ، ومن هذا الدم المطهر ؟ تكّون وجود عيسى .. ولعله كان ميلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة ، وإلا لا يسمح أحد من المتقين ، أن يمس رأسه شابة زانية ، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح[٥].

والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفسه ، فيقول : الذي يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث ، ملعون ، لئيم[٦].

تطاوله على الرسول الكريم ﷺ :

يقول الدجال : إن النبي ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة ، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة[٧] .

---

(١) براهين أحمدية للغلام .

(٢) حقيقة الوحي ١٤٨ للغلام .

(٣) در ثمين ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ للغلام .

(٤) ريويو (١٢٣/١) ١٩٠٢م .

(٥) ضميمةآنجام آتهم ص ٧ للغلام .

(٦) البلاغ المبين ص ١٩ .

(٧) تذكرة الشهادتين ص ٤١ للغلام .

يقول ابنه وخليفته : إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد ، وأكثر من النبي الكريم(١) .

ويقول غلام أحمد :

له خسف القمر المنير وإن لي غسا القمران المشرقان أتنكر(٢)

ويقول : إن الإسلام بدأ كالهلال ، ثم قدر له أن يكون في هذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله- عز وجل-: ﴿**لقد نصركم الله ببدر**﴾(٣) [آل عمران : ١٢٣] .

وقال هذا الدجال : وأما تجليات كمالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها ، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها في عهدي وفي شخصي(٤) .

ويقول: إن المراد في قول الله - عز وجل -: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ [الفتح : ٢٩] هو أنا ؛ لأن الله سماني في هذا الوحي محمدًا ورسولًا(٥) .

ويقول : أنا هو المصداق لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾(٦) [الصف : ٩] .

ويقول: أنا المراد في قوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾(٧) [الأنبياء : ١٠٧] .

ويقول : وأنا المقصود في قوله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**﴾(٨). [الإسراء: ٧٩].

---

(١) ريويو القادياني مايو سنة ١٩٣٩م . (٢) إعجاز أحمدي ص ٧١ للغلام .

(٣) خطبة إلهامية ص ١٨٤ للغلام . (٤) خطبة إلهامية ص ١٧٧ للغلام .

(٥) قول الغلام المندرج في تبليغ رسالت (جـ١٠ / ١٤) لقاسم القادياني .

(٦) إعجاز أحمدي ص ٧ للغلام ضميمة نزول المسيح .

(٧) أربعين نمرة ٣ ص ٢٥ للغلام .

(٨) أربعين ص ١٠٢ للغلام .

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية : لو أن أحدًا يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأنا يستطيع أن يتقدم .

فأي كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا ، وهكذا يجترىء الأوباش على مقام رسول الله ﷺ .

وكتب أحد القاديانيين : أنه سمع من أحد مبلغي القاديانية ، الذي هو من أهل البيت – يريد أولاد الغلام – أنه يقول : أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد ؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه .

ويقول الغلام الكذاب : أنا هو المهدي الذي سئل عنه ابن سيرين ، هل هو في مرتبة أبي بكر ؟ فقال : أين أبو بكر منه ؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء(١).

ويقول : يوجد فيكم عليّ حيّ فتتركونه ، وتبغون عليًّا ميتًا(٢) .

ويقول : يقولون عني بأني أفضل نفسي على الحسن والحسين ، فأنا أقول : نعم ، أنا أفضل نفسي عليهما ، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة(٣) .

وقال ابنه : إن أبي قال : مائة حسين في جيبي . فالناس يفهمون معناه ، إنه يساوي مائة حسين ، ولكني أقول أكثر من هذا ، وهو : إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبي ، أفضل من تضحيات مائة حسين(٤) .

الغلام رجل أفيوني خمّار :

يقول ابنه : كان أبي يقول : إن الأفيون نصف الطب ، ولذا استعماله للتداوي يجوز ولا بأس به ، وإنه صنع دواء باسم ترياق إلهي بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر في هذا الدواء الأفيون ، وكان يعطي هذا الدواء لخليفته الأول

---

(١) معيار الأخبار للغلام المندرج في تبليغ رسالت جـ ٩ / ٣٠ .

(٢) ملفوظات أحمدية جـ ١ / ١٣١ .

(٣) إعجاز أحمدي ص ٥٨ للغلام .

(٤) خطبة الجمعة في القاديان المنشورة في مجلة قاديانية « الفضل » الصادرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٦ .

نور الدين ، كما كان يستعمله هو أيضا حينا بعد حين لمختلف الأمراض .

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه في لاهور أن يرسل إليه : وائن ، ويشتريه من دكان رجل يقال له : بلومر . وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو ؟ فقال : إن وائن قسم قوي مسكر ، من أقسام الخمر الذي يستورد من انجلترا في القوارير المختومة[1] .

جزاء الكذّاب فضحه وإظهار كذبه :

هذا الذي كذب على الله ، وكذب على رسوله ﷺ أظهر الله كذبه وشهره بهذا .

يقول الكذاب: لا يوجد أي شيء أحسن وأفضل لاختبار صدقي وكذبي من تنبؤاتي [2]: يداك أوكتا وفوك نفخ .

النبوءة الأولى :

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آتم المسيحي في إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣ ، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة ، ولم يفز واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آتم سيموت في خمسة عشر شهرًا ، أي إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آتم المذكور طويلًا ، ونكس رأس الملعون ، وأذله الله في هذه الدنيا أمام الملأ .

النبوءة الثانية :

ذهب رجل من أقربائه يُسمى : أحمد بك إليه في أمر كان يتعلق به ، واستدعاه المساعدة ، فقال له : أساعدك بشرط أن تزوجني ابنتك : محمدي بيجوم . فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط ، فجن جنون غلام أحمد ، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال : إن الابنة الكبيرة لأحمد بك تزوج

---

(١) مكتوب الإمام باسم الغلام ص ٥ للطبيب القادياني محمد حسين .

(٢) مرآة الكمالات ص ٢٣٢ للغلام .

لي ، مع أن أهلها يخالفون ويمانعون ، ولكن الله يزوجها لي ، ويرفع كل الحواجز ، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا[١] .

ويقول : قد قال الله عز وجل : زوجناكها نحن بأنفسنا ، ولا يستطيع أحدٌ أن يبدل كلماتي[٢] .

ويقول : إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء ، هذا ليس افتراءً من إنسان ولا لعبة خبيث ، مفتري ، بل هذا وعد الله الحق ، الإله الذي لا تبديل لكلماته ، والرب الذي لا مانع لإرادته[٣] .

وظل يتذلل أمام أحمد بك ، ويسترحمه : أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم مني .

وحرم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه ، وحرم ابنه فضلًا من إرثه أيضًا ؛ لأنهم لم يساعدوه في الزواج من هذه المرأة .

وفضحه الله على رؤوس الأشهاد ، وتزوجت من غيره .

النبوءة الثالثة :

وهي بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه ، ولكن الكاذب يموت ، وتظل هذه المرأة حيَّة مع زوجها حتى ماتت في نوفمبر سنة ١٩٦٦ ، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨ .

النبوءة الرابعة :

في سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حبلى أعلن أنه ألهم من الله ما نصه : إن الله الرحيم الكريم ، الذي هو قادر على كل شيء أخبرني بأنه يظهر آيته ، آية الرحمة ، آية بينة ، ولد جميل وجيه زكي مظهر الأول

---

(١) إزالة الأوهام ص ٣٩٦ للغلام القادياني .

(٢) الحكم السماوي ص ٤٠ لغلام أحمد .

(٣) ضميمة انجام آتم ص ٥٤ لغلام أحمد .

والآخر ، مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء ، وهذا الولد يكبر عجلًا ويفك الأسارى ويتبرك به الأقوام .

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابنا ، وسميت عصمت ، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أي سَنة ١٨٩١ .

النبوءة الخامسة :

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ : إن الله بشرني بأنه يكون لي ذرية كثيرة ، من النسوة ذوات البركات اللاتي أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام . وكذّبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة . والأولاد ؟!!

النبوءة السادسة :

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسماه : مبارك أحمد . وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال : إن هذا الولد نور من نور الله ، ومصلح موعود ، وصاحب العظمة ، ومسيحي النفس ، ومشفي الأمراض ، وكلمة الله ، وسعيد الحظ ، وهذا يشتهر في أنحاء العالم وأطرافها ، يفك الأسارى ويتبرك به الأقوام[(١)] .

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفي تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال : ألهمني الله بأنه قد قبل الدعاء ، وذهب المرض . وما إن أعلن المتنبي القادياني هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد ، وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذي يفك الأسارى ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

النبوءة السابعة :

عن الطاعون وأنه لا يقع في القاديان ، فوقع ، وقال : إن بيتي كسفينة نوح ، من دخله حفظ عن كل الآفات والمصائب[(٢)] . فدخل الطاعون بيته ،

---

(١) ترياق القلوب ص ٤٣ للقادياني .   (٢) سفينة نوح ص ٢٧ للغلام .

حتى أصابه هو .

النبوءة الثامنة :

تنبؤه بمولود لأحد مريديه ، فولدت زوجة هذا المريد بنتًا ، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن ، فماتت .

النبوءة التاسعة :

تناقش مرة مع المتنبي رجل من المسلمين - دكتور عبد الحكيم - وتحداه بأنه كذاب ، وأعلن : أن عبد الحكيم يموت في حياتي ؛ لأنه يهينني ويذلني .

ويقول : لكن الله بشرني بأني أعمر ثمانين سنة أو أكثر ، فلم يمت عبد الحكيم في حياته بل بقي حيًّا بعده ، وعمر ، ومات وهو في الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره .

وكم كذب الدجال ، وما تحققت نبوءة له واحدة ، عقابا من الملك القهار لهذا المفتري الكذاب ، وألبسه الله رداء قوله في الدنيا .

والجزاء من جنس القول والعمل .

عاقبته وموته :

وموت الغلام كان فضيحة له ، وجزاءً وفاقًا ، فقد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه ؛ لافتراءاته على الله ، والرسول والقرآن ، والأنبياء ، ونازله العلماء وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة : ثناء الله الأمر تسري ، مناظر الإسلام ، ومحامي المسلمين في القارة الهندية ، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات ، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهي[1] ، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا ، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلي :

---

(١) هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته : المنار الشهيرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم ، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق .

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله .

السلام على من اتبع الهدى ، من زمان وأنا أكذَب وأُفسّق في مجلتكم : أهل حديث . ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذابًا ، ودجالًا مفسدًا ، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذاب دجال ، وأفتري في دعواي المسيحية ، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت ، ولكني لمّا رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق ، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ ، فادعوا إنْ أنا كذّاب ومفتري كما تذكرني في مجلتك فأهلك في حياتك ، لأني أعلم أن عمر الكذّاب والمفسد لا يكون طويلا ، بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان ، وتكون في موته منفعة لعباد الله حيث لا يضلهم ، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا بل أكون متشرفًا بمخاطبة الله والمكالمة معه ، وأكون مسيحًا موعودًا ، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين ، حسب سنة الله فأعلن : إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب الله ، الذي لا يكون إلا من عند الله محضًا ، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا ، فلن أكون مرسلًا من الله تعالى ، وهذا لا أقول نبوءة ، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى ، وأدعو الله يا مولاي البصير القدير العليم الخبير ، يا عالم أسرار القلوب ، إنْ أنا كاذب ومفسد في نظرك ، وأفتري عليك ليلًا ونهارًا يا الله ، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء الله ، وسرّه وجماعته بموتي . آمين .

ويا الله إنْ أنا صادق ، وثناء الله عليّ باطل وكذّاب في التهم التي يلصقها بي ، فأهلكه يا رب العالمين في حياتي بالأمراض المهلكة ، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض . آمين . يارب أنا أوذيت وصبرت ، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد ، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم ، ويحسبني أرذلَ خلق الله ، وقد شهرني في البلدان النائية بأني

في الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفتري، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدًى كنت صبرت عليه ، ولكنّي أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفني دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يا ربي، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا الله ، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك ، فاقضْ بيني وبين ثناء الله بالحق ، وأهلكْ الكذاب والمفسد في حياة الصالح ، أو ابتليه في آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربي الحبيب . آمين ثم آمين : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ .

وأخيرًا ، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة في مجلته ، ثم يعلق عليها ما يشاء ، فالقضاء الآن بيد الله .

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود ، عافاه الله وأيده[1] .

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية : إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا ؛ بل من قبل الله ، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿ **أجيب دعوة الداع** ﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قبلت[2] .

الجزاء من جنس القول والعمل :

وفعلًا قبلت دعوته هذه ، وقضي بينه وبين ثناء الله بالحق ، فبعد ثلاثة عشر شهرا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره ، بصورة بشعة ، كان يتمنّاها للشيخ الجليل ثناء الله ، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو ؟ بالكوليرا ، وإليك بيانه :

يكتب ابن الغلام القادياني وزعيم القاديانية بشير أحمد في سيرته :

أخبرتني أمي أن حضرته – أي الغلام – احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام

---

(١) إعلان الغلام القادياني المنشور بتاريخ ١٥ أبرايل سنة ١٩٠٧ ، المندرج في تبليغ رسالت (١٠ / ١٢٠) ، مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني .

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٧ .

مباشرة ، ثم نام قليلًا ، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء ، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرني ، ثم أيقظني ، فرأيت أنه ضعف جدًّا ، وما استطاع الذهاب إلى سريره ، فلذا جلس على سريري أنا ، فبدأت أمسحه وأمسجه ، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء ، فلذا قضاها عند السرير ، واضطجع قليلًا بعد القضاء ، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه ، فجاءته الحاجة مرة أخرى ، فقضاها ، ثم جاءه القيء ، وبعد ما فرغ من القيء خر على ظهره ، واصطدم رأسه بخشب السرير ، وتغيرت حالته[1] .

وكتب رحيمه - أبو زوجه - : الليلة التي مرضها حضرته - الغلام - كنت نائمًا في غرفتي ، ولما اشتد مرضه أيقظوني ، فذهبت إلى حضرته ، ورأيت ما يعانيه من الألم ، فخاطبني قائلًا : أصبت بالكوليرا ، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة ، حتى مات اليوم الثاني بعد العاشرة من الصباح[2] .

هذا ، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك : إن غلام أحمد المتنبي القادياني ، لما ابتلي بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالسًا في بيت الخلاء لقضاء الحاجة .

كما نشر بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : إن المخالفين يقولون : إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت[3] .

يا لله ... النجاسة تخرج من الفم الذي طالما أخرج النجاسات ، وافترى على الله وأنبيائه وأوليائه .

والجزاء من جنس القول والعمل .

---

(١) سيرة المهدي ص ١٠٩ لبشير أحمد بن الغلام .

(٢) حياة ناصر لرحيم الغلام القادياني ص ١٤ .

(٣) بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : بيغام صلح في ٣ مارس سنة ١٩٣٩ .

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م[١] . فمات وكان ثناء الله حيا ، وبقي حيًا بعد موته قريبا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ، ويقمع جذورهم .

وهكذا كذّب الله الكذّاب ، حتى آخر لحظةَ من حياته ، وعذّبه في الدنيا ، وعذاب الآخرة أشد وأنكى .

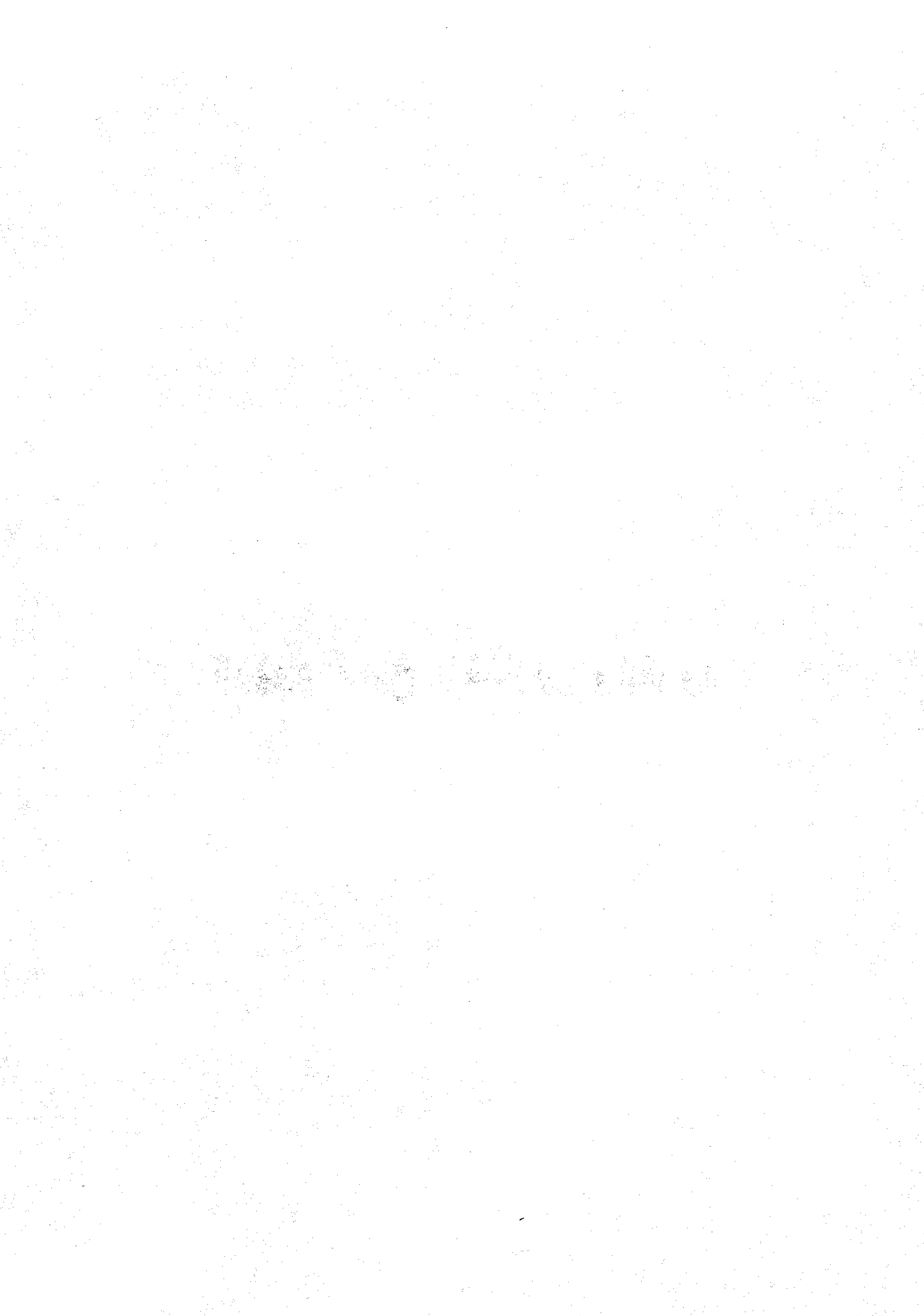
ومات غلام أحمد في لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان ، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذابًا في دعواه النبوة فكل نبي يدفن حيث قبض ، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ ، وصدق الله ورسوله .

* * *

(١) جريدة الحكم القاديانية ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨ ، وسيرة المهدي .



اليهود مسخ الخنازير والقرود



◻ اليهود مسخ الخنازير والقرود ◻

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] .

قال سيد قطب :

وإيذاء بني إسرائيل لموسىٰ– وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم – إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مُضْنٍ عسير شاق .

كانوا يتسخطون علىٰ موسىٰ وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنـون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا** ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنهم لا يرون في رسالته خيرًا ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذىٰ الأخير . وما كاد ينقذهم من ذل فرعون ، باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون ، وأغرقه ، وهم ينظرون ، حتىٰ مالوا إلىٰ عبادة فرعون وقومه .. ﴿ **فأتوا علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم قالوا يا موسىٰ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] وما كاد يذهب لميقات ربه علىٰ الجبل ليتلقىٰ الألواح، حتىٰ أضلهم السامري ﴿**فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسىٰ فنسي** ﴾ [طه : ٨٨] .

ثم جعلوا يتسخطون علىٰ طعامهم في الصحراء : المن والسلوىٰ ، فقالوا : ﴿ **يا موسىٰ لن نصبر علىٰ طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها** ﴾ [البقرة : ٦١] .

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ، ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ [البقرة : ٦٨] .. ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا مالونها** ﴾ [البقرة : ٦٩] . ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا** ﴾ [البقرة:٧٠]. ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٧١] .

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسًا ، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة - التي بشرهم الله بدخولها - وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت ذاته لموسىٰ ﴿ **قالوا يا موسىٰ إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ [المائدة : ٢٢] فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا ﴿ **قالوا يا موسىٰ إنا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ذلك إلى إعنات موسىٰ بالأسئلة ، والاقتراحات ، والعصيان ، والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل ، كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسىٰ لهم في عتاب ومودة : ﴿ **يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾ ؟! وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هي لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد مابذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغًا ، وأزاغ قلوبهم ، فلم تعد صالحة للهدىٰ . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدًا ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٨٠] وبهذا انتهت قوامتهم علىٰ دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم علىٰ هذا الزيغ والضلال[(١)] .

قال القشيري :

لما زاغوا بترك الحدّ أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصدِّ والردِّ والبعد عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٥٥ - ٣٥٥٦) .

ويقال : لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط .

ويقال : لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة[1] .

قال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ [البقرة : ٤٠] .

قال الرازي :

﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ قال الحسن : المراد منه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ **وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا . وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ...** ﴾ الآية ، [المائدة : ١٢] فمن وفى لله بعهده ، وفى الله له بعهده[2].

قال ابن جرير :

عن ابن عباس ﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي - ﷺ - إذا جاءكم ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ أي : أُنْجِزْ لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم ؛ بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وعن أبي العالية ﴿ **أوفوا بعهدي** ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام ، أن يتبعوه ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ يعني : الجنة[3] .

قال ابن كثير :

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿**أوف بعهدكم**﴾ أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة[4] .

قال القرطبي :

وقيل : أوفوا بعهدي في أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدي في العبادات أوف بعهدكم ، أي : أوصلكم إلى منازل الرعايات ، أوفوا بعهدي في حفظ أدب الظواهر ، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم .

---

(١) لطائف الإشارات (٦ / ١٤٤) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢ / ٥٠) .

(٣) تفسير الطبري (١ / ٢٥٠) .

(٤) تفسير ابن كثير (١ / ١١٨) .

وقيل : هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة وغيره ، هذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح ، وعهده - سبحانه وتعالى - وهو أن يدخلهم الجنة(١) .

يقول سيد قطب :

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل ، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم(٢) .

يقول القشيري :

عهدُه - سبحانه - حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة . عهده حفظ محابه ، وعهدنا لطف ثوابه . عهده حضور الباب ، وعهدنا جزيل المآب . أوفوا بعهدي بحفظ السر ، أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق ، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق . أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري ؛ أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري . أوفوا بعهدي برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع ؛ أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع . أوفوا بعهدي بحفظ أسراري ؛ أوف بعهدكم بجميل مباري . أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني ؛ أوف بعهدكم في إدامة إحساني . أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي ؛ أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم . أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة ؛ أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة . أوفوا بعهدي بالتبري عن الحوْل والمنَّة ؛ أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة . أوفوا بعهدي بالتفضل والتوكل ؛ أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل . أوفوا بعهدي بصدق المحبة ؛ أوف بعهدكم بكمال القربة . أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي ؛ أوف بعهدكم أرضى بكم عنكم . أوفوا بعهدي المطالبات بترك الشهوات ؛ أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات . أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبدًا: ربي ربي ؛ أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدي عبدي(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ٢٨٢) . (٢) الظلال (١ / ٦٤) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٨٤) .

قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية...﴾ الآية [المائدة : ١٣] .

قال ابن كثير :

لما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم ، وطردًا عن بابه وجنابه ، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ؛ وهو العلم النافع والعمل الصالح(١) .

قال تعالى : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٦٨ - ٧١] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل ، وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضُيق عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم(٢) .

قال تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين** ﴾ [البقرة : ٩٠] .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾(٣) [غافر : ٦٠] .

قال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣ / ٦٠) .
(٢) ابن كثير (١ / ١٥٧ - ١٥٨) .
(٣) ابن كثير (١ / ١٧٩) .

ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [البقرة : ٦١].

قال ابن كثير :

ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه ، من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة ؛ جزاءً وفاقًا[1] .

قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى عن اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – بأنهم وصفوا الله ، عز وجل وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا ؛ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بقولهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وهكذا وقع لهم . فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، قال تعالى : ﴿ **ضربت عليهم الذلة ...** ﴾ الآية[2] .

قال سيد قطب :

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ . وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه ، فقد حكى القرآن الكريم عن كثير من سوء تصورهم ذاك ، وقد قالوا: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ يعللون بذلك بخلهم ، فالله – بزعمهم – لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون ؟.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٤٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٣٧-١٣٨) .

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه ، وهو البخل بلفظه المباشر ، فاختاروا لفظًا أشد وقاحة وتهجمًا وكفرًا ، فقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

ويجيء الرد عليهم بإحْقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله ، جزاءً على قولهم : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله بمال .

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم ، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب . ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾[(١)] .

قال تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ [البقرة : ٦٥ - ٦٦] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى : ﴿ **ولقد علمتم** ﴾ يا معشر اليهود ، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعًا لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوه لها من الشّصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة قردة ، وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم ، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم[(٢)] .

---

(١) الظلال (٢ / ٩٢٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ١٥٠) .

هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »[(1)] .

قال تعالى : ﴿ **وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦] .

قال ابن كثير :

قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة ، ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ أي : ارتكبوا المعصية ﴿ **بعذاب بئيسٍ** ﴾ فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحًا فَيُمْدَحُوا ، ولا ارتكبوا إثمًا عظيمًا فَيُذَمُّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم[(2)] .

قال تعالى : ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢١- ٢٦].

قال ابن كثير :

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد ، ودخول بيت المقدس ؛ الذي كان في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبنوه

---

(١) قال ابن كثير (٣ / ٤٩٢) : وهذا إسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه ، وباقي رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٩٣) .

وأهله إلى أرض مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا من العمالقة ، فأمرهم رسول الله موسى – عليه السلام – بالدخول إليها ، وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التَيه ، والتمادي في سيرهم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين سنة ، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ تسلية لموسى عليه السلام– عنهم ، أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم ، فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ، ومخالفتهم لله ورسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ، ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ ، وكليمه وصفيّه من خلقه في هذا الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال ، والغرق له ولجنوده في اليم ، وهم ينظرون لتقر به أعينهم ، وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه . ويقولون مع ذلك : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود ، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذاتَ الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود وقد فعل ، وله الحمد من جميع الوجود[١] .

لمّا قالوا : ﴿ **إنا لن ندخلها** ﴾ ونكصوا حرموا من دخولها أربعين سنة والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٦٩ – ٧٥) .

○ قــارون ○

هذه قصة البطر والاستعلاء في الأرض ، وترك شكر الله على النعم .

قال الله تعالى : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله مِنَ القرون مَنْ هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٧٦ - ٨٣] .

قال ابن حجر : روى ابن أبي حاتم ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس : أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال : وكذا قال قتادة ، وإبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث ، وسماك بن حرب ، واختلف في تفسير بغي قارون فقيل : الحسد؛ لأنه قال: ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لي شيء ، وقيل : إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذي حملها على ذلك ، وقيل : الكبر لأنه طغى بكثرة ماله ، وقيل : هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرًا .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة** ﴾ تثقل .

﴿ **العصبة أولي القوة** ﴾ : لا يرفعها العصبة من الرجال ، واختلف في العصبة فقيل : عشرة ، وقيل : خمسة عشر ، وقيل : أربعون ، وقيل : من عشرة إلى أربعين .

وكان من قصة قارون أنه حصّل أموالًا عظيمة جدًا حتى قيل : كانت مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلًا .

أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا ، حتى دخل عليهم في أموالهم ، فشق ذلك على قارون ، فقال لبني إسرائيل : إن موسى يقول : من زنى رجم ، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول : إن موسى فعل بها ، فيرجم فنستريح منه ، ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإنْ كنتُ أنا . فقالوا : فقد زنيت ، فجزع ، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى ، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلّا صدقت ، فأقرت بالحق ، فخر موسى ساجدًا يبكي ، فأوحى الله إليه : إني أمرت الأرض أن تطيعك فأْمرها بما شئت ، فأَمرها ، فخسفت بقارون ومن معه .

وكان يسكن تنيس ، فحكي أن عبد العزيز الحروري ظفر ببعض كنوز قارون - وهو أمير تنيس - فلما مات تأمر ابنه علي مكانه وتورع ابنه الحسن بن عبد العَزيز عن ذلك ، فيقال : إن عليا كتب إلى أخيه الحسن : إني استطييت لك من مال أبيك مائة ألف دينار فخذها فقال : أنا تركت الكثير من ماله ؛ لأنه لم يطب لي ، فكيف آخذ هذا القليل[1]؟! .

قال ابن كثير : خسف به إلى الأرض السابعة . قال قتادة : كان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة[2] .

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**﴾ ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره[3] .

يقول سيد قطب رحمه الله :

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٦ - ٥١٧) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٨/١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٧/٦) .

في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب فتطير لها قلوب ، وتتهاوى لها نفوس ، وتتشهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ، ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ، من مال ، أو منصب ، أو جاه ، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفسًا وأكبر قلبًا من أن يتهاووا أو يتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا ، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد ، وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم ؛ العلم الصحيح الذي يقوِّمون به الحياة حق التقويم[١].

﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ : الدار الآخرة العالية الرتبة ، البعيدة الآفاق ، للذين لا يريدون علوًا ، فلا يقوم في نفوسهم خاطر استعلاء بأنفسهم لأنفسهم ، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم ، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا ، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا .

قال أبو معاوية : الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا ، وأعزهم غدًا ألزمهم لذل اليوم[٢].

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما طغى بماله وكنوزه ، والكنز : هو المخبوء المدخر من المال ، ذهبت به الأرض . فهنا استكبار لئيم ، وبطر ذميم لمغرور مطموس .

فهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا ، وذهب ضعيفًا عاجزًا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال . ليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليسوا هم الحكم

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٧١٣) . (٢) القرطبي (٧ / ٥٠٣٦) .

ولا الأشهاد ، ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : ٧٨] .

لطيفة :

كان قارون غاية في فقهه وفهمه ، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه ، فلما فاضت الدنيا عليه ، فاضت نفس علمه ، كانت مقاليد خزاين خزاياه وقر ستين بغلًا ، غير أن الذي فاته أعلى وأغلى ، ملك الكثير وبالقليل ولم يسمح ، نبه فلم يَزُل نومه ، وليم فلا ينفع لومه . سحب ذيل ﴿ فبغى ﴾ فقام قومه قومة زجر ﴿لا تفرح﴾ وألقوا إليه نصائح : ﴿وابتغ﴾، ﴿ولا تنس﴾، ﴿وأحسن﴾، ﴿ ولا تبغ ﴾ ، فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة آلاف مقاتل ، وسم الهوى يعمل في المقَاتِل ، وركب معه في معمعته ثلثمائة جارية ، وقد أنساه سفه الأمل أن سفينة الأمل جارية . فلما غلا وعلا ، حُط إلى حضيض ﴿ فخسفنا به ﴾ فقال الجاهلون : إنما بادر موسى بادرته لأخذ بدرة[1] بداره ، فقال حاكم الغيب لإزالة الريب: ﴿وبداره﴾ . فقال مُوسى : يا أرض خذيه فاستخذت[2] لأمره ، فسرت بسريره ، فناشده قارون بالرحم فما رُحم ، فأخذته لتقدمه حتى غيبت قدمه ، فما زال يردد القول حتى ذهب الغبي الغني .

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام تطغى ، وإذا بغى نكاحها على العفاف تبغي ، ثم إنها تقصد هلك محبها وتبغي ، أما سحبت قرون قارون ، مع أقرانه إلى القران في قرن[3]؟!

فأين من جمع الأموال وتموّلها ، وطاف البلاد وجوّلها ؟ وشق أنهار الأرض وحولها رأت والله كل عاملة عملها ، ونزلت بعد سفرها منزلها .

أين قارون ؟ وقد هلكت في الزمان جَديسه وطَسَمه ، ولقد ذهب من كان وكان اسمه ، فلا عينه تُرى ولا رسمه ، ولا جوهره يُحس ولا جسمه ، تبدد والله بالممات نظمه ، ولحق بالرفات عظمه .

كم طوّفوا بالبلاد وجوّلوا ، كم أوعدوا وهولوا ، كم جمعوا وتخولوا ، كم

---

(١) نقود . (٢) استرخت . (٣) المدهش ابن الجوزي (١٠٣ - ١٠٤) .

اقتنوا وتمولوا ، كم تطاولوا وما تطولوا ، فانظر الآن : أي غول تغولوا ، وأقاموا ، فما قيل : فازوا ، ولكن تحولوا .

أطاعوا ذا الخداع وصدقوه وكم نصح النصيح فكذبوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيدًا إلى أن فضّضوه وذهّبوه
أظلوا بالقبيح فتابعوه ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلاب المال زهد ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غثر[1] إذا عُرف الطريق تنكبوه
حسبتم يا بني حوّا شقاء نجاؤكم الذي لم تحسبوه
أُدين الشر منكم فاحذروه ومات الخير فيكم فاندبوه

○ السامري ○

وانظر إلى بلاهة الفكر ، وبلادة الروح ، وتفاهة بني إسرائيل في قصة السامري.

قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمِّلْنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألَّا يرجعُ إليهم قَولًا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**

---

(١) سفلة الناس .

قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألَّا تتبعن أفعصيت أمري قال يا بنؤمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به. فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدًا لن تُخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفًا لنحرّقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا ﴾ [طه : ٨٣ - ٩٧].

حين ذهب موسى لميقات ربه ، عمد رجل منهم يقال له السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلًا ، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذه من فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي ، ويقال : إنه استحال عجلًا جسدًا ، أي : لحمًا ودمًا حيًا يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿**فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾ أي: فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته.

وأقبل عليهم موسى فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ﴿ **قالوا إنا حملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري** ﴾ تحرجوا من تملك حُلي آل فرعون ، وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا - بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم - من عبادة العجل الجسد ؛ الذي له خوار ، مع الواحد ، الأحد ، الفرد، الصمد، القهار. وأقبل موسى على السامري ﴿ **قال فما خطبك يا سامري** ﴾ ما حملك على ما صنعت ؟ ﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرسًا ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ أي من أثر فرس جبريل ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: ﴿**فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس**﴾[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٨ - ٢٦٩) .

قال ابن كثير :

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحدًا ؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه[1].

قال القرطبي: « قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ، ولا يماسوه ؛ عقوبة له ، ولما كان منه إلى يوم القيامة »[2] .. لا أَمِسُّ ولا أُمَسُّ .

تميم كرهط السامري وقوله ألا لا يريد السامري مساسًا

قال ابن كثير : أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول ، فعقوبتك في الدنيا أن تقول ﴿ **لا مساس** ﴾ أي : لا تماس الناس ولا يماسونك[3] . فمن كان يمسه تصيبه الحمى .

قال الألوسي ، مبينًا كون الجزاء من جنس العمل : إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سببًا لحياة الموات ، عوقب بما يضاده ؛ حيث جعلت ملامسته سببًا للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء ، وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل . نَبَذَ فَنُبِذْ ، فإن ذلك التحامي أشبه شيء بالنبذ[4]. اهـ .

○ قاتلة يحيى بن زكريا ○

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » عن قاسم مولى معاوية ، قال : كان ملك هذه المدينة – يعني : دمشق – هداد بن هدار وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٦ / ٤٢٨١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٠٧) .

(٤) روح المعاني للألوسي (١٦ / ٢٥٦) .

لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك ، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ؛ وذلك بإشارة أمها ، فأبى عليها ، ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه - وهو قائم يصلي في مسجد جيرون - من أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول : لا تحل له ، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره ، فأخذت المرأة الطبق ، وحملته على رأسها ، وأتت به أمها ، وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ، ثم إلى حقويها[(١)]، وجعلت أمها تولول ، والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها ؛ لتتسلى برأسها ، ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا[(٢)].

وكان جزاؤها من جنس عملها : لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا - عليهما السلام - اجتز رأسها ، جزاءً وفاقًا .

○ شيطان بني النضير : حيي بن أخطب ○

كان حيي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ؛ ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب ، دون أن تستأصل شأفة المسلمين، وتقضي عليهم قضاء تامًّا، وفعلًا، فقد وفَّى له حيي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة ، فبقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم .

قال ابن إسحاق ، يصف موقف حيي بن أخطب ساعة إعدامه :

وأُتي بحيي بن أخطب - عدو الله - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله - ﷺ - قال : أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك ، ولكن

---

(١) الحقو : الكِشْحُ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢ / ٥١) .

من يخذل الله يخذله الله . وزاد السهيلي في الروض الأنف : أن النبي - ﷺ - قال لحيي بن أخطب حين رآه موثقًا : ألم يمكني الله منك ؟ فقال : بلى ، ولكن من يخذُلك يُخذل .

وحينما تقدم لضرب عنقه قال : يأيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس ، فضربت عنقه .

يقول جبل بن جوال الغطفاني ، أحد شعراء اليهود :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

والجزاء من جنس العمل ..

○ أسَير بن زارم ملك خيبر ○

نصّبه اليهود ملكًا على خيبر خلفًا لأبي رافع ، وجدّ أسير لشن حملة أحزاب جديدة على المسلمين في المدينة ، وحاول أن يصنع برسول الله - ﷺ - ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه ؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية - غطفان وغيرها - وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية ؛ يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة ، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ بنفسه ، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يُبقيه النبي ﷺ أميرًا على خيبر ، حيث قال له ابن رواحة : يا أُسير ، إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه ، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك(١).

وخرج أسير بن زارم في ثلاثين من خلصاء أصحابه ، بصحبة عبد الله ابن رواحة وصحبه ، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلًا من أصحاب أسير بن زارم ، وكان سيد خيبر أُسير رديف عبد الله بن أُنيس .

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة ، حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فأهوى

---

(١) ابن هشام (٢/ ٦١٨) - الحلبية (٢ / ٣٠٦) .

أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله ، إلا أن ابن أنيس كان أسرع منه ؛ إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة بين بقية الركب ، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته ، ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار .

وكان جزاؤهم من جنس عملهم ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

○ يهود بني قريظة ○

من لم يعتبر بغيره ؛ اعتبر به غيره .

هم قوم البهت ويا طيري	ذي قولة حبر الإيمان
وصفية أم الابـــرار	هارون وموسى عمران
برآء منهم همُ منــا	صاحوا يا حكم القرآن
يذرون الدمع لغيبتـه	ولغيبة سعد الفرسـان
سعد بن معاذ تعرفـه	واهتز سَرير الرحمـن

قد كان للمسلمين حلف مع بني قريظة قبل مجيء الأحزاب ، ولكنهم بعد مجيء الأحزاب غدروا بالمسلمين وقد كانوا خلفهم ، وقوّاهم على ذلك شيطان بني النضير حيي بن أخطب ، ولذلك قصة نقصها ؛ حتى ترى كيف أن جزاءهم كان من جنس عملهم ، وكيف أنهم لما أرادوا سحق المسلمين من الخلف وإبادتهم سُحقوا وأبيدوا .

ذهب شيطان خيبر - حيي بن أخطب - إلى حصن بني قريظة قائلًا : ويحك يا كعب ، افتح لي . فقال له كعب وقد تَمنع : يا حيي إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمدًا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلَّا وفاءً وصدقًا . فقال له حيي : ويحك ، افتح لي أكلمك ، فقال : ما أنا بفاعل ، فغاظ ذلك حييًا ، فقال لكعب : والله ما أغلقت دوني إلا تخوُّفًا على حشيشتك[1] أن آكل معك منها ، فخجل منه كعب ، ففتح له .

فقال له حيي : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى بجمع الأسيال ،

---

(١) البُر يطحن غليظا .

وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني : أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وكل ما يُخْشى ، فإني لم أر في محمد إلَّا صدقًا ووفاءً ، جئتني يا حيي بجهامٍ قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء[1] . ثم أردف كعب قائلًا : ويحك يا حيي ، فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلَّا صدقًا ووفاء . وما زال به حيي وبقومه يفتل في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ما طلب ، فوافقوا على نقض العهد ، والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيش الأحزاب ، ولم يشذ إلا الزعيم القرظي - عمرو بن سُعدَى - وقال : والله لا أغدر بمحمد أبدًا ، وبقي على عهده وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من اليهود وهم : ثعلبة ، وأسيد - ابنا سَعْيه - وأسد بن عبيد . وأخذ كعب بن أسد الصحيفة ومزقها .

غدروا برسول الله - ﷺ - وجيوش الأحزاب توشك الفتك بالمدينة ، وبلغت القلوب الحناجر .

أوفد إليهم النبي ﷺ وفدًا من الأنصار ، على رأسه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقالوا للوفد ، وقد تملكهم الغرور : الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد ، وهو الذي كسر جناحنا ، وأخرج إخواننا بني النضير ، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، من هو رسول الله هذا ؟! فغضب سيد الخزرج وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه ، وأغضبوه كثيرًا . غير أن سيد الأوس سعد بن معاذ - وهو حليف هؤلاء اليهود - قد دخل في الأمر وقال لسعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، وأقبل عليهم ناصحًا ومحذرًا : إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة ، وأنا أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه . فقالوا لسعد : أكلت أير أبيك ،

---

(١) يعني بذلك كعب : أن جيوش الأحزاب على كثرتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ، ويخطف برقه الأبصار ، وليس فيه قطرة ماء .

فقال لهم سعد ، وكان حليمًا : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة ، فتمادى بنو قريظة في غيهم ، وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب ، فعاد الوفد يحمل إلى النبي ﷺ بواسطة كلمة سر : عضل والقارة ، أن القوم قد غدروا ، دون أن يعلم أحد من المعسكر هذا الخبر المزعج .

وحين أخزى الله الأحزاب ، أتى وقت حساب بني قريظة :

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ قائلًا: أَوَ قَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : نعم ، فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم . إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عائد إليهم فمزلزلهم .

ونادى رسول الله ﷺ : من كان سامعًا مطيعًا ، فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة . وعندما بلغ عمرو بن سعدى انسحاب الأحزاب ، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل ، حضره كل زعماء بني قريظة ، وبعد أن أنَّبَهُمْ ووبخهم على نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين ، ونصحهم : يا بني قريظة ، لقد رأيت عبرًا ؛ رأيت دار إخواننا خالية بعد العز والشرف والرأس الفاضل ، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل .

ثم أكد لهم كعالم من علماء التوراة ، أنه لا يعادي أحد محمدًا ﷺ إلا كان مصيره الخسران فقال : لا والتوراة ، ما سُلِّط هذا[1] على قوم قط ولله بهم حاجة ، وقد أوقع ببني قينقاع وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكُلِّم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب ، ثم دعا عمرو بن سُعْدى قومه إلى الدخول في الإسلام ، ليحقنوا دماءهم ، ويتبعوا الحق ، قائلًا :

يا قوم ، قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا ، فوالله إنكم

---

(١) يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

لتعلمون أنه نبي ، وقد بشرنا به علماؤنا ، ثم لازال ابن سُعدى يخوِّفهم بالحرب والسبي ، وأقبل على سيدهم كعب بن أسد ، وقال له : والتوراة التي أنزلت على موسى - عليه السلام - يوم طور سيناء ، إنه العز والشرف في الدنيا(١) .

وبينما عمرو بن سعْدَى يتحدث إلى قومه في ذلك الاجتماع ، إذ بطلائع الجيش النبوي تظهر عليهم زاحفة نحو حصونهم ، وهنا قطع الزعيم اليهودي ابن سعدى حديثه قائلًا : هذا الذي قلت لكم ...

ومع هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى - الذي دعاهم إلى الدخول في الإسلام - فتقدم إليهم بمحاولة أخيرة ، باقتراح آخر ، فقال لهم : لقد خالفتم محمدًا ، ولم أشرككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه في دينه ، فاثبتوا على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ، ما أدري أيقبلها منكم أم لا ؟ ولكنهم رفضوا أيضًا هذا الاقتراح ؛ حيث كان جوابهم ، والغرور لمّا يزل يشحن رؤوسهم : نحن لا نقرّ للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

وهنا أعلن عمرو بن سعدى مفارقته لقومه ، وخرج من حصون قومه بني قريظة ، بعد أن طوّقها الجيش الإسلامي من كل مكان ، وكان خروجه ليلًا .

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودي من حصون قومه ، مفارقًا لهم - وكان خروجه ليلًا - التقى به رجال الحرس النبوي الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية ، فأتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري .

قال ابن إسحق : خرج عمرو بن سعدى القرظي ، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة ، فلما رآه ابن مسلمة استوقفه قائلًا : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدى ، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال : لا أغدر بمحمد أبدًا .

فقال ابن مسلمة - حين عرف أنه ابن سعدى - : اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام ، ثم خلّى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات - مستأمنا - في

---

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد بشاميل ، والبداية والنهاية .

مسجد رسول الله ﷺ تلك الليلة بالمدينة . ثم خرج فلم يدر أين توجه من الأرض ، ولقد وصف النبي ﷺ عمرو بن سعدى بالوفاء وذلك أنه لما ذُكرت له قصة إلقاء الحرس القبض عليه ، ثم إخلاء محمد بن مسلمة سبيله ، قال : « ذلك رجل نجاه الله بوفائه » .

وفَّى لله فوفَّى الله له ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

أما يهود بني قريظة ، فإنهم لما نظروا إلى طلائع الجيش النبوي تتقدم – بقيادة علي بن أبي طالب – فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة ، وأسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطاهرات الطيبات من السب ، والشتم ، والقذف ، ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه أن يورد نصه ؛ لفظاعته وبشاعته . وكل الجواب الذي سمعوه من عليّ : السيف بيننا وبينكم ، وأشفق عليّ – وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة – من أن يسمع الرسول ﷺ في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح .

وأناب علي في حمل اللواء أبا قتادة الأنصاري ، وانطلق مسرعًا نحو رسول الله ﷺ واستوقفه عَلَى بُعد من حصون اليهود ، وطلب منه أن يقف بعيدًا عن هذه الحصون ؛ لئلا يتأذى بسماعه ما فاه به اليهود من سب وقذع . فقال علي : لا عليك يا رسول الله ، أن تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال النبي ﷺ : لعلك سمعت منهم فيِّ أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال ﷺ : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا .

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود حتى دنا من حصون قريظة الغادرة ، نادى نفرًا من قادتهم ، فلما ظهروا في أبراج حصونهم قال لهم : يا إخوان القردة وعبد الطاغوت ، هل أخزاكم الله ، لأنزل بكم نقمته . وهنا أسقط في أيدي اليهود ، فأنكروا أن يكونوا شتموه ونساءه وانطلقوا يحلفون كذبًا ؛ أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن ، ثم اندفعوا في ليونة الأفاعي يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء ، ما ظنوا أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى ، فقالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولًا.

واشتد حصار المسلمين لليهود ، وطلبوا المفاوضة والسماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع - سوى السلاح - على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين ، ورفض طلبهم .

ولقد كان المسلمون المحاصرون لليهود في حالة تعب شديد ؛ نتيجة للجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق المخيفة ، التي تحالف فيها البلاء على المسلمين ، وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة ، حرموا فيها حتى من النوم ؛ لشدة الخوف ، ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدوهم المحاصر لهم ، والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها ، يضاف إلى ذلك المجاعة الشديدة ، والجو البارد النازل بالمسلمين بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم في مأمن من لفح البرد القارص ، موفورًا لديهم كل ما يحتاجون من الطعام لأشهر طويلة ، كما أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة . ومع هذا انهارت أعصاب اليهود وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وقرر الصحابة اقتحام حصون اليهود مهما كان الثمن . وصاح علي بن أبي طالب حامل لواء الجيش ، وابن عمه الزبير بن العوام ، صاح : والله لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم .

ولما سمع اليهود هذا الإنذار من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب ، أيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه ، طلبوا إيقاف الهجوم ، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط .

وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا ، بعد أن ألقوا سلاحهم ، وأخذوا في مغادرة الحصن مستسلمين ، وأمر النبي ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم ، وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي ، وقد حبس الرجال من بني قريظة وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل في دار أسامة بن زيد[1] ، أما النساء والأطفال فقد رأى النبي ﷺ بعد

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢ / ١٢٧) .

أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام ، أن يحفظوا في مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق وأنزلوا دار الضيافة ، وهي دار ابنة الحرث النجارية المعدة لنزول الوفود التي تقصد المدينة وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف .

وشفع الأوس لحلفائهم يهود بني قريظة عند رسول الله ﷺ ففوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس سعد بن معاذ . قال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فذاك سعد بن معاذ » .

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال : رُمي سعد بن معاذ ، فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فحسمه أخرى فانتفخت يده ، فنزف فلما رأى ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فما قطر، حتى نزلوا على حكم سعد، فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم فلما فرغ منهم انفتق عرقه فمات . رضي اليهود ، ونزلوا على حكم الله أولًا ، ثم على حكم سعد بن معاذ ثانيًا لما قال لهم : أترضون بحكمي ، قالوا : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم[1] .

فأخذهم من الغمّ ما أخذهم ، وصعق اليهود لهذا الحكم الصارم ، وعلاهم الذهول ، وخيم عليهم الوجوم .

وأمر بحفر خنادق عميقة في سوق المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بإحضار الرجال المحكوم عليهم وأمر بإعدامهم ، فأعدموا دفعة بعد دفعة ، حتى لم يبق منهم أحد . وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا في الخنادق، وواروهم بالتراب ، واختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم ، فالبعض يقول : إنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة ، والبعض الآخر يقول : إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة[2] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سمط النجوم العوالي (٢ / ١٣٨) .

ولقد أعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة ، وجرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل[١] وتولى عملية قتل اليهود الخونة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم ، لاذوا بسيدهم كعب يسألونه في جزع وارتباك ، ما تراه يصنع بنا ؟ فيجيبهم : أفي كل موطن لا تعقلون ؟! هو والله القتل .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ؛ من جنس ما أرادوا للمسلمين .

وأبى الله إلّا أن يصلوا هم إلى النهاية المريبة التي أرادوا للمسلمين الوصول إليها .

﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

وهنا أمر آخر : أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة ، وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه ، قد جاء تمامًا وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم ، فقد نص الإصحاح العشرون من سفر التثنية « وإن تسالمك أي قرية ، بل حاربتك فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورهم بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك[٢] .

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس ، يجعل هؤلاء اليهود يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال وسبي نسائهم وذراريهم ، ومصادرة كل ممتلكاتهم . وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم ، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحًا في سفر التثنية .

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم .

---

(١) السيرة الحلبية (٢ / ١٢٠) .

(٢) سفر التثنية (٢٠ / ١٣ - ١٤) .

فالحكم النازل باليهود إنما جاء وفقًا لشريعتهم ؛ فهو إذًا جزاءً وفاقًا[١]
وهكذا كان جزاء يهود بني قريظة من جنس عملهم .

○ كعب بن الأشرف لعنه الله ○

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال:فأذن لي أن أقول شيئًا ، قال : قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عَنّانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك . قال : وأيضًا ، والله لتملُّنه . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني . قلت : أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم . فقالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب . قال فأرهنوني أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال : رهن بوسق[٢] أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة ، قال سفيان : يعني السلاح . فواعده أن يأتيه ليلًا فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعة – فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ وقال غير عمرو قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم . قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة . إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب . قال : ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلان فقال : إذا ما جاء فإني مائل بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرة : ثم أشمكم ، فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفخ منه ريح الطيب ، فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا ، أي : أطيب . وقال غير عمرو : عندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب . قال عمرو : أتأذن لي في أن أشم رأسك ؟ قال : نعم : فشمه ، ثم أشم أصحابه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قال :

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى – بنو قريظة (١٥٢ ، ٢٤٦ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .
(٢) حمل البعير .

نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه .

قال محمد بن إسحق : كان من حديث كعب بن الأشرف - وكان رجلًا من طيىء ثم أحد بني نبهان، وأمه من بني النضير - أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قال : والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقّن عدو الله الخبر ، خرج إلى مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلته ، وأكرمته ، وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر ، فذكر ابن إسحق قصيدته التي أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، ويهجو النبي ﷺ وأصحابه .

وقال موسى بن عقبة : وكان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أوفيهم قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء ، وركب إلى قريش فاستغواهم ، وقال له أبو سفيان وهو بمكة : أناشدك ، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأيّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق : إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبّت الشمال . فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلًا . قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

قال موسى ومحمد بن إسحق : وقدم للمدينة يعلن بالعداوة ويحرّض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ ، وجعل يشبّب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين .

قال ابن إسحق : فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة : مَنْ لابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل :

أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال : فافعل إن قدرت على ذلك ، قال : فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ، فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله، قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا. قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله ، إنه لا بد لنا أن نقول ، قال : فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك . قال : فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة بن وَقْش ، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل . وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وَقْش أحد بني عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة ، قال : فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب ، سلكان بن سلامة أبا نائلة ، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرًا – وكان أبو نائلة يقول الشعر – ثم قال : ويحك يابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني ، قال : افعل .

قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجُهد عيالنا . فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول ؛ فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك ، قال : ترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها . فقال : إن في الحلقة لوفاء . قال : فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحق : فحدثني ثور بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم ، وقال :

« انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم » ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، وهو في ليلة مقمرة ، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائمًا ما أيقظني . فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . قال : يقول لها كعب : لو دُعي الفتى لطعنة أجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يابن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث به بقيّة ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا فمشوا ساعة . ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ، ثم شم يده ، فقال : ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ، ثم قال : اضربوا عدو الله !

فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا . قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولًا[1] في سيفي فأخذته ، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار ، قال فوضعته في ثُنية ، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا ، قال : فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ، ثم على بني قريظة ، ثم على بُعاث ، حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا الحارث بن أوس ونزفه الدم ، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا . فاحتملناه ، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا ، فأخبرناه بقتل عدّو الله وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ؛ فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعًا ... فذلّت بعد مصرعه النضير

على الكفّين ثم وقـد ... علته بأيدينا مشهرة ذكور

---

(١) نصل طويل .

بأمر محمد إذْ دسّ ليلًا إلى كعب أخا كعب يسيرُ
فماكره فأنزله بمكرٍ ومحمود أخو ثقة جسور(١)

أراد جمع الكفار على قتال رسول الله وقتله ونقض العهد ؛ فكان جزاؤه من جنس عمله .

○ بنو النضير - عليهم لعنة الله - ○

قال ابن إسحق : خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف ، فلما أتاهم ﷺ قالوا : نعم ، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ؛ فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة ، فلما استلبث النبيّ ﷺ أصحابه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به . قال الواقدي : فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، فبعث إليهم أهل النفاق ، يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر ؛ فقويت عند ذلك نفوسهم وحمي حيي بن أخطب ، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون ، ونابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

قال ابن إسحق : فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال . وتحصنوا في الحصون . فأمر رسول الله ﷺ بالشروع في إتلاف وإحراق اللينة ، أردأ

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦ - ٩) .

أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه ، وهو نوع يخالف العجوة والبرني الذي كان الغذاء الرئيسي لأهل المدينة ، ولم يكد اليهود الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال النخيل وتحريقها ؟! فأنزل الله عز وجل : **﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾** [الحشر : ٥].

ولم يستمر اليهود في المقاومة طويلًا ، فقد خارت قواهم ؛ إذ لم يمض على ضرب الحصار أكثر من عشرين يومًا حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي ﷺ للتفاوض .

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء . أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاءً تامًّا إلى أي مكان يشاءون .

أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه ، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تمامًا .

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح ، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

بعد الذي يقدر اليهود على حمله من المال ، يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئًا للمسلمين ، وملكًا من أملاكهم .

على القيادة الإسلامية في اليهود أن تضمن ليهود بني النضير سلامة أرواحهم ، ما داموا في داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين .

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله ، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها ، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق .

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها ، خرجوا وكلهم رعب وغيظ يقول سلّام بن أبي الحقيق ، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهبًا ، فكان يضرب بيده على هذا الجلد ويقول : هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلًا ، ففي خيبر النخل .

وكان اليهود يعمدون – عند مغادرتهم المدينة – إلى سُقُفِ بيوتهم وعُمُدها وجدرانها فينقضونها ؛ لئلا يستفيد منها المسلمون .

يقول الله تعالى : ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ [الحشر : ٢] .

هذه سنة الله في إذلال المفسدين وقهرهم . فهؤلاء اليهود الذين غدروا وتحصنوا بحصونهم ، ولشدة بأسهم ومنعتهم وشدة حصونهم وفرط وثوقهم بها ، اعتقدوا في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلهم ﴿يُخْرِبُونَ﴾، أو كما قرأ أبو عمرو (يُخَرِّبُون) بيوتهم ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج .

نقضوا بيوتهم كالحصون على أبواب الأزقة .

بداية غرتهم منعة الحصون حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون ! فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، أتاهم من داخل أنفسهم ، لا من داخل حصونهم . أتاهم من قلوبهم ؛ فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ، فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانه وحصونه .

لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم ، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت ؛ يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من خرابها ، والجزاء من جنس العمل .

ليقف المشاقون لله ولرسوله ، المخاليق الضئيلة الهزيلة تقف في وجه الخالق يشاقونه . هل بعد هذا تبجح قبيح والله شديد العقاب ؟!

أما الذي أراد رمى الحجر :

فقد ذكر ابن إسحق : أن رسول الله ﷺ قال لليهودي الذي أسلم - يامين : ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني !؟ فجعل يامين لرجل جعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله ، لعنه الله . والجزاء من جنس العمل .

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهرَ ذو صَرْف يدورُ

مشردونَ أَبدًا ..
وتائهون أبدًا ..
مهما طلبْتُمْ لخطاكمْ سَكَنَا
مهما نَهبتُمْ في سُراكمْ وطنَا
فالأرض تحت رِجْسكم دَمارُ
وصمت قبر ، همسه جبارُ
وحين ينقضُّ لديه الثَّارُ
ستصبحون بددًا
محيَّرون أبدا
وضائعون أبدا

* * *

مشرودن أبدا
وتائهون أبدا
ولعنة الأكوان تَجري في خُطاكم سَرْمدا..
ملَء الدروب ، والغيوب ، باغتتكم رصدَا
ينسَلُّ من أوزاركم ، من كل أُفْق أو صدَى
شبَّتْ سَدُومُ من حشاكم نارَهُ
وجرَّعتْكُمْ قبل « موسَى » عارَهُ
وفرَّقتكُمْ كي تذوقوا ثارَهُ ..
.. في ظلُماتٍ أنكرتْ من غيظها وجودكَم
وأنْشبَت في الريح من أصفادها قيودكمْ
تقذفكم بوَيْلها ، وليلها الضَّرير
في القلق المنبوذ تحت ضيعة المصير
في آهة مصلوبة على صدَى ..

وصوت ذل مستطيرٍ ردَّدا ..
مشتَّتونَ أبدا
مُفَتَّتون أبَدا

* * *

مشردون أبدا .. وأبدًا مشردين !
مضيَّعون أبدا وسرمَدًا مضَيَّعينْ !
بكل نور شَعّ للإنسان كنتم جاحدينْ
لكل إلهامٍ من السماءِ ، رحتم مفسدين
لكل دين أرسل الله ، ذهبتم منكرين
عن كل شرع من نبي جاءَ ، قمتم مُعْرضين
وكُلُ هادٍ مرَّ بالدنيا ، وقفتم ناقمين ..
« موسى » يناجي الله فوق سينا ،
وأنتم للعِجل ساجدينا ،
محيَّرين التّيهَ أربعينا ..
حتى مُسخْتُم فيه أجمعينا !
وحين جاءَ خاتَمُ الهُداةِ
من النبيين إلى الحياة ،
بذرتُمُ السُّمَّ على الراحات
وكنتم مزاحفَ الحياتِ
لمن سرى للنور في الآياتِ
فعاودتكمُ لعنة اللَّعْناتِ
وعدتم للتيه والشتاتِ ..
لا تبصرون في الضلال أحدًا
ولو تَخذتُمْ كل إفك سنَدَا ..
الكون في طريقكم تبدَّدَا

والناس صاروا لعَنَاتِ وعدَا!
ممزّقون .. أبدا
مطاردون .. أبدا

* * *

مشردون أبدا
وتائهون أبدا
وفي يديكم لم يزل دم السماءِ ينزف الخطيئهْ
على تراب لم تزل أقداسه رغم الدجى مضيئه
مشى عليه عاركم بخطوةٍ أفّاقة دنيئه
متاهةً ، دُنّس طهرُ الكون من أرجاسها الخبيئَهْ
حطَّتْ بكم خيانةٌ ستحصدون ويْلها
ونوْبة للتيه ، يومًا تشربون ذُلّها ..
وتعبرُون دربَكُمْ على نعوش « بابل » ...
منذُ مراثي الذل تُشجي وخَزَة السَّلاسل
وأنتُم في كل أرض سيرة القلاقِلِ
والغدر ، والضياع والشّرور ، والمباذِلِ ..
على سماءِ المسجد الأقصى وفي محرابه
لتدفن اللصوص في غياهب الردَى
فيرجعون للمدَى
مشتَّتين أبدا
مضيَّعين أبدا

* * *

مشرَّدُون أبدا
وتائهون أبدا

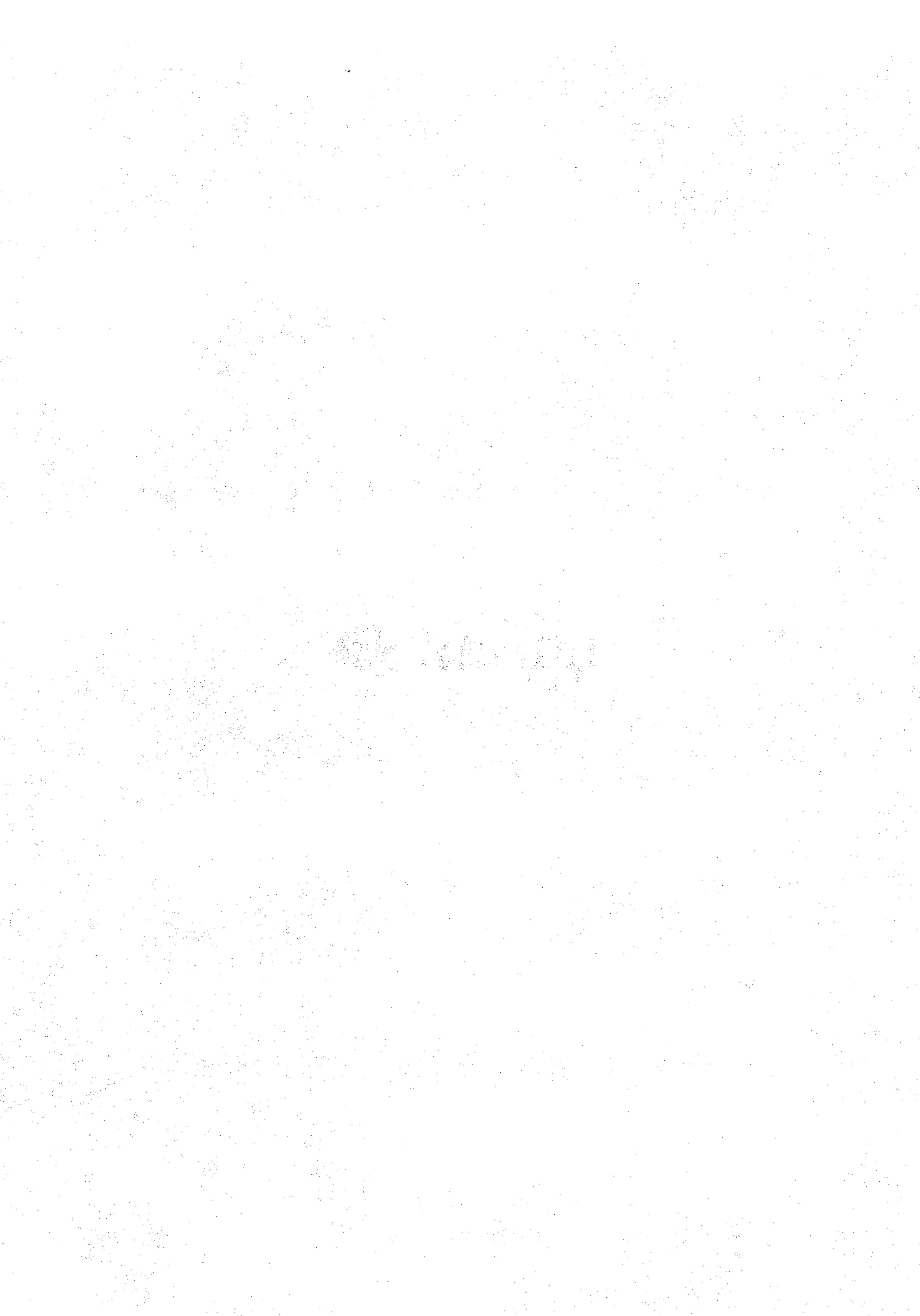
مهما استجاروا .. فالمجيرُ لعنة الأقدار
ولعنة الشعوب من سُراهم الغدارِ
ولعنة السماءِ في العشي والإبكارِ
ولعنة الذل .. رمتها قبضة الأحرار
.. يوم يدق الهول باب تائهٍ مشردٍ مخْذُولْ
وتصبح الزنود كالرياح فوق تيه « إسرائيل »
تزفُّها للتيه من جديد
ملعونةً في خطوها الشريدِ
وراية النصر بكفِّ الثائِر
تحدو ضُحاها عزمات الصابر
تشدو .. وتشدو أبدا
مشردون أبدا
وتائهون أبدا[1]

* * *

(١) قيامة الثأر : لمحمود حسن إسماعيل .



فكُلًّا أخذنا بذنبه



□ فكُلًّا أخذنا بذنبه □

○ ابن هانئ الشاعر ○

أحد الشعراء الفجرة ، وشاعر المعز العبيدي الفاطمي .

كان يقول للمعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

وقال له أيضًا :

ندعوه منتقمًا عزيزًا قادرًا غفـار موبقـة الذنـوب

وقال فيه أيضًا :

رأيتك من ترزقه يُرزقْ من الورى دراكًا ومَنْ تحرم من الناس يُحرمِ

وقال فيه أيضًا :

أدار كما شاء الورى وتحّيزت على السبعة الأفلاك أنمله العشر

وقال في هذا القزم أيضًا :

أرى مدحه كالمدح لله إنـه قنوت وتسبيح يحط من الوزر[1]

وقال أيضًا ، قبحه الله وأخزاه :

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله - قال ابن الأثير ولم أرها في شعره ولا في ديوانه :

حـلَّ برقـادة المسيـح حلَّ بها آدم ونـوح

حلّ بها الله ذو المعالي فكل شيء سواه ريـح

فهل أغنى عنه المعزّ ؟

قال ابن كثير : استصحبه المعز الفاطمي من بلاد القيروان حين توجه إلى

---

(١) عصر الدول والإمارات شوقي ضيف (ص ٢٤٤ ، ٢٤٦) .

مصر ، فمات ببعض الطريق ، وجد مقتولًا على حافة البحر في رجب سنة ٣٦٢هـ[1].

ومما قيل في محمد بن هانئ أيضًا :

خرج من القصر فأصيب بمرض ، فكان يعوي كالكلب على فراشه ، ويقول : أنت الواحد القهار ، وأخذ يبكي ويقول :

أبعين مفتقر إليك نظرت لي   فأهنتني وقذفتني من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأنني   علقت آمالي بغير الخالق[2]

من آثر غير الله عُذب به... غضب عليه المعز... وقتل في النهاية والجزاء من جنس العمل .

○ أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ○

المعتزلي قاضي المعتصم ؛ الذي جرّ البلاد إلى محنة خلق القرآن ، وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا .

يقول الشاعر أبو حجاج الأعرابي فيه :

نكست الدين يابن أبي دؤاد   فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقا   أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم   على جبريل إلى خير العباد
ومن أمسى ببابك مستفيضًا   كمن حلّ الفلاة بغير زاد
لقد أطرفت يابن أبي دؤاد   بقولك إنني رجل إيادي

هذا الذي تكلم في عقيدة أهل السنة وشانها ، وتكلّم في أحمد بن حنبل وعاب معتقده .

يقول الحسين الكرابيسي : مثل الذين يذكرون أحمد بن حنبل ، مثل قوم يجيئون إلى أبي قبيس يريدون أن يهدموه بنعالهم[3].

---

(١) البداية والنهاية (١١ / ٢٩٢) .
(٢) احفظ الله يحفظك (٤٩) .
(٣) البداية والنهاية (٣٣٥/١٠) .

وقال الشاعر فيمن يذمون إمام أهل السنة :

فقل للأُلى يَشنَؤنَه لصلاحه وصحته والله بالعذر يعذرُ
جُعلتم فداءً أجمعين لنعله فإنكم منها أذل وأحقر
أريحانة القرّاء تبغون عثرة وكلكم من جيفة الكلب أقذرُ[١]

بسبب ابن أبي دؤاد هذا قتل أحمد بن نصر الخزاعي وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط ، ودعا عليه الإمام أحمد ؛ فحبسه الله في جسده كما حبس الإمام ، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكناني ، وقال له : لم آتك عائدًا، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك[٢].

قال ابن كثير : ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحًا في فراشه ، لا يستطيع أن يحرك شيئًا من جسده ، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك[٣] . جعل نصف جسده لو سقط عليه ذباب فكأنما نهشته السباع ، والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها .

وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عائدًا ، وإنما جئتك لأعزيك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كلّ سجن ، ثم خرج عنه داعيًا عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضًا إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي سنة ٢٣٨ بأموال جزيلة جدا ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . وكذا ابنه أبو الوليد محمد ، صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ومات قبل أبيه بشهر[٤].

وقال في مكان آخر : في سنة سبع وثلاثين ومائتين في ربيع الأول ، أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد ، وأخذ ابنه أبا الوليد محمد فحبسه

---

(١) مناقب الإمام أحمد (٥٩٨) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٠ - ١٧١) .
(٣) انظر البداية والنهاية (جـ١٠/ ٣٣٦، ٣٢٩، ٣٣٥) .
(٤) البداية والنهاية (١٠ / ٣٣٦) .

في يوم السبت ، لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار . ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين ، قال ابن جرير : فقال في ذلك أبو العتاهية :

لو كنت في الرأي منسوبًا إلى رشد وكان عزمكَ عزمًا فيه توفيقُ
لكان في الفقه شغل لو قنعت به عن أن تقول كتاب الله مخلوقُ
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفرع[1] لولا الجهل والموق[2]

انظر كيف أذله الله وحبسه في جسده ، وأهين قبل موته ، والجزاء من جنس العمل .

قال الإمام أحمد : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز حين تمر .

فلما مات إمام أهل السنة كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ المسلمين .

قال عبد الوهاب الورّاق : ما بلغنا أنه كان للمسلمين جمع أكثر منهم على جنازة أحمد بن حنبل إلا جنازة كانت في بني إسرائيل[3] . ولما أنزلت رأس أحمد بن نصر من على الصليب كان يومًا مشهودًا وصدّق الله قول أحمد ، فأحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولمّا مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان[4] ، جزاءً وفاقًا .

○ محمد بن عبد الملك الزيات ○

كان من العصبة التي كان لها يد في سجن علماء الأمة وتعذيبهم ، وعلى رأسهم إمام أهل السنة.

روى الطبري في تاريخه ، عنه :

---

(١) ليس في الفرع والله ، فإنه في صلب العقيدة وفي باب الصفات .

(٢) الموق : الحمق في غباوة .

(٣) مناقب الإمام أحمد ص ٥٠٤ .

(٤) البداية والنهاية (١٠ / ٣٥٦) .

أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيام ، فذكر عن ابن أبي دؤاد وأبي الوزير أنهما قالا : هو أول من أمر بعمل ذلك ، فعذب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ، ثم ابتلي به فعذب به أيامًا[1] .

وقال الذهبي في ترجمته :

وكان يقول بخلق القرآن ، ويقول : ما رحمت أحدًا قط ، الرحمة خور في الطبع ، فسجن في قفص حَرِج ، جهاته مسامير كالمَسالِّ ، فكان يصيح ارحموني ، فيقولون : الرحمة خور في الطبيعة[2] .

الجزاء من جنس القول والعمل :

عن مسعر بن محمد بن وهب ، وكان مؤدبًا للخليفة المتوكل قبل أن يلي الخلافة :

جلس- المتوكل- في مجلسه، وجلس عن يمينه الفتح بن خاقان وعبيد الله ابن خاقان ، وعن يساره بغا الكبير ووصيف ، وأنا واقف في زاوية البيت اليمنى مما يليه ، وخادم آخذ بعضادة الباب واقف ، إذ ضحك المتوكل فأرم القوم وسكتوا ، فقال : ألا تسألوني مم ضحكت ، فقالوا : مم ضحك أمير المؤمنين أضحك الله سنه ؟ فقال : أضحكني أني ذات يوم واقف على رأس الواثق ، وقد قعد للخاصة في مجلسي الذي كنت فيه جالسًا ، وأنا واقف على رأسه ، إذ قام من مجلسه فجاء حتى دخل هذا البيت الذي دخلته فجلس في مجلسه هذا ، ورمت الدخول فمنعت ووقفت حيث الخادم واقف ، وجلس ابن أبي دُؤاد في مجلسك يا فتح ، وجلس محمد بن عبد الملك الزيات في مجلسك يا عبيد الله ، وجلس إسحق بن إبراهيم في مجلسك يابغا ، وجلس نجاح في مجلسك يا وصيف ، إذ قال الواثق : والله لقد فكرت فيما دعوت الناس إليه ، من أن القرآن مخلوق ،

---

(١) تاريخ الطبري (٥ / ٢٩٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٣) .

وسرعة إجابة من أجابنا ، وشدة خلاف من خالفنا ، حتى حملنا من خالفنا على السوط والسيف والضرب الشديد والحبس الطويل ، ولا يردعه ذلك ولا يرده إلى قولنا فوجدت من أجابنا رغب فيما في أيدينا ، وأسرع إلى إجابتنا رغبة فيما عندنا ، ووجدت من خالفنا منعه دين وورع عن إجابتنا وصبر على ما يناله من القتل والضرب والحبس ، فوالله لقد دخل قلبي من ذلك أمر شككت فيما نحن فيه ، وفي محنة من نمتحنه ، وعذاب من نعذبه في ذلك ، حتى هممت بترك ذاك والكلام والخوض فيه ، ولقد هممت أن آمر بالنداء في ذلك وأكف الناس بعضهم عن بعض ، فبدأ ابن أبي دؤاد فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ! أن تميت سنة قد أحييتها ، وأن تبطل دينا قد أقمته ، ولقد جهد الأسلاف فما بلغوا فيه ما بلغت ، فجزاك الله عن الإسلام والدين خير ما جزى وليا من أوليائه .

ثم أطرقوا رؤوسهم ساعة يفكرون في ذلك ، إذ بدأ ابن أبي دؤاد - وخاف أن يكون من الواثق في ذلك أمر ينقض عليه ، ويفسد عليه مذهبه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إن هذا القول الذي نحن عليه ، ندعو إليه الناس لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ، وبعث به محمدًا نبيه ﷺ ولكن الناس عمُوا عن قبوله . فقال الواثق : فإني أريد أن تباهلوني على ذلك ، فقال ابن أبي دؤاد : ضربه الله بالفالج في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات : وهو ، فسمر الله يديه بمسامير من حديد في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

فقال إسحق بن إبراهيم : وهو ، فأنتن الله ريحه في دار الدنيا حتى يهرب منه حميم وقريب ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًا من أن القرآن مخلوق .

وقال نجاح : وهو ، فقتله الله في أضيق محبس إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًّا من أن القرآن مخلوق .

ودخل عليهم إيتاخ وهم في ذلك فأخذوه على البديهة وسألوه عن ذلك ، فقال : وهو ، فغرقه الله في البحر إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًّا من أن القرآن مخلوق .

وقال الواثق : وهو ، فأحرق الله بدنه بالنار في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًّا من أن القرآن مخلوق .

فأضحك ، أنه لم يدع أحد منهم يومئذ بدعوة على نفسه إلا استجيبت .

أما ابن أبي دؤاد : فقد رأيت ما نزل به ، وما ضربه الله به من الفالج .

وأما ابن الزيات : فأنا أقعدته في تنور من حديد ، وسمرت يديه بمسامير من حديد .

وأما إسحق بن إبراهيم : فإنه مرض مرضه الذي مات فيه ، فأقبل يعرق عرقا منتنا حتى هرب منه الحميم والقريب ، وكان يلقى عليه كل يوم عشرون غلالة فتؤخذ منه ،وهي مثل الجيفة فيرمى بها في دجلة لا ينتفع بها ، تتقطع من شدة النتن والعرق .

وأما نجاح ، فأنا بنيت له بيتا ، ذراعًا في ذراعين حتى مات فيه .

وأما إيتاخ : فأنا كتبت إلى إسحق بن إبراهيم وقد رجع من الحج ، كبله بالحديد وغرقه .

وأما الواثق : فإنه كان يحب النساء وكثرة الجماع ، فوجه ذات يوم إلى ميخائيل الطبيب ، فدعي له ، فدخل عليه وهو نائم في مشرفة وعليه قطيفة خز ، فوقف بين يديه فقال : يا ميخائيل ابغنى دواء للباءة . فقال : يا أمير المؤمنين بدنك فلا تهده ، فإن كثرة الجماع تهد البدن ، ولا سيما إذا تكلف الرجل ذلك ، فاتق الله في بدنك وأبق عليه ، فليس لك من بدنك عوض . فقال له : لا بد منه ثم رفع القطيفة عنه ، فإذا بين فخذيه وصيفة قد ضمها إليه ، ذكر من جمالها وهيئتها أمرًا عجبًا . فقال : من يصبر عن مثل هذه ؟ قال : فإن كان ولا بد فعليك بلحم السبع ، فأمر أن يؤخذ لك منه رطل فيغلى سبع غليات بخل خمر عتيق، فإذا جلست على شرابك أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم فانتقلت

به على شربك في ثلاث ليال ، فإنك تجد فيه بغيتك ، واتق الله في نفسك ولا تسرف فيها ولا تجاوز ما أمرتك به .

فلهي عنه أيامًا ، فبينا هو ذات ليلة جالس على شرابه إذ ذكره فقال : عليّ بلحم السبع الساعة فأُخرج له سبع من الجبّ وذبح من ساعته ، فأمر فكبكب له منه ، ثم أمر فأغلي له منه بالخل ، ثم قدر له منه ، فأخذ ينتقل به على شرابه ، وأتت عليه الأيام والليالي فسقى بطنه ، فجمع له الأطباء ، فأجمع رأيهم على أنه لا دواء له إلا أن يَسجر تنور بحطب الزيتون ، ويشحن حتى يمتلىء جمرًا، فإذا امتلأ كسح ما في جوفه فألقي على ظهره وحشي جوفه بالرطبة ، ويقعد فيه ثلاث ساعات من النهار ، فإن استسقى ماء لم يسق ، فإذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة منتصبة على نحو ما أمروا به ، فإذا أصابه الروح وجد لذلك وجعًا شديدًا وطلب أن يرد إلى التنور فترك على حالته تلك ولا يرد إلى التنور حتى تمضي ساعتان من النهار ، فإنه إذا مضى ساعتان من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول ، وإن سقى ماء أو رُدَّ إلى التنور كان تلفه فيه .

فأمر بالتنور فأخذ له ، وعري وأجلس فيه ، وأقبل يصيح ويستغيث ويقول : أحرقتموني اسقوني ماء ، وقد وكل به من يمنعه الماء ولا يدعه أن يقوم من موضعه الذي أقعد فيه ولا يتحرك . فتنفط بدنه كله فصارت فيه نفاخات مثل أكبر البطيخ وأعظمه ، فترك على حالته حتى مضت له ثلاث ساعات من النهار ، ثم أخرج وقد كاد يحترق ، أو يقول القائل في رأي العين قد احترق ، فأجلسه المتطببون ، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم وأقبل يصيح ويخور خوار الثور ويقول : ردوني إلى التنور فإني إنْ لم أردّ مِتُّ فاجتمع نساؤه وخواصه لما رأوا به من شدة الألم والوجع وكثرة الصياح فرجوا أن يكون له فرجة في أن يرد إلى التنور ، فردوه إلى التنور ثانية ، فلما وجد مس النار سكن صياحه وتفطرت النفاخات التي كانت خرجت ببدنه وخمدت ، وبرد في جوف التنور فأخرج من التنور ، وقد احترق ، وصار أسود كالفحم ، فلم تمض به ساعات حتى قضي .

فأضحك ، أنه لم يَدْعُ أحد منهم على نفسه في تلك الساعة بدعاء إلا استجاب الله له في نفسه(١).

○ ابن العلقمي الرافضي الخبيث ○

زالت - من أثر خيانته - الخلافة العباسية ببغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد هولاكو وقتل الخليفة المستعصم بالله .

كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بهولاكو لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، وكان قدوم هولاكو لبغداد في ثاني عشر المحرم ومعه نحو مائتي ألف مقاتل .

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة ، والفقهاء ، والصوفية ، ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبع عشرة نفسًا ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم ، وأُحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فسأله عن أشياء كثيرة ، فيقال أنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخليفة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألَّا يصالح الخليفة ، وقال الوزير : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسّنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله ، ويقال : إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ، والمولى نصير الدين الطوسي - وكان هولاكو قد انتخب النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير - فلما قدم هولاكو وتهيّب من قتل الخليفة ، هوّن عليه

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٥٨٦ - ٥٩٠) .

الوزير ابن العلقمي ذلك فقتلوه رفسا ، وهو في جوالق ؛ لئلا يقع على الأرض شيء من دمه ، وقيل : بل خنق ، ويقال : بل أغرق ، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، ثم ولده عبد الرحمن وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر . وقتل أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، وقتل أولاده الثلاثة ، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة .

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال ، والنساء ، والولدان ، والمشايخ ، والكهول، والشبان، وسادات العلماء، والقضاة ، والأكابر ، والرؤساء ، والأمراء وأولي الحل ، والعقد .

ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقني الوسخ ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار ، إما بالكسر ، وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة . وكذلك في المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير ابن العلقمي ، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا ، بذلوا عليه أموالًا جزيلة ، وعادت بغداد - بعد ما كانت آنس المدن كلها - كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة ، وكان الوزير ابن العلقمي - قبل هذه الحادثة - يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان إلى أن لم يبق سوى عشر آلاف ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، ثم كاتب التتار ، وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليه ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السّنة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين والله غالب على أمره، وقد ردّ كيده في نحره ، وأذله بعد العزة القعساء ، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا

للخلفاء ، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال ، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين- في هذه الوقعة- فقيل : ثمانمائة ألف، وقيل : ألف ألف وثمانمائة، وقيل : بلغت القتلى ألفي ألف نفس ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا .

وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد ، وأراد الوزير ابن العلقمي - قبحه الله ولعنه - أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ، ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عِلمهم وعَلَمَهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته ، وقصف عمره بعد شهور يسيره من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعا ، والله أعلم بالدرك الأسفل من النار .

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد ، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو ، وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر ، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

ورحل هولاكو إلى مقر ملكه ، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر ، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي ، فلم يمهله الله ولا أهمله ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فمات جهدًا وغما وحزنًا وندمًا إلى حيث ألقت رحلها أم قعشم ، فولي بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد ، فألحقه الله

بأبيه في بقية هذا العام ، ولله الحمد والمنّة[1] .

ويقول عنه ابن كثير أيضًا :

محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب ، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمي وزير المستعصم . ثم صار وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين . وكان رافضيًا خبيثًا رديء الطوية على الإسلام وأهله ، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء ، ثم مالأ على الإسلام وأهله الكافر هولاكو خان .

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار ، الذين مالأهم ، وزال عنه ستر الله ، وذاق الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذونًا وهو مرسم عليه ، وسائق يسوق به ويضرب فرسه ، فوقفت إلى جانبه ، وقالت له : يابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع إلى داره إلى أن مات كمدا وغبينة وضيقًا ، وقلة وذلة ، وسمع بأذنيه ، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يجد ولا يوصف ، وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة ، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعًا ، وقد هجاه بعض الشعراء ، فقال فيه :

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا أسفًا على ما حلّ بالمستعصم[2]
دستُ الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وقال عنه الذهبي :

الوزير الكبير المدبر المبير مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب بن العلقمي . أفشى الرفض فعارضته السّنة وأُكبِت ، فتنمّر ، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وحبّره وقوى عزمه على قصد العراق ، ليتخذ عنده يدًا ، وليتمكن من أغراضه ، وحفر للأمة قَلِيبًا فأوقع فيه قريبًا ، وذاق

---

(١) البداية والنهاية (١٣/٢١٣-٢١٧). (٢) البداية والنهاية (٣/٢٢٥-٢٢٦).

الهوان ، وبقي يركب كديشًا وحده ، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان ، فمات غبنًا وغمًّا بعد الكائنة بثلاثة أشهر وهلك ، وفي الآخرة أشد خزيًا وأشد تنكيلًا »[1] والجزاء من جنس العمل .

بقدر إجلالك لله يجلك الله ، وبقدر التطاول يذلك

قال ابن الجوزي :

إخواني اسمعوا نصيحة من قد جرّب وخبر :

إنه بقدر إجلالكم لله عز وجل يجلكم ، وبقدر تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم[2] وبقدر الاستهانة بشرع الله والتطاول على كتابه وسنته ، ونفي ما أثبته لنفسه ، يلحق الهوان بالمبتدعة .

○ الجعد بن درهم[3] ○

قال السيوطي في كتاب الأوائل : أول من تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد - يعني : في الإسلام - الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية ، فقال : بأن الله لا يتكلم .

وهو أول من قال بخلق القرآن ، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به ، وأنكر أن يكون اتخذ إبراهيم خليلًا .

وهو أول من تكلم في صفات الله عز وجل وأنكرها . ولما كثرت أسئلته عن صفات الله قال له وهب بن منبه : ويلك يا جعد ! قصر المسألة عن ذلك إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله أن له يدًا ، وأن له عينًا ما قلنا ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن أول ما حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - أعني : أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن معنى استوى بمعنى : استولى ونحو ذلك - الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/٣٦١-٣٦٢). (٢) صيد الخاطر ص ١٩٤ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/٢٠)، ولوامع الأنوار البهية (١/٢٢٣) والنونية (١/٢٩) وسير أعلام النبلاء (٥/٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/٣٥٠)، والبداية والنهاية (١٠/١٩).

فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقال ابن كثير : كان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له : أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد ابن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي .

قال ابن القيم في نونيته عن الجهمية وشيخهم الجعد :

وكذاك قالوا ما له من خلقه	أحد يكون خليله النفساني
وخليله المحتاجُ عندهم وفي	ذا الوصف يدخل عابدُ الأوثان
فالكل مفتقر إليه لذاته	في أسر قبضته ذليل عان
ولأجل ذا ضحّى بجعدٍ خالدُ الْـ	قَسْرِيُّ يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله	كَلّا ولا موسى الكليم الداني
شكَرَ الضحية كلُّ صاحب سنة	لله درك من أخي قربان

حرفوا الكلم عن مواضعه فقالوا : إن معنى الخليل في قوله تعالى : ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلًا**﴾ [النساء : ١٢٥] الفقير المحتاج ، ولا شك في فساد هذا التأويل ، إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى ، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزومًا ذاتيا ، وبذلك يكون وصف الخلة متناولًا لجميعهم حتى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن .

وأي ذنب أعظم من هذا ، وإهانة لخليل الرحمن عليه السلام ، فذبح في يوم شرف وعز الخليل في سنة ١٢٤هـ . ضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق بواسط في يوم الأضحى حيث قال :

أيها الناس ، اذهبوا إلى أضاحيكم ، يتقبل الله منكم ، فإني مُضَحٍّ بالجعد ابن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلّم موسى تكليمًا . ثم نزل فذبحه ، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين ، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة[1].

---

(١) شرح النونية للهراس (١ / ٣٠) .

○ جهم بن صفوان ○

تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم ثم زاد عليها بدعًا أخرى :

الأولى : القول بالجبر ؛ حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور على أفعاله .

الثانية : القول بأن الإيمان هو المعرفة ؛ حيث زعم أن الإيمان وهو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط .

الثالثة : القول بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلهما فيهما .

الرابعة : القول بأن علم الله حادث ؛ حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه[1] .

قال إبراهيم بن طهمان : ما ذكرته ولا ذكر عندي إلا دعوت الله عليه ، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقه العظيم .

انظر ما قال شيخ الإسلام المبارك ابن قيم الجوزية عن أبي محرز الراسبي جهم بن صفوان أس الضلالة ، ورأس الجهمية :

جهمُ بن صفوانٍ وشيعته الأُولى ... جحدوا صفاتِ الخالق الديّانِ
بل عطَّلوا منه السموات العُلى ... والعرش أخلوه من الرحمنِ
ونفوا كلامَ الربِّ جلا جلاله ... وقضوا له بالخلق والحدثانِ
والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفانِ
وهبوب ريحٍ أو تحرك نائمٍ ... وتحرك الأشجار للميلانِ
والله يصليه على ما ليس من ... أفعاله حر الحميم الآنِ
لكن يعاقبه على أفعالهِ ... فيه تعالى الله ذو الإحسانِ
قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلّاقهم هو منتهى الإيمانِ
والناس في الإيمان شيء واحدٌ ... كالمشط عند تماثل الأسنانِ
فاسألْ أبا جهل وشيعته ومَنْ ... والاهمُ من عابدي الأوثانِ

---

(١) الفرق بين الفرق (٢١١ ، ٢١٢) .

وسلِ اليهود وكل أقلف مشرك عبد المسيح مقبّل الصلبانِ
واسأل ثمود وعاد بل سَلْ قبلهمْ أعداء نوحٍ أمة الطوفانِ
واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الْـ ـخلّاق أم أصبحت ذا نكرانِ
واسأل شرار الخلق أغلى أمة لوطية هم ناكحو الذكرانِ
واسأل كذاك إمام كل معطلٍ فرعون معْ قارون معْ هامانِ
هل كان فيهم منكر للخالق الـرَّب العظيم مكون الأكوانِ
فليُبشروا ما فيهمُ من كافرٍ هم عند جهمٍ كاملو الإيمانِ
وقضى بأن الله كان معطلًا والفعل ممتنع بلا إمكانِ
ثم استحال وصار مقدورًا له من غير أمرٍ قام بالديانِ
وقضى بأن النار لم تخلق ولا جنات عدن بل هما عدمانِ
فإذا هما خُلِقَا ليوم معادِنا فهما على الأوقات فانيتانِ
ما ذا الذي في ضمن ذا التعطيل من نفي ومن جحدٍ ومن نكران
وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه عجلًا ليفتن أمة الثيران
وكساه أنواع الجواهر والحِلَى من لؤلؤٍ صافٍ ومن عِقيانِ
فرآه ثيران الورى فأصابهم كمصاب إخوتهم قديم زمان
عجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما وبحرفه ذا الثاني[١]

قتل هذا الخبيث مع الحارث بن سريج ضد بني أمية .

قال ابن كثير : فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله[٢] .

والجزاء من جنس العمل.. هذا الفم الذي أخرج زبالات الأذهان يطعن.

ويقال : بل أسر الجهم ، فأوقف بين يدي سلم بن أحوز ، فأمر بقتله ، فقال : إن لي أمانًا من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، وأنزلت عيسى ابن مريم ما نجوت، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله[٢] وفي رواية ابن

---

(١) النونية لابن القيم .

(٢) البداية والنهاية (١٠/٢٨) .

جرير: وأبرأك إلَّي عيسى ابن مريم ما نجوت[١].

وقال الذهبي : إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلّم موسى[٢].

○ غيلان الدمشقي القدري ○

قال ﷺ : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[٣] .

قال أبو جعفر الخطمي : شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر ، فقال له : ويحك يا غيلان ، ما هذا الذي بلغني عنك ؟

قال : يكذب عليّ يا أمير المؤمنين ، ويقال عليَّ ما لا أقول .

قال : ما تقول في العلم ؟

قال : نفد العلم .

قال : أنت مخصوم اذهب الآن ، فقل ما شئت ، يا غيلان ، إنك إن أقررت بالعلم خُصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تُقِرَّ به فتخصم خير لك من أن تجحد فتكفر .

ثم قال له : أتقرأ يسٓ ؟

قال : نعم .

قال : اقرأ .

قال : فقرأ : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ [يس : ١ - ٧] .

قال : قف ، كيف ترى ؟ .

قال : كأني لم أقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين

---

(١) تاريخ الطبري (٤ / ٢٩٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٦ / ٢٧) .

(٣) حسن : حسنه الألباني بمجموع الطرق ، حاشية الطحاوية صـ ٣٠٤ .

قال : زد .

فقرأ : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا** ﴾ [يس : ٨- ٩] .

فقال له عمر : قل : ﴿ **سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ [يس : ٩ - ١٠] .

قال : كيف ترى ؟

قال : كأني لم أقرأ هذه الآيات قط ، وإني أعاهد الله ألا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبدًا .

قال : اذهب .

فلما ولى قال : اللهم ، إن كان كاذبًا بما قال فأذقه حر السلاح .

قال : فلم يتكلم زمن عمر ، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلًا لا يهتم بهذا ، ولا ينظر فيه .

قال : فتكلم غيلان .

فلما ولي هشام أرسل إليه فقال : أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هذا أبدًا ؟

قال : أقلني فوالله لا أعود .

قال : لا أقالني الله إن أقلتك ، هل تقرأ فاتحة الكتاب ؟

قال : نعم .

قال : اقرأ : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الفاتحة : ٢] .

فقرأ : ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

قال : قف . علام استعنته ؟ على أمر بيده لا تستطيعه ، أو على أمر في يدك - أو بيدك ؟ .

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه ، واضربا عنقه ، واصلباه[1] .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣ / ٤١٤ - ٤١٥) الأثر ١٣٢٥ .

وفي رواية أخرى: ويحك يا غيلان، أراني أبلغ عنك. ويحك يا غيلان، أراني أبلغ عنك . ويحك يا غيلان ، أراني أبلغ عنك .

وقال له : ويحك ، فإنك آمن ، وأمره أن يجلس فجلس .

وجعل عمر يسأله ، وغيلان يرفع بصره إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة ، وانتفخت أوداجه .

فقال : ما يمنعك أن تتكلم وقد جعلت لك الأمان ؟ .

فقال غيلان : استغفر الله وأتوب إليه ، ادع الله لي بالمغفرة .

فقال : اللهم ، إن كان عبدك صادقًا فوفقه وسدده ، وإن كان كاذبًا أعطاني بلسانه ما ليس في قلبه ، بعد أن أنصفته ، وجعلت له الأمان ، فسلّط عليه من يمثل به .

وفي رواية: اللهم، إن كان صادقًا فتب عليه، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين .

قال : فصار من أمره بعد أن قطع لسانه وصلب[1].

قطع لسانه ، والجزاء من جنس العمل .

عن رجاء بن حيوة أنه كتب لهشام بن عبد الملك أمير المؤمنين : بلغني أنه دخلك من قبل غيلان وصالح ، فأقر بالله ، لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم .

عن إبراهيم بن أبي عبلة قال: كنت عند عبادة بن نُسي، فأتاه آت، فقال : إن أمير المؤمنين قد قطع يد غيلان ورجليه ، وصلبه .

قال ما تقول ؟.

قال : قد فعل .

قال عبادة: أصاب والله فيه القضية والسنة، ولأكتبن إليه، فلأحسنن له[2].

قال خالد بن اللجلاج لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم يأخذك في شبيبتك

---

(١) (٢) شرح أصول الاعتقاد (٣ / ٧١٦ - ٧١٧) .

ترامي النساء في شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثيًا[١] تحجب امرأة ، وتزعم أنها أم المؤمنين ، ثم تحولت من ذلك فصرت قدريا زنديقًا[٢] .

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية : أن المسلمين أقاموا الحجة على غيلان ، وناظروه ، وبينوا له الحق ، كما فعل عمر بن عبد العزيز واستتابه ، ثم نكث بعد التوبة فقتلوه[٣] .

وهو ثاني من تكلم في القدر بعد معبد الجهني ، ولقد ناظره الأوزاعي ، وأفتى بقتله ، فصلب بعد سنة ١٠٥هـ[٤] .

○ كل صاحب بدعة ذليل ○

معبد الجهني

قال ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ [الأعراف : ١٥٢] .

هذا جزاء من استهان بالشرع والوحي .

عن أبي الزبير قال : كنا نطوف مع طاووس فمررنا بمعبد الجهني .

قال : فقيل لطاووس : هذا معبد الذي يقول بالقدر .

قال : فقال له طاووس : أنت المفتري على الله بما لا تعلم ؟

قال : فقال : يُكذب عليّ .

قال : فدخلنا على ابن عباس ، فقال له طاووس : يا أبا عباس ، الذين يقولون في القدر ؟ .

فقال : أروني بعضهم .

قال : صانع ماذا ؟

---

(١) من أتباع الحارث بن سعيد الذي ادعى النبوة .

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٧١٨/٣). (٣) درء التعارض (٧ / ١١٧٣) .

(٤) تحقيق كتاب السنة للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل للدكتور القحطاني ص ٣٨٦ .

قال : أُدخل يدي في رأسه ثم أدق عنقه .

وعنه : أُدخل يدي في عينيه فأقلعهما ولا نصونه[١].

○ بشر المريسي ○

قال عنه ابن كثير : شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون[٢] .

وقال الذهبي : جرّد القول بخلق القرآن ، ودعا عليه ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقته أهل العلم ، وكفّره عدة ، ولم يدرك جهم ابن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه[٣].

قال رجل ليزيد بن هارون : عندنا ببغداد رجل يقال له : المريسي ، يقول : القرآن مخلوق .

فقال : ما في فتيانكم مَنْ يفتك به ؟

قلت : قد أخذ المريسي في دولة الرشيد ، وأهين من أجل مقالته .

قال المروزي : سمعت أبا عبد الله ، وذكر المريسي ، فقال : كان أبوه يهوديًا ، أي شيء تراه يكون ؟

وقال أبو عبد الله : كان بشر يحضر مجلس أبي يوسف ، فيصيح ويستغيث ، فقال له أبو يوسف مرة : لا تنتهي أو تُفسد خشبة[٤] يعني وتصلب[٥] . فهو بشر الشر ، وبشر الحافي بشر الخير ، كما أن ابن حنبل أحمد السنة ، وابن أبي دؤاد أحمد البدعة .

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٤ / ٧١٢) .

(٢) البداية والنهاية (١٠ / ٢٩٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٠٠) .

(٤) سير أعلام البنلاء (١٠ / ٢٠١) .

(٥) ميزان الاعتدال (١ / ٣٢٣) ، وفي تاريخ بغداد (٧ / ٦٣) حتى تصعد خشبة .

○ الحـــلاج ○

هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج أبو مغيث ، رأس أهل الحلول والاتحاد .

قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى ، ولهذا دخل على الحلاج الحلول فصار من أهل الانحراف .

صح عنه أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر ، وقال : أدعو به إلى الله ، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث ، ويكاتبه أهل سركسان بالمقيت ، وأهل خراسان بالمميز ، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وأهل خوزستان بحلّاج الأسرار ، وكان بعض البغدادة يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون له : المحير .

ومن شعره :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرُّ سَنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا في خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجبِ

قال عمرو بن عثمان المكي : كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة ، وكنت أقرأ القرآن ، فسمع قراءتي فقال : يمكنني أن أقول مثل هذا. ففارقته.

وقال القشيري في رسالته في باب حفظ قلوب المشايخ : إن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئًا في أوراق ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : هو ذا أعارض القرآن .

وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتبًا كثيرة يلعنه فيها ، ويحذر الناس منه ، فشرد الحلاج في البلاد ، فعاث يمينًا وشمالًا ، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله ، ويستعين بأنواع من الحيل ، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه

الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق ، والله أعدل من أن يسلطه على صدّيق ، فكيف وقد تهجم على القرآن العظيم ، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يـرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليـم** ﴾ [الحج : ٢٥] ولا إلحاد أعظم من هذا . وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[1] [الأنفال : ٣١] .

قال الذهبي : كان يصحح حاله ابن عطاء ، ومحمد بن حفيف ، وإبراهيم أبو القاسم النصر آباذي وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء ؛ لسوء سيرته ومُروقه ، ومنهم من نسبه إلى الحلول ، ومنهم من نسبه إلى الزندقة ، وإلى الشعبذة والزُّوكرة ، وقد تستَّر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال ، وانتحلو ، وروّجوا به على الجهال .

وقال له الجنيد يومًا : أي خشبة تفسدها ؟ يريد أنه يصلب .

وقال عنه إبراهيم بن شيبان : من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوي الفاسدة ، فلينظر إلى الحلاج وما صار إليه .

وكان يقول : ما انفصلت البشرية عنه ولا اتصلت به .

لما أحضره الوزير علي بن عيسى فلم يجده يحسن القرآن والفقه ولا الحديث ، فقال : تعلمك الفرض والطّهور أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها ، كم تكتب ...؟ ويلك إلى الناس، تبارك ذو النور الشعشعاني ! ما أحوجك إلى أدب ! وأمر به فصلب ، ووجد في كتبه : إني مغرق قوم نوح، ومهلك عادًا وثمود .

---

(١) ترجمة الحلاج كاملة مفصلة في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣١٣ - ٣٥٥) ، البداية والنهاية (١١ / ١٤١ - ١٥٤) وهنا سأجمع بين الكتابين وأنقل مقتطفات .

وكان يقول للواحد من أصحابه : أنت نوح ، ولآخر : أنت موسى ولآخر : أنت محمد .

قال ابن عقيل : قد قتل بإجماع فقهاء عصره ، فأصابوا وأخطأ هو وحده .

صفة مقتل الحلاج :

قال الخطيب البغدادي : كان الحلاج قد قدم آخر قدمة إلى بغداد ، فصحب الصوفية وانتسب إليهم ، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس ، فبلغه أن الحلاج قد أضل خلقًا من الحشم والحجاب في دار السلطان ، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب ، وجعل لهم في جملة ما ادعاه أنه يحيي الموتى ، وإن الجن يخدمونه ، ويحضرون له ما شاء . وقال : إنه أحيا عدة من الطير ، وسلم إلى الوزير حامد بن العباس ، فحبسه في قيود كثيرة في رجليه ، وجمع له الفقهاء ، فأجمعوا على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق .

ولما كان آخر مجلس ، أحضر الوزير حامد بن العباس القاضي أبا عمر محمد بن يوسف وجيء بالحلاج ، وقد أحضر له كتابًا من دور بعض أصحابه وفيه : ومن أراد الحج ولم يتيسر له ، فليبن في داره بيتا لا يناله شيء من النجاسة ، ولا يمكن أحدًا من دخوله ، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام ، وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة ، ثم يستدعي بثلاثين يتيما فيطعمهم من طعامه ، ويتولى خدمتهم بنفسه ، ثم يكسوهم قميصًا قميصًا ، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم ، فإن فعل ذلك قام له مقام الحج ، وإن من صام ثلاثة أيام لا يُفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندبا أجزأه ذلك عن صيام رمضان .

ومن صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك . وأن من جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم ، ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش ، أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره .

فقال له القاضي أبو عمر : من أين لك هذا ؟ فقال : من كتاب الإخلاص للحسن البصري .

فقال له : كذبت يا حلال الدم ، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا . فأقبل الوزير على القاضي فقال له : قد قلت : يا حلال الدم ، فاكتب ذلك في هذه الورقة ، وألح عليه وقدم له الدواة فكتب ذلك في تلك الورقة ، وكتب من حضر خطوطهم فيها ، وأنفذها الوزير إلى المقتدر .

فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة وليضربه ألف سوط ، فإن مات وإلا ضربت عنقه .

وبُعث به إليه وهو راكب على بغل عليه إكاف ، وحوله جماعة من السيّاسة ، على مثل شكله فاستقر منزله بدار الشرطة في هذه الليلة ، فذكر أنه بات يصلي تلك الليلة ، ويدعو دعاءً كثيرًا .

وقالوا : ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب إلى القتل أنشد :

طلبت المستقرَّ بكل أرضٍ فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
وذقت من الزمان وذاق مني وجدت مذاقه حلوًا ومرّا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لعشت حرّا

فلما أخرج للصلب مشى إليه يتبختر في مشيته ، وفي رجليه ثلاثة عشر قيدًا وجعل ينشد ويتمايل :

نديمي غير منسوب إلي شيء من الحيفِ
مثل ما يشرب فعل الضيف بالضيفِ
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيفِ

ثم قدم فضرب ألف سوط ، ثم قطعت يداه ورجلاه ، وهو في ذلك كله ساكت ، ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه .

وقال الخطيب : قال لنا أبو عمر بن حيوية : لمَا أخرج الحسينَ بن منصور الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس ، ولم أزل أزاحم عليه حتى رأيته ، فدنوت منه ، فقال لأصحابه : لا يهولنكم هذا الأمر ، فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يومًا ، ثم قتل فما عاد .

قال الذهبي : هذه حكاية صحيحة توضح لك أن الحلاج ممخرق كذاب حتى عند قتله[1] ثم قطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ، وأحرقت جثته ، وألقي رمادها في دجلة ، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر ، ثم حمل إلى خراسان ، وطيف به في تلك النواحي .

قال الإمام الفقيه المحدث بقية السلف - كما يقول الذهبي - ابن أيوب :

لا شك أن الحجاج قتل من العلماء خلائق يتعسر حصرهم ، وشتت شملهم وأبادهم ، وقتل سعيد بن جبير ، وأهل الأرض محتاجون إلى علمه ، وخلعه العلماء وخرجوا عليه ، وقاتلوه ، ومع هذا كله لم يقل أحد منهم : إنه كافر ، بل قالوا : إنه من عصاة المسلمين ، لا تحل إمرته لذلك ، والحلاج ما تعرض لأحد من أهل العلم بأذى في دنياه ، وأجمع جميع أهل زمانه منهم على كفره ، واستباحة دمه ، فلو كان العلماء يقولون بالهوى ، لقالوا في الحجاج الذي ما ترك نوعًا من الأذى حتى رماهم به ، فثبت أنهم لا يقولون بالهوى اهـ .

وَرَد في الطواسين للحلاج أنه قال :

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وانكسر السفينه
على دين الصليب يكون موتي فلا البطحا أريد ولا المدينه

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٤٦) .

فصلب .. جزاءً وفاقًا .

من كلمات هذا الزنديق : أنزهك عما قرفك به عبادك ، وأبرأ إليك مما وحدّك به الموحدون . قال الذهبي : هذا عين الزندقة .

وجدوا كتابًا للحلاج عنوانه من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد فأُحضر وعُرض عليه ، فقال : هذا خطي وأنا كتبته . فقالوا : كنت تدعي النبوة صرت تدعي الربوبية ؟! . قال : لا ، ولكن هذا عين الجمع عندنا ، هل الكاتب إلا الله وأنا ؟ فاليد فيه آلة .

مات الحلاج في جامع الدِّينَور ومعه جماعة ، فسأله واحد منهم فقال : يا شيخ! ما تقول فيما قال فرعون؟ قال: قال كلمة حق. قال: فما تقول فيما قال موسى عليه السلام ؟ قال: قال كلمة حق ؛ لأنهما كلمتان جرتا في الأبد، كما أُجريتا في الأزل[1] .

وقال : ما وحّد الله غير الله . وقال : الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، فأما من حيث الحقيقة : فلا فرق بينهما .

عن جندب بن زاذان تلميذ الحلاج قال : كتب الحسين إليّ : السلام عليك يا ولدي ، ستر الله عنك ظاهر الشريعة ، وكشف لك حقيقة الكفر ، فإن ظاهر الشريعة كفر ، وحقيقة الكفر معرفة جلية وإني أوصيك ألا تغترّ بالله ، ولا تيأس منه ، ولا ترغب في محبته ، ولا ترضَ أن تكون غير محب ، ولا تقل بإثباته ، ولا تمل إلى نفيه ، وإياك والتوحيد ، والسلام[2] .

○ ابن الفارض ○

شيخ الاتحادية وصاحب التائية .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٥٤) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٥٢ - ٣٥٣) .

وكم في التائية ، والفصوص ، والفتوحات لابن عربي ، واليد لابن سبعين ، وخلع النعلين لابن قسي ، وعين اليقين لابن برجان ، وشعر نجم الدين بن إسرائيل ، والعفيف التلمساني من كفر صريح .

وحدة الأديان عند ابن الفارض :

مثلما قال ابن عربي :

عقد الخلائق في الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

قال ابن الفارض في تائيته :

فبي مجلس الأذكار سمع مطالعٍ ولي حانة الخمار عين طليعةِ
وما عقد الزّنار[1] حكمًا سوى يدي وإن حُلّ بالاقرار بي ، فهْي حلّتِ
وإن نار بالتنزيل محراب مسجدٍ فما بار بالإنجيل هيكلُ بيعةِ
وأسفار توراة الكليم لقومه يناجي بها الأحبار في كل ليلةِ
وإن خرّ للأحجار في البُدِّ عاكف فلا تعد بالإنكار بالعصبيةِ
فما زاغتِ الأبصار من كل ملة وما زاغت الأفكار من كل نحلةِ
وما احتار مَنْ للشمس عن غرة صبا وإشراقها من نور إسفارِ غُرّتي
وإن عبدَ النارَ المجوسُ وما انطفتْ كما جاء في الأخبارِ في ألف حجةِ
فما عبدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يعقدوا عقد نيتي
رأوا ضوء ناري مرةً فتوهّمو هُ نارًا فضلوا في الهدى بالأشعةِ[2]

ويقول أيضًا :

وإياك والإعراض عن كل صورةٍ مموّهةٍ أو حالةٍ مستحيلةِ
فطيف خيال الظل يبدي إليك في كرى اللهو ما عنه الستائر شُقّتِ
ترى صورَ الأشياء تُجْلَى عليك من وراء حجاب اللبس في كل خلعةِ
تجمعت الأضداد فيها لحكمةِ وأشكالها تبدو على كل هيئةِ

---

(١) ما على وسط النصارى والمجوس .

(٢) مصرع التصوف ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

ثم يقول :

وكل الذي شاهدته فعل واحد ... بمفرده، لكن بِحَجْب الأَكنَّـةِ
إذا ما أزال السترَ لم تر غيره ... ولم يبقَ بالأشكالِ إشكالُ ريبة(١)

ويقول شيخ الزنادقة :

لها صلواتي بالمقامِ أُقيمهـا ... وأشهد فيها أنها لـيَ صَلَّتِ
كلانا مصلٍّ ساجدٌ إلـى ... حقيقتهِ بالجمع في كل سجدةِ
وما كان لي صلّى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كلِّ ركعةِ
وفي الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلّتِ
فإن دعيت كنت المجيبَ وإن أكن ... منادًى أجابتْ من دَعَاني ولَبّتِ
وإن نطقتْ كنت المناجي ، كذاك إنْ ... قصصتُ حديثًا ، إنما هي قَصّتِ
فقد رفعتْ تاءُ المخاطبِ بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي(٢)

ويفتري سلطان الزنادقة أن الذات الإلهية تتجلى في صور ليلى وبثينة وعزة :

وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللبس في أشكال حسن بديعةِ
ففي مرة لبنى وأخرى بثينة ... وآونة تدعى بِعـزَّة عـزّتِ
ولسْن سواها لا وَلا كُنَّ غيرهـا ... وما إنْ لَهَا في حسنها من شريكةِ
كذاك بحكم الاتحاد بحسنها ... كما لي بدت في غيرها وتزيّتِ
أسامٍ بها كنت المسمَّىٰ حقيقةً ... وكنتُ لَيَ البادي بنفسٍ تخفّتِ
وما زلتُ إياها وإيَّايَ لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبّتِ

يقول الإمام المقبلي صاحب كتاب : العلم الشامخ ، في إيثار الحق على الآباء

---

(١) مصرع التصوف ص ٥٧ .

(٢) « تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي » للبقاعي ص ٦٤ - ٦٥ .

والمشايخ . عن ابن الفارض : يكفيك كلام ابن الفارض الذي أذعنوا له طرّا ما ظاهره الاتحاد ، والتزام الكفر ، والترفع على الأنبياء ، وعلى الجملة فلم يبقَ ما يمكن دعواه من المقامات الرفيعة ، ولا ما تأتي به الخلاعة من البذاءة الشنيعة إلا ادعاه[1] .

يقول ابن الفارض حيث يعلن خلع العذار :

خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ	خلاعةِ مسرورٌ بخَلعي وخلعتي
وخلعُ عِذاري فيك فرضي وإن أبى اقـ	ترابـيَ قومـي والخلاعـة سُنَّتـي
وليسوا بقومي ما استعابوا تهتكي	فأبدوا قِلًى واستحسنوا فيك جفوتي
وأهليَ في دِين الهوى أهلهُ وقدْ	رضوْا لَي عاري واستطابوا فضيحتي

قال ابن حجر :

ينعق بالاتحاد الصريح في شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبّر نظمه ولا تستعجل ، ولكنك حسن الظن بالصوفية ، وما ثمّ إلا زيّ الصوفية ، وإشارات مجملة وتحت الزي والعبارة فلسفة وأفاعٍ ، فقد نصحتك والله الموعد[2] .

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام : كان سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية .

وقال الذهبي : إلا أنه شابه بالاتحاد في ألذِّ عبارة ، وأرقّ استعارة ، كفالوذج مسموم ، قال :

وهأنا أبدي في اتحادي مبدئي	وأنهي انتهائي في مواضع رفعتي
وفي موقفـي لا بـل إلي توجهـي	ولكنْ صلاتي لي ومنيَ كعبتي

ومنها :

وجُدْ في فنونِ الاتحاد ولا تَحُدْ	إلى فئةٍ في غرة العمر أصبتِ

وكنت سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقيني عن ابن عربي ، فبادر بالجواب بأنه كافر ، فسألته عن ابن الفارض فقال : لا أحب أن أتكلم فيه .

---

(١) العلم الشامخ ص ٣٧٨ .

(٢) لسان الميزان (٤/٣١٧-٣١٩).

قلت : فما الفرق بينهما والموضع واحد ؟ وأنشدته من التائية ، فقطع عليّ بعد إنشاد عدة أبيات بقوله : هذا كفر ، هذا كفر .

قال ابن حجر : ورأيت في كتاب التوحيد للشيخ عبد القادر القوصي ، قال : حكى لي الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي ، قال : كنت بجامع مصر وابن الفارض في الجامع ، وعليه حلقة ، فقام شاب من عنده ، وجاء إلى عندي ، وقال : جرى لي مع هذا الشيخ حكاية عجيبة – يعني : ابن الفارض – قال : دفع إليّ دراهم ، وقال : اشتر لنا بها شيئًا للأكل ، فاشتريت ومشينا إلى الساحل ، فنزلنا في مركب حتى طلع البهنسا ، فطرق بابًا فنزل شخص ، فقال : بسم الله ، وطلع الشيخ ، فطلعت معه ، وإذا بنسوة بأيديهم الدفوف والشبّابات ، وهم يغنون له ، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ ، ونزلنا وسافرنا حتى جئنا إلى مصر ، فبقي في نفسي ، فلما كان في هذه الساعة جاءه الشخص الذي فتح له الباب ، فقال له : يا سيدي فلانة ماتت . وذكر واحدة من أولئك الجواري فقال اطلبوا الدلّال ، وقال : اشتر لي جارية تغني بدلها ، ثم أمسك أذني فقال : لا تنكر على الفقراء[1].

ابن الفارض الذي يكذب على رسول الله ﷺ ، ويقول : إنه رآه منامًا وإنه سأل ابن الفارض عن قصيدته التائية، ما سمَّاها؟ فأجابه بأنه سمَّاها: لوائح الجنان وروائح الجنان . فقال له النبي– ﷺ– : لا ، بل سمها : نظم السلوك[2].

من كان بحالة لقي الله بها ، والجزاء من جنس العمل ، ومن فسدت بدايته فسدت نهايته .

فعند موت ابن الفارض تأوّه ، وصرخ صرخة عظيمة ، وبكى بكاءً شديدًا ، وتغيّر لونه وقال :

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرتْ روحي بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلامِ

(١) لسان الميزان لابن حجر (٣١٧/٤-٣١٩). (٢) ديباجة الديوان ص ٦ – ٧ .

○ المختار بن أبي عبيد الثقفي ○

المختار الكذاب .

سلّطه الله على قتلة الحسين ، وهو الكذّاب الذي قال فيه الرسول ﷺ : « إنه سيكون في ثقيف كذاب ومبير ». فهذا هو الكذاب، ولفظ مسلم : « إن في ثقيف كذابًا ومبيرًا » .

وقد كان في بداية أمره ناصبيًا يبغض عليًّا بغضًا شديدًا ، ثم ادعى التشيُّع ، وتتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء ، وطابت نفس المختار بالملك ، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع .

ولم يكن المختار في نفسه صادقا ، بل كان كاذبًا يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل .

وروى الإمام أحمد عن رفاعة القباني قال : دخلت على المختار فألقى لي وسادة ، وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك .

وقد قيل لابن عمر : إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه ، فقال : صدق ، قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني عنده ، وكان يتعاهد مبيتي بالليل ، قال : فقال لي : اخرج فحدّث الناس ، قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت : الوحي وحيان ، قال الله تعالى : ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ [يوسف : ٣] وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا** ﴾ [الأنعام : ١١٢] قال : فهمّوا أن يأخذوني ، فقلت : ما لكم وذاك ! إني مفتيكم وضيفكم . فتركوني ، وإنما أراد عكرمة أن يعرّض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي ينزل عليه .

وروى الطبراني من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباها دخل على المختار بن أبي عبيد ، فقال له : يا أبا عامر ، لو شفت رأي جبريل وميكائيل ، فقال له زيد : خسرت وتعست ، أنت أهون على الله من ذلك ، كذاب مفترٍ على الله ورسوله .

وقد ذكر العلماء أن المختار كان يظهر التشيُّع ويبطن الكهانة ، وأسرّ إلى أخصائه أنه يوحى إليه . وكان قد وضع له كرسي يعظم ويحفّ به الرجال ، ويستر بالحرير ، ويحمل على البغال ، وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن .

وروى ابن جرير بإسناده إلى طفيل بن جعدة بن هبيرة قال : أعدمت مرة من الورق ، فإني كذلك إذ مررت بباب رجل هو جار لي له كرسي قد ركبه وسخ شديد ، فخطر في بالي أن لو قلت في هذا ، فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إليّ بالكرسي ، فأرسل به ، فأتيت المختار فقلت له : إني كنت أكتمك شيئًا وقد بدا لي أن أذكره إليك ، قال : وما هو ؟ قال : قلت : كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه ، كأنه كان يرى أن فيه أثرة من علم . قال : سبحان الله ! فلـم أخرت هذا إلى اليوم ؟ ابعثه إليّ ، قال : فجئت به وقد غسل فخرج عودًا ناضرًا وقد شرب الزيت ، فأمر لي باثني عشر ألفًا ، ثم نودي في الناس : الصلاة جامعة ، قال : فخطب المختار الناس فقال : إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله ، وإنه قد كان في بني إسرائيل تابوت يستنصرون به ، وإن هذا مثله ، ثم أمر فكشف عنه أثوابه ، وقامت السبئية ، فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثًا ، فقام شبث بن ربعي فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا التابوت هذا التعظيم . وأشار بأن يكسر ، ويخرج من المسجد ، ويرمى في الخنس ، فشكرها الناس لشبث بن ربعي ، فلما قيل : هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل ، وبعث المختار بن الأشتر ، بعث معه بالكرسي يحمل على بغل أشهب قد غشي بأثواب الحرير ، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فلما

تواجهوا مع الشاميين وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد ازداد تعظيمهم لهذا الكرسي حتى بلغوا به الكفر ، قال الطفيل بن جعدة : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وندمت على ما صنعت .

وقد قال في هذا الكرسي أعشى همدان :

شهدت عليكم أنكم سبائية وأني بكم يا شرطة الشركِ عارفُ
وأقسم ما كرسيّكم بسكينة وإنْ كان لقد لُفّت عليه اللفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإنْ سعت شبام حواليه ونهد وخارفُ[1]
وإني امرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيًا ضمنته المصاحفُ

وقال المتوكل الليثي :

أبلغ أبا إسحٰق إن جئته أني بكرسيكمْ كافر
تنزوا شبام حول أعواده وتحملُ الوحي له شاكر
محمّرة أعينهم حوله كأنهن الحمصُ الحادرُ

وهذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه ، وضعفه وقلة علمه ، وكثرة جهله، ورداءة فهمه ، أو ترويجه الباطل على أتباعه ، وتشبيهه الباطل بالحق ، ليضل به الطغام ، ويجمع عليه جهّال العوام .

قال عبد القاهر البغدادي : لما تمت ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهّن بعد ذلك ، وسجع كأسجاع الكهنة .

ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة ، فقالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، وحملوه على دعوى النبوة ، فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحي ينزل عليه .

ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لمّا تكهن ، واجتمعت السبئية إليه

---

(١) شبام : رضع ، نهد : الفتاة الناهد ، خارف : عجوز .

مع عبيد أهل الكوفة ؛ لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم ، وقاتل بهم الخارجين عليه ، فظفر بهم ، وقتل منهم الكثير ، وأسر جماعة منهم ، وكان في الأُسَرَاء رجل يقال له : سُراقة بن مرداس البارقي ، فقُدِّم إلى المختار ، وخاف البارقي أن يأمر بقتله ، فقال للذين أسروه وقدّموه إلى المختار : ما أنتم أسرتمونا ولا أنتم هزمتمونا بعدَّتكم ، وإنما هزمنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البُلْق فوق عسكركم ، فأعجب المختار قوله هذا ، فأطلق عنه ، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات :

ألا أبلغْ أبا إسحاق عني ... رأيت البُلْق دُهْمًا مُصْمتاتِ
أُرِي عينيّ ما لم تنظراه ... كلانا عالم بالترهاتِ
كفرت بوحيكم وجعلتُ نذرا ... عليّ قتالكم حتّى المماتِ

وفي هذا الذي ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودَعْواه الوحي إليه .

وأما سبب قوله بجواز البداء على الله ؛ أنه قد وعد أصحابه بالنصر على جيش مصعب ، فلما هُزموا قالوا له : لماذا تعدنا بالنصر على عدونا ؟!! فقال : إن الله كان قد وعدني ذلك ، لكنه بدا له .

ثم إن المختار باشر قتال مصعب بن الزبير بنفسه بالمذار من ناحية الكوفة ، وقتل في تلك الواقعة محمد بن الأشعث الكندي . قال المختار ، طابت نفسي بقتله أن لم يكن بقي من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالي بالموت بعد هذا. ثم وقعت الهزيمة على المختار وأصحابه .

وأشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته ، فدخله وهو ملوم مذموم ، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم ، فحاصره مصعب فيه وجميعَ أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم ، وضيّق عليهم المسالك والمقاصد ، وانسدت عليهم أبواب الحيل ، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم ، ثم جعل المختار يجيل فكرته ، ويكرر رويّته في الأمر الذي قد حلّ به ، واستشار

مَن عنده في هذا السبب السيئ الذي قد اتصل سببه بسببه من الموالي والعبيد ، ولسان الشرع يناديه : ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ [سبأ : ٤٩] .
ثم قوي عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه ، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه ، ورأى أن يموت على فرسه ، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه ، فنزل حميّة وغضبًا ، وشجاعة وكَلَبًا ، وهو مع ذلك لا يجد مَناصًا ولا مَفرًّا ولا مَهربًا وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر ، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر ، ولما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان وهما طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة من بني حنيفة ، فقتلاه ، واحتزَّا رأسه ، وأتيا به إلى مصعب بن الزبير وقد دخل قصر الإمارة ، فوضع بين يديه ، كما وضع رأس ابن زياد بين يدي المختار ، وكما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد ، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان .

يقول أعشى همدان :

لقد نبئت والأنباء تُنمي ... بما لاقى الكوارث بالمذارِ
وما إنْ سرّني إهلاك قومي ... وإن كانوا وحَقّك في خَسَارِ
ولكني سررت بما يلاقي ... أبو إسحاق من خزي وعارِ

وأراح الله المسلمين من هذا الضال المضل ، بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين ... وذهب المختار إلى مزبلة التاريخ ، بعد أن نُعت بالكذاب على لسان رسول الله ﷺ ، وكل صاحب فرية ذليل في الدارين .

○ ابن الراوندي الزنديق ○

قال ابن الجوزي : كم من زنديق في قلبه حقد على الإسلام ، خرج فبالغ ،

واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها من يصحبه ، وكان غور مقصده في الاعتقاد الانسلال من الدين ، وفي العمل نيل الملذات ، واستباحة المحظورات .

ومنهم من لم يرح على تغثيره ، ففاتته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندي ، والمعرِّي .

عن التنوخي قال : كان ابن الراوندي ملازم الرافضة ، وأهل الإلحاد ، فإذا عوتب قال : إنما أريد أن أعرف مذاهبهم ، ثم كاشف وناظر .

قال ابن الجوزي : من تأمل حال ابن الراوندي وجده من كبار الملحدة ، وصنّف كتابًا سماه : الدامغ . زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة ، فسبحان من دمغه ، فأخذه وهو في شرخ الشباب .

وكان يعترض على القرآن ، ويدعي عليه التناقض وعدم الفصاحة ، وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت عند سماعه ، فكيف بالألكن[(١)] .

قال ابن كثير :

أحد مشاهير الزندقة ، كان أبوه يهوديًّا ، فأظهر الإسلام ، ويقال : إنه حرّف التوراة ، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن ، وألحد فيه ، وصنف كتابًا في الرد على القرآن سماه : الدامغ . وكتابًا في الرد على الشريعة ، والاعتراض عليها سماه : الزمردة ، وكتابًا يقال له : التاج في معنى ذلك .

قال الجبائي : قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي ، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا في قدم العالم، ونفي الصانع ، وتصحيح مذهب الدهرية ، والرد على أهل التوحيد ، ووضع كتابًا في الرد على محمد رسول الله ﷺ في سبعة عشر موضعًا ، ونسبه إلى الكذب- يعني: النبي - ﷺ - وطعن على القرآن، ووضع كتابًا لليهود والنصارى، وفضل

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١١١ - ١١٢ مطبعة الجزيرة دار السلام .

دينهم على المسلمين والإسلام ، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام . نقل ذلك ابن الجوزي عنه .

وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفا من كلامه وزندقته ، وطعنه على الآيات والشريعة ، وردّ عليه في ذلك ، وهو أقل وأخسّ وأذلّ من أن يلتفت إليه ، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه . وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر ، منها ما هو صحيح عنه ، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله ، وعلى طريقه ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة ، يخرجونها في قوالب مسخرة ، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة ، وهذا كثير موجود فيمن يدعي الإسلام وهو منافق ، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه ، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم : **﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾** الآية [التوبة : ٦٥ - ٦٦] .

وقد كان أبو عيسى الورّاق مصاحبا لابن الراوندي - قبّحهما الله - فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى ، فأودع السجن حتى مات ، وأما ابن الراوندي فلجأ إلى ابن لاوي اليهودي ، وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذي سمّاه : الدامغ للقرآن . فلم يلبث بعده إلا أيامًا يسيرة حتى مات - لعنه الله - ويقال : إنه أخذ وصلب .

قال أبو الوفاء بن عقيل : ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستا وثلاثين سنة ، مع ما انتهى إليه من التوغل في المخازي في هذا العمر القصير ، لعنه الله ، وقبحّه ، ولا رحم عظامه[1] .

قال الذهبي عنه : الملحد ، عدو الدين ، الرِّويندي ، صاحب التصانيف

---

(١) البداية والنهاية (١١ / ١٢٠ - ١٢١) .

في الحطّ على الملة .

قال ابن الجوزي : كنت أسمع عنه بالعظائم ، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب ، ورأيت له كتاب : نعت الحكمة . وكتاب : قضيب الذهب ، وكتاب : الزمردة ، وكتاب : الدامغ الذي نقضه عليه الجبائي ، ونقض عبد الرحمن ابن محمد الخيّاط عليه كتاب الزمردة .

قال ابن عقيل : عجبي كيف لم يقتل ؟! وقد صنف الدامغ يدمغ به القرآن ، والزمردة يُزري فيه على النبوات .

قال ابن الجوزي عن الزمردة : فيه هذيان بارد ، لا يتعلق بشبهة ! .

يقول فيه : إن كلام أكثم بن صيفي فيه ما هو أحسن من سورة الكوثر ! وإن الأنبياء وقعوا بطلاسم . وألف لليهود والنصارى يحتج لهم في إبطال نبوة سيد البشر .

قال أبو العباس بن القاص الفقيه : كان ابن الراوندي لا يستقر على مذهب ولا نِحلة ، حتى صنف لليهود كتاب النصرة على المسلمين لدراهم أُعطيَها من يهود . فلما أخذ المال ، رام نقضها ، فأعطوه مئتي درهم حتى سكت .

قال في بعض المعجزات : يقول المنجم كهذا .

وقال : في القرآن لحن .

وقال : يقولون : لا يأتي أحد بمثل القرآن . فهذا إقليدس لا يأتي أحد بمثله ، وكذلك بطليموس . قيل : إنه اختلف إلى المبرد فقال المبرد : لو اختلف إلّي سنة لاحتجت أن أقوم وأجلسه مكاني .

لعن الله الذكاء بلا إيمان ، ورضي الله عن البلادة مع التقوى[1] فكان جزاء الزنديق من جنس عمله ، ودمغه الله ولم يمهله بعد ما ألف الدامغ جزاءً وفاقًا .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٥٩ - ٦٢) .

○ أبو العلاء المعري لا رحمه الله ○

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان سمى نفسه : رهين المَحْبَسيْن .

قال ابن الجوزي : وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرة الإلحاد ، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء ، ولم يزل متخبطًا في تعثيره ، خائفًا من القتل إلى أن مات بخسرانه[1] .

وكل صاحب فرية ذليل جزاءً وفاقًا ، أعثر الناس ، وأخسأهم قدرًا ، وأردأهم عيشًا .

قال ابن كثير :

أبو العلاء المعري التنوخي الشاعر المشهور بالزندقة ، دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم خرج منها طريدًا منهزمًا ، لأنه سأل سؤالًا بشعر يدل على قلة دينه وعلمه وعقله ، فقال :

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له وأنْ نعوذَ بمولانا من النارِ
يدٌ بخمس مئين عَسْجَدٍ وُدِيتْ ما بالها قطعت في رُبْع دينارِ

وهذا من إفكه ، وهذا من قلة عقله وعلمه ، وعمى بصيرته ، ولهذا قال بعضهم : كانت ثمينة لما كانت أمينة ، فلما خانت هانت .

ولمّا عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده ، ولزم منزله فكان لا يخرج منه .

وقد كان ذكيًا ولم يكن زكيًا ، وفي بعض أشعاره مايدل على زندقته ، وانحلاله من الدين ، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول : إنه كان يقول ذلك مجونًا ولعبًا ، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه ، وقد كان باطنه مسلمًا . قال ابن عقيل

---

(١) تلبيس إبليس ص ١١٢ .

لمّا بلغه : وما الذي ألجأه أن يقول في دار الإسلام ما يكفره به الناس ؟ والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه ، لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها ، وهذا أظهر الكفر الذي تسلّط عليه به الناسِ وزندقوه ، والله يعلم أن ظاهره كباطنه .

قال ابن الجوزي : وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتابا سماه : الفصول والغايات ، في معارضة السور والآيات ، على حروف المعجم في آخر كلماته ، وهو في غاية الركاكة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته ، ثم أورد ابن الجوزي من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الله أشياء كثيرة .

فمن ذلك قوله :

إن كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونًا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

وقوله :

ألا إن البريـة فـي ضلالٍ وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة مـوسى وأوقع في الخسار من اقتراها
فقـال رجالـهُ : وحيٌ أتـاه وقال الناظرون : بل افتراهـا
وما حجي إلى أحجار بيت كروس الخمر تشرفُ في ذراها
إذا رجع الحليم إلى حجاهُ تهـاون بالمـذاهب وازدراهـا

وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدتْ ويهودُ جارتْ والمجوسُ مضللهْ
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دينٍ وآخر دَيِّنٌ لا عقل له

وقوله :

فلا تحسب مقال الرسل حقًّا ولكنْ قـولَ زور سطـروهُ
وكان الناس في عيش رغيدٍ فجـاءوا بالمحـالِ فكـدّروه

وقلت أنا معارضة عليه :

فلا تحسب مقال الرسل زورا ولكنْ قولَ حقّ بلّغُوهُ
وكان الناس في جهل عظيم فجاءوا بالبيان فأوضحوهُ

وقوله :

إن الشرائع ألقت بيننا إحَنًا وأورثتنا أفانين العداواتِ
وهَلْ أبيحتْ نساء الروم عن عُرُضٍ للعُرْبِ إلا بأحكامِ النبوّاتِ

وقوله :

وما حمدي لآدم أو بنيه وأشهد أن كلهمُ خسيسُ

وقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكمْ مكرًا من القدما

وقوله :

صرفُ الزمان مفرّقُ الإلفينِ فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
ونهيتَ عن قتلِ النفوس تعمّدًا وبعثت تقبضها مع الملكينِ
وزعمت أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالينِ

وقوله :

ضحكنا وكان الضحكُ منّا سفاهة وحُقَّ لسكان البسيطةِ أن يبكوا
تحطمنا الأيامُ حتَّى كأننا زجاج ولكن لا يعودُ له سبكُ

وقوله :

أمور تستخفُّ بها حلومٌ وما يدري الفتى لمن الثبورُ[1]
كتاب محمدٍ وكتابُ موسى وإنجيل ابن مريم والزبورُ

وقوله :

---

(١) الهلاك . وعند الذهبي أول البيت :
عقول تستخف بها سطور

قالت معاشر لم يبعث إلهكمُ إلى البريّة عيساها ولا موسى
وإنما جعلوا الرحمٰن مأكلةً وصيرّوا دينهم في الناس ناموسا

وذكر ابن الجوزي وغيره أشياء كثيرة تدل على كفره ، بل كل واحدة من هذه الأشياء تدل على كفره، وزندقته وانحلاله ، ويقال: إنه أوصى أن يكتب على قبره.

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحدْ

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار ، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يجنِ على أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد، قبّحه الله.

وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب منه ، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله ، ويتنصّل منه ، وهي القصيدة التي يقول فيها :

يا منْ يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليلِ البهيمِ الأليلِ[1]
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخُّ في تلك العظام النُّحلِ
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان منّي في الزمان الأوّلِ

وأنشدت عند قبره ثمانون مرثاة حتى قال بعضهم في مرثاة له :

إن كنت لم تُرِقِ الدماء زهادةً فلقد أرقت اليوم من جفني دمًا

قال ابن الجوزي : وهؤلاء الذين رثوه والذين اعتقدوه: إما جهّال بأمره ، وإمّا ضُلّال على مذهبه وطريقه .

وقد رأى بعضهم في النوم رجلًا ضريرًا على عاتقه حيتان مدليتان على صدره ، رافعتان رأسيهما إليه ، وهما ينهشان لحمه ، وهو يستغيث ، وقائل يقول : هذا المعري الضرير[2]– الملحد .

وذكر ابن خلّكان أنه أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي علي ..

---

(١) الكثير الظلمة .

(٢) رأى هذا المنام أبو غالب بن نبهان من أهل الخير والفقه ، انظر سير أعلام النبلاء (١٨ / ٣٤) .

قال ابن خلكان : وهذا أيضًا باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون اتخاذ الولد وإخراجه إلى هذا الوجود جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات . قلت : وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده ، وهو ما يعتقده الحكماء إلى آخر وقت ، وأنه لم يقلع عن ذلك كما ذكره بعضهم ، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها[1] اهـ .

يقول عنه الذهبي : أبو العلاء ، شيخ الآداب ، اللغوي الشاعر ، صاحب التصانيف السائرة ، والمتهم في نحلته .

ومن أردأ تواليفه : رسالة الغفران . في مجلد ، وقد احتوت على مَزْدَكةٍ وفراغ ، ورسالة الملائكة ، ورسالة الطير على ذلك الأنموذج .

قال الباخرزي : أبو العلاء ضرير ماله ضريب ، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج ، قد طال في ظل الإسلام آناؤه ، ورشح بالإلحاد إناؤهُ ، وعندنا خبر بصره ، والله العالم ببصيرته ، والمطّلعُ على سريرته ، وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، بكتابه الذي عارض به القرآن ، وعنونه بـ : الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات .

وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن : له شعر كثير ، وأدب غزير ، ويرمى بالإلحاد ، وأشعاره دالة على ما يُزَنُّ به[2] .

ويظهر الصوم دائما ، قال : ونحن نذكر مما رمي به فمنه :

قران المُشتَرى زُحَلًا يُرَجَّى ... لإيقاظ النواظرِ من كَرَاهَا

تَقَضَّى الناسُ جيلًا بعد جيلٍ ... وخُلِّفتِ النجومُ كما تراهَا

تقدم صاحب التوراة موسى ... وأوقع بالخسار مَنِ اقتراهَا

وما حجي إلى أحجار بيتٍ ... كؤوس الخمر تُشرب في ذراهَا

إذا رجع الحكيم إلى حِجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراهَا

---

(١) البداية والنهاية (١٢ / ٧٧ - ٨١) .

(٢) ما يرمى به ويتهم .

ومنه[1] :

قلتم لنا خالق قديم   صدقتُمْ هكذا نقـولُ
زعمتموه بلا زمـانٍ   ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلامٌ له خبِيءٌ   معناه ليست لكم عقول

ومنه[2] :

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقال وفُرْ   قـانٌ يُنَصُّ وتوراةٌ وإنجيـلُ
في كل جيلٍ أباطيلٌ يُدان بها   فهل تفرّد يوما بالهدى جيلُ

فأجبته :

نعم أبو القاسم الهادي وأمته   فزادك الله ذلًّا يا دُجَيجيـلُ

ومنه[3] :

وإنما حَمّـل التوراة قارئهـا   كسبُ الفوائدِ لا حُبُّ التلاواتِ
وهل أُبيحت نساء الروم عن   عُرُضٍ[4] للعُرْبِ إلا بأحكام النبواتِ

وعن التبريزي : قال : لمّا قرأت على أبي العلاء :

تناقض ما لنا إلا السكوتُ له   وأن نعوذ بمولانا من النـارِ
يد بخمس مِيءٍ[5] من عسجد وُدِيَتْ   ما بالُـها قُطِـعَتْ في ربـع دينارِ

سألتهُ ، فقال : هذا كقول الفقهاء عبادة لا يعقل معناها .

قال كاتبه : لو أراد ذلك ؛ لقال : تعبُّد ، ولما قال : تناقض ، ولما أردفه ببيت آخر يعترض على ربه .

---

(١) اللزوم (٢ / ٢٧٠) .

(٢) اللزوم (٢ / ٢٦٨) ، وفيه : وأنباء تُقَصُّ بدل : تقال .

(٣) اللزوم (١ / ٢٢٨) .

(٤) يضربون الناس عن عرض : لا يبالون من ضربوا .

(٥) مِيءٍ بميم مكسوره وهمز منونة : من جموع المئة ، وفي اللزوم (١/٥٤٤) بخمس مئين .

وبإسنادي قال السلفي : إن كان قاله معتقدًا معناه ، فالنار مأواه ، وليس له في الإسلام نصيب ، هذا إلى ما يُحكى عنه في كتاب : الفصول والغايات ، فقيل له : أين هذا من القرآن ؟ فقال : لم تَصْقُلْهُ المحاريب أربعمائة سنة .

قال الذهبي : ويظهر لي من حال هذا المخذول أنه متحير ، لم يجزم بنحلة ، اللهم فاحفظ علينا إيماننا .

قال الذهبي : قد طال المقال ، وما على الرجل أُنسُ زهاد المؤمنين ، والله أعلم بما ختم له . ومن خبيث قوله[1] :

أتى عيسى فبَطَّلَ شرعَ موسى[2] وجاء محمدٌ بصلاةِ خمسِ
وقالوا لا نبيٌّ بعد هـذا فضَلَّ الناس بين غدٍ وأمسِ[3]
ومهما عِشتَ من دنياك هذي فما تُخْليكَ من قمرٍ وشمسِ
إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتي وإن قلتُ اليقين أطلت همسي[4]

قال طه حسين في تجديد ذكرى أبي العلاء :

أبو العلاء كان منكرًا للنبوات ، جاحدًا لصحتها ، وقد نصّ على ذلك في اللزوميات صراحة غير مرة ، فطورًا يثبت أنها زور ، وطورًا يجعلها مصدر الشرور ، وافتن في ذلك افتنانًا عجيبًا ، فلم يكتف بإنكار النبوات ، حتى أنكر الديانات عامة .

ويقول في التعريض بالإسلام خاصة :

تَلَوْا باطلًا وجَلَوْا صارمًا وقالوا صَدَقْنَا فقلنا نَعَمْ

ويقول في التعريض بالنبي ﷺ :

ولستُ أقولُ إن الشهبَ يومًا لبَعْث محمدٍ جُعِلتْ رجومًا

---

(١) اللزوم (٢ / ٥٥ - ٥٦) .
(٢) في اللزوم : دعا موسى فزال وقام عيسى .
(٣) في اللزوم :
وقيل يجيء دين غير هـذا وأودى الناس بين غدٍ وأمسِ
(٤) وإن قلت الصحيح .. سير أعلام النبلاء (١٨ / ٢٣ - ٣٩) .

ويقول في ذلك مُعَرِّضا بقصة خيبر :

ومحمد وهُو المنَبأ يشتكـي   لمكان أكلته انقطاع الأبهـر

ويقول :

وإذا ما سألتَ أصحاب دين   غيـروا بالقيـاس مـا رتَّبـوهُ

لا يدينـون بالعقـول ولكـنْ   بأباطيـلَ زخـرفٍ كذبّـوهُ

ويقول :

بَنَتِ النصارى للمسيح كنائسًا   كادت تعيبُ الفعلَ من مُنْتَابها

ومتى ذكرتَ محمدًا وكتابه   جاءت يهودُ بجحدها وكتابها

وانظر إلى السخرية في قوله :

أَفَمِلَّـةَ الإسلام ينكـر منكـرٌ   وقضاء ربك صاغها وأتى بها

ويقول :

غدا أهل الشرائع في اختلاف   تُقَضُّ به المضاجع والمهـودُ

فقد كذبت على عيسى النصارى   كما كذبت على موسى اليهودُ

وانظر إلى تعريضه بالإسلام :

ولم تستحـدثِ الأيـامُ خلقًـا   ولا حالتْ من الزمن العهودُ

ومثل هذا كثير منبث في اللزوميات ، لم نشأ أن نسرف في روايته اتقاء الإطالة ، وخشية الإملال ، وهو يدل على أن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ، ولا مصدقٍ للأنبياء[1] .

وقال أيضًا :

وقال في إنكار ما في القرآن من تقسيم فرائض الميراث :

حيرانُ أنتَ فأي الناس تَتْبعُ   تجري الحظوظ وكلُّ جاهلٌ طَبعُ

والأم بالسُّدسِ عادتْ وهي أرأف مِنْ   بنتٍ لها النصف أو عِرْس لها الرُّبُعُ

وقد أجمع المؤرخون على أنّ أبا العلاء ، عارض القرآن بكتاب سماه :

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين طبع دار المعارف ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

الفصول والغايات في محاكاة السور والآيات . وأبو العلاء نفسه لم ينكر هذا الكتاب ، بل أثبته في ثبت كتبه ، الذي رواه القفطي والذهبي ، والناس يكفرون أبا العلاء بهذا الكتاب ، وبما في رسالة الغفران من سخرية ، وبما في اللزوميات من إنكار النبوات[١] .

أما موقفه من البعث :

فيقول طه حسين : اضطرب رأي أبي العلاء في البعث اضطرابًا شديدًا ، فمرة أثبته ، فقال :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُحشرُ الأجسامُ قلت إليكما
إنْ كان رأيكما فلستُ بخاسرٍ أوْ صحّ قولي فالخسار عليكما

وتارة ينكره نصا ، بل نفاه أكثر من ستين مرة في اللزوميات ، ومن أشنع قوله في ذلك :

وزعمتِ أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالين

وتارة يقف في أمر البعث موقف الشك فيقول :

يا مرحبا بالموت من مُتَنَظَّر إن كان ثَمَّ تعارفٍ وتلاقِ[٢]

الجن والملائكة :

قال طه حسين : أبو العلاء أنكر الجن والملائكة في اللزوميات نصًا فقال :

قد عشت عمرًا طويلًا ما علمت به حسًّا يحسّ لجنّيٍ ولا مَلَكِ

وقال :

فاخش المليك ولا توجَد على رَهَب إنْ أنتَ بالجنِّ في الظلماء خُشِّيتا
فإنما تلك أخبار ملفَّقةٌ لخدعة الغافل الحشويّ حوشيتا

ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعًا ، وقد نظم

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

الشعر في رسالة الغفران على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة ، فقال – وإنما يريد الهزء والسخرية – :

مكةُ أقوتْ من بني الدردبيس فما لجنّي بها من حسيس[1]

أصل الإنسان :

شك في أصل الإنسان فقال :

جائز أن يكون آدم هذا قبلـه آدمٌ على إثـر آدمْ

ثم جزم بذلك فقال :

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ ولكِنّه عند القيـاس أوادمُ

وتمنى أبو العلاء لو أن الإنسان لم يوجد ؛ لأنه شرير مفسد في الأرض فقال :

ياليت آدم كان طلقّ أمهم أو كان حرّمها عليه ظهارُ

ولدتهمُ في غير طهر عاركا فلذاك تفقد فيهم الأطهارُ

وهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول :

وسيّان مـن أمـه حـرّة حَصَانٌ ومَنْ أمّه زانيـهْ

ويقول :

ما ميزّ الأطفال في أشباحها للعين حِلّ ولادة وظهـارُ

وبالغ أبو العلاء في كره الوجود حتى استحسن من وأد البنات ما حرّمه الله :

ودفـنٌ والحوادث فاجعـات لإحداهن إحدى المكرمـات

واستحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم وأحبه ، وفي ذلك يقول :

فاعجبْ لتحريقِ أهلِ الهند ميتهمْ وذاك أروحُ من طول التباريحِ

إن حَرّقوه فما يَخْشَوْن من ضبع تسري إليه ولا خَفي وتطريحِ

والنار أطيب من كافور ميتنا غبًّا وأذهب للنكراء والريحِ

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٦٩ .

وذهب المعري إلى تحريم أكل الحيوان وما يخرج منه فمن ذلك قوله :

غَدوتَ مريض العقل والدين فالقني   لتسمع أنباء الأمور الصحائحِ
فلا تأكلَنْ ما أخرج البحُر ظالمًا   ولا تبغ قوتا من غريض الذبائحِ
ولا بيض أمّات أرادتْ صريحَه   لأطفالها دون الغواني الصرائحِ
ولا تفجعن الطير وهي غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائحِ
ودَع ضربَ النحل الذي بكرت له   كواسبَ من أزهار نبت فوائحِ
فما أحرزته كي يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائحِ
مسحت يدي من كل هذا فليتني   أبَهْتُ لشاني قبل شيْب المسائحِ

وجازاه الله بنحلته ، وبما قال عن ملته بحبس الدنيا قبل الآخرة ، فحبسه في جسده ، وهذا أشد الحبس .

واللفظ الذي اختاره لنفسه ، وكان يحب أن ينادى به رهين المحبسين وإنما أراد بالمحبسين منزله الذي احتجب فيه ، وذهاب بصره ، على أنه ذكر لنفسه في اللزوميات سجونا ثلاثة : أحدها منزله ، والآخر ذهاب بصره ، والثالث : جسمه المادي الذي احتبست فيه نفسه أيام الحياة ، وذلك حيث يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسأل عن الخبر النَّبيثِ[1]
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفس في الجسم الخبيثِ

فهذه صورة الأديب الفيلسوف الذي خُدع الناس به طويلًا ، الذي أنكر النبوات ، عرّض بالتكليف ، وعارض القرآن ، وهزىء بشيء من أحكامه :

سيسأل قوم ما الحجيج ومكةٌ   كما قال قوم ما جَديسٌ وما طَسَمْ

هذا الذي رأى التقية :

لا تخبرنَّ بكنه دينك معشرًا   شُطُرًا وإن تفعل فأنت مُغَرَّرُ

وقال :

فاكتم حديثك لا يشعرْ به أحدٌ   من رهط جبريل أو من رهط إبليس

---

(١) انظر تجديد ذكرى أبي العلاء .

لقد حبس في جسده ذليلا في دار الدنيا ، والله الموعد ، ويكفيك أنه رأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو ، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط ، وبها نطق جزاءً وفاقًا ، فقال :

دُعيتَ أبا العلاء وذاك مينٌ ولكن الصحيح أبا النزولِ

○ الرجل الصنم مصطفى كمال أتاتورك[1] ○

لا تعجب من قول كثير من المؤرخين : إن أتاتورك كان صربيًّا أو بلغاريًّا .

لم يتحدث عن والده يومًا ، وروايات كثيرة لا تقل نسبتها عن تسعين في المائة من الروايات أنه كان من سفاح .

تناظر مدهش وعادل بين كون مصطفى كمال ثمرة حرام من الناحية الروحية ، وبين كونه ثمرة حرام من الناحية المادية ، يحمل في طياته معنًى كبيرًا . كيف أن هذه الروح السافلة كانت تستند في عالم المادة إلى أساس سافل ؟ وأن هذه السفالة في الروح والمادة تأتي في الحقيقة من كون مصطفى كمال عدوًّا لله وعدوًّا لرسول الله .

مصطفى كمال القائل : لقد انتهى العهد الذي كان الشعب فيه يخدع بكلمات ، هي خاصة بالطبقات الدنيا ، أمثال : كربلاء ... حفيد الرسول ... الإيمان ... السيف ... القدس .

مصطفى أتاتورك الذي ألغى الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٢ ، وقال عن الذين يقولون : إن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها قال : إنها سفسطة معهودة .

وفي اليوم الأول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ تُعْلن الجمهورية وانتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا للجمهورية التركية .

وبعد ٤ أشهر من انتخابه رئيسًا يوفي لأسياده الإنجليز وللحاخام نعوم ، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة العثمانية ، فيعطي قراره :

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة بتصرف من كتاب الرجل الصنم تأليف ضابط تركي سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن « مؤسسة الرسالة » .

لقد آن وقت إلغاء الخلافة ، وتلغى معها وزارة الشرعية ، ووزارة الأوقاف ، ولن ندع هناك مدرسة دينية .

يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد . وبعد ذلك يجبر الأتراك على ارتداء القبعة ، وهي العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنار ، كانت علامة دينية وضعت من قبل المسيحين أثناء المعارك الصليبية ، ثم أصبحت قومية ، وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من الإمام النووي ، وتنصب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها ، ويفرض العلمانية على تركيا ، ويقول عنها : إنها تعني أن نكون آدميين آدميين . ويغير أحرف الكتابة إلى الأحرف اللاتينية .

مصطفى أتاتورك الذي باع أذربيجان للروس ، عند ما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركية ، وبعد أن دخل البلاشفة إلى أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشًا إلى تركيا .

مصطفى أتاتورك الذي على مائدة الخمر ، وسط الدعارة والفجور ، يشير إلى راقصة داعرة نبيلة هانم ، فتقرأ أذان الفجر .

عدوه الأكبر رسول الله ﷺ .

كان في فندق « بارك » ، وكان المؤذن يقرأ الأذان في المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة ، يلتفت أتاتورك لمن حوله قائلًا : من قال بأننا مشهورون ؟ وما شهرتنا نحن ؟ انظروا إلى هذا الرجل[1] كيف أنه وضع اسمًا وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر في كل لحظة ، وفي جميع أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار ؛ ليهدموا هذه المنارة .

مصطفى أتاتورك الذي أراد أن تكون لغة الصلاة التركية .

---

(١) يقصد رسول الله ﷺ .

مصطفى أتاتورك الذي من على مائدة الخمر يصدر أمرًا بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف .

أما فحشه وشذوذه وعربدته وسكره ومجونه ، فحدث ولا حرج ، وحدث عن ليالي جانقايا ولا حرج .

يقول شاعره :

لا عنكبوت ولا سحر ..
لتبقى الكعبة لدى العرب ...
لأن جانقايا تكفينا ...

يتزوج من لطيفة هانم ، وتجده رجلًا سكيرًا ، ويشاء الله أن يفضحه على لسان زوجته ، فهو عديم الرجولة وعنين ، بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروفٌ ، وكان سببًا لطلاق زوجته منه ، قائلة له : لقد رأيت كل شيء فيك ، وتحملت كل شيء ولكني لا أستطيع تحمل هذا ! بعد ما رأته مع هذا الشاب الأمرد .

هذا الفاجر الذي حاول الاعتداء على المحارم ، فقد حاول الاعتداء على شقيقة زوجته الصغرى ، ولكن البنت تخلصت من يديه بصعوبة ، وهرعت إلى غرفة شقيقتها ، ودخل مصطفى كمال إلى الغرفة وفي يده مسدس ، واحتضنت زوجته شقيقتها وأصبحت سترًا بينهما ، وسحب مصطفى كمال الزناد ، ولكن لحسن الحظ فإن خادمه بكر أسرع إليه ، وأمسك بيده ، فطاشت الرصاصات الثلاث .

كانت حياته شرابًا شرابًا للخمر وللعرق ، لا يكاد يفيق منه ، يقترب من صبي ويسأله ، لو وضع أمام حمار دلوان في أحدهما ماء ، وفي الآخر عرق[1] فمن أيهما يشرب ؟ فقال له الصبي : من العرق يا سيدي .

---

(١) خمر .

وكان يقول : إن هذا العرق يعطي النشوة للإنسان .

الغازي أتاتورك الذي كان يذهب إلى دار المعلمات ، ويأخذ جبرًا بنات الأمة البريئات ؛ ليفسق بهن ، إنه يخطف البنات مثل قطاع الطرق .

وكان يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدي سمسارًا لشهواته .

أما عشيقاته فحدث ولا حرج ، صالحة ، وفكرية ، وآفة هانم عشيقته الدائمة ، التي أوصى لها عند موته . زد على ذلك كانت هناك ما بين ٢٠ إلى ٣ من النساء والفتيات الشابات ، المختارات بشكل خاص ، وأطلق عليهن : بناته بالتبني . ويوصي لهن عند موته بمقادير ثابتة طيلة حياتهن . وكنَّ يقمن بالرقص في حفلاته ، وهن شبه عاريات ..

بل في قصره كانوا يلبسون الجرسونات الرجال ملابس النساء ويرقصونهم .. رائحة الغلمنة والشذوذ أمام أنظار النساء .

وفي مرض موته ، في قصره ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا ترى بالعين ، حتى اضطرته إلى الحك والحك الشديد أمام زواره ، حتى ظهرت على وجهه ، وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية .

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلي : نعم صحيح أنه وجد نمل في بعض أرجاء القصر ، حتى إن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا ، ولم يكن يخطر ببال أحد احتمال أن هناك وراء الحكة سببًا آخر ؛ لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة ، حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية ، ويحضر طاقم من مدمرة ياووز ؛ لتصيد النمل الذي في القصر ، مدمرة ياووز الموجودة في ميناء أزميت يا للجنون !! فلمَ لم يطلبوه من حامية أنقرة ، جنود ومدمرة لسحق النمل !!

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ [المدثر : ٣١] .

وانظر إلى حكمة الله ؛ فإنه بالرغم من كونه محاطًا بالأطباء والأخصائيين

وأساتذة الطب ، لم يكتشفوا أنه كان مريضًا بالكبد ، وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨ الذي يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب . وابتلاه الله بتليف الكبد الذي أدى إلى الاستسقاء ، واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر ، وكان يصيح بمن حوله والأطباء : اسحبوا المياه[1] حالًا .. اسحبوها كلها .. لا تدعوا شيئًا منها .

وفي يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ .. يرحل عن هذا العالم ويدور جدال حول الصلاة عليه ، وكان من رأي رئيس الوزراء ألّا يصلى عليه ، وحدث خلاف مع قائد الجيش الأول ، وأخيرًا وبعد جدل وافقوا أن يُصلَّى عليه ، ولكن من الذي أمّ الناس ؟

إذا كان الغراب دليلَ قومٍ فلا فلحوا ولا فلح الغرابُ

إنه مدير الأوقاف شرف الدين أفندي الذي أصبح رئيسًا للشئون الدينية في عهد أينونو ؛ حاول إقناع أينونو بالقيام بكفر لم يستطع أتاتورك نفسه القيام به ، وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغةً للعبادة، وفرض قراءتها في الجوامع، بقوة القانون ... ويالله أتاتورك يصلي عليه شرف الدين هذا ، وافق الشن الطبق .

وعرضوا جثمانه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها .

ومات نتيجة الازدحام الشديد أربعة عشر شخصًا ، وفقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع عديمي الحياء ، مارسوا هذا أمام تابوته الرصاصي كعادة الصليبيين .

أتاتورك الجبان :

من خاف الله أخافَ منه كل شيء ، ومن لم يَخَفِ الله أخافه الله من كل شيء ، كان في مدرسة الزراعة على إحدى القمم ، وكانت الرياح شديدة ، وكانت تثير الغبار ؛ ولأجلها تحرك الأبواب ، فتحدث أصواتًا ، ويهب الغازي

(١) أي من بطنه .

مذعورًا من مكانه مذعورًا قلقًا ، قائلًا : أليس هذا صوت رشاشة ؟ ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، بل عدة مرات ، فيقولون له : إنه صوت الباب المندفع بسبب الريح ، ولكنه لا يصدق ، فيقوم ويتطلع من النافذة ، ثم يرسل من يحقق السبب ، وأخيرًا حاول في أحد الأيام الهروب من هذا المكان بعد أن جمع جميع ملابسه ، ولكن جلال عارف وآخرين وقفوا أمامه ومنعوه . هذا علمًا بأن حرَّاسًا له كانوا موجودين على الدوام في خيمة في الحديقة الخلفية للمدرسة .

وقصة أخرى يحكيها المارشال فوزي جاقماق : في أحد الأيام ، وبينما كانوا جلوسًا في مجلس الأمة الأعلى ظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار ، وكأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرعة في ناحية السَّهْل ، وعندما رأى أتاتورك هذا المنظر تهيأ للهرب قائلًا : هذه جيوش الخليفة آتية . ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم . فأُرسل رجلٌ خلف الغازي ؛ لتأمين رجوعه .

إيه يا أتاتورك ، يا مسخرة التاريخ .. نملٌ وغنمٌ فلم التطاول ؟

والجزاء من جنس العمل .

أتاتورك الذي ألغى أعياد الفطر والأضحى ، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلًا من الجمعة ، ومنع الحج ، بل وأغرب من هذا أن هذا الذي رمرم من فتات الغرب قوتا ، له واقعة مثيرة ، تنقلها جريدة الأهرام التي قامت بنقلها من جريدة : صندي تايمز في يوم الخميس ١٥ فبراير سنة ١٩٦٨ ، تحت عنوان : كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية . هل بعد هذا تبعية وولاءٌ لبريطانيا التي أسقطت دولة الخلافة على يد عميلها أتاتورك .

وأخيرا « لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم » .

وأي ظهور للفاحشة أكثر من الرقص، والعهر، والاغتصاب، والعشيقات،

والبنات بالتبني لممارسة الرذيلة .. ورقص النساء عاريات ، وسط موائد الخمر .

أراد أتاتورك أن يمتع نفسه بالشهوة الحرام ، فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام .

والجزاء من جنس العمل .

وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد ؛ لأنه كان عقيمًا بسبب إصابته بالزهري ، وبسببه أصيبت زوجته بالسيلان المزمن .

ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه .

والجزاء من جنس العمل .

هذه صفحة سوداء لقزم دجال ألغى الخلافة ، هذا الماسوني الذي جعله علمانيو العرب مثلهم الأعلى .

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ ... ونُعيتِ بين معالمِ الأفراحِ
كُفِّنتِ في ليل الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تَبلُّج الإصباحِ
شُيِّعتِ من هلعٍ بعبرة ضاحكٍ ... في كل ناحيةٍ وسكرةِ صاحِ
ضجَّت عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ ... وبكت عليكِ ممالكٌ ونواحِ
الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمع سَحَّاحِ
والشام تسألُ والعراقُ وفارسٌ ... أمحا من الأرض الخلافة ماحِ
أتت لك الجمعُ الجلائل مأتمًا ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ
ياللرجال لحُرة موءودةٍ ... قُتلتْ بغير جريرةٍ وجناحِ
إنَّ الذين أسَتْ جراحك حربهمْ ... قتلتك سلمُهمو بغيرِ جراحِ
هتكوا بأيديهم مُلاءة فخرهم ... مَوْشيَّة بمواهب الفتاحِ
نزعوا عن الأعناقِ خير قلادةٍ ... ونَضَوْا عنِ الأعطافِ خير وشاحِ
حَسَب أتى طولُ الليالي دونه ... قد طاحَ بين عشيَّةٍ وصباحِ
وعلاقة فُصمتْ عُرى أسبابها ... كانت أبرَّ علائق الأرواحِ
جَمَعت على البرِّ الحُضورَ وربما ... جمعت عليه سرائرَ النُّزَّاحِ

نظمت صفوفَ المسلمين وخطوهم ... في كل غدوة جُمعةٍ ورواحِ
بكت الصلاةُ ، وتلك فتنةٌعابث ... بالشرعِ عربيد القضاء وقاحِ
أفتى خزعبلةً وقال ضلالةً ... وأتى بكفر في البلاد بواحِ
إن الغرور سقى الرئيس براحِهِ ... كيف احتيالك في صريع الراحِ؟
نقل الشرائع والعقائد والقرى ... والناسَ نقل كتائبٍ في السَّاحِ
تركتْهُ كالشبح المولَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عبادةَ الأشباحِ
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباحِ
غرَّته طاعاتُ الجموع ودولةٌ ... وجد السوادِ لها هوى المرُتاحِ
فلتسمعنَّ بكل أرضٍ داعيًا ... يدعو إلى الكذاب أو لسجاحِ
ولتشهدنَّ بكل أرض فتنةً ... فيها يباع الدين بيع سماحِ
يفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاحِ

* * *

يا أختَ أندلسٍ عليك سلامُ ... هوت الخلافةُ عنكِ والإسلامُ
نزل الهلال عن السماء فليتها ... طُوِيَتْ وعمّ العالمين ظلامُ
أزرى به وأزاله عن أَوْجِهِ ... قدَرٌ يَحُطُّ البدْرَ وهْوَ تمامُ
خفت الأذانُ فما عليكِ مُوحِّد ... يسعى ولا الجُمَعِ الحِسانُ تُقَامُ
وخبتْ مساجدُ كُنّ نورًا جامعًا ... تمشي إليه الأُسد والآرامُ[1]
وعَفَتْ قبور الفاتحين وفُضّ عن ... حُفر الخلائف جندل ورِجامُ[2]

○ فرعون القرن العشرين ○

هذا الذي جعل الكنانة كلها ... سجنًا وبات الشعب شرَّ سجينِ
يـأيها المغرور في سلطانه ... أمن النضار خُلِقتَ أم مِنْ طينِ

---

(١) الرئم : الظبي الأبيض .

(٢) الجندل : الحجارة .. والرجام .. ما يبنى على البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو .

يا من أسأت لكلّ من قد أحسنوا لكَ دائنينَ فكنتَ شر مدينِ
يا ذئب غدرٍ نصّبوهُ راعيًا والذئبُ لم يك ساعة بأمينِ
يا من زرعت الشرَّ لن تجني سوى شرٌّ وحقدٍ في الصدورِ دفينِ
هل عُدت إلا بالهزيمة مرّةً وربحت غيرَ خسارة المغبونِ
وحفرتَ في كل القلوب مغاورًا تهوي به سَفَلًا إلى سجّينِ
وبنيتَ من أشلائِنا وعظامِنا جسرًا به نرقى لعليينِ
وصنعت باليدِ نعش عهدك طائعًا ودققت إسفينا إلى إسفينِ

وقال الشاعر عنه أيضًا :

وإذا رئيسهمو يرى في نفسه ملكَ الملوكِ ووارثَ الفرعونِ
في نفسه ودمائِه ﴿ أنا ربكم ﴾ لا تجعلوا ربًّا لكم من دوني

* * *

لحساب من شنقوا المجاهدَ يوسفًا والفرغلي محاربَ السكسونِ[1]
لحساب من غدروا بعودة جهرة من غير سلطانٍ عليه مبينِ
لحساب من قتلوا وما قد شوّهوا من أوجهٍ أو أظهرٍ وبطونِ
مَنْ عذّبوا من شردوا مَنْ جوعوا ومَنِ استذلوا من ليوثِ عرينِ
أسمعتَ بالإنسانِ ينفخ بطنه حتى يرى في هيئة البالون ؟!
أسمعتَ بالإنسان يضغطُ رأسه بالطوق حتى ينتهي لجنون؟!
أسمعتَ بالإنسانِ يشعلُ جسمه نارًا وقد صبغوه بالفزلين ؟!
أسمعتَ ما يلقى البريء ويصطلي حتى يقول أنا المسيء خذوني
أسمعتَ بالآهاتِ تخترق الدُّجى رباه عدلك إنهم قتلوني

---

(١) الشيخ يوسف طلعت من أبطال حرب فلسطين ، ومن قادة الجهاد ضد الإنجليز . وكذا الشيخ محمد الفرغلي .

وسل السياط السود كم شربت دمًا حتى غدت حُمْرًا بلا تلوين[١]

أي الكلمات تعبر عن قبح هذا الرجل وغيه وتطاوله وتكبره .

إن رجلًا يلقى الله بدم سيد قطب لخفيف الميزان عند الله ، يعاقب سيد قطب وهو يقيم عند أسياده بالكرملين .

هذا الرجل الذي أعدم : يوسف طلعت ، وعبد القادر عودة ، ومحمد الفرغلي وغيرهم ، وغيرهم ، وغيرهم ...

وعذب في السجون من عذب بوسائل فوق إدراك العقول .

أنستْ مظالمهمْ مظالمَ من خلوا حتى ترحمنا على نيرونِ
حسبوا الزمان أصمَّ أعمى عنهمُ قد نوّموه بخطبة وطنينِ
وبراعة التاريخ تسخر منهمو وتقوم بالتسجيلِ والتدوينِ
وكفى بربك للخليقة محصيًا في لوحه وكتابه المكنون

كم من أعراض هتكت ، وعذارى خدشت ، وعمائم بيضاء ضربت وسحقت ، وأرجل تورمت - من طول القيام - جلدت وأنفس أزهقت في سجونه .

لا يتصور الإنسان وضع رجالٍ في بالوعات دورات المياه تطفح عليهم بقاذوراتها حتى رؤوسهم ، وهذا ثابت وغير مبالغ فيه .

هذا القزم الذي دعا للقومية العربية على حساب القومية الإسلامية .

هذا المتلون الذي أفسح المكان للشيوعية والشيوعيين ، وتقلدوا في عصره أرفع المناصب .

هذا الرجل الذي أهان كرامة الأزهر ، ويكفي أن سُيمون دي بفوار عشيقة الداعي للإباحية في عصر هذا الرجل تدخل الأزهر ، ومعها وفد رسمي .

هذا القزم الذي أضاع المحاكم الشرعية ، والاقتصاد الإسلامي ، وكم خربت بيوت بقانونه الإصلاح الزراعي .

---

(١) النونية للقرضاوي .

وفي عهده كم سخر الساخرون من دين الله ، وكم كممت الأفواه . وخاف الناس حتى أوشكوا أن يقولوا : إن الجدار له أذن . وصار الباطل حقًّا والحق باطلًا .

يقول أحدهم ساخرًا :

لن يُقال الحق يا ولدي وفي الحق مراءْ
فاعبدِ الطاغوت يا ولدي ودعْ عنك السماءْ
ودَعِ المصحفَ يا ولدي إذا الميثاقُ جاءْ
فبهِ جاء نبيٌّ بزَّ كلَّ الأنبياءْ
وتعلّم لغة القومِ أحاديث الرياءْ
ودَعِ الصدقَ فَإنَّ الصدق طبعُ الأغبياءْ
ولتقل كل صباحٍ ولتقل كل مساءْ
كيف كنا كيف أصبحنا وكيف الأمس ساءْ
هذه مصرُ وفرعونٌ بها كيف يشاءْ
دولة الزور وقد دامت فيا مُرَّ البقاءْ

هذا الذي تطاول كبرياءً وطغيانًا ، وأذلّ أعناق الموحدين الساجدين تعذيبًا وتشريدًا وتنكيلًا ، العميل المزدوج للشرق وللغرب :

هبل .. هبل ..

رمز السخافة والخيانة والعمالة والدجل ..
هتافة التهريج ما ملّوا الثناء ..
زعموا له ما ليس عند الأنبياء ..
مَلَكٌ تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء ..
هو عالم ومعلم هو عبقري ملهم ..
وسعى القطيع غباوة .. يا للبطل ..
وثن يقود جموعهم يا للخجل !!

فأذله الله بأشنع هزيمة ، وسيلقى جزاء ما قدم من قتل آلاف الشباب من الأمة في معركة كانت المباغتة فيها لبني صهيون ، جزاءً وفاقًا ، فالسجن الحربي في ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ شاهد على أن هذا كان جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

ولما مات أبت القبور بأن تكون له الثرى ، وطفحت المجاري في قبره . حتى أغرقته ، مثلما فعل بالموحدين في سجنه الحربي .

والجزاء من جنس العمل .

وعاد مادحه ذامًا بعد موته ، حتى من الذين شاركوه الحكم بعد وفاته تكلموا عنه وعن طغيانه .

وهذا الشر الذي زرعه ما جني به إلا حقدٌ وشرٌّ تفجرَ بعد موته على صفحات جرائده ..

وبقي الظلال، والغريب أن ظلال القرآن كتبه فقيد الإسلام سيد قطب في سجون ناصر وهُرّب .. وذاع وانتشر حتى في إعلام الطاغية .. يدعو الناس لصاحبه ليلَ مساء ويدعون على مَنْ قتله ليلَ مساء .

والجزاء من جنس العمل .

وأخيرا ، وأي ذلٍّ تناله أيها الداعي إلى القومية العربية في الدنيا فوق هذا .

عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمعتموه يدعو بدعوى الجاهلية فأعضوه بهنِ[1] أبيه ، ولا تُكنُّوا »[2] .

يقول الشاعر :

وَأَدُوا الشريعة في سدى قوميةٍ خوفيـــةٍ روميـــةِ التِّبيــــان

---

(١) أير أبيه ، ولا حرج في دين الله ، فهذا ذل وتبكيت .

(٢) حديث حسن : رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ، وحسنّه مقبل الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١ / ٢٩ - ٣٠) .

فلا تعجب إذا اضطربت خطانا وساوَمَنا على الأمجاد وغـدُ
عروس جُلّلت بثياب حـزنٍ وطاف بها على الشارين عُبْدُ
مراكبهـا تُسيّـر فـي بحـارٍ ولا هدف على الشطآن يبدو
إذا لم يحكم الإسلام قومي فمهدك أيهـا المولـودُ لحـدُ

○ حمزة البسيوني ○

قائد السجن الحربي من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٥ .

يقول فيه القرضاوي وا في اسجنه :

هذا هو الحربي معقل ثـورة تدعو إلى التحرير والتكويـن
فيـه زبانيـة أُعـدوا لـلأذى وتخصصوا في فنـه الملعـونِ
متبلـدون عقـولهم بأكفهـمْ وأكفهـمْ لـلشرِّ ذاتُ حنيـنِ
بالرجل بالكرباج باليد بالعصا وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دونِ
لا يعبأون بصالحٍ ولو انه في زهد عيسى أو تُقى هارونِ
لا يرحمون الشيخ وهْو محطَّمٌ والظهر منه تـراه كالعرجـونِ
لا يشفقون على المريضِ وطالما زادوا أساهُ بقسوةٍ وجنـونِ
كم عالمٍ ذي هيبة وعمامةٍ وطِئوا عمامته بكـل مجونِ
لو لم تكن بيضاء ما عبثوا بها لـكنها هـانت هـوان الديـن
من ظن قانونًا هنـاك فـإنما قانوننـا هـو حمزة البسيـوني
جلّاد ثورتهمْ وسوط عـذابهمْ سموه زورًا قائـدًا لِسجـونِ
وجه عبوسٌ قمطريـرٌ حاقـدٌ مستكبـرُ القسمـات والعِرْنيـنِ
في خده شجٌ ترى من خلفهِ نـفسًا معقـدةً وقـلب لـعين[1]
متعطش للسوء في الدم والغِ في الشرِّ منقوع به معجـونِ

---

(١) الراجح من مذهب أهل السنة والجماعة عدم نسبة المعين إلى اللعن ما دام في دار الدنيا ، ولا يعلم أحد بمَ خُتم له بالإسلام أم بغيره .

ومن اشتكى الظلم وآثار التعذيب في المحاكم الصورية :

سيعود للحربي يأخذ حظَّه وجزاءَه الأوفى من البسيوني

ويقول القرضاوي :

أنا إن نسيتُ فلستُ أنسى ليلةً في ساحة الحربي ذاتَ شجونِ
عدنا المساء من المحاكمة التي كانت فصول فكاهة ومجونِ
ما كاد يعرونا الكرى حتى دعا داعي الردى وكفاك صوت أمينِ[1]
وإذا بقائدنا المظفر حمزة في عسكرٍ شاكي السلاح حصينِ
حشد الجنودَ وصفّها بمهارةٍ وكأنه عمرو بأجنادينِ
وأحاطنا ببنادقٍ ومدافعٍ فغرت لنا فاها كفي التنينِ
طابور تكدير ثقيل مرهق في وقت أحلام وآن سكونِ
نعدو كما تعدو الظباءُ يسوقُنا لَهَبُ السياطِ شكتْ من التسخينِ
ومضتْ علينا ساعتان وكلنا عرق تصبّب مِثل فيضِ عيونِ
من خرّ إغماءً يفقْ عَجَلًا على ضربات صوت للعذاب مهينِ
ومن ارتمى في الأرض من شيخوخةٍ أو علّةٍ داسوه دَوْس الطينِ
لم يكفِ حمزةَ كلُّ ما نُوِّنا بهِ من فرط إعياءٍ ومِنْ تهوينِ
فأتى يوزع بالمفرَّق دفعةً بالسوط من عشرين للخمسينِ
كلٌّ ينالُ نصيبه بنزاهةٍ في العد والإتقانِ والتحسينِ
وإذا نسيتُ فلستُ أنسى خطبة ما زال صوت خطيبها يشجيني
إذ قال حمزة وهو منتفخٌ فَلَمْ يترك لفرعونٍ ولا قارونِ
أين الألى اصطنعوا البطولة وادّعَوْا أني أعذبهم هنا بسجوني ؟!
أظننتمو هذا يخفف عنكمُ كلّا فأمركمُ انتهى وسلوني
أم تحسبون كلام ألفٍ منكمُ عنكم وعن تعذيبكمْ يثنيني ؟
إني هنا القانون أعلى سلطةٍ من ذا يحاسب سلطة القانونِ

(١) أمين السيد رقيب أول السجن الحربي ، كانت في يده سلطات مطلقة ، ويستطيع أن يعذب إلى حد الموت ، وكان يرى نفسه كأنه أحد قادة الثورة .

متفرد في الحكم دون معقبٍ ... من ذا يخالفني ومن يعصيني ؟
فإذا أردتُ وهبتكم حريةً ... أو شئت ذقتم من عذابي الهونِ
من منكمُ سامحته فبرحمتي ... وإذا أبيت فذاك طوع يميني
ومن ابتغى موتًا فها عندي له ... موتٌ بلا غسل ولا تكفينِ !!

هذا الزنديق ؛ قال مرة للإسلاميين أثناء تعذيبهم : هاتوا لي ربكم وأنا أضعه في الحديد .. أحطه في زنزانة .

فماذا كان جزاؤه ؟

أماته الله شر ميتة ..

حيث صدم بسيارته شاحنة كبيرة من الخلف محملة بأسياخ الحديد ، فدخلت الأسياخ في جسمه ، وأخذ يصيح ، ولا منقذ ، واجتمع الناس من حوله في طريق الإسكندرية - القاهرة[1] .

جزاءً وفاقًا .. حديد بحديد .

والجزاء من جنس العمل .

ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

○ صاحب الكامب ○

في يوم عرفة عام ١٣٩٧ هجرية السبت في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ تحرك أحد أفراد هذه الأمة إلى أرض فلسطين المغتصبة ، والتقى في موكب من الحفاوة مع شعب صهيون[2] .. ؛ ليخدع من يخدع بسلام الذلّ .

مَضَيْتَ ! وأشلاءُ الأباةِ تَبَعْثَرَتْ ... ودُنْيا المروءاتِ اسْتَذَلَّتْ لفاجرِ

---

(١) انظر التعليق على ديوان نفحات ولفحات للقرضاوي .

(٢) من ديوان الأرض المباركة ، لعدنان النحوي .

مَضَيْتَ وإنْ كادتْ خُطاكَ لتَستَحي وتَرْجعُ عن غَيّ الذليلِ المكابِرِ
فأقحمتها هَوْلَ الدّنايا وصَفَّقَتْ إليكَ أكُفُّ السَّاقِطَاتِ الفواجِرِ
تمرُّ على الأمجادِ رِعْشَةُ ذِلَّةٍ فَتَغْمِضُ من أَجْفَانِها والمَحَاجِرِ
وتُغْضِي وأصداءُ الجراحِ حبيسةٌ تموتُ على أصداءِ طَعْنَةِ غادِرِ
أأشْفَقْتَ أنْ تَبْقَى ثُكَالَاكَ بالأسى ودمع اليتامى بين خَدٍّ وناظرِ
وما أَشْفَقَتْ صهيون كلُّ ربوعِها ثكالى وأيتام وفيض مجازرِ
فيا حسرتاه كيف لم يُشْفِقِ النُّهى على شَرَفٍ دامٍ وعرضٍ حرائرِ
على القُدْس جلبابُ الظلامِ يلفُّها وأمجادُها منثورةٌ كالجواهرِ
على كل شبرٍ من فلسطينَ لم يَكُنْ سوى نفحاتٍ من أبيٍّ وصابرِ
سوى خفقاتِ الوحي يُندى رُبُوعَها ويسكبُ من فَيضٍ وتَهمي بعاطرِ
على أمَّةٍ ما أخرجَ اللهُ مثلهَا إلى الناس أنوارًا وطيبَ مآثرِ
فما كان إبراهيمُ إلا مصدِّقًا بأحمدَ بَرا عاطرًا بالبشائرِ
ورتَّلَها داودُ نفحَ نُبُوَّةٍ ورَجَّعَ تَحْنَانًا وخَفْقَ مَزَامِرِ
وصانَ سليمانُ الحكيمُ أمانةً لأحمدَ يُوفيهَا نَديَّةَ شَاكِرِ
أولئك ما ساسوا الديارَ بِعِرْقِهم ولا ملكوها جاهليةَ سادرِ
ولكنها كانت صَفِيَّ أمانةٍ وعهدًا يُؤَدَّى بَعْدَ حينٍ لقادرِ
ورَفَّت على عيسى النبوةُ والتقت على ساحةِ الأقصى شُغوفُ بصائرِ
فأمَّهُمُ المختارُ أحمدُ سيِّدًا ليجمع من ماضٍ زكي وحاضِرِ
ويُمضي على الأيام دعوة ربِّهِ جهادَ ميامينٍ ونفحَ أزاهرِ
وتتصل الأزمانُ بينَ طيوفِها نبوةُ إسلامٍ وصدقُ أواصرِ
ويصبح للإسلام مُلكُ ربوعِها وعهدًا أمينًا لا يُرَدُّ لفاجرِ
فذلك إرثُ الأنبياءِ ديارُهُم مرابع توحيدٍ وخَفقُ منابرِ

* * *

فوا أسفا أن ضيع العهدَ جاهلٌ وغيبّه في سادراتِ الدياجرِ
ومزقَ ميثاقَ النبوةِ كُلها وألْقى به كِبْرُ الشقيِّ المغامرِ

رَحَلْتَ وفي كفيِّكَ غصَّةُ أمةٍ ... وأشلاءُ تاريخ وبَحَّةُ زاجـرِ
حملتَ لهم غُصنًا فأين اخضرارُه ... وقد ذَوَّبَتْهُ قانيـاتُ الجرائـرِ
وأي هَدِيلٍ للحمامِ إذا نَزَتْ ... عليه شِفَارٌ من وَمِيضِ البوَاترِ
وأي سلامٍ تَرْتجيه إذا انحنتْ ... على قدمٍ هامٌ ورعْشَةُ صاغرِ
فَبِعْتَ لهم دارًا وأيْكًا وساحةً ... وملعبَ أمجادٍ وحرقةَ صابرِ
وبعت لهم شعبًا وتاريخَ أمَّةٍ ... وزهوًا تهاوى تحت نَزْوةِ خائرِ

* * *

فأيّ يدٍ صافحتَ ؟! ملءُ بطونِها ... مذابحُ أدمتْ كلَّ قلبٍ وخاطرِ
أكَفُّ مَنَاجِيم ؟! أظافِرَ تَغْلَب ... ومديةَ جَزَّارٍ وحِقْدَ مُجَاهِـرِ
أصافَحْتَها ؟! والرِّجْسُ بَيْنَ عُرُوقِها ... تدفّق أمواج الخَطَايا الزواخِرِ
تصافَحْتُما والدّيْرُ مازال نازِفًا ... على غاضب بين النجيع وفائِرِ
تصافحتما ؟! بين ابتسامة مجرمٍ ... عَتيٍّ وكيدٍ من غويٍّ مُحَاذِرِ
فيا ديرَ ياسيـنٍ أطِـلَّ بلَعْنَـةٍ ... تزلزل أقدامَ الطغاةِ الجبابـر
فيأيها الأقصى أنينُكَ مُوجِـعٌ ... حنينُكَ أصداءُ العصورِ الغوابر
وشوقُك ذوبُ الخالياتِ من الرؤى ... لِرَنَّـةِ أنصال وَوَقْـعِ حَوَافِـرِ
وخفقةِ رايـاتٍ وعِـزَّةِ فاتـحٍ ... يموجُ صداها في دويِّ الحناجرِ
عَصَرْتَ غَنِيَّ الذكرياتِ بدمعةٍ ... على هُدُبٍ تُغْضِي ونَوْح سَرَائرِ
فيا عمرُ الفاروقُ أين صدى الخُطَى ... إلى المسجد الأقصى وإشراقُ زائرِ
وأين طيوفُ المجدِ حولك والتُّقَى ... وأنداؤه رَفَّتْ على كلِّ زاهِرِ
تواضعتَ ما غَضَّ الإباءُ جفونَه ... عَدَلْتَ فما ذَلّت طُيوف منائرِ
وَهَبْتَ وما ضَيَّعْت حَقًّا لخالقٍ ... عَفَوْت وفي كفيك عِزَّةُ ظافرِ
وجَمَّعْتَ أشتاتَ الأمانة كلها ... ونظمتها عِقْدًا كريمَ الجواهرِ[1]

---

(١) ديوان الأرض المباركة وقصيدة بعنوان رحلة ص١٩٥ - ٢٠١ والديوان لعدنان النحوى ، المكتب الإسلامي.

ويقول شاعر آخر :

يا لعـــارٍ أنت عنـــوانٌ لــــه	في رُبا الأقصى تحيّي المجرمَا
أيها الذاهلُ ماذا قد دهـاكَ	تمنـحُ الأعـداءَ روحًـا ودمًـا
كيف تـرضاه إخـاءً خـاسرًا	تزرعُ الشوكَ ، ونجني العلقما[1]

وفي كامب العار ، وفي مستنقع الكامب تم سلام الذل ، ويا للسخرية ، حين يشبهونه بصلح الحديبية !! الذي سماه الله فتحًا مبينًا ، فأي خداع للمسلمين وأي سخرية فوق هذه ؟

الذي تطاول استكبارًا كيف يتمرغ هنا في وَحْل الكامب ؟!!

كـلُّ ساداتِـهِ مطايـا عبيـدِ	راضها السوطُ تحت شدِّ الرحالِ
أين يا كامبُ هل رأيت رجالًا	حملتْ فيكَ خصلةً من رجال
الليالي الحمراءُ لم تُخْفِ سُودًا	من نفوسٍ وظلمةٍ من فعالِ
الذليـل الـذي يقـود خطاهـا	بين عضِّ الحديدِ والأثقـالِ
بين بيجن وكرترٍ رعشةُ الخو	فِ رمته وذِلّـةٌ مـن سؤالِ
بعْثُكُم نفحة البراق وهذا القد	سَ ونفحَ العصورِ والأجيـالِ
وطيـوف التاريخ والشرف الحـقَّ	وزهـــوَ الجهـــاد والآمـــالِ
والميادينَ والقنـا ودِمَـــاءً	فجّرتهـــا أسنّـــةُ الأبطـــالِ
كلُّ صوت قَتَلْتُهُ في حلوقٍ	رجـفت بيـن بَحَّةٍ وابتهـالِ
فضعوا في فمي الكلامَ لعلّي	أصنع السِّلْمَ من بديعِ مقالِ
إن خلفي كما علمتم شعوبًا	بيـن آذانهـا قلوبُ الرجـالِ
أين هذا السلام يصنع فيه الـ	ـموتُ والشركُ رعشةَ الإذلالِ
والشياطيـنُ تنفثُ الشرَّ فيـه	نافـراتٍ بمكرهـا القتّـالِ
والخفافيش بين تلك الزوايـا	راعشاتٌ يَخْفِنَ ومضَ نصالِ

---

(١) في رحاب الأقصى يوسف العظم ص٢٦٨ ، طبع المكتب الإسلامي .

يا عـدوَّ السلام أيُّ سلام ترتجيـه هنـاك أيُّ نـوالِ
نفـرت روحُـك الخبيثـةُ للـذُّلِّ علـى مرتـع وخيـم بالـي
مرتعِ الكفرِ حين واليت أعدا ءً وأدبـرتَ سادر الإدلالِ

ولما عارضه الأحناف استكبر وعتا ، وتوعدهم وتهددهم ... بل وسخر من سنن الإسلام ، فيصف النقاب بأنه : خيمة .

ويهـزأ بالحرائـرِ بالنِّقـابِ وقـد لَبِسَتْـهُ أُمُّ المؤمنينَـا
فلستم للنقَابِ وليس مِنْكُـمْ فذا شرفٌ لسَكَنِ الطاهرينـا
وما عرف العفافُ لكمْ طريقًا وفاح الطهر من بيت السجينَا

عتا وعتا ، وسخر من الدعاة ، ونادى نفسه برب العائلة .

لئن قالها الطاغوت ربٌّ وعائل فقد قالها فرعونُ ربكُمُ الأعلى
فما الفرق بين القالتين كما ترى سوى بين أعلى عائل فارجع القولا

وفتح السجون على مصراعيها ، وقذف في أتونها بالدعاة والشباب ، وكم أبكى عيون أمهات في يوم التروية ، فأبكى الله عيون بنيه في يوم العيد ، والجزاء من جنس العمل .

مكر بالناس فى سلامه المزيف ، فمكر به وهو في يوم زينته ووسط حشوده وعتاده ، آمنَ ما يكون ، هذا الذي تطاول ذلّ ، والجزاء من جنس العمل .

سَجِّلْ بكفك في القرطاس ما كتبتْ كِلْتَا يديك به أمسيت مرهونًا

يقول الشاعر :

ماذا تقول إذا سُئلت عن الأُلَى ضيّعت مجدَهُمُ بكاسبِ العارِ ؟
ماذا إذا الملكانِ قال كلاهما مَنْ عطّل التشريعَ في الأمصارِ ؟
ماذا إذا الملكانِ قال كلاهما ماذا صنعت بشرعة المختار ؟
ما ذنب من قال الجهاد سبيلنا أَوْ ما جنايةُ قانتِ الأسحارِ ؟
ماذا جنى الطفل الرضيع تروعُهُ والباكيات ودَمْعُهن الجارِي ؟
كم فُزّعت أمٌّ بجرٍّ وليدها جر الذبيحة في يد الجزارِ ؟

كم حرةٍ رِيعتْ بخطفِ حَلِيلها ؟ كم حرمةٍ ديست بكل حقار ؟
كم زائرٍ في الفجر روّع آمنًا ؟ ما أقبح السفهاء من زوّار!
أوليس للدور المصونة حرمةٌ في شرعةِ الأنـذالِ والأشرارِ؟
كم محنة يا مصر قد عاينتها من طيش مجنون وبطش تتارِ ؟
نبشوا بيوت الصالحين ودورهم عبثـوا بكـل صحيفــة وإزارِ
كادوا يشقون القلوب ليعرفوا بين الشغافِ مواطـنَ الأسرارِ

وكم تكلم في أعراض الناس بالباطل ، واتهم العفيفات من المنتقبات ، فجوزي بنقيض قصده ، وتكلموا فيه وفي عرضه ، وصار مادحه ذامًّا في نفس جرائد إعلامه ، والجزاء من جنس العمل .

* * *

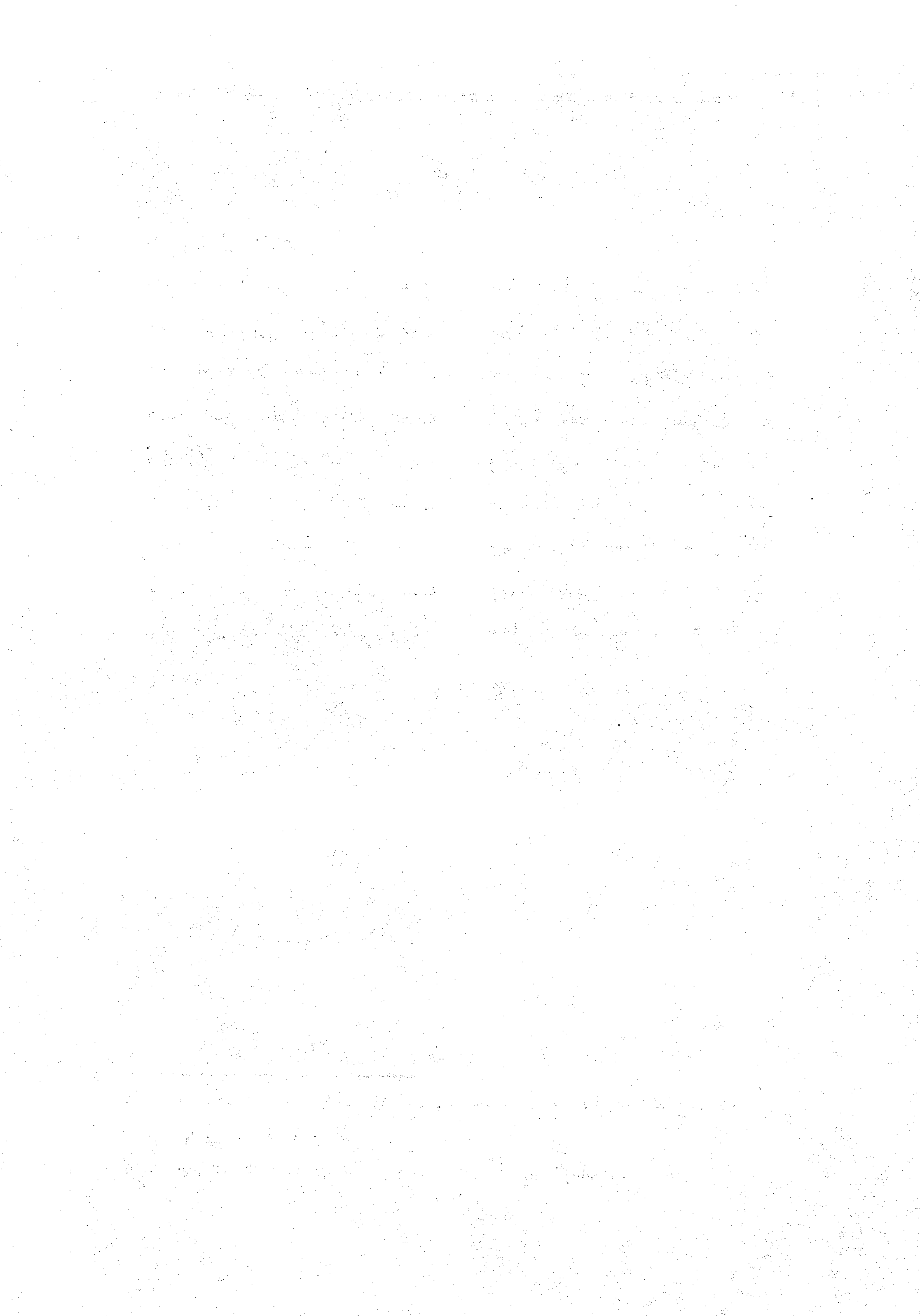
○ قصيدة ○

ويقول الشاعر :

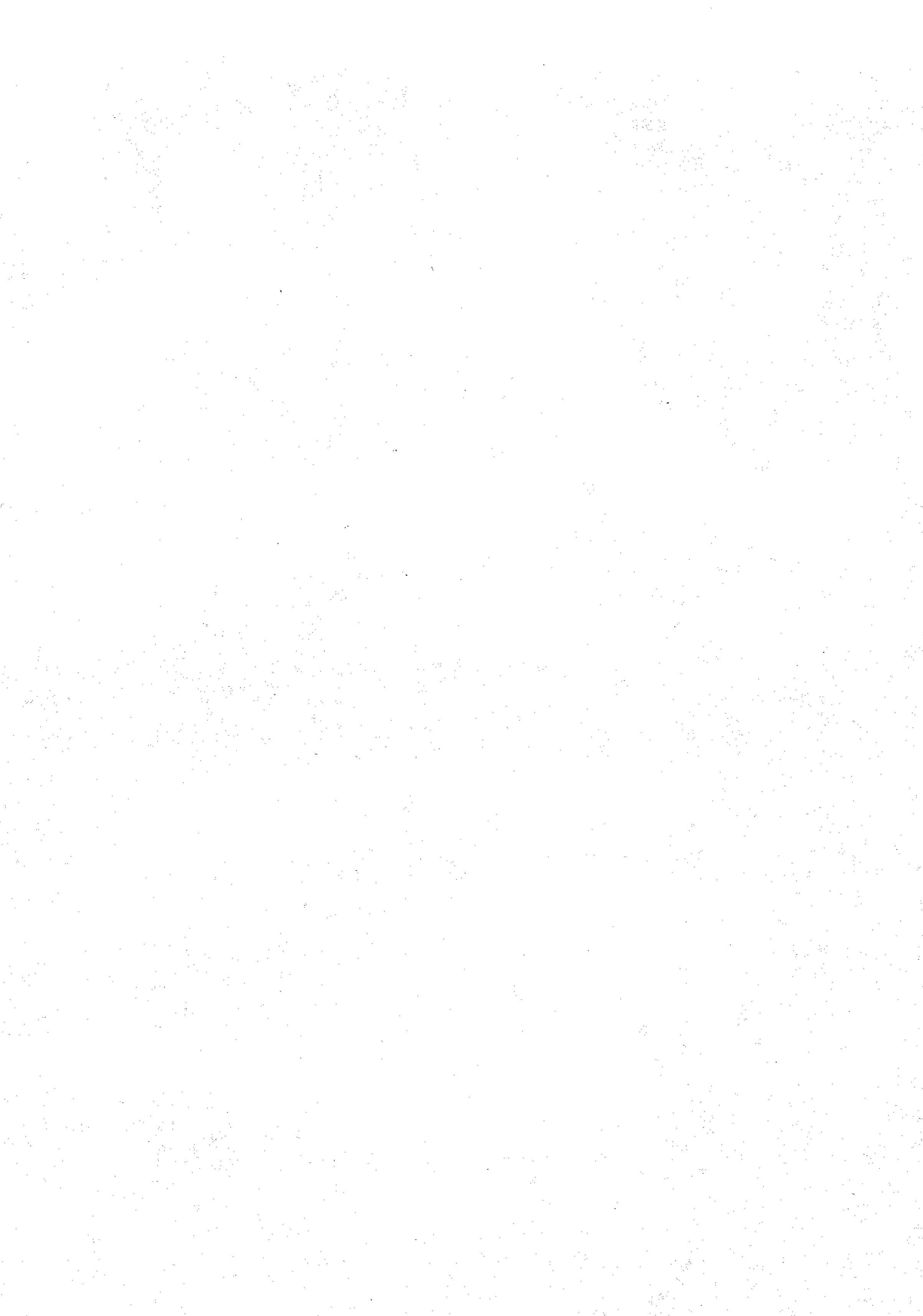
لئن قالها الطاغوت ربٌّ وعائلٌ ... فقد قالها فرعون ربكمُ الأعلى
فما الفرق بين القالتين كما ترى ... سوى بين أعلى عائل فارجع القولَا
وما الفرق بين المصرعين كما ترى ... سوى بين غرقى كلهم سكن الوحْلَا
فهذا أسيرُ الجزر والمد والعصا ... ودعوة مظلوم قد انسربت ليلَا
وخيلٌ غريقٌ يستجير بربِّه ... ورُبَّ غريقٍ مات يستنجدِ الخيلَا
ألم جميل[1] ما على الدهر عاتبٌ ... فيومًا لنا العليا ويومًا لنا السفلىٰ
ويومًا[2] نهزّ العرش عزمًا وعزّة ... ويومًا نروم القاعَ نلتمس الظلَّا
ويومًا يذيقُ الله فرعونَ نعمةً ... ويوما يذيق الله فرعوننا الذلا
ولم يزلِ الإسلام تمضي ركابُه ... وما زال دينُ الله دومًا هو الأعلى

* * *

(١) لا نحكم على معين بالكفر إلا بعد قيام الحجة عليه من قبل عالم ممكن ، ولكن نشبهها بها في شناعة ما جاءت به .
(٢) أيام أن كان كبار الرجال ينحنون أمامها ثم دار الزمان وتغير الحال .



الأدب والبرّ



□ الأدب والبرّ □

الأدب .. قوام هذا الدين ، وأدب العلم أكثر من العلم .

قال ابن المبارك : إذا وصف لي رجلٌ له علم الأولين والآخرين ، لا أتأسف على فوت لقائه ، وإذا سمعت رجلًا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتاسف على فوته .

وقال : لا ينبل الرجل بنوع من العلم ، ما لم يزين علمه بالأدب .

وروي عنه : طلبت العلم فأصبت فيه شيئًا ، وطلبت الأدب فإذا أهله قد ماتوا[١] .

وقال – رحمه الله – : طلبنا الأدب حينما فاتنا المؤدبون .

وقال : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منًّا إلى كثير من العلم .

اعلم يا أخي .. من أساء الأدب على الباب ، رُدَّ إلى سياسة الدوابّ[٢]

○ الأدب مع الله عز وجل ○

يرحم الله من قال : من صاحب الملوك بلا أدب ، جرَّه ذلك إلى الهلاك والعطب .

وليس كأدب الأنبياء مع مولاهم ..

فانظر إلى سيدهم ، وسيد ولد آدم ، رسول الله ﷺ يقول عنه ربه : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ [النجم : ١٧] .

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣ / ٥٥٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

قال ابن القيم :

إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ، إذ لم يلتفت جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب ، والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلع أمام المنظور ، فالالتفات زيغ ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة ، فكمال إقبال الناظر على المنظور ألَّا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يتجاوزه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ ، تواطأ هناك بصره وبصيرته ، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته ، فهو أيضا حق مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى** ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره[1] .

فهذا رسولنا ﷺ لما تأدب مع الله عز وجل ، ووقف عند حده رفعه الله رفعة ما بعدها رفعة ، فأعطاه الله المقام المحمود .

أُفق وضيء طليق مرفرف عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصره ..

هي لحظات خصّ بها القلب المصفى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته ، وكله شوق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

من تواضع لله رفعه . لمّا تأدب بصر نبينا ﷺ أثنى الله عليه ، ويسجل هذا في الكتاب الخالد ، وهل بعد هذا من جزاء ؟!!

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، الذي جاء ربه بقلب سليم .

---

(١) مدارج السالكين (٣٨٢/٢) .

عن ابن عباس أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قالوا : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[1] [آل عمران : ١٧٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « لما ألقي إبراهيم - عليه السلام - في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

هذا الذي لم يتزود إلا التسليم ، قال الله تعالى للنار : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

فلما رأينا محبا في بيداء الوجد يهيم : ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

قال السدي : كان معه في النار مَلَك الظل .

لم يلتفت إبراهيم حتى إلى جبريل ، وسلّم لله ، فاستحق أن يكون خليلًا للرحمٰن . وهمّ بذبح ولده ، وآثر الله على من سواه ، فآثره الله على من سواه .

وتعالَ أخي .. إلى العلماء الذين تأدبوا مع ربهم ، وخافوه ، وما خافوا سواه .

من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وقره الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

انظر إلى الحافظ الصادق القدوة العابد ، عبد الغني المقدسي الذي كان لا يصبر على إنكار المنكر إذا رآه .

ذكر أن العادل حاكم مصر قال : ما خفت من أحد ، ما خفت من هذا . فقلنا : أيها الملك ، هذا رجل فقيه . قال : لمّا دخل ما خُيل إليّ إلا أنه

---

(١) رواه البخاري .

سبع[١] .

قال أبو بكر بن أحمد الطحان : كان بعض أولاد صلاح الدين ، قد عملت لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ عبد الغني الطنابير فكسرها ، قال : فحدثني الحافظ قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عصيّ فخففت المشي ، وجعلت أقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فلما صرت على الجسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل وقبل يديّ . وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[٢] .

لمّا هابوا الله وحده هابتهم الملوك .

انظر إلى الإمام الحسن البصري.

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيت فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلم ثم جلس معظما لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إليّ كتبًا أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير ، فتكلم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده - أي يريد إرضاءه - فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد . قال : أقول يابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله ، فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٤ -٤٥٥) .

أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو ابن هبيرة ، إني أخوفك مقامًا خوفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ [إبراهيم : ١٤] يا عمرو بن هبيرة ، إنك إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك يزيد بن عبد الملك ، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعبرته ، فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما فأكثر في جائزة الحسن ، وأنقص جائزة الشعبي ، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته ، ولكن أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه(١) .

وانظر إلى ابن أبي ذئب ، عالم المدينة .

لما حج المهدي ، دخل مسجد النبي ﷺ ، فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال ابن أبي ذئب : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دعه ، فلقد قامت كل شعرة في رأسي(٢) .

وهذا عليان ، وكانوا يعدونه من مجانين الكوفة . وما هو بذلك ، إنما هو من عبادها.

يقول له المأمون : يا عليان هل من حاجة فأقضيها ؟ قال : نعم ، أريد أن تنسىء في أجلي ، وتتجاوز عن سيئاتي ، وتغفر لي خطيئتي . فبكى المأمون ، وقال : يا عليان ليس هذا إليّ ، أنا لا أقدر أستخلصه لنفسي ، فكيف أستخلصه لك ؟ قال عليان : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يجعل أحدًا فوقك

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص ٧٧ تأليف أحمد رضوان أبي الخير .

(٢) مواعظ ومواقف ص ١٠٥ .

في عصرنا ، فيجب عليك ألا يكون أحد أطوع لله منك . فقال له : عظنا يرحمك الله . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أكرمك بما أكرمك به يحب أن تحب له ما أحب ، وتبغض له ما أبغض ، فوالله ، لقد أحب دارًا أبغضتَها وأبغضَ دارًا أحببتها ، كأنما أردت خلاف ربك ، أو أردت سواه ، فاعلم يا أمير المؤمنين ، أن الذي في يديك لو بقي على من كان قبلك إذًا لما صار إليك ، وهكذا هو صائر إلى من بعدك ، فاتقِ الله في خلافتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أمته . فبكى المأمون ثم أمر أن يحشى فمه درّا وياقوتا ، فقال له : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : فأعفاه ثم خرج من عنده ، فقيل له : لِمَ لمْ تقبل جوائز أمير المؤمنين ؟ قال : خشيت أن أمنع جوائز رب العالمين . ثم ولي وهو يقول :

كم ملوك عن الدار تفانوا ... وخلت منهمُ هناك البيوتُ
فسلِ الربع والمنازل عنهم ... هل تُنبِّيكَ عنهمُ أم سكوتُ
حب من شئت فهْو بالموت فانٍ ... غير أني أحببت من لا يموت(١)

وانظر إلى المحدث الزاهد . شيخ الإسلام بنان الحمال .

امتحن في ذات الله ، فصبر ، وارتفع شأنه ..

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر ، حكاية بنان الحمال ، وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يلقى بين يدي السبع ، قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمك؟ قال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها. ثم ضُرب سبع دِرر .

ذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن القاضي أبا عبيد الله ، احتال على بُنان حتى ضربه سبع درر ، فقال : حبسك الله بكل درة سنة . فحبسه ابن طولون سبع سنين .

والجزاء من جنس العمل(٢) .

---

(١) مواعظ ومواقف ص١٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٨٩) ، البداية والنهاية (١١ / ١٥٨ - ١٥٩) .

وانظر يرحمك الله إلى سلطان العلماء العز بن عبد السلام .

قال الشيخ الباجي : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان أيوب الملك الصالح ، في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى ذلك ؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعم هذه المملكة . يناديه هكذا بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ [الزخرف : ٢٢] فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة ، قال الباجي : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع الخبر : يا سيدي كيف الحال ؟ فقال : رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه : فقلت : يا سيدي أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدّامي كالقط .

وقد توفي – رحمه الله – في عهد الظاهر بيبرس ، ولما مرت الجنازة تحت القلعة ، وشاهد كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصه : اليوم استقرَّ أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه ، لانتزع الملك مني[١] .

وانظر يا أخي ، إلى هذا الشيخ الذي ذكر دينه ، ونسي دنياه إلى الشيخ حسن العدوي .

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا ، كان إسماعيل حفيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ،

---

(١) مواعظ ومواقف ص ١٥٥ - ١٥٦ .

مع عدة امتيازات في نظام الحكم بمصر ، وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي ، ولما كانت للمقابلة السَّنِيَّة تقاليد ، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتما على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، حتى لا يخطئوا في حضرة السلطان ، وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء ، فنسوا دينهم واشتروا دنياهم ، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا موجهين وجوههم إلى الخليفة كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا وهو حسن العدوي ، استحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ؛ دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ، والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس وأُسْقِط في يد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا ، ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدى ، فلابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما نَبعت من مكمنها قوية حارة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلع عليه دون سواه(١).

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

« إذا خاف الله العبدُ » قدم المفعول ؛ اهتماما بالخوف ، وحثًّا عليه ، « أخاف الله منه كلَّ شيء » من المخلوقات ، « وإذا لم يخفِ العبدُ اللَّهَ ، أخافه الله من كل شيء » ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان ، فكما شهد الحق بالتعظيم ، ولم يتعد حقوق الحكيم ، ألبسه الهيبة ، فهابه الخلق بأسرهم ، وحكم عكسه عكس حكمه(٢).

---

(١) مواعظ ومواقف ١٥٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (١/٣٣٢).

○ الأدب مع الأنبياء ○

يقول ابن القيم :

انظر إلى أدب الصديق - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه ، فقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ . كيف أورثته مقامه ، والإمامة بعده ؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك - جَمْزًا ، وسعيا إلى قدام .

فبكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي ، والله أعلم[١] .

والجزاء من جنس العمل ..

وانظر إلى أدب أمين هذه الأمة : أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - في يوم أحد ..

يقول الصديق : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل الله دونه ، وأراه قال : حمية ، قال : فقلت : كُنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إليّ ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المِغْفَرِ ، قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبكما » . يريد طلحة وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذاك من وجهه فقال : أقسم عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزم عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٩١ - ٣٩٢) .

صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثلما فعل في المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه - من أحسن الناس هتما .

انظر أدب أمين هذه الأمة ، لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه ،.. فماذا كان جزاء هذا الفم الطيب ؟

يقول الذهبي : ما رئي هَتْم قط ، أحسن من هتم أبي عبيدة . انقلعت ثنيتاه فحسن ثغره بذهابهما[1] .. فأصبح ثغره بعد الهتم أفضل منه قبل ذلك ..

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى أدب طلحة الخير ، طلحة بن عبيد الله ، أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أحد .

قال ابن إسحٰق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ؛ ليعلوها ، وكان قد بدّن[2] ، وظاهر بين درعين[3] ، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى عليها .

فكان ثواب طلحة الخير ، على هذا العمل الجليل الجنة ، فقد روى ابن إسحٰق أن النبي - ﷺ - قال : بعد أن حمله طلحة إلى الصخرة - : « أوجب طلحة » .

كما أن نهوض طلحة بالنبي ﷺ كان بركة عليه ، أو تسبب ذلك في علاج إحدى رجلي طلحة من العرج الذي أصابها أثناء دفاعه عن النبي ﷺ بعد النكسة .

---

(١) البداية والنهاية (٥ / ٣١) ، سير أعلام النبلاء (١ / ٨) .
(٢) ضعف وأسن .
(٣) لبس درعًا فوق درع .

وذلك أن طلحة عندما حمل النبي ﷺ تكلف استقامة المشي ؛ لئلا يشق على النبي ﷺ فاستوت رجله العرجاء ، لهذا التكلف ، فشفي من العرج ، ويظهر أن سبب العرج الذي أصاب طلحة انفراط في الورك ، وهذا الانفراط يسبب قصرًا في الرجل ، ولا يزول هذا إلا بعد عودة ما انفرط إلى مكانه ، وهذا لا يعود إلى مكانه إلا بعملية شد عنيفة تعيد العضو المفروط إلى مكانه ، ولكن تكلف استقامة المشي ناب عن هذه العملية ، فعادت الورك إلى حالتها الطبيعية[1] .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رفع النبي ﷺ رفع عنه العرج .

وانظر إلى صِدِّيق الأنصار .. سعد بن معاذ - رضي الله عنه - لما تأدب مع النبي ﷺ أثناء الحكم .. كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟! .

لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ، قال له النبي ﷺ : « احكم فيهم يا سعد » . فقال إن رسول الله ﷺ أحق بالحكم . فقال ﷺ : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » .

غير أن سعدًا - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحب أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد الأوسِ وبني قريظة ، بأن حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش .

فقد وقف الحَكم الشاب الجريح سعد بن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجه حديثه إلى قومه الأوس خاصة ، وإلى مَنْ في المعسكر عامة قائلًا : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام : «نعم»[2]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في

---

(١) سلسلة معارك الإسلام لباشميل معركة أحد ١٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٠) .

المعسكر ، ليستوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم .

فحكم أن تقتل المقاتِلَة ، وأن تُسْبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم .

ولما نطق سعد بن معاذ بالحكم قال له النبي ﷺ : « حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات » .

وعند البخاري : أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ، فنزلوا على حكم ، فردّ الحكم إلى سعد بن معاذ .

انظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

سعد بن معاذ ، الذي يقول ابن كثير في البداية والنهاية : إنه أُتي به على حمار ، عليه إكاف من ليف ، قد حمل عليه ، وحفّ به قومه - الأوس - فقالوا : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولَّاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذَه في الله لومة لائم .

أدب رفيع من سعد أثناء الحكم ، وفي الحكم ، فجازاه الله من جنس عمله ، بأن رفع حكمه هذا ، وجعله حكمَ الله من فوق سبع سموات .

وانظر إلى أدب خطيب الأنصار ، ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ لما نزل قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »[1] .

---

(١) رواه البخاري .

روى الإمام أحمد ، عن أنس : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ... ﴾ الآية [الحجرات : ٢] وكان ثابت بن قيس الشماس رفيع الصوت ، فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزينا ، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا،هو من أهل الجنة » .

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه فقال : بئسما تعودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل[1] .

وعند ابن جرير : أن ثابتًا قال لرسول الله ﷺ لما أتاه : أنا صيِّت ، وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول** ﴾ [الحجرات : ٢] فقال له النبي ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة ؟ » . فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله ، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله ﷺ .

هذا الذي بكى ، وخاف من علو صوته – وقد جبله الله كذلك – على صوت رسول الله ﷺ ، وخاف وظن أنه من أهل النار ، فبشره الرسول ﷺ بالشهادة والجنة .

وقصة ثابت وسلب درعه مشهورة : إذ إنه بعد أن قتل ، أتى رجلًا من المسلمين في المنام وقال : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيع ،

(١) رواه أحمد في المسند .

إني لما قتلت أمس ، مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن في طِوَله ، وقد كفأ على الدرع برمة ، وفوق البرمة رحل .. ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت[١] .

فكان جزاء هذا الصوت ، الذي لم يرتفع على صوت النبي ﷺ ، أن يوقر ، وأن يسمع له ، ولو بعد موته .

والجزاء من جنس العمل .

إمام دار الهجرة مالك بن أنس ..

أما أدب مالك بن أنس – رحمه الله – إمام دار الهجرة ، مع رسولنا ﷺ – فإنه ما كان يُحدث حديث رسول الله ﷺ إلا على وضوء ، وما كان – رحمه الله – يركب دابة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دفن فيها رسول الله ﷺ . فوقره الناس حتى يقول أمير المدينة : لحملي غبار العقيق أهون عليّ من لقاء مالك .

وفي مالك قيل :

يَدعُ الجوابَ فلا يُراجعُ هيبةً والسائلون نـواكسُ الأذقـانِ
نور الوقار وعز سلطان التقى فهو المهِيبُ وليس ذا سلطانِ

تأدب مع النبي ﷺ فتأدب معه الناس ..

والجزاء من جنس العمل .

○ الأدب مع العلماء ○

يقول ابن جماعة الكناني : ليعلم طالب العلم أن ذله لشيخه عز ، وأن خضوعه له فخر ، وتواضعه له رفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٦١٢٦) .

الإجلال ، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علمه مني[١] .

ولننظر إلى ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - وإلى أدبه مع العلماء ..

عن الشعبي - رحمه الله - قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه ، فقال له زيد : خلِّ عنه يا بن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذللت متعلما فعززت عالما .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر إلى أدب مجاهد وعكرمة معه .

ولننظر إلى أدب الشافعي - رحمه الله - وليس كالشافعي في الأدب مع شيوخه .

يقال : إن الشافعي عوتب على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تُكْرِمَ النفس التي لا تهينها[٢]

وقال الشافعي : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا هيبة له ؛ لئلا يسمع وقعها[٣] .

فلما تأدب الشافعي مع شيخه تأدب معه تلميذه الربيع بن سليمان ، فكان يقول : والله ما اجترأت أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبة له[٤] .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص٨٧ .

(٢) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) المجموع (١ / ٣٦) .

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٢٦) .

لسان حاله يقول :

طهرتمْ فَطُهِّرْنا بفاضِلِ طُهْركم وطبتمْ فمن أنفاسِ طيبكم طِبْنا

وانظر إلى أدب إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل مع شيوخه :

عن عمرو الناقد قال : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت: يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يحترمك فمالك لا تتكلم ؟ قال : وإن كان يكرمني فينبغي لي أن أجله .

قال قتيبة بن سعيد : قدمت بغداد ، وما كان لي همة إلا أن ألقى أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيى بن معين ، فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل ، وجلس بين يدي وقال : أمل عليّ هذا ، ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يدي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، اجلس مكانك ، فقال : لا تشتغل بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

قال إسحٰق الشهيد : كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة المسجد ، فيقف بين يديه عليّ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وغيرهم يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم اجلس ، ولا يجلسون هيبة وإعظامًا .

قال خلف : جاءني أحمد بن حنبل ، يسمع حديث أبي عوانة ، فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه(١) .

وكان جزاؤه من جنس عمله ، تأدب مع شيوخه ، فتأدب معه ، وهابه تلامذته ..

يقول أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ، ومحمد بن

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٨٢ ، ٨٣ .

الحسن ، ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن به مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ، ما هبت أحمد بن حنبل[١] .

وقال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وانظر إلى أبي بكر المروزي تلميذه ، وكان خصيصا بخدمة أحمد ، وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، خرج المروزي يومًا إلى الغزو ، فشيعه الناس إلى سامرا ، فجعل يردهم فلا يرجعون ، قال : فحزروا ، فإذا هم بسامرا سوى من رجع نحوًا من خمسين ألف إنسان ، فقيل له : يا أبا بكر احمد الله ، فهذا علم قد نشر عليك ، قال : فبكى ثم قال : ليس هذا العلم ، وإنما هذا علم أحمد بن حنبل .

قال إبراهيم الحربي لعبد الله بن الإمام أحمد : والله لو رأى ابن عيينة أباك لقام إليه .

وقال الحربي : يقول الناس لأحمد بن حنبل بالتوهم ، والله ، ما أجد لأحد من التابعين عليه مزية ، ولا أعرف أحدًا يقدر قدره ، ولا يُعرف لأحد من الإسلام محله ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاء ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاة في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس ، ولقد كان يقدم أئمة الإسلام ، والعلماء من كل بلد وإمام كل مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجًا من المسجد ، فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلمًا .

وقال عنه تلميذه عبد الوهاب الوراق : أبو عبد الله إمامنا ، وهو من الراسخين في العلم ، إذا وقفت غدا بين يدي الله عز وجل ، فسألني : بمن اقتديت ؟ أقول : بأحمد ، وأي شيء ذهب على أبي عبد الله من أمر الإسلام ، وقد بلي عشرين سنة في هذا الأمر .

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يرحم الله ابن حنبل ، صان العلم فصانه ، وحفظ العلم فحفظه ، حتى قال فيه يحيى ابن معين : قل يا معلم الخير .

○ بر الوالدين ○

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

يربط السياق القرآني بر الوالدين بعبادة الله ؛ إعلانا لقيمة هذا البر عند الله ، بهذه العبارات النديَّة ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء إلى الأبوة ، إلى الحياة المولية ، إلى الجيل الذاهب ، الذي يمتص الأولاد منه كل رحيق وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هم شيوخة فانية ، إن أمهلهما الأجل ، وهما مع ذلك سعيدان .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ تعبير يشف ويلطف ، ويبلغ شِغاف القلب ، وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترق وتلطف ، حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرًا ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانًا بالسلام والاستسلام .

الويل كل الويل لعاقّ والديه ، والخزي كل الخزي لمن ماتا غِضابًا عليه ، أفّ لك هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه ، أتبع الآن تقصيرك في حقهما أنينًا وزفيرا .﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ .

كم آثراك بالشهوات على النفس ، ولو غبت ساعة صارا في حبس ، حياتهما عندك بقايا شمس، لقد راعياك طويلًا فارعهما قصيرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾.

كم ليلة سهرا معك إلى الفجرِ ، يداريانك مداراة العاشق في الهجرِ ، فإن

مرضت أجريا دمعًا لم يجرِ ، تالله ، لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريرًا **﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾** .

يعالجان أنجاسك ويحبان بقاءك ، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك ، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك ، كم جرَّعاك حلوا وجرعتهما مريرًا **﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾** .

تحب أولادك طبعًا ، فأحبب والديك شرعًا ، وتذكر أصلًا أنبت لك فرعًا ، وتذكر طيب المرعى أولًا وأخيرًا **﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾**[1] .

وانظر إلى بر إبراهيم عليه السلام بأبيه ، وقد كان كافرا ، ولطفه في خطابه ، وحرصه على هدايته ..

قال تعالى : **﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقا نبيًّا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا سويًّا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيًّا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًّا ﴾** [مريم : ٤١ - ٤٦] .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم ، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه : **﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾** [مريم : ٤٧] .

فرزقه الله بإسماعيل الذي تأدب معه .. **﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾** [الصافات : ١٠٢] يا أبت ، يا أبت ، في مودة وقربى ، وشبح السكين لا يزعجه.،

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (١ / ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا يفزعه، ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه ومودته، والجزاء من جنس العمل.

قال رسول الله ﷺ : « برُّوا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعِف نساؤكم »[1] .

قال المناوي : « برُّوا آباءكم » أي وأمهاتكم وكأنه اكتفى به عنه من قبيل : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] ، « تبركم أبناؤكم » وكما تدين تدان[2] .

بِرُّ سيد التابعين ، أويس القرني ..

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجل يقال له : أويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرّه ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم »[3] .

كان عمر - رضي الله عنه - إذا أتى أمداد اليمن سألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس بن عامر ، قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : كان بك برص فبرأت منه ، إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بار بها ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت

---

(١) حسن ؛ رواه الطبراني عن ابن عمر ، والحاكم في تاريخه ، قال في فيض القدير (٣/٢٠٠) : هذا الحديث روي عن خمسة من الصحابة ابن عمر ، وأنس ، وأبي هريرة ، وجابر ، وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد ، غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه ، وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا . وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .

(٣) رواه مسلم عن عمر .

أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي .

منع أويس من القدوم على النبي ﷺ برُّهُ بأمه ، فلما برّ أمه برّ اللهُ قسمه . والجزاء من جنس العمل .

بل ، وأبرّ الله شفاعته ، قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنَّة بشفاعة رجل ليس بنبي ، مثل الحيين ربيعة ومضر ، إنما أقول ما أُقوَّل[1] »[2] .

وقال أيضًا : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي ، أكثر من بني تميم »[3] .

قال المناوي : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل » قيل : إنه أويس القرني[4] .

وانظر إلى حارثة بن النعمان ..

عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ : « دخلت الجنة ، فسمعت قراءة فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » . فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر كذلكم البر » .

وزاد عبد الرزاق في رواية : وكان أبر الناس بأمه[5] .

---

(١) أُقوَّل : أي لُقنته ، أو علمته ، أو ألقي على لساني من الإلهام ، أو هو وحي حقيقةً .

(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه السيوطي ، وقال المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني بأسانيد ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة ، وهو ثقة .

(٣) رواه أحمد وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وقال : صحيح ، رواه بشر بن الفضل عن خالد .

(٤) فيض القدير (٥/ ٣٥٢) .

(٥) رواه أحمد والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة (١ / ٦١٨) إسناده صحيح .

○ إفشاء السلام ○

قال رسول الله ﷺ : « أفشوا السلام تسلموا »[1] .

قال المناوي : « أفشوا السلام » بينكم ، « تسلموا » من التنافر والتقاطع ، وتدوم لكم المودة ، وتجمع القلوب ، وتزول الضغائن والحروب ، فأخبر المصطفى ﷺ أن السلام يبعث على التحابب ، وينفي التقاطع .

قال الماوردي : وقد جاء في كتاب الله ما يفيده ، قال الله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : ٣٤] فحكي عن مجاهد أن معناه ادفع بالسلام ، إساءة المسيء ، قال بعضهم : وإفشاء السلام ابتداء ، يستلزم إفشاءه جوابا .

قال ابن دقيق العيد : استدل بالأمر بالإفشاء من قال بوجوب الابتداء بالسلام ، وفيه نظر ، إذ لا سبيل إلى القول بأنه فرض عين على التعميم من الجانبين ، وهو أن يجب على كل أحد أن يسلم على كل من لقيه ، لما فيه من الحرج والمشقة ، فإذا سقط من جانبي العمومين سقط من جانبي الخصوصين ، إذ لا قائل بأنه يجب على واحد دون الباقين ، وإذا سقط على هذه الصورة لم يسقط الاستحباب ؛ لأن العموم بالنسبة إلى كلا الفريقين ممكن[2] .

قال ابن حجر : وهذا البحث ظاهر في حق من قال : إن ابتداء السلام فرض عين لا كفاية ، إذا قلنا : إنه واجب على واحد لا بعينه .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو نعيم ، وابن حبان ، والعقيلي عن البراء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٩٨ ، الإرواء ٧٦٩ ، الصحيحة ١٤٩٣ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٢٢ - ٢٤) .

وإفشاء السلام فيه مصلحة عظيمة ، من اجتماع قلوب المسلمين ، وتناصرهم وتعاضدهم ؛ ولهذا قال بعضهم : إنه أدفع للضغينة بغير مؤنة ، واكتساب أخوة بأهون عطية .

وإفشاؤه : نشره لكافة المسلمين ، من عرف ، ومن لم يعرف .

قال النووي : الإفشاء : الإظهار ، والمراد نشر السلام بين الناس ليحيوا سنته ، وأقله بأن يرفع صوته بحيث يسمع المُسلّم عليه ، فإن لم يسمعه لم يكن آتيا بالسنة ، ويستحب أن يرفع صوته بقدر ما يتحقق أنه سمعه .

قال ابن العربي : من فوائد إفشاء السلام حصول الألفة ، فتتآلف الكلمة ، وتعم المصلحة ، وتقع المعاونة على إقامة شرائع الدين ، وإخزاء الكافرين ، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها غير الحقود إلى الإقبال على قائلها .

قال القاضي : ويستثنى من ندب رفع الصوت بالسلام ، ما لو دخل مكانًا فيه نيام ، فالسنة ما ثبت في صحيح مسلم ، أن المصطفى ﷺ كان يجيء من الليل ، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ، ويسمع اليقظان .

دخل في عموم إفشائه للسلام ، من دخل مكانًا ليس فيه أحد ، لقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : ٦١] وفي الأدب بسند حسن عن ابن عمر : يستحب إذا لم يكن بالبيت أحد أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

قال بعضهم : والحكمة فيه أن ابتداء التلاقي ، وما ألحق به من مواطن مشروعية السلام ربما نشأ عنه خوف ، أو كبر من أحد الجانبين ، فشرع نفيهما بالبداءة بتحية السلام ، وإزالة للخوف ، وتحليا بالتواضع .

واستثنى بعضهم من طلب إفشاء السلام ، ما لو علم من إنسان أنه لا يرد عليه ، فلا يسلم عليه ؛ لئلا يوقعه في المعصية ، وتتبعه النووي بأن المأمورات الشرعية لا تترك لمثل ذلك ، ولو نظرنا لذلك لبطل إنكار كثير من المنكرات . ورده ابن دقيق العيد : بأن مفسدة توريط المسلم في المعصية أشد من مصلحة السلام ، سيما وامتثال الإفشاء يحصل مع غيره . اهـ .

وقال ﷺ : « أفشوا السلام كي تَعْلُوا »[1] .

« أفشوا السلام تسلموا » ، والجزاء من جنس العمل .

إذا أفشيتموه تحاببتم ، فاجتمعت كلمتكم ، فقهرتم عدوكم ، وعلوتم عليهم ، وكانت لكم الرفعة أيضًا عند الله .

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهمُ ودٌّ فيزرعه التسليمُ واللطـفُ

فوائد :

قال رسول الله ﷺ : « إذا اصطحب رجلان مسلمان ، فحال بينهم شجر أو حجر أو مدر ، فليسلم أحدهما على الآخر ، وتبادلوا السلام »[2] .

وقال ﷺ : « ما حسدتكم اليهود على شيء ، ما حسدتكم على السلام والتأمين »[3] .

وقال ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى : فأفشوه بينكم »[4] .

وقال ﷺ : « إن موجبات المغفرة بذل السلام ، وحسن الكلام »[5] .

وفي الصحيح عنه ﷺ : « وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام »[6] .

---

(١) رواه الطبراني عن أبي هريرة ، ورمز السيوطي لضعفه ، وليس كما زعم ، فقد قال الحافظ المنذري : إسناده جيد ، وقال الهيثمي وغيره : إسناده حسن . فيض القدير (٢ / ٢٣) .

(٢) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢ .

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٨٩.

(٤) صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٣٥ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن هانىء بن يزيد ، ورواه الخرائطي والقضاعي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٨ .

(٦) جزء من حديث الترمذي ؛ حديث اختصام الملأ الأعلى ، وهو صحيح .

وقال ﷺ : « حق المسلم على المسلم خمس : السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس »(١) .

وقال ﷺ : « السلام قبل السؤال ، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام ، فلا تجيبوه »(٢) .

وقال ﷺ : « يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم »(٣) .

وقال ﷺ : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القائم ، والقليل على الكثير »(٤) .

وقال ﷺ : « يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير »(٥).

وقال ﷺ : « لا تقل : عليك السلام ؛ فإن عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك »(٦). قال ابن مفلح في الآداب الشرعية : إسناده جيد .

وقال ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم»(٧).

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة . والتشميت أن يدعو له بالخير فيقول : يرحمك الله .

(٢) حسن : رواه ابن النجار عن ابن عمر ، ورواه ابن عدي وابن السني وأبو نعيم في الحلية ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٧٩ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة .

(٥) رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٦) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم في المستدرك عن جابر بن سليم ، ورواه أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٧٩ . جرت به عادة العرب في تحية الأموات ، يقدمون اسم الميت :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

(٧) رواه البخاري ومسلم وأحمد ومالك عن ابن عمر .

وقال ﷺ : « إذا لقيتم المشركين في الطريق ، فلا تبدءوهم بالسلام ، واضطروهم إلى أضيقها »[١] .

وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف»[٢].

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية :

ولو سلم على أصم جمع بين اللفظ والإشارة ، فإن لم يجمع لم يجب الجواب ، فإن سلم عليه أصم ، جمع بين اللفظ والإشارة في الرد والجواب ، فأما الأخرس فسلامه بالإشارة وكذلك جواب الأخرس ، ويؤخذ من المسألة قبلها أن من سلم على أخرس أو ردَّ سلامه جمع بين اللفظ والإشارة ، وهو متوجه ، والواجب منه رفع الصوت به قدر الإبلاغ ، وقد ورد ما يدل على خلاف هذا[٣].

وقال ﷺ : « من بدأ بالسلام ، فهو أولى بالله ورسوله »[٤] .

وقال ﷺ : « من أشراط الساعة ، أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وألَّا يسلم الرجل إلا على من يعرف »[٥] .

وروى أحمد في مسنده بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم»[٦].

---

(١) المعنى ألا تتركوا لهم صدر الطريق إكرامًا واحترامًا .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن ابن عمرو ، ورواه الطبراني في الأوسط ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٣١٠ .

(٣) الآداب الشرعية (١ / ٣٧٨) .

(٤) أولى برحمة الله ، وشفاعة رسوله ﷺ ، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١ / ٣٧٧):حديث جيد .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٧٧٢ .

(٦) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧ ، والقيامة الصغرى للأشقر ص١٩٢ .

ومراده بتسليم الخاصة : ألَّا يسلم المسلم إلا على من يعرفه .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » . وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل ، لا يسلم عليه إلا للمعرفة »[1].

قال ابن مفلح : ويجوز تعريف السلام بالالف واللام ، وتنكيره على الأحياء والأموات ، وقيل تنكيره أفضل ، وقال ابن البنا : سلام التحية مُنَكَّر وسلام الوداع معرَّف ، وقال ابن عقيل : سلام الأحياء مُنَكَّر ، وسلام الأموات مُعَرَّف ، أما سلام الرد فمعرَّف[2] .

وقال : قال ابن هبيرة : إن سلم على رجل فقد أمنه ، فالفارس أقوى من الراجل ، فأمر عليه السلام ، بسلام الأقوى على الأضعف ، وسلام القليل على الكثير ، ولو سلم الغائب عن العين من وراء جدار أوستر ، السلام عليك يا فلان ، أو سلم الغائب عن البلد برسالته أو كتابه وجبت الإجابة عند البلاغ عندنا ، وعند الشافعية ؛ لأن تحية الغائب كذلك ، ويستحب أن يسلم على الرسول ، قيل لأحمد : إن فلانًا يقرئك السلام ، قال : عليك وعليه السلام ، وقال في موضع آخر : سلم الله عليك وعليه . وقال رجل لأبي ذر : فلان يقرئك السلام ، فقال : هدية حسنة ومحمل خفيف .

وفي الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام » ، فقالت : وعليه السلام ورحمة الله . زاد البخاري في رواية : وبركاته . وزاد أحمد : جزاه الله خيرًا من صاحب ودخيل ، فنعم الصاحب ونعم الدخيل .

قال في شرح مسلم : وفيه بعث الأجنبي السلام إلى الأجنبية الصالحة ، إذا لم يخف ترتب مفسدة ، وفيه دليل أنه لا يجب الرد على مبلغ السلام ، وهو

---

(١) صحيح : رواه أحمد عن ابن مسعود ، والطبراني في الكبير عن الأسود بن يزيد . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨ .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٣٧٥) .

الرسول ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ولكن قولوا : التحيات لله »[(١)] .

قال ابن مفلح : إن دخل على جماعة فيهم علماء سلم على الكل ، ثم سلم على العلماء سلامًا ثانيًا ، ذكره ابن تميم ، وابن حمدان ، وظاهر كلام بعضهم خلافه .

○ البلاء والمرض ○

قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »[(٢)].

قال المناوي : من بلاؤه أعظم ، فجزاؤه أعظم ، « وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم » أي اختبرهم بالمحن والرزايا ، وهو أعلم بحالها ، قال لقمان لابنه : يا بني ، الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلاء ، فمن يرضى قضاءً ابتلي به ، فله الرضا من الله ، وجزيل الثواب ، ومن سخط وكره قضاء ربه ، ولم يرضه فله السخط منه تعالى ، وأليم العذاب.و ﴿**من يعمل سوءًا يُجز به**﴾ [النساء: ١٢٣].

وقوله ﷺ : « من رضي فله الرضى » شرط وجزاء ، فهم منه أن رضى الله مسبوق برضى العبد ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد رضى الله عنه ، كما قال : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ [البينة : ٨] ومحال أن يحصل رضى الله ، ولا يحصل رضى العبد في الآخرة ، فعن الله الرضى أزلًا وأبدًا .

وفيه جنوح إلى اختيار الصحة على البلاء ، والعافية على السقم ، ولا ينافيه الأمر بسؤال العافية ، وأنها أفضل الدعاء ، وأنه إنما كرهه لأجل الجرائم واقتراف العظائم ، كيلا يلقوا ربهم غير مطهرين من دنس الذنوب ، فالأصلح لمن كثرت

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارقطني .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٠٦ ، تخريج المشكاة ١٥٦٦ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٦ .

خطاياه السكوت والرضى ليخف ، والتطهير بقدر التمحيص ، والأجر بقدر الصبر[١] .

« من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .. والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، لقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها[٢] فيلبسها ، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء » .

وقال ﷺ : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صُلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

وقال ﷺ : « إن الصالحين يشدد عليهم » .

وقال ﷺ : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » .

ويقول ﷺ : «ليودنَّ أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء » .

يقول ابن القيم : رضى العبد عن ربه – سبحانه وتعالى – في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه ، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه به عنه بالقليل من العمل .

وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ، وجده أسرع شيء ى رضاه إذا ترضّاه وتملقه[٣] .

ويقول أيضًا : إن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه .

---

(١) فيض القدير (٢ / ٤٥٩) .

(٢) أي يقطعها .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٦) .

فإن الجزاء من جنس العمل[١] .

○ من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا وقعودًا ○

خرج معاوية على ابن الزبير ، وابن عامر ، فقام ابن عامر ، وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا ، فليتبوأ مقعده من النار »[٢] .

يتمثل : أي ينتصب ، والمثول هو الانتصاب .

قال المناوي : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا » يعني يقومون قيامًا بأن يلزمهم بالقيام صفوفًا ، على طريق الكبر والتجوه ، أو بأن يقام على رأسه وهو جالس .

« فليتبوأ مقعده من النار » ، قال الزمخشري : أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من أحب ذلك وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك .

وذلك لأن ذلك إنما ينشأ عن تعظيم المرء نفسه ، واعتقاد الكمال ، وذلك عجب وتكبر ، وجهل وغرور ، ولا يناقض خبر : « قوموا إلى سيدكم » لأن سعدًا لم يحب ذلك ، والوعيد إنما هو لمن أحبه .

قال النووي : ومعنى الحديث زجر المكلف أن يحب قيام الناس له ، ولا تعرض فيه للقيام بنهي ولا بغيره ، والمنهي عنه محبة القيام له ، فلو لم يخطر بباله فقاموا له أو لم يقوموا فلا لوم عليه ، وإن أحبّه أثم ، قاموا أو لا فلا يصح الاحتجاج به لترك القيام ، ولا يناقضه القيام لأهل الكمال ونحوهم[٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢١٠) .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن معاوية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٣٣ ، والصحيحة ٣٥٦ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٣١ - ٣٢) .

قال ابن مفلح : حمله الخطابي على ما إذا أمرهم بذلك وألزمهم على طريق الكبر .

قال إسحق بن إبراهيم : قلت لأبي عبد الله : ما معنى الحديث « لا يقوم أحد لأحد » ؟ قال : إذا كان على وجه الدنيا مثل ما روى معاوية فلا يعجبني[١] .

قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر : سيدنا الله عز وجل قال : « أنزلوه » فأنزلوه[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري : أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه النبي ﷺ فجاء ، فقال : « قوموا إلى سيدكم » أو قال : « خيركم » فقعد عند النبي ﷺ.. الحديث[٣] .

قال الألباني :

١ - اشتهر رواية هذا الحديث بلفظ « لسيدكم » والرواية في الحديثين كما رأيت « إلى سيدكم » ولا أعلم للفظ الأول أصلًا ، وقد نتج منه خطأً فقهي ، وهو الاستدلال به على استحباب القيام للقادم كما فعل ابن بطال وغيره .

قال الحافظ محمد ناصر أبو الفضل في : التنبيه على الألفاظ التي وقع في نقلها وضبطها تصحيف وخطأً في تفسيرها ومعانيها ، تحريف في كتاب الغربيين عن أبي عبيد الهروي .

ومن ذلك ما ذكره في هذا الباب من ذكر السيد ، وقال كقوله لسعد حين قال : « قوموا لسيدكم » أراد أفضلكم رجلا ، قلت : والمعروف أنه قال : « قوموا إلى سيدكم » قاله ﷺ لجماعة من الأنصار لما جاء سعد بن معاذ محمولا على حمار وهو جريح... أي أنزلوه واحملوه لا قوموا له من القيام له ، فإنه أراد

---

(١) الأدب للخلال . (٢) إسناده حسن .

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد وأبو يعلى في مسنده .

بالسيد : الرئيس والمتقدم عليهم ، وإن كان غيره أفضل منه .

٢ - اشتهر الاستدلال بهذا الحديث على مشروعية القيام للداخل ، وأنت إذا تأملت في سياق القصة يتبين لك أنه استدلال ساقط من وجوه كثيرة ، أقواها قوله ﷺ : « فأنزلوه » . فهو نص قاطع على أن الأمر بالقيام إلى سعد إنما كان لإنزاله من أجل كونه مريضًا ، ولذلك قال الحافظ : وهذه الزيادة تخدش في الاستدلال بقصة سعد على مشروعية القيام المتنازع فيه ، وقد احتج به النووي في كتاب القيام[1] .

قال ابن مفلح : تحت عنوان « فصل في القيام للقادم وأدب السنة ومراعاة العادة فيه » : ويكره القيام لغير سلطان وعالم وولد ، ذكره السامري ، وقيل : سلطان عادل ، وزاد في الرعاية الكبرى : ولغير ذي دين وورع ، وكريم قوم وسن في الإسلام ، وقال ابن تميم : لا يستحب القيام إلا للإمام العادل والوالدين ، وأهل العلم والدين والورع والنسب ، وهو معنى كلامه في المجرد والفصول ، وكذا ذكر الشيخ عبد القادر ، وقاسه على المهاداة لهم ، وقال : يكره لأهل المعاصي والفجور ، وهذا كله معنى كلام أبي بكر .

والذي يقام إليه ينبغي له ألا يستكبر نفسه إليه ولا يطلبه ، والنهي قد وقع على السرور بذلك الحال ، فإذا لم يُسَرَّ بالقيام إليه ، وقاموا له ، فغير ممنوع منه ، ولمن قام إليه ، لإعظامه الرجل الكبير على ما رسمناه . وكذا قال بعض أصحابنا وغيرهم في النهي عن ذلك : إنما هو تحذير من الفتنة والعجب والخيلاء ، قالوا : مع أن ابن قتيبة قد قال : إنما معناه ما يفعله الأعاجم ، والأمراء في زماننا هذا ، أنه يجلس والناس قيام بين يديه تكبرًا وعجبًا .

قال صاحب النظم : وكذا قال ابن مسعود وغيره فيمن يمشي الناس خلفه إكرامًا : إنها ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

قال الشيخ تقي الدين : فأبو بكر والقاضي ومن تبعهما ، فرقوا بين القيام

---

(١) التعليق السلسلة الصحيحة (١ / ١٠٥ - ١٠٦) .

لأهل الدين وغيرهم ، فاستحبوه لطائفة ، وكرهوه لأخرى ، والتفريق في مثل هذا بالصفات فيه نظر .

قال : وأما أحمد فمنع منه مطلقا لغير الوالدين ، فإن النبي ﷺ سيد الأمة ، ولم يكونوا يقومون له . فاستحباب ذلك للإمام العادل مطلقًا خطأ ، وقصة ابن أبي ذئب مع المنصور تقتضي ذلك ، وما أراد أبو عبد الله – والله أعلم – إلا لغير القادم من سفر ، فإنه قد نص على أن القادم من السفر إذا أتاه إخوانه ، فقام إليهم وعانقهم فلا بأس ، وحديث سعد يخرج على هذا ، وسائر الأحاديث ، فإن القادم يتلقى لكن هذا قام فعانقهم ، والمعانقة لا تكون إلا بالقيام ، وأما الحاضر في المصر الذي طالت غيبته ، والذي ليس من عادته المجيء إليه فمحل نظر ، فأما الحاضر الذي يتكرر مجيئه في الأيام كإمام المسجد ، أو السلطان في مجلسه ، أو العالم في مقعده ، فاستحباب القيام له خطأ ، بل المنصوص عليه عن أبي عبد الله ، هو الصواب ، هذا كلامه .

وقال أيضًا : لا يجوز أن يكون قاعدًا وهم قيام ، قال النبي ﷺ « من سرَّه أن يتمثل الرجال له قيامًا فليتبوأ مقعده من النار ». وفي الصحيح : أنهم لما قاموا خلفه في الصلاة قال : « لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضهم بعضًا » اهـ .

وأما القيام لمصلحة وفائدة ، كقيام معقل بن يسار ، يرفع غصنا من شجرة على رأس رسول الله ﷺ وقت البيعة . رواه مسلم ، وقيام أبي بكر يظله من الشمس – فمستحب .

وذكر ابن هبيرة : يجوز ، ولا يكره ، وقال عن الأنبار والأعاجم : القيام على رؤوسهم شديد الكراهية ، قال : فأما وقوف من يذهب في شغل ويعود ، كقيام الحاجب والمستخدمين ، فإن الفرق بين من يتقدم في الأشغال ويتردد فيها ، وبين من ليس كذلك معنى ظاهر .

ونصوص الإمام أحمد بعضها يؤخذ منه موافقة الأصحاب ، وبعضها يدل

على الكراهة إلا للوالدين ، وبعضها يكره إلا لقادم من سفر ، وقال إسحق بن إبراهيم : خرج أبو عبد الله على قوم في المسجد فقاموا له فقال : لا تقوموا لأحد فإنه مكروه ، فهذه ثلاث روايات .

قال ابن الجوزي : وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لا يقومون له؛ لما يعرفون من كراهته لذلك ، وهذا كان شعار السلف ، ثم صار ترك القيام كالإهوان بالشخص ، فينبغي أن يقام لمن يصلح .

وكذا قال الشيخ تقي الدين في الفتاوى المصرية : ينبغي ترك القيام في اللقاء المتكرر المعتاد ، لكن إذا اعتاد الناس القيام ، وقدم من لا يرى كرامته إلا به ، فلا بأس به ، فالقيام دفعا للعداوة والفساد ، خير من تركه المفضي إلى الفساد ، وينبغي مع هذا أن يسعى في الإصلاح على متابعة السنة .

وروى ابن القاسم في المدونة : قيل لمالك : فالرجل يقوم للرجل له الفضل والفقه ؟ قال :أكره ذلك : وصح عنه عليه السلام قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا » . ولفظ الترمذي « شرف كبيرنا » .

وعن عبادة مرفوعًا : « ليس من أمتي من لم يجلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » رواه أحمد ، وهو حديث حسن .

قال بعضهم : وهذا كاف عند الجمهور .

ولأبي داود بإسناد جيد ، من حديث أبي موسى : « إن من إجلال الله ، إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، ولا الجافي منه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » .

ولا يلزم من هذا القيام له ، وإنما فيه إكرامه وتوقيره ، فقال ابن حزم : اتفقوا على توقير أهل القرآن والإسلام، والنبي ﷺ وكذلك الخليفة الفاضل والعالم.

وفي الصحيحين : لما تاب الله على كعب بن مالك - رضي الله عنه - وأن النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ، فذهب الناس يبشروننا ، وركض رجل إلى فرس ، وسعى ساعٍ قبلي ، فأوفى على جبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما

جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي ، فكسوتهما إياه ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما إلى رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقاني الناس فوجًا يهنوني بالتوبة ، ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم » . إسناده جيد ، رواه ابن حبان في صحيحه .

وقال الحسن بن محمد بن الحارث إنه سأل أبا عبد الله : عن القيام في السلام ، فكأنه كرهه إذا لم يقدم من سفر أن يقوم كذا إلى الرجل فيعانقه ، قلت لأبي عبد الله : إذا قام يعني الرجل حتى يجلسه لكبره ، فأقول له : إما أن تقعد وإما أن أقوم ؟ فقال : إذا كان لكبره أو لكذا .

وقال حنبل : قلت لعمي : ترى للرجل أن يقوم للرجل إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد إلا الولد لوالده أو لأمه ، أما لغير الوالدين ، فلا .

قال مثنى : إنه سأل أبا عبد الله : ما تقول في المعانقة ؟ وهل يقوم أحد لأحد في الإسلام إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد ، وأما إذا قدم من سفر فلا أعلم به بأسًا إذا كان على التدين ، يحبه في الله ، أرجو لحديث جعفر أن النبي ﷺ اعتنقه ، وقبل جلدة بين عينيه .

ونقل غيره أن أبا إبراهيم الزهري بن أحمد بن سعد جاء إلى أحمد يسلم عليه ، فلما رآه وثب إليه ، وقام إليه قائمًا ، وأكرمه فلما أن مشى قال له ابنه عبد الله : يا أبت ، أبو إبراهيم شاب وتعمل هذا ، وتقوم إليه ؟ فقال يا بني : لا تعارضني في مثل هذا ، ألا أقوم إلى ابن عبد الرحمن بن عوف ؟ ذكره أبو الأخضر فيمن روى عن أحمد .

وقال أبو داود : باب ما جاء في القيام : عن عائشة – رضي الله عنها –

قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا برسول الله ﷺ من فاطمة كانت إذا دخلت عليه ، قام إليها ، فأخذ بيدها ، وقبّلها ، وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، فأخذت بيده ، فقبلته ، وأجلسته ، في مجلسها[١] .

قال ابن عبد البر : جائز للرجل أن يكرم القاصد إليه ، إذا كان كريم قوم أو عالمهم ، أو من يستحق البر منهم بالقيام إليه ، وغير جائز للرئيس وغيره أن يكلف الناس بالقيام إليه ، أو يرضى ذلك منهم .

وقال البيهقي : باب القيام لأهل العلم على وجه الإكرام : ثم ذكر قيام طلحة لكعب ، وقوله عليه السلام لما جاءه سعد: « قوموا إلى سيدكم » ، وقال مسلم : لا أعلم في قيام الرجل للرجل حديثًا أصحَّ من هذا .

وقال أبو زكريا النواوي بعد ذكره محتجاً به ؛ وقد احتج العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم على القيام بهذا الحديث ، وممن احتج به ، أبو داود في سننه ، فترجم له : باب ما جاء في القيام . واحتج به بشر بن الحارث الحافي الزاهد ، ومسلم ، وأبو زرعة ، وأبو بكر بن أبي عاصم ، والخطابي ، والبيهقي ، والخطيب ، وأبو محمد البغوي ، والحافظ أبو موسى المديني ، وآخرون لا يحصون .

وقال أبو هاشم الرفاعي : قام وكيع لسفيان الثوري ، فأنكر عليه قيامه له ، فقال له وكيع : أنت حدثتني عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله ، إجلال ذي الشيبة المسلم » فأخذ سفيان بيده فأجلسه إلى جانبه ، وقال الخليلي الحافظ : أخبرني عثمان بن إسماعيل ، حدثنا أبو نعيم بن عدي قال : كان أبو زرعة لا يقوم لأحد ، ولا يجلس أحدًا في مكانه ، إلا ابن دارة ، فإني رأيته بفعل ذلك .

قال ابن حجر :

محصل المنقول عن مالك إنكار القيام ما دام الذي يقام لأجله لم يجلس ،

---

(١) إسناده صحيح ، رواه النسائي ، والترمذي ، وقال : صحيح غريب من هذا الوجه .

ولو كان في شغل نفسه ، فإنه سئل عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع ثيابه ، وتقف حتى يجلس ، فقال : أما التلقي فلا بأس به ، وأما القيام حتى يجلس فلا ، فإن هذا فعل الجبابرة ، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز[1] .

وقال ابن القيم في حاشية السنن : القيام ينقسم إلى ثلاث مراتب : قيام على رأس الرجل ، وهو فعل الجبابرة ، وقيام إليه عند قدومه ولا بأس به ، وقيام إليه عند رؤيته وهو المتنازع فيه .

ونقل الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه :

الأول : محظور ، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرًا وتعاظما على القائمين إليه .

والثاني : مكروه ، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين ، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك ما يحذر ، ولما فيه من التشبه بالجبابرة .

والثالث : جائز ، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك ، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة .

والرابع : مندوب ، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ؛ ليسلم عليه ، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها ، أو مصيبة فيعزيه بسببها .

وذكر ابن الحاج : من المفاسد التي تترتب على استعمال القيام ، أن الشخص صار لا يتمكن فيه من التفصيل بين من يستحب إكرامه ، وبره ، كأهل الدين والخير والعلم ، أو يجوز كالمستورين وبين من لا يجوز كالظالم المعلن بالظلم ، ويكره كمن لا يتصف بالعدالة وله جاه ، فلو اعتاد القيام ما احتاج أحد أن يقوم لمن يحرم إكرامه أو يكره ، بل جر ذلك إلى ارتكاب النهي لما صار يترتب على الترك من الشر .

قال ابن حجر :

وفي الجملة متى صار ترك القيام يشعر بالاستهانة ، أو يترتب عليه مفسدة امتنع ، وإلى ذلك أشار ابن عبد السلام . ونقل ابن كثير في تفسيره عن بعض

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٣) .

المحققين التفصيل فيه ، فقال : المحذور أن يتخذ ديدنا ، كعادة الأعاجم ، كما دل عليه حديث أنس ، وأما إن كان لقادم من سفر ، أو لحاكم في محل ولايته ، فلا بأس به ، قلت : ويلتحق بذلك ما تقدم في أجوبة ابن الحاج كالتهنئة لمن حدثت له نعمة ، أو لإعانة العاجز ، أو لتوسيع المجلس أو غير ذلك . والله أعلم .

وقد قال الغزالي : القيام على سبيل الإعظام مكروه ، وعلى سبيل الإكرام لا يكره ، وهذا تفصيل حسن[(١)]

○ جزاء من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ○

قال رسول الله ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، صُبّ في أذنيه الآنُك، ومن أري عينيه في المنام ما لم ير كلّف أن يعقد شَعيرة»[(٢)].

قال المناوي : الآنُك : بفتح الهمزة الممدودة وضم النون : الرصاص ، أو الخالص منه ، أو الأسود أو الأبيض أو القصدير ، قال الزمخشري : وهي أعجمية . وقال الجوهري : أفعل بضم العين من أبنية الجمع ، ولم يجيء عليه الواحد إلا آنك .

من استمع إلى حديث قوم وهم لا يريدون استماعه ، أو يكرهون استماعه .

والجملة إخبار أو دعاء عليه . وفيه وعيد شديد ، موضعه فيمن يستمع لمفسدة كنميمة ، أما مستمع حديث قوم يقصد منعهم من الفساد أو ليحترز من شرهم فلا يدخل تحته ، بل قد يندب ، بل قد يجب بحسب المواطن ، وللوسائل حكم المقاصد .

والجزاء من جنس العمل ... فهذا جزاء أذن امتدت وأصغت للسماع .

وقال رسول الله - ﷺ -: « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٦) .

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٩٠٤ ، تخريج الخلال ٤٢٧ .

شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صُبّ في أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب ، وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ »(١) .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم ترَ » .

وعند أحمد عن قتادة « من تَحلَّم كاذبا دفع إليه شعيرة ، وعذب حتى يعقد بين طرفيها ، وليس بعاقد » .

قال ابن حجر : هذا الحديث قد اشتمل على ثلاثة أحكام : أولها : الكذب على المنام ، ثانيها : الاستماع لحديث من لا يريد استماعه ، ثالثها : التصوير .

يقول : وأما الكذب على المنام فقال الطبري : إنما اشتد فيه الوعيد مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه ، إذ قد تكون شهادة في قتل أو حد أو مال ؛ لأن الكذب في المنام كذب على الله ، أنه أراه ما لم يره ، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** .. ﴾ الآية [هود : ١٨] وإنما كان الكذب في المنام كذبا على الله ؛ لحديث « الرؤيا جزء من النبوة » ، وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى . اهـ ملخصًا .

وأما الاستماع : قيد حديث الباب لمن يكون كارها لاستماعه ، فأخرجه من يكون راضيا ، وأما من جهل ذلك فيمتنع حسما للمادة .

وأما الوعيد على ذلك بصب الآنك في أذنه فمن الجزاء من جنس العمل ، والآنك بالمد وضم النون : الرصاص المذاب ، وقيل : وهو خالص الرصاص ، وقال الداودي : هو القصدير .

وقال ابن أبي جمرة : إنما سماه حلما ، ولم يسمه رؤيا ؛ لأنه ادعى أنه رأى ولم ير شيئًا ، فكان كاذبًا ، والكذب إنما هو من الشيطان ، وقد قال : « إن

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس .

الحلم من الشيطان » وما كان من الشيطان فهو غير حق ، فصدق بعض الحديث بعضا ، قال : ومعنى العقد بين الشعيرتين أن يفتل إحداهما بالأخرى ، وهو مما لا يمكن عادة ، قال : ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه والمصور ، أن الرؤيا خلق الله ، وهي صورة معنوية فأدخل بكذبه صورة لم تقع ، كما أدخل المصور صورة في الوجود ليست بحقيقة؛ لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح ، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا ، وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين ، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا ، وهو أن يتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح ، ووقع وعيد كل منهما بأنه يعذب حتى يفعل ما كُلّف به ، وهو ليس بفاعل ، فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام .

قال : والحكمة في هذا الوعيد الشديد ، أن الأول كذب على النبوة ، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته .

أما مستمع حديث من يكره استماعه : يدخل فيه من دخل منزله وأغلق بابه ، وتحدث مع غيره فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه ، فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد ، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب ، فقد ورد الوعيد فيه ، ولأنهم لو فقئوا عينه لكانت هدرًا .

قال : ويستثنى من عموم من يكره استماع حديثه ، من تحدث مع غيره جهرًا ، وهناك من يكره أن يسمع ، فلا يدخل المستمع في هذا الوعيد ؛ لأن قرينة الحال وهو الجهر ، تقتضي عدم الكراهة . فيسوغ الاستماع .

ومن اللطائف ما قال غيره : إن اختصاص الشعير بذلك لما في المنام من الشعور بما دل عليه فحصلت المناسبة بينهما من جهة الاشتقاق[1] اهـ .

○ جزاء من يلعن الريح ○

قال رسول الله ﷺ : « لا تلعن الريح فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئًا

---

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨) .

ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه »[١] .

وقال ﷺ : « إذا خرجت اللعنة مِنْ فِي صاحبها ، نظرت ، فإن وجدت مسلكا في الذي وجهت إليه ، وإلا عادت إلى الذي خرجت منه » ، وقال ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئًا ، صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا ، فإذا لم تجد مساغًا[٢] رجعت إلى الذي لُعِن ، فإن كان لذلك أهلا ، وإلا رجعت إلى قائلها »[٣].

والجزاء من جنس العمل ..

قال المناوي : إن العبد إذا لعن آدميًا أو غيره ، بأن دعا عليه بالطرد والبعد عن رحمة الله تعالى ، صعدت اللعنة إلى السماء لتدخلها ، فتغلق أبواب السماء دونها ؛ لأنها لا تفتح إلا لعمل صالح **﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾** [فاطر : ١٠] ثم تنزل إلى الأرض ، لتصل إلى سجين فتغلق أبوابها دونها أي تمنع من النزول ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا تتحير فلا تدري أين تذهب ، فإذا لم تجد مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه لمحل تستقر فيه ، رجعت إلى الذي لُعِن فإن كان للعنة أهلا رجعت إليه فصار مطرودًا ، فإن لم يكن لها أهلًا رجعت بإذن ربها[٤] إلى قائلها ؛ لأن اللعنة طرد عن رحمة الله ، فمن طرد ما هو أهل لرحمته

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣٢٤. ورواه ابن حبان، والطبراني، والبيهقي، وصححه الألباني في الصحيحة ٥٢٧ .

(٢) مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه .

(٣) قال ابن حجر : سنده جيد ، وله شاهد عند أحمد من حديث ابن مسعود بسند حسن ، وآخر عند أبي داود والترمذي عن ابن عباس ، ورواته ثقات ، لكنه أعلّ بالإرسال .

(٤) والدليل ما رواه أحمد بسند جيد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ =

عن رحمته ، فهو بالطرد والإبعاد عنها أحق وأجدر ، ومحصول الحديث التحذير من لعن من لا يستوجب اللعنة ، والوعيد عليه بأن يرجع اللعنة إليه : ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ [النور : ٤٤] .

وقال ﷺ : « أوصيك ألا تكون لعانًا » .

قال المناوي : لا تلعن معصومًا ، فيحرم لعن المعصوم المعين ، فإن اللعنة تعود على اللاعن وصيغة المبالغة هنا غير مرادة .

وقال ﷺ : « إني لم أبعث لعانًا » .

وقال : « إني لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » .

وقال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذيّ » .

وقال ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ، ولا شهداء يوم القيامة » .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أنه لا يجوز لعن المعين ، ما دام في دار الدنيا ، ولكن تقول : لعنة الله على الظالمين ، وعلى الكافرين ، لعن الله المتبرجات ، هذا على العموم ، أمّا المعين فلا .

« لا تسبوا الريح » ، « لا تلعنوا الريح » .

قال المناوي : فإنها من روح الله ورحمته ، تأتي بالرحمة : بالغيث والراحة والنسيم ، وتأتي بالعذاب : بإتلاف النبات والشجر وهلاك الماشية وهدم البناء . فلا تسبوها ؛ لأنها مأمورة لا ذنب لها.

قال الشافعي – رحمه الله –: « لا ينبغي شتم الريح ، فإنها خلق مطيع لله ، وجند من جنوده يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونقمة إذا شاء .

قال مطرف : لو حبست الريح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض .

= يقول : « إن اللعنة إذا وجهت إلى من وجهت إليه ، فإن أصابت عليه سبيلًا ، أو وجدت فيه مسلكا وقفت عليه ، وإلا قالت : يا رب ، وجهت إلى فلان فلم أجد فيه مسلكا ، و لم أجد عليه سبيلًا فيقال : ارجعي من حيث جئت » يعني إلى قائلها .

والمؤمن لا يكون سبابًا ..

قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره »[1].

وقال تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم** ﴾[الأنعام : ١٠٨] .

○ جزاء من يتنخم في القبلة ○

قال رسول الله ﷺ : « تبعث النخامة في القبلة يوم القيامة ، وهي في وجه صاحبها »[2] .

والجزاء من جنس العمل ..

وقال ﷺ : « من تفل تجاه القبلة ، جاء يوم القيامة تفلهُ بين عينيه ، ومن أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا »[3] .

○ جزاء من وصل رحمه ومن قطعها ○

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ من خلقه ، قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ، قال : فهو لك » ، قال رسول الله ﷺ : « فاقرءوا إن شئتم : ﴿ **فهل**

---

(١) المخلص عن أبي هريرة وتمام والديلمي ، انظر الصحيحة ٧١٩٥ ، وصحيح الجامع ٧١٩٥ .

(٢) رواه البزار عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٠٧ ، تخريج الترغيب (١ / ١٢٢) ، رواه ابن خزيمة ، وابن حبان .

(٣) رواه أبو داود، وابن حبان، عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٣٦، تخريج الترغيب (١ / ١٢٤ ، ١٣٤) ، والصحيحة ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ »[١] [محمد : ٢٢] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « إن الرحم شُجنةٌ من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته »[٢] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – زوج النبي ﷺ قال : « الرحم شُجنة فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »[٣] .

وقال ﷺ : « إن الرحم شجنة آخذة بحجزة الرحمن ، تصل من وصلها ، وتقطع من قطعها »[٤] .

قول الرحم .. قال فيه ابن حجر : يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان القال ، قولان مشهوران ، والثاني أرجح . وعلى الثاني : فهل تتكلم كما هي ، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا ؟ قولان أيضا مشهوران ، والأول أرجح ؛ لصلاحية القدرة العامة لذلك ، ولما في الأولين من تخصيص عموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل ، ولما يلزم منه من حصر قدرة القادر التي لا يحصرها شيء .

حجزة الرحمن : حكى شيخنا في شرح الترمذي أن المراد بالحجزة هنا قائمة العرش ، وأيد ذلك بما أخرجه مسلم من حديث عائشة : « إن الرحم أخذت بقائمة من قوائم العرش » .

« هذا مقام العائذ » هذا مكان .

« الرحم شِجْنَة » بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون ، وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة ، وأصل الشجنة : عروق الشجر المشتبكة ، والشجن : واحد الشجون ، وهي طرق الأودية ، ومنه قولهم : الحديث ذو شجون ؛ أي يدخل بعضه في بعض .

---

(١) ، (٢) ، (٣) رواه البخاري .

(٤) رواه أحمد عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٦٢٥ ، والصحيحة ١٦٠٢ .

شجنة من الرحمن : أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث ابن عوف في السنن مرفوعًا : « أنا الرحمٰن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمي » ، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها ، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله .

وقال الإسماعيلي : إن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن ، فلها به علقة ، وليس معناه أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك .

وقال ابن حجر أيضًا في الفتح : الرحم يطلق على الأقارب ، وهم : من بينه وبين الآخر نسب ، سواء كان يرثه أم لا ، سواء كان ذا محرم أم لا ، وقيل هم المحارم فقط ، والأول هو المرجح ؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد العم ، وأولاد الخال من ذوي الأرحام وليس كذلك .

قال ابن حجر : قال القرطبي : إن الرحم التي توصل عامة وخاصة ، فالعامة : رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف ، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة . وأما الرحم الخاصة فتزيد: النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم ، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك الأقرب فالأقرب .

وقال ابن أبي جمرة : تكون صلة الرحم بالمال ، وبالعون على الحاجة ، وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه والدعـاء ، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة ، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفارًا أو فجارًا ، فمقاطعتهم في الله هي صلتهم ، بشرط بذل الجهد في وعظهم ، ثم إعلامهم إذا أصرُّوا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى .

وقطع الرحم من الكبائر ؛ لورود الوعيد الشديد فيه .

وعن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ جهارًا غير سر يقول :

« إن آل أبي ... ليسوا بأوليائي ، إنما وليي الله وصالحُ المؤمنين ، ولكن لها رحم أبلها ببلاها » يعني : أصلها بصلتها .

وقال النووي : ضبطنا قوله « بِبَلاها » بفتح الموحدة وبكسرها ، وهما وجهان مشهوران ، وقال عياض : رويناه بالكسر ، ورأيته للخطابي بالفتح ، وقال ابن التين : هو بالفتح للأكثر ولبعضهم بالكسر ، قلت : بالكسر أوجه ، فإنه من البلال جمع بلل ، مثل جمل جمال ، ومن قاله بالفتح بناه على الكسر مثل قطامِ وحذامِ ، والبلال بمعنى البلل وهو النداوة ، وأطلق ذلك على الصلة ، كما أطلق اليبس على القطيعة ؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه ، بخلاف اليبس من شأنه التفريق .

وقال الخطابي وغيره : بللت الرحم ؛ أي نديتها بالصلة ، وقد أطلقوا على الإعطاء الندى ، وقالوا في البخيل : ما تندى كفه بخير ، فشبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بالماء الذي يطفيء ببرده الحرارة ، ومنه الحديث : « بلوا أرحامكم ولو بالسلام »[1] .

قال الطيبي وغيره : شبه الرحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء ، وسقاها حق سقيها ، أزهرت ، ورؤيت فيها النضارة ، فأثمرت المحبة والصفاء ، وإذا تركت بغير سقي يبست وبطلت منفعتها ، فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الواصل بالمكافيء ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[2] .

وعن عمر موقوفًا : « ليس الوصل أن تصل من وصلك ، ذلك القصاص ، ولكن الوصل أن تصل من قطعك » .

---

(١) حسن : رواه البزار عن ابن عباس ، والطبراني في الكبير عن أبي الطفيل ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وسويد بن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٥ .

(٢) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد .

قال ابن حجر : قال الطيبي : المعنى ليست حقيقة الواصل ، ومن يعتد بصلة من يكافىء صاحبه بمثل فعله ، ولكن من يتفضل على صاحبه .

وقال شيخنا في شرح الترمذي : المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوع صلة ، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه ، فإن فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل : « ليس الشديد بالصرعة » ، « وليس الغنى عن كثرة العرض » .

وأقول : لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع ، فهم ثلاث درجات : مواصل ، ومكافىء ، وقاطع .

فالواصل : يتفضل ، ولا يتفضل عليه .

والمكافىء الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ .

والقاطع : الذي يُتَفضَّل عليه ، ولا يَتَفضَّل .

وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين ، كذلك تقع المقاطعة من الجانبين ، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل ، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئا ، والله أعلم(١) .

○ من عال البنات وأدّبهن ○

قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أمتي يعول ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، فيحسن إليهن إلا كن له سترًا من النار »(٢) .

قال المناوي : كما سترهن في الدنيا عن ذل السؤال وهتك الأعراض باحتياجهن

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٣٧) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٤٨ .

إلى الغير الذي ربما جرّ إلى الخنا والزنا ، وجوزي بالستر من النار جزاءً وفاقًا[(١)] .

والجزاء من جنس العمل .

قال صلى الله عليه وسلم : « من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن ، كن له حجابًا من النار »[(٢)] .

وقال صلى الله عيله وسلم : « من ابتلى من هذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن ؛ كن له سترًا من النار »[(٣)] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى يدركا ؛ دخلت أنا وهو الجنة كهاتين »[(٤)] .

* * *

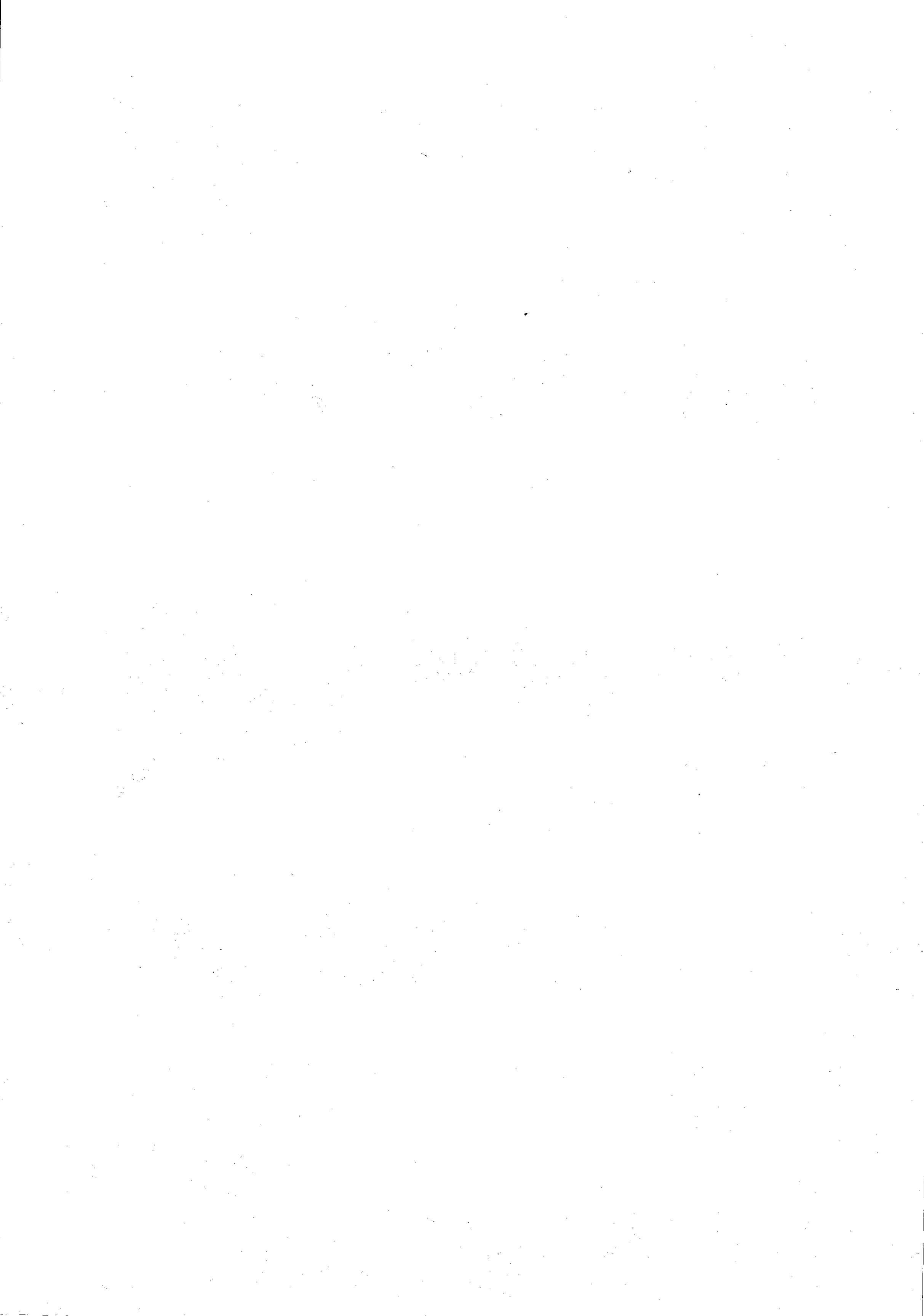
(١) فيض القدير (٥ / ٣٦٢) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٠٧ .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، عن عائشة .

(٤) رواه مسلم ، والترمذي عن أنس .

الصَّلاةُ



□ الصَّلاة □

اعلموا إخواني ، أن الله عز وجل قدّر الصلاة ، وقدّمها على غيرها من العبادات ، وإنما يحافظ عليها مَنْ يعرف قدرها ، ويرجو أجرها ، ويخاف العقاب على تركها . وهذه صفة المؤمن ، وإنما يتوانى عنها ناقص الإيمان إنْ تكاسل ، أو كافر إنْ تهاون . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة »[١] .

اعلموا أن من أحب المخدوم أحب الخدمة له ، لو عرف من يناجي لم يقبل على غيره ، والصلاة صلة بين العبد وربه .

الستر الأول في الأذان ، فالأذان كالإذن في الدخول ، والستر الحاظر : الإقامة ، فإذا كشف الغطاء لاح للمتقي قرة العين ، فدخل في دائرة المناجاة : « أرحنا بها يا بلال »[٢] فقد « جعلت قرة عيني في الصلاة »[٣] .

اكشف يا بلال ستر التقريب ، عن القريب الحبيب .

يا بطّال ، لو سافرت بلدًا لم تربح فيه حزنت على فوات ربحك ، وضياع وقتك ، أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرة العين ، ثم خرج بغير فائدة ، يصلي فيرسلها كالطيور إذا أرسلت من حصار القفص ، يقوم ويقعد مستعجلًا كمثل الطروب إذا ما رقص .

يا هذا ، اطلب قبل ماء الوضوء قلبك ، فإن وجدته فقدم إناءك .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود ، وصححه الأرناؤوط . جامع الأصول .

(٣) جزء من حديث أنس بن مالك ، رواه النسائي ، وأحمد في مسنده ، وحسّن إسناده عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٤ / ٧٦٦) .

يا هذا ، إنما يصطاد الطائر بمحبوبه من الحَبِّ ، ومحبوب القلب الطاهر ذكر الله ، فحرام على قلبك الحائم حول جيف الهوى ، ألقِ له حَبَّ الذكرِ على فخ الصدق ، في حديقة الصور ، لعله يقع في شبكة المعرفة(١) .

قال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر »(٢) .

لأن بها تبدو قوة الإيمان في شهود ملازمة خدمة الأركان ، ومن كان أقواهم إيمانا ، كان أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتا وإيقانا ، كما قال المناوي - رحمه الله -(٣) .

وأي دعوة تريد أن تستقيم إلى الله ، فعليها أن تدلف من باب الاستقامة وبابها المحراب(٤) .

وسجود المحراب ، واستغفار الأسحار ، ودموع المناجاة سيماء يحتكرها المؤمنون .. ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار والنساء ، والقصر المنيف ، فإن جنة المؤمن في محرابه(٥) .

هي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي لا ينفد ، والمعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب ، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض ..

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير ، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود ، إنها زاد الطريق ومدد الأرواح ، وجلاء القلب ، تفتح القلب ، وتوثق

---

(١) اليواقيت الجوزية (٤٤ ، ٤٥) .

(٢) حسن : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، والطبراني في الأوسط ، وحسّنه الألباني صحيح الجامع (٣٧٦٤) .

(٣) فيض القدير (٤ / ٢٤٧) .

(٤) الرقائق لمحمد أحمد راشد ص١٥ .

(٥) الرقائق لمحمد أحمد راشد ص٢٧ .

الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

قال الحسن : يابن آدم ، إذا هانت عليك صلاتك فما الذي يعز عليك ؟! .

ألا يستحي من يستوفي مكيال شهواته ، ويطفف في مكيال الدين .. ﴿ **ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٥] . إن كان الله قد توعد بالويل من طفف في مكيال الدنيا ، فكيف بمن طفف في مكيال الدين ؟!.

تعال معي أخي إلى الصلاة :

لمّا انقطع العبد عن الناس ، كان انقطاعه صلة بربه ، وسمّاها الله تعالى صلاة جزاءً وفاقًا ..

فلننظر .. كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا الباب ..

قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [البقرة : ١١٤] .

بيوت الله في الأرض التي يأمن فيها الخائف ، سلبوا الأمن منها ، وخوّفوا عباد الله فيها ، فكذلك لا يدخلونها إلا خائفين .. والجزاء من جنس العمل ..

قال ابن كثير(١) : اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله ، وسعوا في خرابها على قولين :

أحدهما : هم النصارىٰ . عن ابن عباس .

قال مجاهد ؛ هم النصارىٰ ، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه .

وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه ، خرّب بيت المقدس ، وأعانه على ذلك النصارى .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٢٢٤ - ٢٢٦) .

وقال : أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

وقال السدي : كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خرّبه ، وأمر به أن تطرح فيه الجيف ، وإنما أعانهم الروم على خرابه ، من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا . وروي نحوه عن الحسن البصري .

القول الثاني : رواه ابن جرير عن ابن زيد : هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة ، حتى نحر هديه بذي طوى ، وهادنهم ، وقال لهم : « ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده » ، فقالوا : لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر ، وفينا باقٍ .

وفي قوله : ﴿ **وسعى في خرابها** ﴾ [البقرة : ١١٤] قالوا : إذا قطع من يعمرها بذكره ، ويأتيها للحج والعمرة . عن ابن عباس : أن قريشا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله** .... ﴾ [البقرة : ١١٤].

ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشًا لم تسعَ في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

قلت : والذي يظهر – والله أعلم – القول الثاني كما قاله ابن زيد ، وروي عن ابن عباس ؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس ، كان دينهم أقوى من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك ؛ لأنهم لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ [المائدة : ٧٨] وأيضًا فإنه تعالى لمّا وجه الذمّ في حق اليهود والنصارى شرع في ذمّ المشركين ، الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، فأي خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال

تعالى : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [الأنفال : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ [التوبة : ١٧ - ١٨] .

فإذا كان مَنْ هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها ، فأي خراب لها أعظم من ذلك ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها ، وإقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ [البقرة : ١١٤] ، هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تُمكنوا هؤلاء - إذا قدرتم عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : « ألا لا يحجنَّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته » .

وقال بعضهم : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ، على حال التَّهيّب ، وارتعاد الفرائص من المؤمنين ، أن يبطشوا بهم ، فضلًا أن يستولوا عليها ، أو يمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك ، لولا ظلم الكفرة وغيرهم .

وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفا ، يخاف أن يؤخذ فيعُاقب ، أو يُقتل إن لم يسلم ، وقد أنجز الله هذا الوعد ، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله ﷺ : « ألّا يبقى بجزيرة العرب دينان ، وأن تُجلى اليهود والنصارى منها»، ولله الحمد والمنة ؛ وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام ، وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرًا صلوات الله عليه ،

وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ..

فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه ، وكما أجلوْهم من مكة أُجلوا منها .

﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [البقرة : ١١٤] على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، والدعاء إلى غير الله عنده ، والطواف به عريانًا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

وأما من فسّر بيت المقدس ، فقال كعب الأحبار : إن النصارى لما ظهروا على بيت القدس خرّبوه . فلما بعث الله محمدًا ﷺ أنزل عليه : ﴿ **ومن أظلم** .. ﴾ **الآية** [البقرة : ١١٤] فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفًا .

وقال السدي : فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه ، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها .

وقال قتادة : لا يدخلون المساجد إلا مُسَارقة .

قلت : وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا ببيت المقدس بامتهان الصخرة التي كانت يصلي إليها اليهود ، عوقبوا شرعا وقدرًا بالذلة فيه إلا في أحيان من الدهر ، وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضًا أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم – والله أعلم – اهـ .

وكم من مسجدٍ جعلوه ديرًا ... على محرابه رُسِمَ الصليبُ
دمُ الخنزير فيه لهم خَلُـــوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيه طِيبُ

واليهود سيجازيهم الله بجنس أعمالهم في بيت المقدس .

ويصور شاعر مجيئه إلى المسجد الأقصى بعد احتلال اليهود له .

وما كا يُفتح للنور بابْ ..
ويومض للخطو حزنُ الترابْ ..
وقفنا وكادت خطانا تُشَلُّ بأعتابه !
... وكادت رؤنا تُغلُّ على بابه !
وكدنا نُحِسُّ ..

... بأنا بأرض ضللنا إليها طريق الصلاهْ .
وأنّا اتجهنا إلى ساحةٍ .
لها نسبٌ بفجور العصاهْ .
وحاشا .. وحاشا .. لبيت الإلهْ !
وجدنا الصلاهْ ..
بغايا من الشرّ ترقص فوق الحريقْ .
وجدنا الأذانْ ..
شياطينَ لغوٍ .. تهاترُ بالإسم عبر الطريقْ .
وجدنا المصلّى ..
ميادين لهو ، تخاصر فيها الخنا والفسوقْ .
وجدنا الحمام الذي كان يصغي .
لصوت الحواميم يخْضرُّ منه السكونُ العريقْ ،
... ويهدل بالطهر نشوانَ يشرب من كل حرفٍ خشوع الرحيقْ ..
ذبيح الأمان ..
جريح المكان ..
يولول في صمته لا يفيق !!
.. وجدنا التراب الذي فيه صلى .. « محمدْ » .
حريقًا .. به لعنة الله تُرغي وتُزبدْ .
... وجدنا المنابرَ تحكي مجازر للطهر مخنوقة في العروقْ .
.. وجدنا على صخرة الحق ليلًا .. ينادى الشروقْ .
ونارًا .. تشُدُّ يد النورِ .. من قاعِ ليلٍ عميقْ .

○ المشاؤون في الظلم إلى المساجد ○

قال رسول الله ﷺ : « بشر المشائيين في الظلم إلى المساجد بالنور التام

يوم القيامة »[١] .

قال المناوي : لما قاسوا مشقة ملازمة المشي في ظلمة الليل إلى الطاعة ، جُوزوا بنورٍ يضيء لهم يوم القيامة ، وهو النور المضمون لكل مشّاء إلى الجماعة في الظلمة .

قيل : إنما قيد النور التام ؛ لأنَّ أصل النور يعطى لكل من تلفظ بالشهادتين من مؤمن أو منافق ؛ لظاهر حرمة الكلمة ، ثم يقطع نور المنافقين فيقولون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [التحريم : ٨][٢] والجزاء من جنس العمل .

مشوا في الظلم إلى المساجد ، فأنعمنا عليهم بالنور التام يوم القيامة .

ظلمة بنور ، والجزاء من جنس العمل .

○ من بنى لله مسجدًا ○

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٣].

وقال : « من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة أو أصغر ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٤] .

وقال : « من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٥] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن بريدة ، وابن ماجة والحاكم عن أنس ، وعن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٢٠ ، تخريج المشكاة ٧٢١ ، صحيح أبي داود ٥٧٠ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠١) .

(٣) رواه ابن ماجة عن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٣ ، الروض النضير (٨٨٣ ، ٩٥٤) .

(٤) رواه ابن ماجة عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٤ ، تخريج الترغيب (١ / ١١٧) .

(٥) رواه أحمد عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٥ ، الروض النضير (٢/٢٨٥ ، ٩٥١) .

وقال : « من بنى مسجدًا لله يُذكرُ الله فيه ؛ بنى الله له مثله في الجنة »[(١)].

وقال : « من بنى مسجدًا ، يبتغي به وجه الله ؛ بنى الله له مثله في الجنة »[(٢)].

قال ابن حجر :

« ولو كمفحص قطاة » حمل أكثر العلماء ذلك على المبالغة ؛ لأن المكان الذي تفحص القطاة عنه ؛ لتضع فيه بيضها وترقد عليه ، لا يكفي مقداره للصلاة فيه .

وقيل : بل هو على ظاهره ، والمعنى أن يزيد في مسجد قدرًا يحتاج إليه تكون تلك الزيادة هذا القدر ، أو يشترك جماعة في بناء مسجد ، فتقع حصة كل واحد منهم ذلك القدر ، وهذا كله بناء على أن المراد بالمسجد ما يتبادر إلى الذهن ، وهو المكان الذي يتخذ للصلاة فيه ، فإن كان المراد بالمسجد موضع السجود ، وهو ما يسع الجبهة فلا يحتاج إلى شيء مما ذكر[(٣)] .

« بنى الله له مثله » قال ابن حجر[(٤)] : لفظ المثل له استعمالان :

أحدهما : الإفراد مطلقا كقوله تعالى: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ [المؤمنون : ٤٧].

والآخر : المطابقة كقوله تعالى : ﴿ أمم أمثالكم ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فعلى الأول : لا يمتنع أن يكون الجزاء أبنية متعددة ؛ لاحتمال أن يكون المراد : بنى له عشرة أبنية مثله .

والأصل أن ثواب الحسنة الواحدة واحد بحكم العدل، والزيادة عليه بحكم الفضل .

ومن الأجوبة المرضية أيضًا : أن المثلية هنا بحسب الكمية ، والزيادة حاصلة

---

(١) رواه أحمد عن عمرو بن عبسة والنسائي ، ورواه ابن ماجة عن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٦ ، وتخريج المشكاة رقم ٣٣٨٥ ، وتخريج الترغيب (١/١١٧).

(٢) رواه أحمد والبيهقي والترمذي وابن ماجة عن عثمان .

(٣) فتح الباري (١ / ٦٤٩) .

(٤) فتح الباري (١ / ٦٥٠) .

بحسب الكيفية ، فكم من بيت خيرٌ من عشرة بل من مائة ، أو أن المقصود بالمثلية أنّ جزاء هذه الحسنة من جنس البناء لا من غيره ، مع قطع النظر عن غير ذلك ، مع أن التفاوت حاصل قطعًا بالنسبة إلى ضيق الدنيا ، وسعة الآخرة ، إذ موضع شبر فيها خير من الدنيا وما فيها كما ثبت في الصحيح .

وقد روى الإمام أحمد من حديث واثلة بلفظ : « بنى الله له في الجنة أفضلَ منه » ، وللطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ : « أوسعَ منه » .

وهذا يشعر بأن المثلية لم يقصد بها المساواة من كل وجه .

وقال النووي : يحتمل أن يكون المراد أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا .

يا هذا ... بيوت الدنيا من طين وحجر وتراب ، ومدَر وحديد وخشب ، وجريد وقصب ، إن لم يُكنس كثرت فيه القمامة ، وإن لم يسرج فما أشد ظلامه ، وإن لم يتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه ، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب ، وعن قريب يصير كالتراب ، يتفرق عنه السكان ، وتنتقل عنه القطان ، يعفو أثره ، ويندرس خبره ، يمحى رسمه ، وينسى اسمه .

فأين أنت .. من دار باقية ، قصورها عالية ، أنهارها جارية ، قطوفها دانية ، أفراحها متوالية ، لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، لا تعب فيها كلا ولا نصب ، وملاطها المسك الأذفر .. فهل سمعت عن ملاط من مسك ؟! وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر .

فمن بنى لله بيتًا .. بنى الله له بيتًا في الجنة والجزاء من جنس العمل .

قال تعالى: ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحية وسلامًا**﴾ [الفرقان : ٧٥].

اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغدا يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة ، فهم في مستقر عزهم يسمعون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

من تطهّر في بيته :

قال رسول الله ﷺ : « من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ؛ ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة »[1] .

فعلى قدر نقل الخطوات ، تكون رفعة الدرجات ، وحطّ السيئات ، والجزاء من جنس العمل .

○ من توضأ فأحسن الوضوء ○

قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج من تحت أظفاره »[2] .

وقال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[3] .

قال المناوي : « تبلغ الحلية » أي التحلي بأساور الذهب والفضة المكلل بالدر والياقوت « من المؤمن » يوم القيامة .

قال الطيبي : ضمن « تبلغ » معنى تتمكن ، وعدّي بمِنْ ؛ أي تتمكن من المؤمن الحلية مبلغا يتمكن الوضوء منه[4] . والجزاء من جنس العمل ..

قال الحسن : الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء .

وقال رسول الله ﷺ : « أمتي يوم القيامة غُر من السجود ، محجلون من الوضوء »[5] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم عن عثمان - رضي الله عنه - .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٣ / ٢٢٧) .

(٥) رواه الترمذي عن عبد الله بن بسر ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواة أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ١٣٩٣ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٠٣٠ .

قال المناوي : قال الأشرف : « غُرّ » جمع أغرّ ، وهو الأبيض الوجه ، والمحجل من الدواب ما قوائمه بيض ، مأخوذ من الحجل وهو القيد ، كأنه مقيد بالبياض ، وأصله في الخيل ، وأصل الغرة لمعة بياض بجبهة الفرس ، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر ، والمراد بها هنا النور الكامن في وجوه هذه الأمة .

والتحجيل بياض في ثلاث من قوائم الفرس ، أصله الحجل : الخلخال ، والمراد به أيضًا هنا النور « غر من السجود » أي من أثر السجود في الصلاة ، قال تعالى : ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ [الفتح : ٢٩] . وهذا لا تدافع بينه وبين خبر الشيخين : « إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء » . وما ذلك إلا لأن المؤمن يكسى في القيامة نورًا من السجود ، ونورًا من أثر الوضوء ، نورٌ على نورٍ ، فمن كان أكثر سجودًا أو أكثر وضوءًا في الدنيا ، كان وجهه أعظم ضياءً وأشد إشراقا من غيره ، فيكونون فيه على مراتب من عظم النور والأنوار ، لا تتزاحم ، ألا ترى أنه لو أدخل سراج في بيت ملأه نورًا ، فإذا أُدخل فيه آخر ثم آخر امتلأ بالنور من غير أن يزاحم الثاني الأول ولا الثالث الثاني ، وهكذا[1] .

○ تسوية الصفوف ○

قال رسول الله ﷺ : « أقيموا الصفوف ، فإنما تُصفُّون بصفوف الملائكة ، وحاذوا بين المناكب ، وسُدُّوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات الشيطان ، ومن وصل صفًا وصله الله ، ومن قطع صفًا قطعه الله عز وجل »[2].

---

(١) فيض القدير (٢ / ١٨٤) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والطبراني عن ابن عمر ، وصححه الألباني : تخريج المشكاة ١٠٠٢ ، صحيح أبي داود رقم ٦٧٢ ، والسلسلة الصحيحة ٧٤٣ ، تخريج الترغيب (١ / ١٧٣) ، صحيح الجامع ١١٩٨ ، ورواه النسائي والحاكم .

قال المناوي : « من وصل صفًا » بوقوفه فيه ، وصله الله برحمته ورفع درجته ، وقرّبه من منازل الأبرار ، ومواطن الأخيار ، « ومن قطع صفًا » بأن كان فيه فخرج منه لغير حاجة أو جاء إلى صف ، وترك بينه وبين من بالصف فرجة بلا حاجة « قطعه الله » أي أبعده عن ثوابه ومزيد رحمته ، إذن الجزاء من جنس العمل ، فيُسنُّ انضمام المصلين بعضهم لبعض ، ليس بينهم فرجة ولا خلل ، كأنهم بنيان مرصوص .

قال ابن حجر :

قد ورد الأمر بتعديل الصف وسد خلله ، والترغيب في ذلك في أحاديث كثيرة ، أجمعها هذا الحديث[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « من وصل صفا وصله الله ، ومن قطع صفا قطعه الله »[(٢)] .

والجزاء من جنس العمل .

أما عن جواز الصلاة خلف الصف فقد قال الشيخ السعدي في الفتاوى لما سُئل عن صلاة المنفرد خلف الصف إذا كان الصف تامًا : لا بأس أن تصلي خلف الصف منفردًا ؛ لأنك معذور ، وهذا القول وسط بين قول من يرى أن الصلاة خلف الصف صحيحة ولو لغير عذر ، وقول من قال : إنها غير صحيحة ولو لعذر ، والصواب هذا التفصيل : إن وجدت في الصف محلًا تقوم فيه من غير أن تزاحم أحدًا ، فلا يجوز أن تصف وحدك ، وإن وجدت الصف تامًّا من كل جانب ، فهو عذر وصف ولو وحدك ، وتابع الإمام ، والله أعلم[(٣)] .

قال رسول الله ﷺ : « أقيموا صفوفكم ، فوالله لتقيمن صفوفكم أو

---

(١) فيض القدير (٢ / ٧٥ - ٧٦) .

(٢) رواه النسائي والحاكم عن ابن عمر ، وأحمد وأبو داود وابن خزيمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٤٦٦ ، وتخريج الترغيب (١ / ١٧٤) وتخريج المشكاة ١١٠٢ .

(٣) الفتاوى السعدية ١٧٢ .

ليخالفن الله بين قلوبكم »[١] .

قال المناوي : ردّد بين تسويتهم صفوفهم ومن هو كاللازم لنقيضها ، وهو اختلاف القلوب ، فإن تقدم الخارج عن الصف يفوت على الداخل ، وذلك يجر إلى الضغناء بينهم ، فتختلف قلوبهم ، واختلاف القلوب يفضي إلى اختلاف الوجوه .

وهذا جزاء من جنس العمل كخبر من قتل نفسه بحديدة عُذب بها .

وقال النووي : الظاهر أن معناه : يُوقع بينكم العداوة ؛ واختلاف القلوب كما يقال : تغير وجه فلان ، إذا ظهر على وجهه كراهية ؛ لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في الظواهر ، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن[٢] .

○ الإقبال على الله وعدم الالتفات ○

قال رسول الله ﷺ : « إذا قام أحدكم في صلاته ، فإنه يناجي ربه ، وإن ربه بينه وبين القبلة ، فلا يبزقن أحدكم قِبَل قبلته ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه »[٣].

وقال ﷺ : « إن الرجل إذا دخل في صلاته ، أقبل الله عليه بوجهه ، فلا ينصرف عنه حتى ينقلب ، أو يحدث حدث سوء »[٤] .

وقال ﷺ : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإنما يستقبل ربه »[٥] .

وقوله ﷺ : « فالله يقبل عليه بوجهه ما لم يصرف وجهه عنه »[٦] .

قال ابن القيم : قال ﷺ : « إن الله يأمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت » .

وقال جابر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض الله عنه ، وقال : يابن آدم ، أنا خير ممن تلتفت إليه ، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه ، فإذا التفت أعرض الله عنه » .

---

(١) رواه أبو داود عن النعمان بن بشير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٢٠٢ ، صحيح أبي داود ٦٦٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٢١ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) أخرجه ابن ماجة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد .

(٦) أخرجه النسائي .

وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له : ابن آدم ، إلى مَنْ تلتفت ؟ إلى خير لك مني تلتفت »(١).

أَقْبَلَ على الله فأقبل الله عليه ، والتَفَت فأعرض الله عنه ..

والجزاء من جنس العمل ..

أيها المعرض عنَّا ... إن إعراضك منَّا
لو أردناك جعلنا ... كل ما فيك يردْنَا
عباد أعرضوا عنا ... بلا جرم ولا معنى
أساءوا ظنهم فينا ... فهلّا أحسنوا الظنَّا
فإن خانوا فما خنَّا ... وإن عادوا فقد عدنا
وإن كانوا قد استغنوا ... فإنا عنهمو أغنى

صلى أبو زرعة الرازي عشرين سنة ، وفي محرابه كتابة فسئل عن الكتابة في المحراب فقال : قد كرهه قوم ممن مضى ، فقالوا له : هو ذا في محرابك كتابة أما علمت به ؟ قال : سبحان الله رجل يدخل على الله ، ويدري ما بين يديه ..!

وهذا هو الربيع بن خثيم ، سيد من سادات التابعين ، تلميذ عبد الله بن مسعود : اشترى فرسًا بثلاثين ألفا فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه يسار يحتشُّ ، وقام يصلي ، وربط فرسه ، فجاء الغلام وقال : يا ربيع أين فرسك ، قال : سرقت ، قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم ، يا يسار إني كنت أناجي ربي عز وجل ، فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهم إنه سرقني ، ولم أكن لأسرقه ، اللهم إن كان غنيًّا فاهده ، وإن كان فقيرًا فأغنه(٢) .

سرقت فرسه .. وهو ينظر إليها ، ولم يشغله ذلك عن مناجاة الملك العلام .

ما عنك يشغلني مالٌ ولا ولدٌ ... نسيت باسمك ذكر المالِ والولدِ
فلو سفكتَ دمي في الترب لانكتبتْ ... به حروفك لم تنقصْ ولم تَزِدِ

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١٨٨/٢).
(٢) الزهد ٣١-٣٢، مختصر قيام الليل ٢٧.

قال رسول الله ﷺ : « أسرق الناس الذي يسرق صلاته ، لا يتم ركوعها ولا سجودها ، وأبخل الناس من بخل بالسلام »[١] .

قيل لعامر بن عبد قيس : أما تسهو في صلاتك ، قال : أو حديث أحب إليّ من القرآن حتى أشتغل به !! هيهات ، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس .

وكان مسلم بن يسار ، لا يلتفت في صلاته ، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ، فزع لها أهل السوق فما التفت ، وكان إذا دخل منزله ، سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا ، علما منهم أن قلبه مشغول ، وكان يقول في مناجاته : إلهي ، متى ألقاك وأنت عني راضٍ ..؟

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهمْ جعلت اشتغالي فيك يا منتهى شغلي
فمن لي بأنْ ألقاك في ساعة الرضا ومن لي بأنْ القاك والكل لي.. من لي؟

يا واقفًا في صلاته بجسده والقلب غائب .. ما يصلح ما بذلته من التعبد مهرًا للجنة ، فكيف ثمنًا للجنة ..!؟ رأت فأرة جملًا فأعجبها ، فجرّت خطامه فتبعها ، فلما وصل إلى باب بيتها ، وقف ونادى بلسان الحال : إما أن تتخذي دارًا يليق بمحبوبك ، أو محبوبًا يليق بدارك . خذ من هذا إشارة : إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك ، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك[٢] .

وكان ابن الزبير إذا قام إلى صلاته كأنه عود ، وكان يقال : ذلك من خشوعه ، لو رأيته وهو يصلي لقلت غصن شجرة يصفقها الريح ، وكان يُسمَّى : حَمَام المسجد .

رحل والله ، أولئك السادة ، وبقي قرناء المهاد والوسادة ، فأين وصفك من هذه الأوصاف ؟ وأين شجر الزيتون من شجر الصفصاف ؟!

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس السليم إذا مشى كالمقعدِ

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن مغفل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٧٧ .

(٢) المدهش لابن الجوزي ٤٧٢ - ٤٧٣ .

○ السجـود ○

قال رسول الله ﷺ : « أكثر من السجود ، فإنه ليس من مسلم يسجد لله تعالى سجدة إلا رفعه الله بها درجة في الجنة ، وحطّ عنه بها خطيئة »(١) .

قال المناوي : « ليس من مسلم يسجد لله تعالى سجدة » صحيحة « إلا رفعه الله بها درجة في الجنة » التي هي دار الثواب « وحطّ عنه بها خطيئة » أي محا عنه بها ذنبًا من ذنوبه ، فلا يعاقبه عليه(٢) .

كلما سجد ، وتذلل لله تعالى في الدنيا ، ووضع جبهته محل أقدام الناس ، رفعه الله تعالى في الآخرة لأعلى الدرجات ، ومحا عنه السيئات ، وأدخله فسيح الجنات ، والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يسجد لله سجدة ، إلا كتب الله له بها حسنة ، وحطّ عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود »(٣).

وقال أيضًا : « ما من عبد يسجد لله سجدة ، إلا رفعه الله بها درجة ، وحط بها عنه خطيئة »(٤) .

قال المناوي(٥) : فإن قيل : ما الفرق بين رفع الدرجة وكتب الحسنة ، فقد يكون رفع الدرجة بسبب كتابة الحسنة ؟ قلنا : رفع الدرجة ، وإن كان

---

(١) رواه ابن سعد ، وأحمد في مسنده عن أبي فاطمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٢١٥ ، والسلسلة الصحيحة ١٥١٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٢ / ٨٣) .

(٣) رواه ابن ماجة والطبراني ، والضياء عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦١٨ ، والترغيب (١ / ١٤٥) ، ورواه أحمد .

(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان عن ثوبان وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦١٧ ، والإرواء ٤٥٦ .

(٥) فيض القدير (٥ / ٤٨٦) .

بسبب اكتساب الحسنة ، فالسبب غير المسبب ، فهما شيئان ، وأيضًا : رفع الدرجة قد لا يكون مرتبًا على اكتساب الحسنة ، فقد يمحى بكتابتها سيئة أخرى .

والساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له .. وذلك أشرف حالاتِ العبد ، فإن السجود سر العبودية .

○ المؤذن ○

قال رسول الله ﷺ : « إنَّ المؤذن يغفر مدى صوته ، ويصدقه كل رطب ويابس سمع صوته ، والشاهد عليه خمس وعشرون درجة »[1] .

قال المناوي: قال ابن العربي: والمؤذنون أفضل جماعة دعت إلى الله عن أمر الله ورسوله، ولولا رفق المصطفى ﷺ بأمته لأذن، فإنه لو أذن، وتخلف عن إجابته من سمعه إذا قال : «حي على الصلاة» عصى ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾[2] [الأحزاب: ٤٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا شيء ، إلا شهد له يوم القيامة »[3] .

وقال : « المؤذن يغفر له مدى صوته ، ويشهد له كلُّ رطب ويابس ، وشاهد الصلاة يُكتب له خمس وعشرون صلاة ويُكفر له ما بينهما »[4] .

وقال ﷺ : « المؤذن يغفر له مدّ صوته ، وأجره مثلُ أجر من صلى معه »[5].

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٩٢٥ ، والترغيب (٢ / ١٠٧) وعنه رواه ابن حبان

(٢) فيض القدير ٦ / ٣٤٩ .

(٣) رواه أحمد ، ومالك ، والبخاري ، والنسائي ، وابن ماجة ، عن أبي سعيد ، وهو صحيح .

(٤) رواه أحمد وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، وابن ماجة، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في الجامع ٦٥٢٠ وتخريج المشكاة ٦٥٧٥ .

(٥) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٥١٩ ، وصحيح الترغيب (١ / ١٠٧ - ١٠٨) .

قال المناوي : « المؤذن يغفر له مدَّ صوته » يعني يغفر له مغفرة طويلة عريضة على طريق المبالغة ؛ أي يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسْعه في رفع الصوت ، وقيل : تغفر خطاياه وإن كانت بحيث لو فرضت أجسامًا ملأت ما بين الجوانب التي يبلغها(١) .

والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة »(٢) .

قال المناوي : « أطول الناس أعناقا يوم القيامة » يعني أكثرهم تشوفا إلى رحمة الله ؛ لأن المتشوف يطيل عنقه إلى ما تشوف إليه ، أو يكونون سادة ، والعرب تصف السادة بطول العنق .

ومن أجاب دعوة المؤذن يكون معه أو أكثر الناس رجًا ؛ لأن من رجا شيئًا طال إليه عنقه ، والناس حين الكرب يكون المؤذنون أكثرهم رجاء .

وقال القاضي : وتعديل عنق الرجل وطوله كناية عن فرحه وعلو درجته وإنافته على غيره .

أو المراد: إذا وصل العرق إلى الأفواه طالت أعناق المؤذنين لئلا ينالهم ذلك(٣).

عَلا صوتهم فَرُفِعت درجاتهم ، وحُطّت سيئاتهم ، وشهد لهم من سمعهم ، وفي وقت الكرب طالت أعناقهم ، تشوفا إلى رحمة ربهم .. والجزاء من جنس العمل ، كما تشوفت أعناقهم برفع صوتهم عند الأذان في الدنيا ، فكذلك تتشوف أعناقهم طولا لرحمة الله في الآخرة .

○ فضل الجمعة ○

قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث

(١) فيض القدير (٦ / ٢٤٩) .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن معاوية ، وهو صحيح ، صححه الألباني في صحيح الجامع ٦٥٢١ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٥٠) .

الجمعة زهراء منيرة لأهلها ، فيحفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها ، تضيء لهم ، يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضًا ، رياحهم تسطع كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ، ما يتركون تعجبا ، حتى يدخلوا الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون »[1] .

فكما بكروا إلى الجمعة ، وتطيبوا ، وشاهدهم الناس في الدنيا ، فإنهم يبعثون كذلك يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل .

وهذا في حق من سارع إلى الجمعة ، والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن القيم في النونيّة عن يوم المزيد في الجنة :

أوَمَا سمعتَ بشأنهم يوم المزيـ ... د وأنه شأن عظيم الشأنِ
هو يوم جمعتنا ويوم زيارة الـ ... ـرَّحمن وقت صلاتنا وأذانِ
والسَّابقونَ إلى الصلاة هُمُ الأُلى ... فازوا بذاكَ السبقِ بالإحسانِ
سبقٌ بسبقٍ والمؤخر هاهنا ... متأخر في ذلك المَيْدَانِ
والأقربون إلى الإمام فهم أولو الـ ... ـزُّلْفى هناك فها هنا قربانِ
قربٌ بقربٍ والمباعد مثله ... بعدٌ ببعدٍ حكمة الديانِ
ولهمْ منابرُ لؤلؤٍ وزبرجدٍ ... ومنابرُ الياقوتِ والعِقْيانِ
هذا وأدناهمْ وما فيهم دني ... مَنْ فوق ذاكَ المسكِ كالكثبانِ

يقول الهراس في شرح النونية :

ذكر أبو نعيم من حديث المسعودي عن المنهال عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : « سارعوا إلى الجمعة في الدنيا ، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة في كل جمعة على كثيب من كافورٍ أبيض ، فيكونون منه سبحانه في القرب على قدر سرعتهم إلى الجمعة ، ويحدث لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه قبل ذلك ، فيرجعون إلى أهليهم وقد أحدث لهم » .

---

(١) رواه مالك والبيهقي عن أبي موسى وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٨٦٨ ، والصحيحة رقم ٧٠٦ .

فالسابقون إلى الصلاة يوم الجمعة هم السابقون في الذهاب إلى الله عز وجل في يوم المزيد ، الذي هو يوم زيارة الرب تعالى ، والمتأخرون هنا متأخرون هناك جزاءً وفاقًا .

وكذلك الأقربون إلى الإمام في يوم الجمعة يكونون هم أهل الزلفى والقرب عند الله ، فقربهم هناك بحسب قربهم من الإمام ، وبُعُدهم بحسب بعدهم كذلك .

ولهم هناك في هذا الوادي الذي يسمى وادي المزيد منابرُ من اللؤلؤ والياقوتِ والزبرجدِ والذهبِ ، وأدناهم منزلة - وليس فيهم دنيء ولا ناقص - يجلسون على كثبان المسك ولا يجدون لأهل المنابر فضلًا عليهم[1] .

سبق بسبق والجزاء من جنس العمل .

○ المتهجدون ○

قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة : ١٦ -١٧] .

قال القرطبي :

وقال آخرون : عنى بها قيام الليل ، قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح .

وهو قول مجاهد ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ، والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ لأنهم جوزوا على ما أخفوا ، بما خفي .

وقال الحسن : أخفى القوم أعمالًا ، فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت[2].

---

(١) شرح النونية - لمحمد خليل هراس (٢ / ٤٢١ - ٤٢٢) .

(٢) القرطبي ص٥١٨٢ .

قال ابن القيم :

تأمل كيف قابلَ ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهمِ على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة[1] .

قال الأوزاعي : من أطال قيام الليل هوّن الله عليه وقوف يوم القيامة .

والجزاء من جنس العمل .

○ التأخر عن الصلاة ○

أما الذين يتأخرون عن الصلاة وعن الصفوف الأولى.. فلننظر إلى جزائهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله »[2] .

ومعنى قوله : « لا يزال قوم يتأخرون » أي عن الصفوف الأولى .

« حتى يؤخرهم الله » عن رحمته أو عظيم فضله ، ورفع المنزلة ، وعن العلم ، ونحو ذلك[3] .

تأخروا في الدنيا عن الصفوف الأولى ، فأخّرهم الله عز وجل يوم القيامة .

والجزاء من جنس العمل .

○ اكفني أول النهار ○

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول : يابن آدم اكفني أول النهار أربع ركعات ، أكفك بهن آخر يومك »[4] . والجزاء من جنس العمل ..

---

(١) حادي الأرواح لابن قيم الجوزية ص٢٧٨ .

(٢) أخرجه مسلم ، وابن خزيمة في صحيحه .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤ / ١٥٩) .

(٤) صحيح : صححه الألباني في صحيح الجامع ١٩٠٩ ، تخريج الترغيب (١/٢٣٦).

فسبحان من قضى على الغافلين كسلًا وقعودًا ، ورفع المتقين علوًّا وصعودا ، ومنحهم من إنعامه فوزًا وسعودًا ، بمطلوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

أنعم عليهم فأعطاهم ، واستخلصهم واصطفاهم ، وقليل ماهم ، اشتغل الناس بدنياهم ، واشتغلوا بذكر محبوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

قنعوا بأدون المطعم واللباس ، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأحلاس[١] ، يمشون بالسكينة بين الناس ، وما دروا بهم في دروبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

اكتفوا من الليل بيسير النوم ، واشتغلوا بالصلاة والصوم ، وكانت – والله – همم القوم في صلاح قلوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

لبسوا ثياب السفر ، ورحلوا على أكوار[٢] السَّهَر ، فلو سمعت وقت السَّحَر ، ترنم طروبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

يعتذرون من زلل القدم ، ويتمنون بعد الوجود العَدَم ، وقد بعثوا رسالة الندم ، مع مندوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

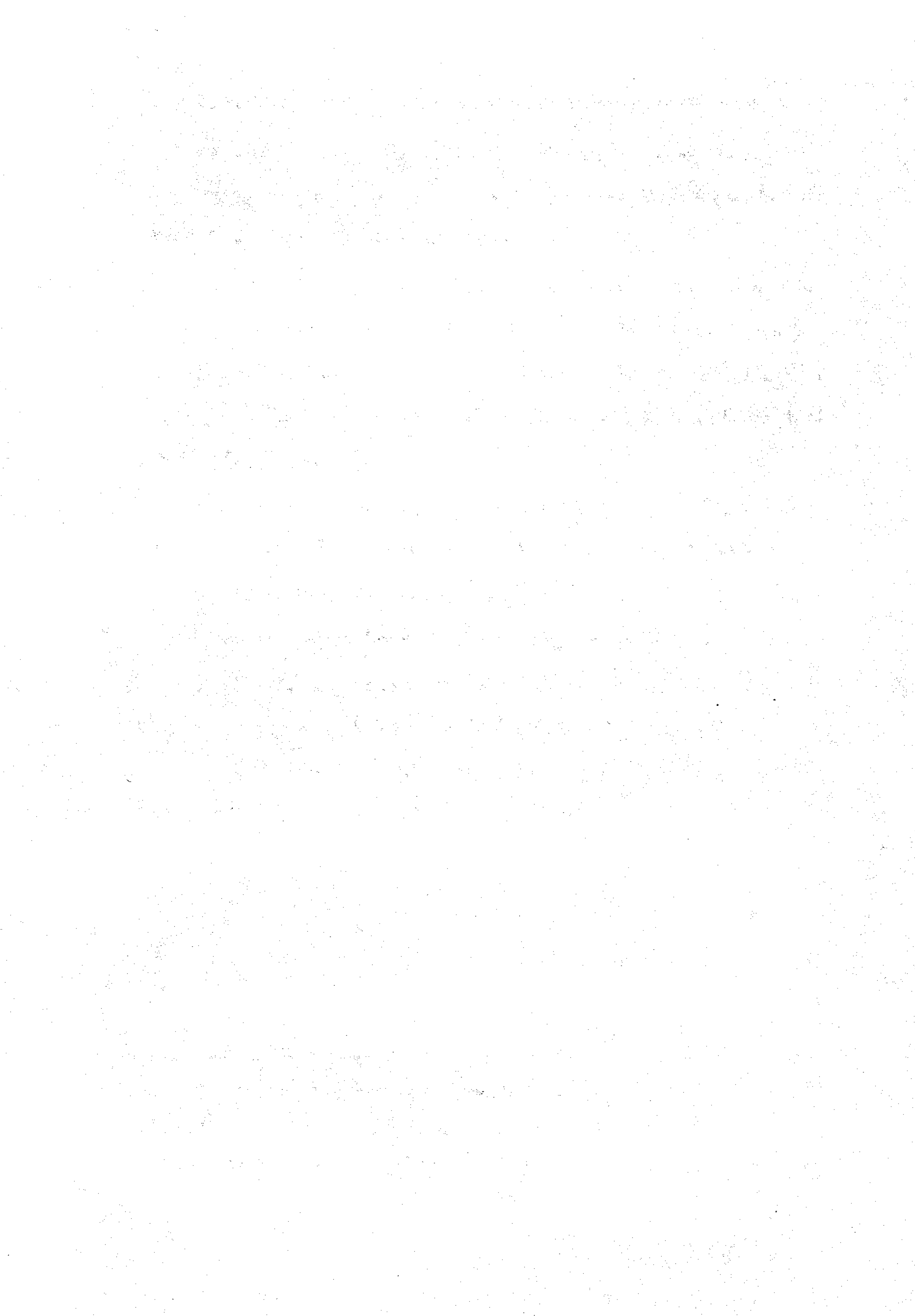
قلبتهم الأشجان ، وغيرتهم الأحزان ، ينزعجون لما قد كان ، من سالف ذنوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾[٣].

* * *

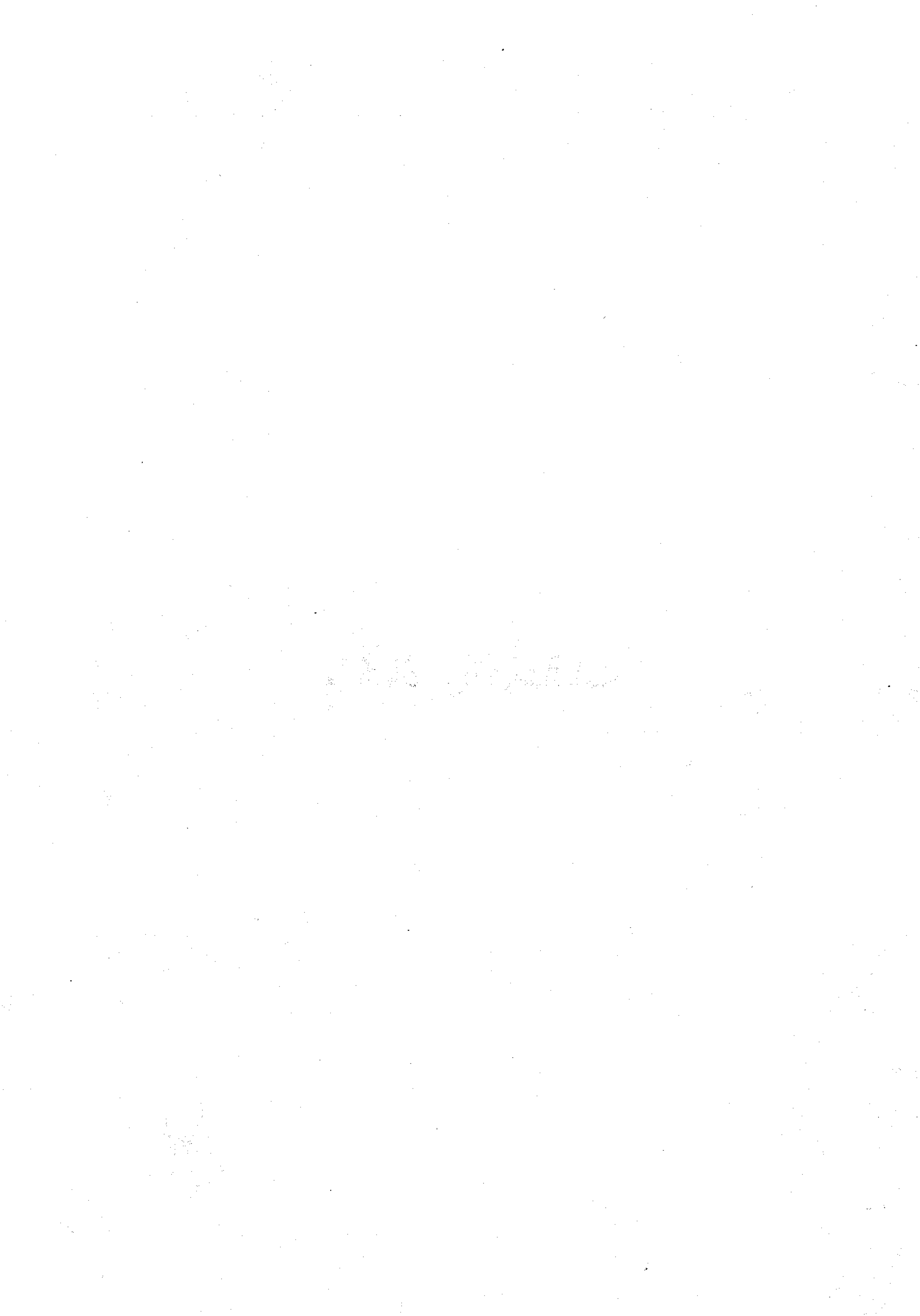
(١) جمع حِلْس ، وهو الكِسَاء الذي يبسط في البيت .

(٢) جمع كور ، وهو الرحل الذي يوضع فوق ظهر البعير .

(٣) التبصرة لابن الجوزي (٣٠٨/٢ - ٣٠٩) .



الزكـاة والصدقـات



◻ الزكاة والصدقات ◻

اعلم يا أخي ، أن الجود على ألسنة الورى محمود .

ليس يعطيك للرجاء أو الخوف ولكنْ يَلذّ طعم العطاءِ

فاشكر من أمات غيرك بالعدم وهو حي وأنشرك .

وما قدر كِسرة تعطيها ، أو ما سمعت أن الربَّ يربيها ، فيراها صاحبها كجبل أُحُد ، أفيرغب عن مثل هذا الخير أحد ؟

واعجبًا لِلُقْمةٍ كانت قليلة فكثرتْ ، وفانية فبقيتْ ، ومحفوفة[1] فحفظتْ ، أما علمت أن الصدقة إذا صدقت في إخراجها نفس تقيّ ، تقي ميتة السوء ، وتطفيء غضب الربِّ .

إن اللقمة إذا أكلت صارت أذى وقبائح في الحش ، وإذا تُصدق بها صارت إذًا مدائح عند العرش .

إن تطوعات البدن لا تتعدى المتَطَوِّع ، وإنَّ نفع الصدقة متعدد متنوع .

إن مقيمَ جسد الفقير بأسباب صلاته ، شريك له في ثواب صلاته .

ومن فطرّ صائمًا قد صبر إلى عشائه من فجره ، فله مثل أجره .

إن الصدقة سريعة الخلف ، وحافظة بعد الموت للخلف .

واعلم أن إنفاق حبة ، يثمر لك الوفاق والمحبة ﴿ **في كلِّ سُنبلة مائة حبة** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ثم قَدّر أنك لا تثاب على هذه اللقمة ، أين الحنوّ على الأخ والرحمة ؟ هان على الأملس ما لاقى الدَّبر[2].

---

(١) حفّ الشمع : ذهب ، محفوفة أي زائلة .

(٢) يضرب مثلًا في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

قد كان حاتم الطائيّ كافرًا ، وكان يطعم حاضرًا ومسافرًا ، فإذا فضلت لقمات ألقاهنّ على الرمل . وقال : إنهن جاراتٌ – يعني النمل – .

كان الصالحون يثورون إلى الإيثار وأنت رصاصة[1] ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [الحشر : ٩] .

كانَ الكرامُ وأبناءُ الكرام إذا تسامعوا بكريمٍ نالَهَ عدمُ
تسابقوا فيواسيه أخو كرمٍ منهم ويرجع باقيهم وقد نَدمُوا
فاليوم صاروا يعدون الندى سرفًا وينكرونَ على المعطي إذا علموا

فالزم فعل الخير مكانك ، وأطعم البُرَّ إمكانك ، وأقرضْ رَبَّكَ فقد ربَّك ، وعامل مولاك بما أولاك ، ولا تردنّ سائلًا بلا ، فإنه موت عنده بل بِلَى . ولا تكن من البخلاء ، وقانا الله وإياك أدوى داء .

خُلقوا وما خلقوا لمكرمةٍ فكأنهم خُلِقوا وما خُلِقُوا
رُزقوا وما رُزقوا سماحَ يدٍ فكأنهم رزقوا وما رزقوا

واعلم أخي أنه لا يقول المجد : واطرباه حتى يصيح المال : واحرباه .

هيهات أن يسمن المدح حتى يُهزلَ الكِيسُ .

يُعنى البخيلُ بجمعِ المالِ مدتهُ وللحوادثِ والورّاثِ ما يدعُ
كدودة القزّ ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه يَنْتَفِعُ

ويقول القائل :

ومنْ ينفقُ الأعمارَ في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

أخي ، إنما نلقى ما أسلفنا ، ولا نلقى ما خلّفنا .

يقول محمود الورّاق :

---

(١) أي حجر .

تمتّع بمالك قبلَ المماتِ ... وإلا فلا مالَ إنْ أنت مُتَّا
شَقِيتَ به ثم خلّفته ... لغيرك بُعْدًا وسُحقًا ومقتَا
فجادوا عليكَ بزور البكا ... وجُدت عليهم بما قد جمعتَا
وأوهبتهم كل ما في يديكَ ... وخلّوك رهنًا بما قد كسبتَا

ويقول ابن الرومي :

بقّيْتَ مالك ميراثًا لوارثه ... فليت شعري ما بَقَّى لك المالُ
القومُ بعدك في حالٍ تسرهمُ ... فكيف بعدَهمُ حالتْ بك الحالُ
ملّوا البكاءَ فما يبكيك من أحدٍ ... واستحكم القيلُ في الميراثِ والقالُ
ولّتهمُ عنكَ دنيا أقبلت لهمُ ... وأدبرت عنك والأيامُ أحوالُ

قال تعالى : ﴿ **يمحقُ الله الرِّبَا ويربِي الصدقاتِ والله لا يحبُّ كلَّ كفارٍ أثيم** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال الإمام ابن كثير :

وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود ، كما روى الإمام أحمد عن فرّوخ مولى عثمان أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد ، فرأى طعامًا منثورًا . فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جُلبَ إلينا . قال : بارك الله فيه وفيمن جَلَبَه . قيل : يا أمير المؤمنين ، إنه قد احتكر . قال : ومن احتكره ؟ قالوا : فرّوخ مولى عثمان ، وفلان مولى عمر . فأرسل إليهما فدعاهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين ، نشتري بأموالنا ونبيع ! فقال عمر : سمعت رسول الله صلى ﷺ ، يقول : « مِن احتكَرَ على المسلمينَ طعامَهُمْ ضربَه الله بالإفلاسِ أو بجذام » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود إلى طعام أبدًا . وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذوما[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٧) .

﴿ يمحقُ الله الرّبا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

وصدق وعيد الله ووعده ، فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طَمأنينة ، إن الله يمحق الربا ، فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين – في ظاهر الأمر – رخاءً وإنتاجًا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد .

وهذه الشقوة النكدة التي ترى على قلوب الناس في الدول الغنية ، وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب ، وتثقل الحياة على أعصاب الناس ، ولم يبارك الله لهم في مالٍ ولا في عمر ولا طمأنينة بالٍ .

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون ، الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع ، وسادته روحُ المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها ، ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله– أفرادًا وجماعاتٍ– في أموالهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحةِ بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يَرَوْا ، لأن لهم هوًى في عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل .

يقول الفخر الرازي : وأما إرباء الصدقات ، فيحتمل أن يكون المراد في الدنيا ، وأن يكون المراد في الآخرة إن من كان لله كان الله له[1] .

إن الصدقة تُحيي قلب المؤمن فيزكو ، ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣ / ٦٥٨) .

كذلك ، ويضاعف له الله ما يشاء ، وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

في موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير إلى البذل والعطاء ، إنه لا يعطي بل يأخذ ، وإنه لا ينقص بل يُزاد ، إن الله يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدة ولا حساب ، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها ، والله واسع لا يضيق عطاؤه ولا يكف ولا ينضب .

فتعال إلى الإنفاق في سبيل الله الذي يرفع المشاعر ، الإنفاق الذي ينبعث عن أَرْيَحِيَّة ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاه رضاه .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك »[1].

قال المناوي : قال الله عز وجل : « أَنفِق » على عباد الله ، «أُنْفِق عليك » أعطيك خلفه ، بل أكثر منه أضعافا مضاعفة ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾[2] [سبأ : ٣٩] .

قال الطيبي : هذا مشاكلة ؛ لأن إنفاق الله لا ينقص من خزائنه شيئًا ، وهذا ظاهر ؛ لأنه إذا أنفق ظهر بصورة الفقر والعبودية والسخاء ، فاستحق نظر الحق إليه من جهة فقره الذي لا بد من جَبْرِه ، ومن جهة مقابلة وصفه بوصف ربه وظهور معاني أسمائه ، فكأنه قال لعبده عند إنفاقه : أتتسخى عليّ وأنا خلقت السخاء ؟ . وقد امتثل المصطفى ﷺ أمر ربه ، فكان أكثر الناس إنفاقا ، وأتمهم جودًا .

« أنفق أُنفق عليك » والجزاء من جنس العمل .

---

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٠) .

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أعطي ولا توكي ، فيوكى عليك »[١] .

« أعطي » بإثبات الياء خطابًا لأسماء بنت أبي بكر ، « ولا توكي » بسكون الياء ؛ أي لا تدخري ولا تربطي الوكاء ، وهو الخيط يربط به . « فيوكى عليك » بسكون الألف ، قال ابن حجر : هو عند البخاري بفتح الكاف ولم يذكر الفاعل ، وفي رواية له « لا تحصي فيحصي الله عليك » فأبرز الفاعل .

والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء ، وهو مجاز عن الإمساك ، فالمعنى : لا تمسكي المال في الوعاء ، وتوكي عليه ، فيمسك الله فضله عنك ، كما أمسكت فضل ما أعطاك الله ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب ، فحقه أن يعطي ولا يحسب ، وفيه النهي عن منع الصدقة خشية النفاد ، وأنه أعظم الأسباب لقطع مادة البركة وأنه تعالى يثيب على العطاء بغير حساب[٢].اهـ .

قال رسول الله ﷺ : « تصدقي ولا توعي ، فيوعى عليك »[٣] .

وقال ﷺ : « لا توعي فيوعي الله عليك ، ارضخي ما استطعت »[٤] .

وقال ﷺ : « لا تُوكي فيوكى عليك »[٥] .

قال ابن حجر : يقال : أوعيت المتاع في الوعاء إذا جعلته فيه ، ووعيت الشيء حفظته ، وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

إن الله يثيب على العطاء بغير حساب ، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء[٦] .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٧٢) .

(٢) فيض القدير للمناوي (١ / ٥٦٣) .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري والترمذي .

(٥) رواه البخاري والترمذي .

(٦) فتح الباري (٣ / ٣٥٢) .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز معلقًا على قول الحافظ ابن حجر : وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

هذا خطأ لا يليقُ من الشارح ، والصواب إثبات وصف الله بذلك حقيقة ، على الوجه اللائق به سبحانه كسائر الصفات ، وهو سبحانه يجازي العامل بمثل عمله، فمن مكر مُكر به، ومن خادع خدعه، وهكذا من أوعى أوعى الله عليه. وهذا قول أهل السنة والجماعة فالزمه تفز بالنجاة والسلامة ، والله الموفق . اهـ .

وعن أسماء رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « ارضخي ما استطعت ، ولا تُوعي فيُوعي الله عليك »[1] .

الرضخ : العطاء اليسير .

والخطاب لأسماء بنت أبي بكر ، أي أنفقي بغير إجحاف ولا إسراف . ما دمت قادرة مستطيعة للإعطاء .

« ولا توعى » تمسكي المال في الوعاء .

والإيعاء : حفظ الأمتعة بالوعاء ، وجعلها فيه ؛ أي لا تمنعي فضل المال عن الفقراء « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك فضله ، ويسد عليك باب المزيد ، فهذا من باب المقابلة . والجزاء من جنس العمل .

وفيه : النهي عن منع الصدقة خوف الفقر .

وعن أسماء أيضًا قالت : قال رسول الله ﷺ : « أنفقي ولا تحصي ، فيُحصي الله عليك ، ولا تُوعي فَيوعي الله عليك »[2] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم والنسائيّ عن أسماء بنت أبي بكر .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

« أنفقي » أي تصدقي يا أسماء بنت أبي بكر الصديق ، « ولا تحصي » لا تُبقي شيئًا للادخار ، أو لا تعدي ما أنفقتيه فتستكثريه ، فيكون سببًا لانقطاع إنفاقك . « فيحصي الله عليك » ؛ أي يقلل رزقك بقطع البركة ، أو بحبس مادته ، أو بالمحاسبة عليه في الآخرة .

قال النووي : يمنعك كما منعتِ ، ويقتّر عليك كما قترت ، ويمسك فضله عنك كما أمسكته[1] .

« ولا توعي » أي لا تحفظي فضل مالك في الوعاء وهو الظرف ، أو لا تجمعي شيئًا في الوعاء وتدخريه بخلًابه . « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك مزيد نعمته .

عبر عن منع الله بالإيعاء ليشاكل قوله : « لا توعي » .

والإحصاء : معرفة قدر الشيء وزنًا أو عدًّا ، أو كيلًا .

وكثيرًا ما يراد بالإنفاق في كلام الشارع الأعم من الزكاة والصدقة ، فيشمل جميع وجوه الإنفاق من المعارف والحظوظ التي تكسب المعالي ، وتنجي من المهالك[2] .

« ولا تحصي فيحصي الله عليك » ، والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أنفق يا بلالُ ! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا »[3] وفي رواية « أنفق بلالًا ... » .

---

(١) شرح النووي لمسلم (٣ / ٦٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦١) .

(٣) صحيح : رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٨ ، وتخريج المشكاة برقم ١٨٨٥ . وحسن إسناده ابن حجر في زوائد البزار ، كما قال المناوي : وأطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في زوائد البزار : إسناد حديثه حسن . وحسنه الهيثمي ، انظر فيض القدير (٣ / ٦١) .

قال المناوي : « لا تخش... إقلالًا »؛ أي فقرًا من قلّ بمعنى افتقر ، وما احسن من ذي العرش في هذا المقام ؛ أي أتخاف أن يُضيع مثلك من هو مدبر الأمر من السماء إلى الأرض ؟ كلا .

وإنما أمره بذلك ؛ لأنه تعالى وعد على الإنفاق خلفًا في الدنيا وثوابًا في العقبى ، فمن أمسك عن الإنفاق خوف الفقر فكأنه لم يصدق الله ورسوله .

قال الطيبي : وما أحسن ذكر العرش في هذا المقام .

قال الغزالي : قال سفيان : ليس للشيطان سلاح كخوف الفقر ، فإذا قبل ذلك أخذ بالباطل ، ومنع من الحق ، وتكلّم بالهوى ، وظنّ بربه السوء .

قال تعالى : ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

يقول ابن كثير في تفسيره :

مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب[1] .

قال الرازي في تفسيره :

أما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خيرًا ، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف ، وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف . ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ وخيرية الرازق في أمور :

ألا يؤخر عن وقت الحاجة .

وأن لا ينقص عن قدر الحاجة .

وأن لا ينكده بالحساب .

وأن لا يكدره بطلب الثواب[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٥١٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٣ / ٧ - ٨) .

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط مُمسكًا تلفًا »(١).

وقال ﷺ : « أما علمت أن ملكًا ينادي في السماء : اللهم ، اجعل لمال منفق خلفًا ، واجعل لمال ممسك تلفًا »(٢). والجزاء من جنس العمل .

قال الحافظ ابن حجر :

أما الخلف فإبهامه أولى ليتناول المال والثواب وغيرهما ، وكم من متـقٍ مات قبل أن يقع له الخلف المالي ، فيكون خلفه الثواب المعد له في الآخرة ، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك .

وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه ، أو تلف نفس صاحب المال ، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها .

قال النووي : الإنفاق الممدوح ما كان في الطاعات وعلى العيال والضيفان والتطوعات .

وقال القرطبي : وهو يعمُّ الواجبات والمندوبات ، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء إلّا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه ولو أخرجه(٣) .

وقال أيضًا : الجواد إذا همّ بالصدقة انفسح لها صدره ، وطابت نفسه ، فتوسعت في الإنفاق ، والبخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحت نفسه ، فضاق صدره ، وانقبضت يداه ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩].

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وأحمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء .

(٢) حسن ، رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن سبرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤٤ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٢٥٧ - ٣٥٨) .

قال المهلب : إن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة ، بخلاف البخيل فإنه يفضحه[١] .

يستر المنفق مثلما ستر على الناس بإنفاقه . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه ، كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل »[٢] .

وقال ﷺ : « ما تصدق أحد بصدقة من طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيّب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه »[٣] .

الفَلُوّ : هو المهر ؛ لأنه يُفْلَى ؛ أي يُفطم ، والجمع أفلاء .

إن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال ينظر الله إليها ، يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف ، ويربيها في يمينه حتى تكون أعظم من الجبل .

والجزاء من جنس العمل .

ما نقص مال من صدقة :

عن أبي كبشة الأنماري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مال عبدٍ من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فقر »[٤] .

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣٦٠) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .

(٣) رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة ، وهو صحيح .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٢١ وتخريج المشكاة ٥٢٨٧ .

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مالٌ قط من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة ظُلمها إلا زاده الله تعالى بها عزًّا فاعفوا يزدكم الله عزًّا ، ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألةٍ يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر »[1] .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقصت صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[2] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة ، إلا زاده الله تعالى بها كثرة ، وما فتح رجلٌ باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله تعالى بها قلة »[3] .

قال المناوي[4] :

« ثلاث أقسم عليهن » أي على حقيقتهن « ما نقص مال قط من صدقة » فإنه وإن نقص في الدنيا ، فنفعه في الآخرة باقٍ فكأنه ما نقص ، وليس معناه أن المال لا ينقص حسًّا .

قال ابن عبد السلام : ولأن الله يخلف عليه ؛ لأن ذا معنى مستأنف[5] .

---

(١) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وأحمد ، والبزار ، وابن عساكر ، وأبو يعلى في مسنده ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٠٢٢ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٢٢ .

(٤) فيض القدير (٣ / ٢٩٨) .

(٥) معناه أن ابن آدم لا يضيع له شيء ، وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في الآخرة ، فالإنسان إذا كان له داران ، فحوّل بعض ماله من إحدى داريه إلى الآخرة لا يقال ذلك البعض المحول نقص من ماله ، وقد كان بعض السلف يقول إذا رأى السائل : مرحبًا بمن جاء يحول مالنا من دنيانا لأخرانا ، فهذا معنى الحديث ، وليس معناه أن المال لا ينقص في الحس ، وأيضًا الحديث يحتمل أنه لا ينقص في الحس باعتبار المستقبل .

« فتصدقوا » ولا تبالوا بالنقص الحسي ، « ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألة » أي شحاذة « يسأل الناس » أي يطلب منهم أن يعطوه من مالهم ، ويظهر لهم الفقر والحاجة ، وهو بخلاف ذلك ، « إلا فتح الله عليه باب فقر » لم يكن له في حساب بأن يسلط على ما بيده ما يتلفه ، حتى يعود فقيرًا محتاجًا على حالة أسوأ مما أذاع عن نفسه ، جزاءً على فعله **﴿ ولا يظلم ربك أحدًا ﴾** [الكهف : ٤٩] اهـ .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

وقال المناوي أيضًا في فيض القدير :

« ما نقصت صدقة من مال » قال الطيبي : « من » هذه يحتمل أن تكون زائدة ، أي ما نقصت صدقة مالًا ، ويحتمل أن تكون صلة لنقصت ، والمفعول الأول محذوف ؛ أي ما نقصت شيئًا من مالٍ في الدنيا بالبركةِ فيه ، ودفع المفسدات عنه ، والإخلاف عليه بما هو أجدى وأنفع وأكثر وأطيب **﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾** [سبأ : ٣٩] أو في الآخرة بإجزال الأجر وتضعيفه ، أو فيهما ، وذلك جابر لأصناف ذلك النقص ، بل وقع لبعض الكُمّل أنه تصدق من ماله فلم يجد فيه نقصًا(١) .

قال المناوي :

« ما فتح رجل باب عطية » .

« ما فتح .... إلا زاده الله تعالى بها كثرة » في ماله بأن يبارك الله فيه ، « وما فتح رجل باب مسألة » أي طلب من الناس يريد بها كثرة في معاشه ، « إلا زاده الله تعالى بها قلة » بأن يمحق البركة منه ويحوجه حقيقة ، يعني من وسّع صدره عند سؤال الخلق عند حاجته ، وأنزل فقره وحاجته بهم ، ولم ينزلها بالله زاده الله فقرًا في قلبه إلى غيره(٢) .

من سأل الناس تكثرًا :

---

(١) فيض القدير (٥ / ٥٠٣) . (٢) فيض القدير (٥ / ٤٥٨) .

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم »[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا » .

قال : « فإنما يسأل جمرًا » ، قال النووي : قال القاضي : معناه أنه يعاقب بالنار ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، وأن الذي يأخذه يصير جمرًا يكوى به[٢] . والجزاء من جنس العمل .

«مُزعة لحم»؛ أي قطعة . وحكي كسرها، والذي أحفظه عن المحدثين الضم.

قال ابن التين : ضبطه بعضهم بفتح الميم والزاي .

قال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطًا لا قدر له ولا جاه ، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال ، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به . انتهى .

والأول صرف للحديث عن ظاهره ، وقد يؤيده ما أخرجه الطبراني ، والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعًا : « لا يزال العبد يسأل ، وهو غني ، حتى يخلق وجهه فلا يكون له عند الله وجه » .

وقال ابن أبي جمرة : معناه أنه ليس في وجهه من الحسن شيء ؛ لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم .

ومال المهلب إلى حمله على ظاهره ، وإلى أن السرَّ فيه أن الشمس تدنو يومَ القيامة ، فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره ، قال : والمراد به من سأل تكثرًا وهو غني لا تحل له الصدقة ، وأما من سأل وهو مضطر فذلك مباح له فلا يعاقب عليه[٣]. اهـ .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) شرح النووي لمسلم (٣ / ٧٩) .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣٩٦ - ٣٩٧) .

فقول الخطابي : أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال .

قول ابن المهلب : فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره .

فلما أذل وجهه بالسؤال فكذا يذلُّ الله وجهه بالتعذيب يوم القيامة . والجزاء من جنس العمل .

○ قصة أصحاب الجنة ○

قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالُّون . بل نحن محرومون** ﴾ [القلم : ١٧ - ٢٧] .

ذكر بعض السلف أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذْ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، رأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ .

قال ابن كثير : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، فيتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء .

﴿ ولا يستثنون ﴾ أي فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي أصابتها آفة سماوية .

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ قال ابن عباس : أي كالليل الأسود ، وقال الثوري : مثل الزرع إذا حصد ؛ أي هشيمًا يبسًا .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادىٰ بعضهم بعضًا ، ليذهبوا إلى الجذاذ أي حرموا خير جنتهم بذنبهم .

﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم .

﴿ وغدوا على حردٍ قادرين ﴾ أي قوة وشدة . أو جد ، كما قال مجاهد ، وقال عكرمة : على غيظ ، وقال الشعبي : ﴿ على حرد ﴾ : على المساكين .

﴿ قادرين ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون .

﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ أي فلما وصلوا إليها ، وأشرفوا عليها ، وهي الحالة التي قال الله عز وجل ، قد استحالت عن النضارة والزهر وكثرة الثمار ، إلى أن صارت سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا لضالون ﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هي ، فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾[(١)] .

قال صاحب الظلال :

يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاءً على ما بيّتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين .

جنة ضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم : ٣٣] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧) .

﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

بيّتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار ، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم ، إذْ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم[1].

○ قصة صاحب الجنتين ○

وذكر ابن كثير قصة الرجلين المؤمن والكافر :

قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعًا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا خلالهما نهرًا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالًا وأعزُّ نفرًا . ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا . وما أظنّ السّاعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا** ﴾ [الكهف : ٣٢ : ٣٦].

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ، ولا يلزم أن يكون واقعًا ، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله : ﴿ **واضرب لهم مثلًا** ﴾ ، أي لكفار قريش كما قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **فعسىٰ ربي أن يؤتينِ خيرًا من جنتك ويرسلَ عليها حسبانًا من السماء** ﴾ [الكهف : ٤٠] .

قال ابن عباس وقتادة : حسبانا ؛ أي عذابا من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر ، الذي يقتلع زروعها وأشجارها .

﴿ **فتصبح صعيد زلقا** ﴾ [الكهف : ٤٠] وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه .

﴿ **أو يصبح ماؤها غورًا** ﴾ [الكهف : ٤١] وهو ضد المعين السارح .

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر عاشور (٢٩ / ٨٦) .

﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ [الكهف : ٤١] فلا تقدر على استرجاعه .

﴿ وأحيط بثمره ﴾ [الكهف : ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله ، وخرّب جنته ودمّرها .

﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ أي خربت بالكلية فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال : ﴿ وما أظن أن تبيد هذه أبدًا ﴾ .

إن من قدم شيئًا على طاعة الله ، والإنفاق في سبيله عذب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل .

○ صنائع المعروف تقي مصارع السوء ○

قال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة »[1] .

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »[2] .

وقال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارعَ السُّوء ، والصدقة خفيًّا تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكلُّ معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا

---

(١) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٨٩ ، والصحيحة رقم ١٩٠٨ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩١.

هم أهل المنكر في الآخرة[١].

قال المناوي :

هذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله ، قال عليّ كرّم الله وجهه : لا يزهدك في المعروف كفر من كفر ، فقد يشكره الشّاكر أضعاف جحود الكافر .

قال الماوردي : فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يجعله حذرًا من فوته ، ويبادر به خيفة عجزه ، ويعتقد أنه من فرض زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثقٍ بقدرة فاتت فأعقبت ندمًا ، ومعول على مكْنَة زالت فأورثت خجلًا ، ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب فكره ، لكانت مغارمه مدحورة ، ومغانمه محبورة .

وقيل : من أضاع الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها[٢] .

قصة واقعية توضح كون أن الجزاء من جنس العمل ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء :

هذه القصة حدثت منذ مائة سنة تقريبًا وهي واقعية ، وهذه القصة سُمعت في الإذاعة في ركن البادية من الإذاعة السعودية .

يذكر رجلٌ يسمى ابن جدعان يقول : خرجت في فصل الربيع ، وإذا بي أرى إبلي سمانا ، يكاد الربيع أن يفجر الحليب من ثديها ، وكلما اقترب الحوار ابن الناقة من أمه دَرّت عليه ، وانهال الحليب منها لكثرة الخير والبركة ، فنظرت إلى ناقة من نياقي ابنها خلفها ، وتذكرت جارًا لي له بُنَيَّات سبع فقير الحال ، فقلت : والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها لجاري والله يقول : ﴿ **لن تنالوا البر**

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن أم سلمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٢٠٦) .

حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وأحب حلالي هذه الناقة ، يقول : فأخذتها وابنها ، وطرقت الباب على الجار ، وقلت : خذها هدية مني لك ، فرأيت الفرح في وجهه لا يدري ماذا يقول ، فكان يشرب من لبنها ويحتطب على ظهرها ، وينتظر وليدها يكبر ليبيعه ، وجاءه منها خير عظيم ، فلما انتهى الربيع وجاء الصيف بجفافه وقحطه ، تشققت الأرض وبدأ البدو يرتحلون يبحثون عن الماء والكلأ ، يقول : شددنا الرحال ، وظعنا من مكاننا نبحث عن الماء في الدحول - والدحول هي حفر في الأرض توصل إلى محابس مائية - أقبية مائية تحت الأرض ، لها فتحات فوق الأرض يعرفها البدو .

يقول : فدخلت في هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب - وأولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرون - فَتَاه تحت الأرض ، ولم يعرف الخروج . وانتظر أبناؤه يومًا ويومين وثلاثة حتى يئسوا ، قالوا : لعل ثعبانا لدغه ومات ، لعله تاه تحت الأرض وهلك ، وكانوا - عياذًا بالله - ينتظرون هلاكه طمعًا في تقسيم المال والحلال ، فذهبوا إلى البيت وقسموا وتذكروا أن أباهم قد أعطى ناقة لجارهم الفقير ، فذهبوا إليه وقالوا له : أعِد الناقة خيرا لك ، وخذ هذا الجمل مكانها ، وإلا سنسحبها عنوة الآن ، ولن نعطيك شيئًا .

قال : أشتكيكم إلى أبيكم .

قالوا : اشتكِ إليه ، فإنه قد مات .

قال : مات . كيف مات ؟ وأين مات ؟ ولِم لَمْ أعلم بذلك .

قالوا : دخل دحلًا في الصحراء ولم يخرج .

قال : ناشدتكم الله اذهبوا بي إلى مكان هذا الدحل ، ثم خذوا الناقة ، وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم .

فذهبوا به . فلما رأى المكان الذي دخل فيه صاحبه الوفيّ ذهب وأحضر حبلًا ، وأشعل شمعة ، ثم ربطه خارج الدّحل ، ونزل يزحف على قفاه حتى وصل إلى أماكن فيها يحبو ، وأماكن فيها يزحف ، وأماكن يتدحرج ، ويشم رائحة الرطوبة تقترب ، وإذا به يسمع أنين الرجل عند الماء فأخذ يرهف تجاه الأنين

في الظلام ، ويتلمس الأرض ، فوقعت يده على الطين ، ثم وقعت يده على الرجل ، فوضع يده على أنفاسه فإذا هو حيّ يتنفس بعد أسبوع ، فقام وجرّه ، وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس ، ثم أخرجه معه خارج الدحل ، ومرس له التمر وسقاه ، وحمله على ظهره ، وجاء به إلى داره ، ودبّت الحياة في الرجل من جديد ، وأولاده لا يعلمون ، فقال : أخبرني بالله عليك ، أسبوعًا كاملًا وأنت تحت الأرض ولم تمت ، قال : سأحدثك حديثًا عجبًا ، لمّا نزلت ضعت ، وتشعبت بي الطرق ، فقلت : آوي إلى الماء الذي وصلت إليه ، وأخذت أشرب منه ، ولكنّ الجوع لا يرحم ، فالماء لا يكفي .

يقول : وبعد ثلاثة أيام ، وقد أخذ الجوع مني كل مأخذ ، وبينما أنا مستلقٍ على قفاي ، قد أسلمت وفوّضت أمري إلى الله ، وإذا بي أحس بدفء اللبن يتدفق على فمي .

يقول : فاعتدلت في جلستي ، وإذا بإناء في الظلام لا أراه يقترب من فمي فأشرب حتى أرتوي ، ثم يذهب ، فأخذ يأتيني ثلاث مرات في اليوم . ولكنه منذ يومين انقطع ما أدري ما سبب انقطاعه ؟

يقول : فقلت له : لو تعلم سبب انقطاعه لتعجبت ، ظن أولادك أنك متّ ، وجاءوا إلى وسحبوا الناقة التي كان الله يسقيك منها ، والمسلم في ظل صدقته ، ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ له مخرجًا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[1] [الطلاق : ٢ - ٣] .

والجزاء من جنس العمل .

○ فضل إنظار المعسر أو التجاوز عنه ○

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « حُوسب رجلٌ ممن كانَ قَبْلَكُم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلّا أنه كان رجلًا موسرًا ، فكان يخالط الناس ، وكانَ يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسِر . فقال الله تعالى:

---

(١) قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من العلماء .

نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه »[١] .

قال المناوي :

« حُوسب رجل » يحاسب رجل يوم القيامة ، فأورده بصيغة الماضي ، لتحقق وقوعه . « ممن كان قبلكم » من الأمم السابقة ، « أن يتجاوزوا عن المعسر » ؛ أي الفقير المقلّ المديون له بأن يحطوا عنه ، أو ينظروه إلى ميسرة .

« فقال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه » ؛ لأنه المتفضل على الحقيقة ، إذ لا حقّ عليه لأحد ، « تجاوزوا عنه » أي عن ذنوبه[٢] .

فهذا الرجل الذي كان يسامح الناس في التقاضي ، ويتجاوز عنهم سامحه الله وتجاوز عن ذنوبه ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه ؛ لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه »[٣] .

عن بريدة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، فله بكل يوم مثله صدقة ، قبل أنْ يحلّ الدين ، فإذا حلَّ الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثلاه صدقة »[٤] .

قال المناوي :

قال السبكي : وزع أجره على الأيام ، يكثر بكثرتها ، ويقل بقلتها ، وسره ما يقاسيه المنظر من ألم الصبر ، مع تشوق القلب لما له فلذلك كان ينال كل

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣١٥٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٣٩٨) .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي .

(٤) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٤ . والإرواء رقم ١٤٢٨ ، والصحيحة رقم ٨٦ .

يوم عوضًا جديدًا[١] .

عن أبي اليسر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، أو وضع عنه أظلَّه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »[٢] .

قال المناوي :

« من أنظر معسرًا » ؛ أي أمهل مديونًا فقيرًا من المنظرة . قال الحرالي : وهي التأخير المرتقب ، « أو وضع عنه » ؛ أي حط عنه من دينه ، « أظله الله في ظله » أظله في ظل العرش حقيقة ، « يوم لا ظل إلا ظله » ، أي ظل الله .

وإنما استحق المنظر ذلك ؛ لأنه آثر المديون على نفسه ، وأراحه ، فأراحه الله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ .

○ العتـق ○

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٨) :

قد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [الصافات : ٣٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة ، أعتق الله له بكل عضو منها عضوًا من النار ، حتى فرجه بفرجه »[٤].

وعن أبي نجيح السلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل مسلم أعتق رجلًا مسلمًا ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام محرّره من النار ، وأيُّما امرأة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظمًا من عظام محررتها من النار يوم القيامة»[٥].

---

(١) فيض القدير (٦ / ٩٠) .
(٢) رواه مسلم وأحمد .
(٣) فيض القدير (٦ / ٨٩) .
(٤) رواه الشيخان ، والترمذي .
(٥) صحيح : رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٢٣ ، وكذا أخرجه أحمد ، والطحاوي .

قال المناوي : جزاءً وفاقًا . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إِرْبٍ منها إربًا منه من النار »(١) .

الإرب : هو العُضو بضم العين وكسرها .

قال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء مسلم أعتق امرءًا مسلمًا فهو فكاكه من النار يُجزى بكل عظم منه عظمًا منه ، وأيُّما امرأةٍ مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فهي فكاكها من النار ، يُجزى بكل عظم منها عظمًا منها ، وأيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين فهما فكاكه من النار ، يُجزى بكل عظمين منهما عظمًا منه »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «من أعتَق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار »(٣) .

وقال ﷺ: «عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها»(٤) .

وأولى الناس بهذا الصديق- رضي الله عنه- الذي أعتق من الرقاب ما أعتق .

عن عائشة - رضي الله عنها - أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » قاله لأبي بكر(٥) .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني في الكبير عن مرة بن كعب ، والترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٩٧، والنسائي، وقال ابن حجر في الفتح ٥/١٧٥: إسناده صحيح .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن عمرو بن عبسة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٢٦ .

(٤) رواه الطيالسي عن البراء ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه والطحاوي وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٨٧١ .

(٥) صحيح : أخرجه الترمذي ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والحديث جيد الإسناد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٥٧٤ .

« أعتق الله » أي أنجى الله ، وذكر بلفظ الإعتاق للمشاكلة .

أعتق العباد فأعتقه الله من النَّار ، والجزاء من جنس العمل .

لمّا حدث سعيد بن مرجانة صاحب علي بن الحسين - رضي الله عنهما - الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « أيما رجلٍ أعتق امرءًا مسلمًا استنقذ الله بكل عُضو منه عضوًا منه من النار » .

قال سعيد : فانطلقت به إلى علي بن الحسين ، فعمد علي بن الحسين - رضي الله عنهما - إلى عبد له قد أعطاه به عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم - أو ألف دينار - فأعتقه . رواه البخاري .

عن عبادة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة ، فيتصدق بها ، إلا كفّر الله مثل ما تصدق »[(١)] .

قال المناوي : إذا جنى إنسان على آخر جناية ، فعفا عنه لوجه الله تعالى نال هذا الثواب .

عن عبادة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تصدّق بشيء من جسده ؛ أُعطي بقدر ما تصدق »[(٢)] .

قال المناوي :

يعني من جنى عليه إنسان ، كأن قطِع منه عضوًا أو أزال منفعته ، فعفا عنه لوجه الله ، أثابه الله تعالى عليه بقدر الجناية .

ويحتمل أن المراد بالتصدق بذلك أن يباشر بعض الطاعة ببعض بدنه ، كأن يزيل الأذى عن الطريق بيده ، فيثاب بقدر ذلك[(٣)] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٢٧٣ . وقال المنذري والهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢٧ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٠٦) .

○ إثم مانع الزكاة ○

قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ [آل عمران : ١٨٠].

من آثر شيئًا على الله لم يبارك له فيه ، فلا يدوم له في الدنيا بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه في الآخرة عنه دفاع .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تأتي الإبل على ربها على خير ما كانت إذا هي لم يُعطِ فيها حقها ، تطؤه بأخفافها وتأتي الغنم على ربها على خير ما كانت إذا لم يعطِ فيها حقها ، تطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ومِنْ حقها أن تحلب على الماء ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير يحمله على رقبته ، له رغاء ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد بلغت ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا قد بلّغت ، ويكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يفر منه صاحبه ويطلبه : أنا كنزك ، فلا يزال حتى يُلقمه إصبعه »(١) .

وفي رواية البخاري : « تأتي الإبل على صاحبها » .

وقال ﷺ : « ما من صاحب إبلٍ ، ولا بقرٍ ولا غنمٍ ، لا يؤدي زكاتها ، إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأخفافها ، كلما نفدت أخراها ، عادت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس »(٢) .

---

(١) رواه النسائي ، وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٩٩ ، ورواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه النسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر ، ورواه الترمذي ، وأحمد ، ومسلم .

قال ابن حجر :

« على خير ما كانت » أي من العظم والسمن ، ومن الكثرة ؛ لأنها تكون عنده على حالات مختلفة ، فتأتي على أكملها ليكون ذلك أنكى له لشدة ثقلها .

« تطؤه بأخفافها » وفي رواية : « فتخبط وجهه بأخفافها » .

« كلما مرت عليه أولاها ردت عليه أخراها » يحتمل أن المعنى أن أول الماشية إذا وصلت إلى آخرها تمشي عليه تلاحقت بها أخراها ، ثم إذا أرادت الأولى الرجوع بدأت الأخرى بالرجوع ، فجاءت الأخرى أول حتى تنتهي إلى آخر الأولى – وكذا وجهه الطيبي فقال : إن المعنى أن أولاها إذا مرت على التتابع إلى أن تنتهي إلى الأخرى ، ثم ردت الأخرى من هذه الغاية ، وتبعها ما يليها إلى أن تنتهي أيضًا إلى الأولى ، والله أعلم .

« تطؤه بأظلافها وتنطِحه بقرونها » وفي رواية « ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها » – العقصاء : ملتوية القرنين ، الجلحاء : التي لا قرن لها ، العضباء : التي انكسر قرنها للداخل ، يُعار : صوت المعز ، ثغاء : صياح الغنم ، رغاء : صوت الإبل .

وفي الحديث : « إنَّ الله يحيي البهائم ؛ ليعاقب بها مانع الزكاة » . وفي ذلك معاملة له بنقيض قصده ؛ لأنه قصد منع حق الله منها ، وهو الارتفاق والانتفاع بما يمنعه منها ، فكان ما قصد الانتفاع به أضَرَّ الأشياءِ عليه .

والحكمة في كونها تعاد كلها مع أن حق الله فيها إنما هو في بعضها ؛ لأن الحق في جميع المال غير متميز ؛ ولأن المال لما لم تخرج زكاته غير مطهر ، وفيه أن في المال حقًّا سوى الزكاة ، وهو القدر الزائد على الواجب ، ولا عقاب بتركه وإنما ذكر استطرادًا ، لما ذكر حقها بين الكمال فيه ، وإن كان له أصل يزول الذم بفعله وهو الزكاة[1] .

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٥ – ٣١٦) .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالًا فلم يُؤد زكاته مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرعَ ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بِلهْزِمَتيه - يعني شدْقيه - ثم يقول : أنا مالُك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون ..** ﴾[1] الآية .. » .

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله ؛ إلا مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع ، حتى يطوّق عنقه »[2] .

قال ابن حجر :

« مُثَل » أي صُوِّر ، أو ضمن مثل معنى التصيير ؛ أي صير ماله على صورة شجاع .

ووقع في رواية زيد بن أسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره »[3] .

ولا تنافي بين الروايتين ؛ لاحتمال اجتماع الأمرين معًا ، فرواية ابن دينار توافق الآية التي ذكرها وهي ﴿ **سيطوقون** ﴾ ورواية زيد بن أسلم توافق قوله تعالى : ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم ...** ﴾ الآية .

قال البيضاوي : خص الجنب والجبين والظهر ؛ لأنه جمع المال ، ولم يصرفه في حقه ؛ لتحصيل الجاه والتنعم بالمطاعم والملابس ، أو لأنه أعرض عن الفقير وولّاه ظهره ، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ؛ لاشتمالها على الأعضاء الرئيسية .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، ورواه ابن خزيمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٢ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

وقيل : المراد بها الجهات الأربع التي هي مقدم البدن ومؤخره ، وجنباه ، والمراد بالشجاع : الحية الذكر ، وقيل : الذي يقوم على ذنبه ويواثب الفارس ، والأقرع الذي تقرع رأسه ، أي تمعط لكثرة سمهِ . وفي تهذيب الأزهري سمي أقرع ؛ لأنه يقري السمَّ ، ويجمعه في رأسه ، حتى تتمعط فروة رأسه .

قال ذو الرمة :

قرىٰ السمَّ حتى انهارَ فروة رأسه عن العظم صلٌّ قاتلُ اللسعِ ماردُهْ

« له زبيبتان » وهما الزبدتان اللتان في الشدقين ، يقال : تكلم حتى زَبد شدقاه ؛ أي خرج الزبد منهما ، وقيل : هما النكتتان السوداوان فوق عينيه . وقيل : نقطتان يكتنفان فاه ، وقيل : هما في حلقه بمنزلة زنمتي العنز ، وقيل لحمتان على رأسه مثل القرنين ، وقيل : نابان يخرجان من فيه .

« يطوقه » أي يصير له ذلك الثعبان طوقًا .

« ثم يأخذ بلهزمتيه » أي الشجاع ، والمأخوذ يد صاحب المال ، كما وقع مبينًا في رواية همام عن أبي هريرة : « لا يزال يطلبه حتى يبسط يده فيلقمها فاه » .

« لهزمتيه » وقد فسر في الحديث بالشدقين ، وفي الصحاح : هما العظمان الناتئان في اللحيين تحت الأذنين . وفي الجامع : هما لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان .

« ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » وفائدة هذا القول الحسرة ، والزيادة في التعذيب حيث لا ينفعه الندم ، وفيه نوع من التهكم .

ومن طريق همام عن أبي هريرة : « يفر منه صاحبه ويطلبه » .

وفي حديث ثوبان عند ابن حبان : « يتبعه فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده ، فيمضغها ثم يتبعه سائر جسده » .

ولمسلم في حديث جابر : « يتبع صاحبه حيث ذهب وهو يفر منه ، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه ، فجعل يقضمها كما يقضم الفحل » .

وللطبراني في حديث ابن مسعود : « ينقر رأسه » .

وظاهر الحديث أن الله يصيِّر نفس المال بهذه الصفة .

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ... ﴾ الآية : المراد بالتطويق في الآية الحقيقة ، خلافًا لمن قال : إن معناه سيطوقون الإثم . وفي تلاوة النبي ﷺ الآية دلالة على أنها نزلت في مانعي الزكاة ، وهو قول أكثر أهل العلم بالتفسير[1] اهـ .

عن جابر بن عبد الله الأنصاري . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما مِنْ صاحب إبلٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بِقَاع قَرْقَر ، تستن[2] عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقرٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنمٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جَمّاء ، ولا منكِسرٌ قرنها ، ولا صاحب كنزٍ لا يفعل فيه حقه ؛ إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يتبعه فاتحًا - فاغرًا - فاه ، فإذا أتاه فرّ منه ، فيناديه خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل »[3] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهبٍ ولا فضةٍ ، لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يومَ القيامة ، صُفِّحت له صفائح من نَار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى به جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضىٰ بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب إبل ، لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم ورودها ، إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

(٢) أي ترفع يديها ، وتطرحهما معا على صاحبها .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن جابر .

بقاع قرقر[١] أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا ، تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، كلما مرّ عليها أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئًا ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[٢] .

الذين يكنزون الذهب والفضة :

قال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [التوبة : ٣٤ - ٣٥] .

قال ابن كثير :

أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما ؛ أي هذا بذاك ، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئًا ، وقدّمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم ،

---

(١) بطح لها بقاع قرقر ؛ القاع : المستوى الواسع من الأرض ، يعلوه ماء السماء فيمسكه .
قال الهروي : وجمعه قِيعَة وقِيعَان . والقرقر : المستوى أيضًا من الأرض الواسع .
بطح : قال جماعة : ألقي على وجهه . وليس من شرط البطح كونه على الوجه ، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد ، فقد يكون على وجهه ، وقد يكون على ظهره ، قاله النووي .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

عذبوا بها . كما أن هذه الأموال كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[1] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار :

يحمى على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم ، بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية ، حتى تصير مثلها ، وهو أبلغ من يوم تحمى فيكون من الإحماء عليها كالميسم . وظاهر العبارة أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها .

﴿ **فتكوى بها جباههم** ﴾ التي كانوا يستقبلون بها الناس منبسطة أساريرها من الاغتباط بعظمة الثروة ، ويستقبلون بها الفقراء منقبضة متنغصة من العبوس والتقطيب في وجوههم ؛ لينفروا ويحجموا عن السؤال .

﴿**وجنوبهم وظهورهم**﴾ التي كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعًا واستلقاءً، ويعرضون بها عن لقاء المساكين، وطلاب الحاجات، ازورارًا وإدبارًا، فلا يكون لهم في جهنم ارتفاق ولا استراحة فيما سوى الوقوف إلا بالانكباب على وجوههم.

﴿ **فذوقوا ماكنتم تكنزون** ﴾ إن ما كنتم تظنون من منفعة كنزه لأنفسكم خاصة ، لا يشارككم فيها أحد ، قد كان لكم خلفًا ، وعليكم ضدًا ، فإنه صار في الدنيا لغيركم ، وكان عذابه في الآخرة هو الخاص بكم ، كدأب جميع أهل الباطل فيما زين لهم من الرذائل .

يرى البخلاء أنَّ البخل حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم .
واجتهاد الرأي الأفين ، فهم من خوف الفقر في فقر[2] .

وقال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

لم خُصت هذه الأعضاء ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٨٢ - ٨٣) .
(٢) تفسير المنار (١٠ / ٤٠٩ ، ٤١٠) .

الجواب : لوجوه :

الوجه الأول : أن المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب ، يظهر أثره في الوجوه ، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان ، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم ، فلما طلبوا تزين هذه الأعضاء الثلاثة ، لا جرم حصل الكي على الجباه والجنوب والظهور .

قال أبو بكر الوراق : خصت هذه المواضع بالذكر ، لأن صاحب المال إذا رأى الفقير بجنبه تباعد وولى ظهره .

إن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته ؛ أما الجمال فمحله الوجه ، وأعزُّ الأعضاء في الوجه الجبهة ، فإذا وقع الكيّ في الجبهة ، فقد زال الجمال بالكلية ، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان ، فإذا حصل الكي عليها فقد زالت القوة عن البدن .

فالحاصل : أن حصول الكي في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة ، والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ لم تصرفوه لمنافع دينكم ودنياكم ، على ما أمركم الله به ، فذوقوا وبال ذلك به لا بغيره[1] .

﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم** ﴾ هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ ذوقوه بذاته ، فهو هذا الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه .

والجزاء لمانع الزكاة في كل حالاته من جنس عمله .

ما منع قوم الزكاة :

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يمنع

---

(١) مفاتيح الغيب (٧ / ٦٥٠ ، ٦٥١) .

قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا »[١]

قال المناوي :

أي لم ينزل إليهم المطر عقوبة لهم بشؤم منعهم الزكاة عن مستحقيها ، فانتفاعهم بالمطر الواقع إنما هو واقع تبعًا للبهائم ، فالبهائم حينئذ خير منهم ، وهذا وعيد شديد على ترك إخراج الزكاة أُعظِم به من وعيد[٢] .

لمّا منعوا الزكاة تكثرًا ، وزيادة في أموالهم ، عوقبوا بمنع المطر الذي يخرج به الزرع ، الذي يحصلون منه على المال والثروة ، والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمس : ما نقض قوم العهدَ إلا سُلّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرتْ فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموتُ ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات ، وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهم المطر »[٣] .

من منع فضل مائه :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته لقد أعطى بها أكثر مما أُعطي ، وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ؛ ليقتطع بها مال رجل مسلم ، ورجل منع فضل مائه ، فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » رواه الشيخان .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وابن ماجة ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم في المستدرك والروياني ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٨٠ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

(٢) فيض القدير (٥ / ٢٩٧) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٣٥ .

قال المناوي :

« لا يكلمهم الله » كلامًا يسرّهم بل بنحو : ﴿ اخسئوا فيها ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

« ورجل منع فضل مائه » الزائد على حاجته عن المحتاج « فيقول الله » عز وجل يوم القيامة : « اليوم أمنعك فضلي » الذي لا ينجي في ذلك اليوم غيره .

« كما منعت فضل ما لم تعمله يداك » وظاهر قوله : «فضل مائه» بالإضافة أن الكلام في بئر حفرها بملكه أو بموات للارتفاق ، أو أطلق وفضل عن حاجته ما يحتاجه غيره ، وأما ما حفر للمارة فيجب بذله فضلًا وأصلًا ، فإن الحافر فيه كواحد من المارة . فظاهر قوله آخرًا : « ما لم تعمل يداك » أن الكلام في المياه المباحة النابعة في موضع لا يختص بأحد ، ولا صنع للآدميين في انبساطها وإجرائها كماء الأودية والعيون[1] اهـ .

البخل أدوى داء :

وهذه قصة واقعية من منطقة الأحساء تصور مدى خسة البخلاء وكيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم .

يذكر هذه القصة الواقعية رجل من منطقة الأحساء[2] يقول : كان لي جارٌ بخيل بلغ من الكبر عتيًّا ، واشتعل رأسه شيبًا ، ليس له أحد ، لا زوج ولا ولد ولا قريب ، يجمع المال ويكنزه ، وذات يوم تأخر على غير عادته ، ولم يخرج إلى دكانه ، وكان صانعًا للنعال والأحذية ، يقول : فلما صليت العشاء جئت إلى بابه الذي كاد يتهاوى ، لو اتكأت عليه الريح لانهدم ، يقول : فدفعت الباب ثم أدخلت رجلي اليمنى ، وقلت : يا فلان . يقول : ففزع وصرخ وجمع أطرافه ، وقال : ويحك ماذا تريد ؟ اذهب ، اخرج . يقول : فقلت له : جئت أعودك

---

(١) فيض القدير (٣ / ٣٣٠) .

(٢) شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة .

أتفقدك ، ثلاثة أيام لا أراك في دكانك ، يقول : فطردني شر طردة ، يقول : فخرجت ولكني خشيت أن يكون به مس أو أصابه شيء ، فعدت مرة ثانية ، وإذا به قد جمع الذهب أمامه ؛ دنانير الذهب المصكوكة أمامه بريقها يتراقص على ضوء المصباح ، وبجواره زيت ، وهو يخاطب الذهب : يا حبيبي ، يا من أفنيت فيك عمري ، أموت وأتركك لغيري ، لا والله ، أنا أعلم أن موتي قريب ، وأن مرضي خطير ، ولكني سأدفنك معي ، ثم يأخذ دينار الذهب ، ويغمسه في الزيت ويهوي به إلى فمه ، ويبلعه يقول : فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها ، ثم يأخذ نفسه ويرفع دينارًا ثانيًا ، ويخاطبه بشوق ووله وهيام كأنه حبيب جاء من مكان بعيد ، ثم يغمسه في الزيت ويهوي به في فمه . يقول : فقلت : والله لن يأخذ مال البخيل إلا العيّار ، وسأكون عيّارًا هذا اليوم . يقول : فأوصدت عليه الباب ، وربطته في سلك ، وتركته ثلاثة أيام حتى اطمأننت أنه هلك، يقول: فجئته فإذا هو قد تحجر ويبس في فراشه، وقد ابتلع كومة الذهب الذي أمامه . يقول : فأخبرت الناس فحملوه وغسّلوه ، وهم يتعجبون لثقله . يقولون : ليس فيه إلا الجلد والعظم ما باله ثقيل . بعضهم يقول : من البخل ، والآخر يقول : من الذنوب ، وهم لا يعلمون السر الذي أعلم. يقول: فدفناه ووضعت علامة على القبر، فلما انتصف الليل أخذت معي الفأس والمعول ، ثم أخذت أحفر القبر ، ودفعت عنه التراب ، وأنا ألتفت يمينًا وشمالًا حتى لا يراني أحد ، ثم أزحت الحجارة عن اللحد ، فبان بياض الكفن ، فأخرجت سكينة ، وقطعت الكفن تجاه البطن ، ثم بقرت بطنه ، فإذا الذهب يتوهج على ضوء القمر ، يقول : فمددت يدي لآخذه ، فإذا هو حارٌّ كالجمر المستعر ، يقول : فصرخت ونزعت يدي ، وردمت القبر بالحجارة ، وردمت عليه التراب ، وخرجت أصرخ ، ما رأيت ألمًا مثله ، وغمستُ يدي في الماء البارد ، وظللت سنواتٍ أحس بهذه اللسعة تأتيني بين فترة وفترة ، أعوذ بالله من البخل وأهله .

قال تعالى : ﴿ **الذي جمع مالًا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على**

الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة ﴾ [الهمزة : ٢ - ٩] .

كما أوصدوا على الذهب . ولم يخرجوه ، فكذلك توصد عليهم النار جزاءً وفاقًا .

الجواد كريم على الله وعلى الناس :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل بفلاةٍ من الأرض ، فسمع صوتًا في سحابة يقول : اسقِ حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ، للاسم الذي سمع في السحابة ، فقال له : يا عبد الله ، لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسقِ حديقة فلان ، لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أمَّا إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثا ، وأرد فيها ثلثا »[١].

هذا الذي يتصدق بثلث حديقته ، يأتي الماء - المطر - فيصب صبًّا في حديقته ، لا يتعداها ، « ما نقص مال من صدقة » والجزاء من جنس العمل .

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم إلا الحدود »[٢] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإنَّ الله آخذ بيده كلما عثر »[٣] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة . ورواه الطيالسي وابن منده .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١١٩٦ .

(٣) حسن : رواه الدارقطني في المستجاد من فعلات الأجواد ، والبيهقي في الشعب ، وابن الجوزي في الموضوعات .

مثلما أقالوا عثرات المنكوبين مرارًا ، فكذا يقيل الله عثراتهم ، والجزاء من جنس العمل .

سجـــع :

قل للذين شغلهم في الدنيا غرورهم ، إنما في غدٍ ثبورهم ، ما نفعهم ما جمعوا إذا جاء محذورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ . فكيف غابت عن قلوبهم وعقولهم .

أُخذ المال إلى دار ضرب العقاب ، فجعل في بوتقة ليحمى ليقوىٰ العذاب ، فصُفِّح صفائح كي يعم الكيُّ الإهاب ، ثم جيء بمَنْ عَنِ الهدى قد غاب ، يسعى إلى مكانٍ لا مع قوم يسعى نورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

إذا لقيهم الفقير لقي الأذى ، فإن طلب منهم شيئًا طار منهم لهبُ الغضب جُذَى[1]، فإن لطفوا به قالوا : أعْنتكم ذا ، وسؤال هذا لِذَا ، ولو شاء ربك لأغنىٰ المحتاج وأعوز ذا ، ونسوا حكمة الخالق في غني ذا وفقر ذا ، واعجبًا كم يلقاهم من غمٍّ إذا ضمتهم قبورهم ﴿ **يوم تُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

يسأل عنها الجامع من أين اكتسب ؟ وسيأخذها الوارث منهم من غير تعب ، ألا إن الشوك له وللوارث الرُّطب ، أين حرص الجامعين أين عقولهم ؟ ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

لو رأيتهم في طبقات النار ، يتقلبون على جمرات الدرهم والدينار ، وقدْ غُلَّتِ اليمينُ مع اليسار ، لمّا بخلوا مع الإيسار ، لو رأيتهم في الجحيم يسقون من الحميم ، وقد ضجّ صَبُورُهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

---

(١) الجذوة : الجمرة الملتهبة بضم الجيم وتفتح ؛ جمعها جُذَى مثل مُدى وقُرى ، وتكسر أيضًا فتكسر في الجمع جذية وجِذَى (المصباح) .

كم كانوا يوعظون في الدنيا وما فيهم من يسمع ، كم خُوِّفوا من عقاب الله وما فيهم مَنْ يفزع ، كم أنبئوا بمنع الزكاة وما فيهم من يدفع ، فكأنهم بالأموال وقد انقلبت شجاعًا أقرع ، فما هي عصى موسى ولا طورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

وبعد يا أخي ..

إن العقلاء واسَوْا بقدْر طاقتهم ، ولم يتناسوا قرب فاقتهم ، هذا لأن عادات السادات سادات العادات ، وشِيَم الأحرار أحرار الشيم ، أما البخيل بالذهب فمات وذهب ، وأما الكريم فعاش بعد الموت بما وهب .

كيف يحث البخيل على إعطاء جنسه ، وهو يبخل بالعطاء على نفسه ، البخيل يملأ الوِجار[1] . والجار جائع ، ويحفظ العَرَض والعرض ضائع ، البخيل مع الوجدان ذا عِوز ، كلما برز له سائلٌ أَرَز[2] ، مقفول الحاجبين أبدًا وقد ضاع المفتاح ، في أخلاقه قباح ، مجموعها عصارة لُؤم في قرارة خَبث ، فذاك ميت في حياته ، فإذا نشر كان الطيّ أصلح له ، بشرٍّ مال البخيل بحادث أَوْ وارث .

فعجِّل الأوبة ، وبادر التوبة ، وسارع في غسل الحوبة .

يقول ابن القيم في قول الله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق ، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني ، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل ، والداعي إلى البذل والإنفاق ، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل ، وما يدعو إليه داعي الإنفاق ، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين .

---

(١) الوجار : البيت ، وأصله بيت الذئب .

(٢) أرز : انقبض وتجمّع وتثبت .

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ، إن أنفقوا أموالهم ، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق . فإن أحدهم يهم بالصدقة ، والبذل ، فيجد في قلبه داعيًا يقول له : متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه ، وافتقرت إليه بعد إخراجه ، وإمساكه خير لك ، حتى لا تبقى مثل الفقير ، فغناك خير من غناه ، فإذا صوّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش . وهذا إجماع من المفسرين : أن الفحشاء هنا البخل ، فهذا وعده ، وهذا أمره ، وهو الكاذب في وعده ، الغارّ الفاجر في أمره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون . فإنه يدلي من يدعوه بغروره ، ثم يورده شر الموارد كما قيل :

دلَّاهُـم بغـرورٍ ثـم أَوْرَدَهــمْ   إن الخبيثَ لمن والاه غرّارُ

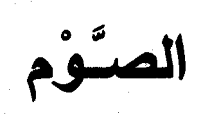
هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ، ولا نصيحة له ، كما ينصح الرجل أخاه ، ولا محبة في بقائه غنيًّا ، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه ، فيستوجب منه الحرمان .

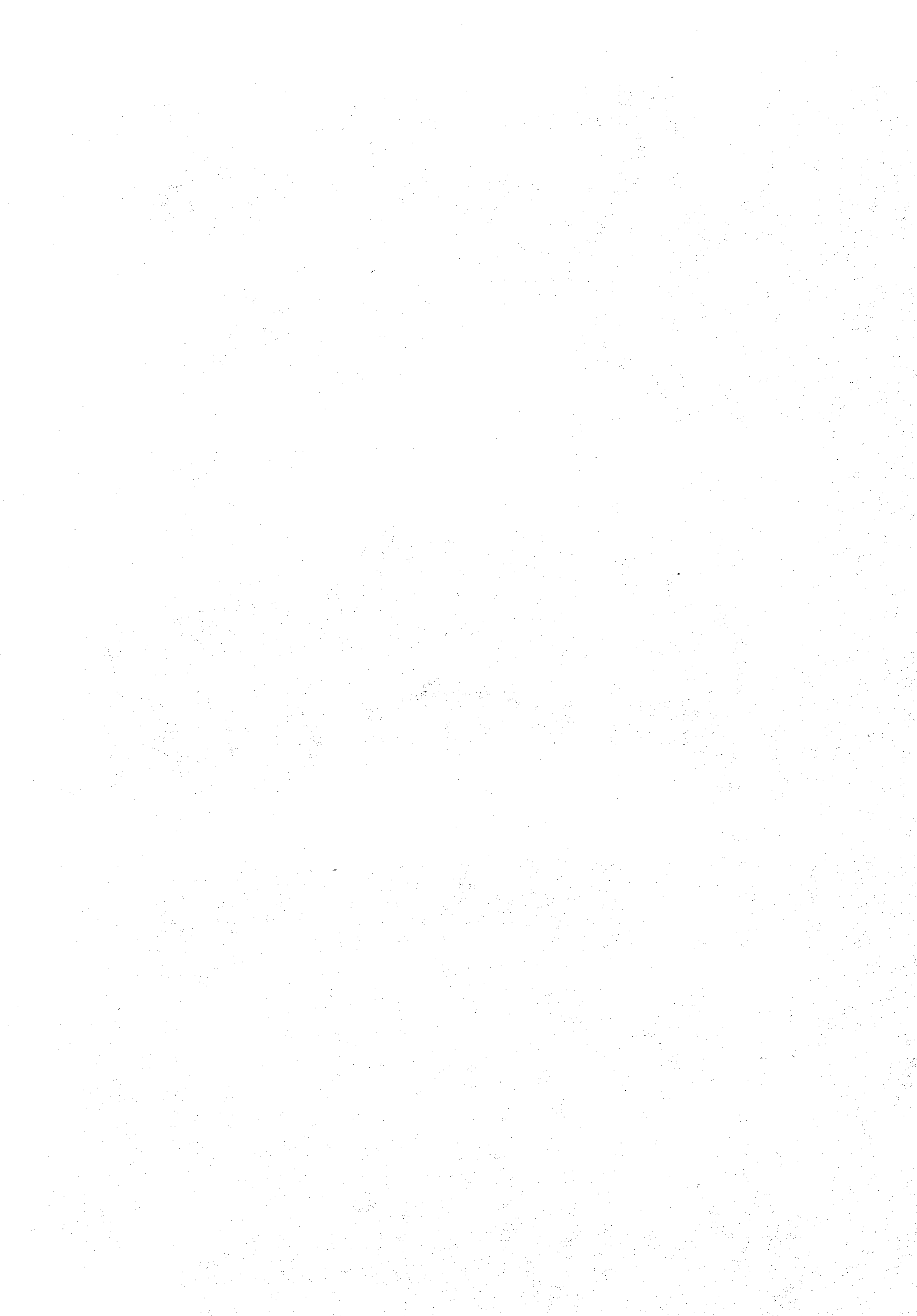
وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه ، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه ، إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان ، فلينظر البخيل والمنفق أيّ الوعدين هو أوثق ، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه ؟ والله يوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، وهو السميع العليم . عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله ، فيعطي هذا بفضله ، ويمنع هذا بعدله ، وهو بكل شيء عليم[1] .

---

(١) التفسير القيم ص ١٦٨ .


الصَّوْم



☐ الصـــوم ☐

الصوم صفة وعادة السَّادات ، وعادة السَّادات سادات العادات ، وشيم الأحرار أحرار الشيم ..

أما تسمع قول الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به .

وترك الطعام سحاب ، وإذا قلَّ الأكل مطر القلب الحكمة ، ورسول الله - ﷺ - يقول : « أقصر من جشائك ، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا ، أكثرهم جوعًا في الآخرة »[1] .. والجزاء من جنس العمل ..

ومن قوي على بطنه ، قوي على دينه ، فعليك بالصوم .

نصومُ فإنَّ الصومَ من عِلم التُّقَى وإنَّ طويل الجوعِ يومًا سيشبعُ

هؤلاء الذين تشققت أشداقهم جوعًا في الدنيا ، كيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم ، وقد قلصت شفاههم عن الأشربة ، وضمرت بطونهم ؟!.

قال تعالى : ﴿كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة : ٢٤] .

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين .

قال يعقوب بن يوسف الحنفي : بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة : يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا ، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وجفّت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، وتعاطوا الكأس فيما بينكم .

---

(١) حديث حسن أخرجه الحاكم في المستدرك ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٩٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٤٢ ، وأخرجه ابن ماجة عن ابن عمر مرفوعًا ، وذكر نحوه ابن المبارك في الزهد عن أيوب بن عثمان .

وعن أنس موقوفًا : وإن لله مائدة لم تر مثلها عين ، ولم تسمع أذن ، ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون .

وعن بعض السلف قال : بلغنا أنه يوضع للصوّام مائدة يأكلون عليها ، والناس في الحساب فيقولون : يا رب نُحاسب وهم يأكلون ، فيقال : إنهم طالما صاموا وأفطرتم ، وقاموا ونمتم .

رأى بعضهم بشر بن الحارث في المنام وبين يديه مائدة، وهو يأكل ويقال له : كُل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب .

قد كُسي حلة البهاء وطافتْ بأباريق حوله الخدام
ثم حلي وقيل يا قارئ ارق فلعمري لقد براك الصيامُ[1]

والجزاء من جنس العمل .

أما جزاء عطشهم :

فعن سهل بن سعد ، عن رسول الله - ﷺ - « في الجنة باب يدعى الريَّان ، يُدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لا يظمأ أبدًا »[2] .

وعنه - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إن في الجنة بابًا يقال له الريان : يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون ، فيدخلون منه ، فإذا دخلوا ، أغلق فلم يدخل منه أحد »[3] .

وعنه : « للصائمين باب في الجنة يقال له الريان ، لا يدخل فيه أحد

---

(١) لطائف الإشارات ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١١٧ ، ورواه النسائي .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد في مسنده .

غيرهم ، فإذا دخل آخرهم أغلق ، من دخل فيه شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدًا »(١) .

وعنه : « في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون »(٢) .

فتدبر يا أخي ..

مسمى الباب : « الريان » من الري ، والري ضد الظمأ ، مسمى الباب يبعث على الري ، وأول الغيث قطرة ، إن ذكر الماء في الصحراء ، يقلل من شدة العطش ، فما ظنك بالداخل ..؟!.

وفي حديث عبد الرحمن بن سمُرة ، عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال : « ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشًا ، كلما ورد حوضًا مُنِع منه ، فجاءه صيامُ رمضان فسقاه وأرواه »(٣) .

ري الدنيا عطش ، والري ري الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

أما خلوف فم الصائم :

فعن أبي هريرة ، وأبي سعيد معًا ، عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : إن الصوم لي ، وأنا أجزي به ، إن للصائم فرحتين ، إذا أفطر فرح ، وإذا لقي الله تعالى فجزاه فرح ، والذي نفس محمدٍ بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »(٤) .

وفي حديث رسول الله ﷺ من قول يحيى بن زكريا : « وآمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ،

---

(١) رواه النسائي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٦٠ .

(٢) رواه البخاري ومسلم ، صحيح الجامع ٤١١٨ .

(٣) أخرجه الطبراني وغيره .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[(١)] .

قال مكحول : يروح أهل الجنة برائحة فيقولون : ربنا ، ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا أطيب من هذه الريح ، فيقال : هذه رائحة أفواه الصوّام .

عافهم النتن في الدنيا لتغير ونتن أفواههم ، فيطيب طيب الجنة من رائحة أفواههم ..

فكل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا ، إذا انتسب إلى طاعة الله ورضاه فهو الكامل في الحقيقة .

فخلوف أفواه الصائمين لهو أطيب من ريح المسك ، وعري المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل ، ونوح المذنبين على أنفسهم من خشيته ، أفضل من تسبيح المدلين ، وانكسار المخبتين لعظمته هو الجبر ، وذُلّ الخائفين من سطوته هو العزّ ، تهتك المحبين في محبته أحسن من الستر ، بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة ، جوع الصائمين لأجله هو الشبع ، عطشهم في طلب مرضاته هو الرِّيُّ ، نَصَب المجتهدين في خدمته هو الراحة .

ذُلّ الفتى في الحب مكرمةٌ   وخضوعه لحبيبه شرف[(٢)]

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله عز وجل معنى : أن الصيام لما كان سرًّا بين العبد وبين ربه في الدنيا ، أظهره الله في الآخرة علانيةً للخلق ؛ ليشتهر بذلك أهل الصيام ، ويعرفون بصيامهم بين الناس ، جزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا .

والجزاء من جنس العمل .

رائحة مستكرهة في مشامّ الناس في الدنيا ، لكنها طيّبة عند الله ..

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وهو صحيح .

(٢) لطائف المعارف ١٧١ - ١٧٢ .

وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا ، وتستنشق قبل الآخرة ، وهما نوعان :

أحدهما : ما يدرك بالحواسّ الظاهرة .. فهذا عبد الله بن غالب الحداني ، أبو قريش العابد ، وكان من العباد المجتهدين في الصيام والقيام ، لما دُفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك ، فَرُئِيَ في المنام ، فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره .

فقال : تلك رائحة الظمأ والسهر .

والنوع الثاني : ما تستنشقه الأرواح والقلوب ، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين .

لما كانت معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سرًّا بينه وبينهم ، أظهر الله سرَّهم لعباده فصار علانيةً ، فصار هذا التجلي والإظهار جزاء ذلك الصوم والإسرار ، فما أسرَّ أحد سريرة ، إلا ألبسه الله رداءها علانيةً..

تذلُّل أرباب الهوى في الهوى عزُّ وفقرهمُ نحو الحبيبِ هو الكنزُ
وسترهمُ فيه السرائر شهـرةُ وغير تلاف النفسِ فيه هو العجزُ[1]

فمن ترك لله في الدنيا طعامًا وشرابًا وشهوة مدة يسيرة ، عوضه الله عنده طعامًا وشرابًا لا ينفد ، وأزواجًا لا يمتْن أبدًا ، فشهر رمضان فيه يزوج الصائمون .

قال الحسن : تقول الحوراء لولي الله وهو يتكىء معها على نهر العسل تعاطيه الكأس : إن الله نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين ، وأنت في ظمإٍ هاجرة من جهد العطش فباهى بك الملائكة ، وقال : انظروا إلى عبدي ترك زوجته، وشهوته، ولذته، وطعامه، وشرابه؛ من أجلي؛ رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له ، فغفر لك يومئذ وزوجنيك[2] .

---

(١) لطائف المعارف ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) لطائف المعارف ١٦٧ .

من صام عن شهوته في الدنيا ، أدركها غدًا في الجنة، ومن صام عما سوى الله ، فعيده يوم لقائه .. ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾ [العنكبوت : ٥].

وقد صُمتُ عن لذاتِ دهريَ كلها ويوم لقاكمْ ذاك فطر صيامي

بالله ، انظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل .. صورة حسية تُشاهد وتُعاين : « **الصيام والقرآن يشفعانِ للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب إني منعته الطعام والشهوات بالنهار ، فشفعني فيه ، يقول القرآن : رب منعته النوم بالليل ، فشفعني فيه ، فيشفعان** »[1] .

فطوبى ..

لمن جوّع نفسه ليوم الشبع الأكبر ..

طوبى ..

لمن أظمأ نفسه ، ليوم الرّيّ الكامل ..

طوبى ..

لمن ترك شهوات حياة عاجلة لموعد غيب لم يره ..

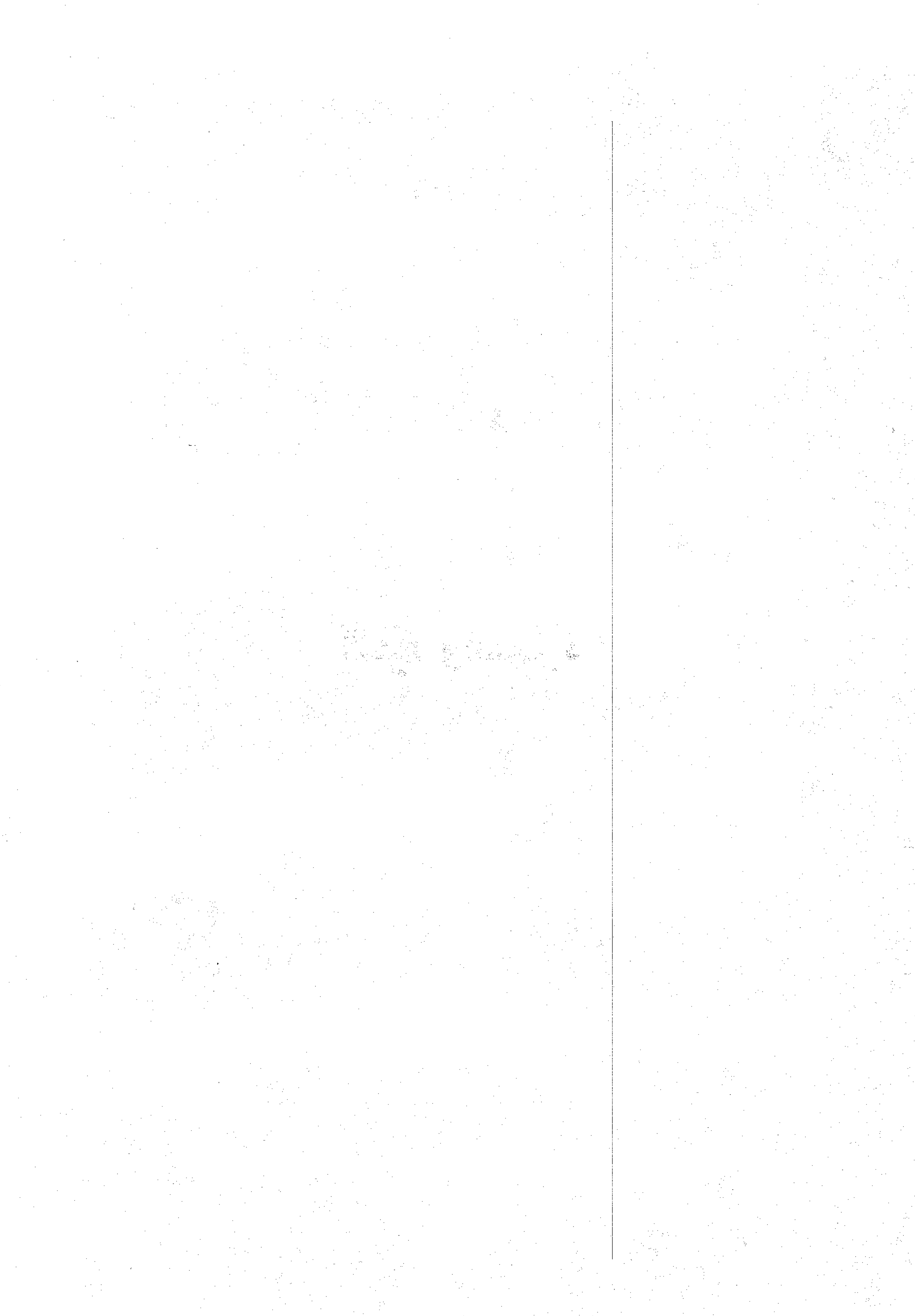
متى اشتد عطشك إلى ما تهوى ، فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرّيّ الكامل .

وقل : قد عيلَ صبر الطبع في سنيه العجاف ، فعجلْ لي العامَ الذي فيه أُغاثُ وأُعْصِرُ ..

* * *

(١) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٧٦ .

الحجُّ والعمـرة



□ الحجُّ والعمرة □

الرحلة إلى الله، رحلة الحج، لله ما أحلاه من ضجيج، صوت إبل وخيل الحجيج .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « ما ترفع إبل الحاج رجلًا ، ولا تضع يدًا إلا كتب الله تعالى له بها حسنة ، أو محا عنه سيئة ، أو رفعه بها درجة »[١] .

على قدر الخطوات كتب الحسنات ومحو السيئات .

وقال ﷺ : « ما من مسلم يلبي ، إلا لبّى ما عن يمينه وشماله من حجر ، أو شجر ، أو مدر ، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا »[٢] .

إذا لَبَّى لبت الأحجار والمدر والأشجار ، فهذا جزاء عاجل لو عقله ، فكيف بالآجل .

هذه الأحجار التي سعدت بمرور أقدامه عليها ، والأشجار والمدر تشهد له .

قال المناوي :

« حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا » : أي من منتهى الأرض من جانب الشرق إلى منتهى الأرض من جانب الغرب ، يعني يوافقه في التلبية كل رطب ويابس في جميع الأرض . قال ابن العربي هذا حديث وإن لم يكن صحيح السند فإنه ممكن . يشهد له الحديث الصحيح في المؤذن ، وفيه تفضيل لهذه الأمة

---

(١) حسن : رواه ابن حبان في صحيحه ، والبزار والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وقال المناوي : فيه من لا أعرفه . وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٧٢ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦ .

لحرمة نبيها ﷺ ، فإن الله أعطاه تسبيح الجماد والحيوان معها كما كانت تسبح مع داود عليه السلام ، وخصّ داود بالمنزلة العليا أنه كان يسمعها ويدعوها فتجيبه وتساعده(١) .

وقال ﷺ : « أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة ، ويمحو عنك بها سيئة . وأما وقوفك بعرفة ، فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا ، فيباهي بهم الملائكة ، فيقول : هؤلاء عبادي ، جاءوني شعثًا غبرًا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ، ولم يروني ، فكيف لو رأوني فلو كان عليك مثل رمل عالج أو مثل أيام الدنيا أو مثل قطر السماء ذنوبًا ، غسلها الله عنك . وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك ، وأما حلقك رأسك ، فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة ، فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك »(٢) .

والحجر الأسود يشهد لِمَسِّك إياه :

عن ابن عباس مرفوعًا : « إن لهذا الحجر لسانًا وشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق »(٣) .

وقال ﷺ : « ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهد على من استلمه بحق »(٤) .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٤٩٩) .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٧٣ .

(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم . قال ابن حجر في الفتح (٣ / ٥٤٠) : رواه ابن خزيمة ، وصححه ابن حبان والحاكم .

(٤) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٢٢ .

وقال ﷺ : « والله ، ليبعثنه الله يوم القيامة - يعني الحجر - له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهد على من استلمه بحق »(١) .

من مات في الحج :

قال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبين ، ولا تُمِسُّوه طيبًا ، ولا تخمِّروا رأسه ، ولا تحنطوه ، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا »(٢) .

مات في الحج ملبيًّا فكذا يبعث ملبيًا ، ومن كان بحالة لقي الله بها ، والجزاء من جنس العمل .

عرفات ، من تواضع لله رفعه :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادي هؤلاء جاءوني شعثًا غبرًا »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، يقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا »(٤) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا ، أو أمةً من النار ،

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن ابن عباس ، ورواه ابن خزيمة وابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٩٧٥ .

(٢) رواه : أصحاب الكتب الستة وأحمد في مسنده .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الحاكم ، والبيهقي في سننه ، وأحمد ، وابن خزيمة ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٣ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر وصححه السيوطي والألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٤ .

من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ماذا أراد هؤلاء ؟ »[(١)] .

أتوا إلى ربهم بشعثهم وغبارهم فرحم الله ذلهم ، ذلت منهم الجباه والرقاب ، أتوا إلى الله بتواضعهم وذنوبهم ، فباهى الله بهم الملائكة وغفر عيوبهم.

والجزاء من جنس العمل .

ولله ما أحلى ترنيمة محمود حسن إسماعيل مع خطا الهائمين شوقًا لعرفات:

يا مجُيبَ الدعواتِ جئتُ أُزْجِي صلواتي
ضارعًا تخشع عيداني .. وتجْشُو نغماتي
وتُناديك صَباباتي بكلّ اللهجاتِ
إن تَلَفَتُّ فمنك النور يَطْوِي لفتاتي
أَوْ تهامسْتُ أحسُّ النورَ يغزو هَمَسَاتي
وأنا أدعو .. أرى الأنوارَ تُرْدِي كلماتي
وإذا أصمُتُ ، يدعوُ كلُّ شيءٍ في حياتي
نشوةُ الإيمانِ بحرٌ زاخرٌ بالرحمات
وجِنانٌ في فضاء النّفسِ خُضْرُ الربواتِ
تصدَحُ الأحلامُ فيها كطيور ناغماتِ
ويفيضُ الطهرُ منها كعُيون جارياتِ
وتَعُبُّ الروحُ منها كلَّ أطيابِ الحياةِ

* * *

ذلكَ الضَّاربُ في ليلٍ وضيء الظلماتِ
مَزّقَ الشوقُ حناياه لِطَيْفِ المَغْفِرَاتِ
غَنَّتِ الحُبَّ لياليهِ وجُنَّتْ بالغداة

---

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة .

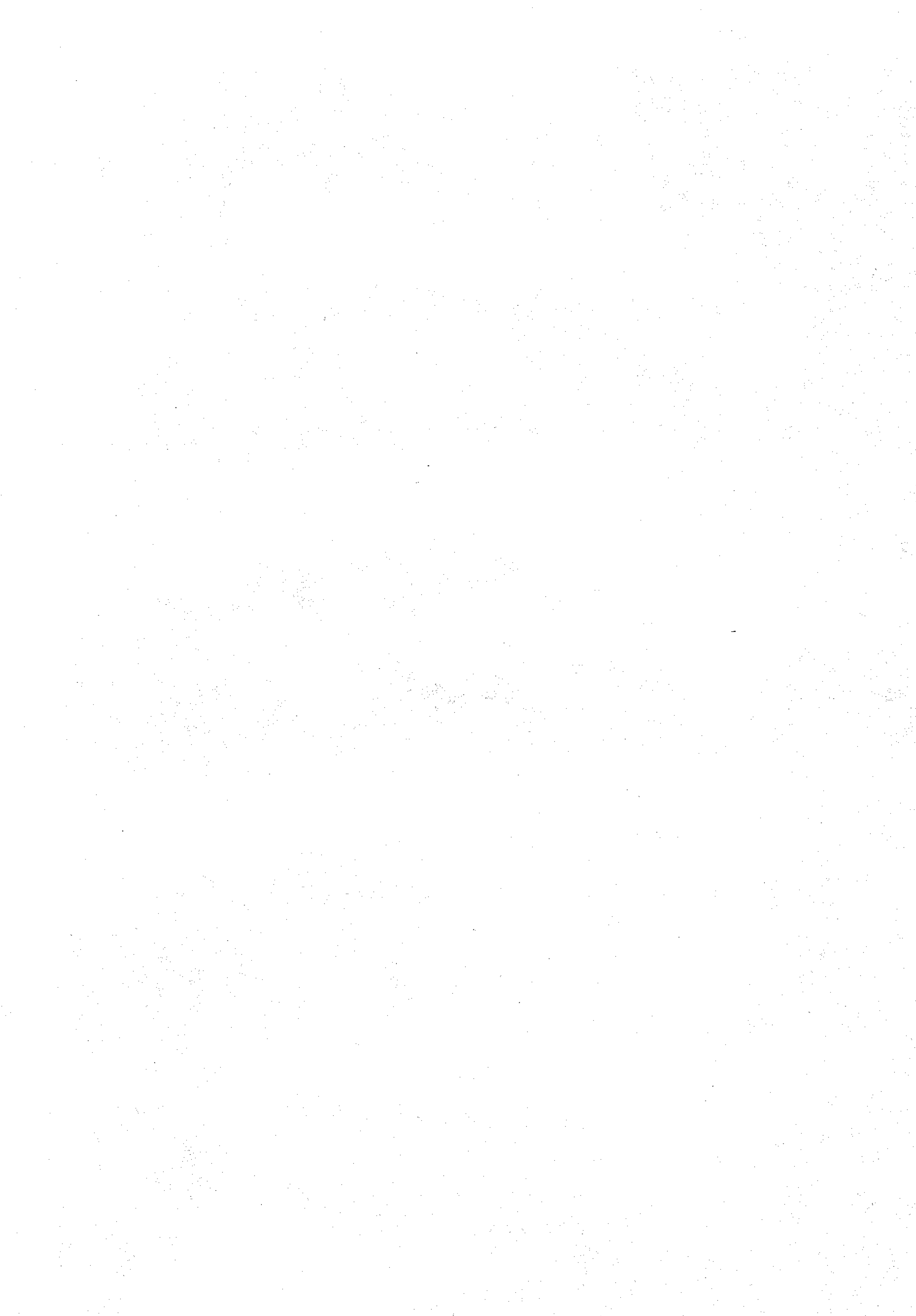
وتلاشت في صداهُ كهزيجِ الساقياتِ !!
ظامِيءٌ للنُّورِ ملهوف الحشا والنظـراتِ ..
أرأيتَ الطيرَ فـي دَعْوتِها للربَـواتِ
أرأيتَ الريـح فـي هبَّتِها بالفلَـوات
أرأيت الحُلْمَ في صَحوة جفنٍ مِنْ سُبَاتِ
هكذا ينفُضُه الوجد لرؤيا عرفـات !
والهًا يشتاق في واديه بعض الخُطواتِ !
يتمنى لو تكونُ الروحُ ذَرَّ الحَصيَاتِ
وتكون النفس هَمْسًا حائمًا بالشُّرفاتِ ..
أيها النور ... سلامًا قُدُسيَّ النفحاتِ
تُربُك الميمونُ قُدْسٌ شَاهِقيُّ الحُرماتِ
كل من مرَّ عليه مرّ مسحورَ السِّمَاتِ
هُرِع الناسُ إلى بابك من كل الجهاتِ
طَرحوا الدنيا وخفُّوا بقلوب نادماتِ
حُسَّرًا يـمشون لله بأيـدٍ ضارعــاتِ
وصدورٍ حانيات من عذابِ المعْصِياتِ
وقلـوب جـأَرَتْ أسرارُهـا بالتلبيــاتِ
وجفونٍ من ضياءِ الله دارت مُسْبَلاتِ
ونفـوسٍ قانتــات تائبــات عابــدات
ذائباتٍ في رحيق النور نشوى فانياتِ[1]

* * *

(١) مجموعة الأعمال الكاملة لمحمود حسن إسماعيل - الديوان الحادي عشر ، « صوت من الله » قصيدة الله والجبل ٤ / ١٧٣٩ .



الجهـاد



◻ الجهـاد ◻

والله ، لَذِكْر الجهاد يُبكي عيون أولي الألباب ، بعد أن غبطنا أنفسنا بالزائل من المنازل والأحباب ، وركنّا إلى الدنيا ركون الظمآن إلى شراب السَّراب ، فهوىٰ نجم الجهاد من سماءِ عزّه بعد أن كان مشرقًا سنيًّا ، وانمحىٰ رسمه واسمه كأن لم يكن له من قبل سَميًّا .

دُرُست آثاره فلا تُرى ، وطُمست أنواره بين الورى ، وأعتم ليله بعد أن كان مقمرًا ، وأظلم نهاره بعد أن كان نيرا ، وذوى غصنه بعد أن كان مورقًا ، وانطفأ حسنه بعد أن كان مشرقًا ، صَفَنَتْ[1] خيوله فلا تركضُ ، وربضت أسوده فلا تنهضُ .

فتعال أخي ، لننظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا الباب :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال : « إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[2]، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أدخل الله تعالى عليهم ذلًّا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم »[3].

---

(١) الصافن من الخيل : القائم على ثلاثة قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر - انظر : الصحاح للجوهري .

(٢) العينية : بكسر العين المهملة ، وسكون الياء المثناة قال عنها البيهقي في الشعب : أن يقول الرجل اشتر كذا وكذا وأنا اشتريه منك بربح كذا وكذا . وقال الهروي في الغريبين : هي أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر .. انظر صحيح الجامع رقم ٦٨٨ .

وفي رواية : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[1] .

إلى الذين يظنون أن القتل والقتال ذلّ ، وأن العزّ كل العز في اكتناز الأموال ، والإقبال على الزرع والثمار نهدي ما يقوله ابن النحاس : عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم الله بالفقر .

هؤلاء الذين تركوا الجهاد للإقبال على الدنيا وعَرَضِها ومالها وثمرها ، يجازيهم الله بالفقر : فقر النفوس ، وزوال العَرَضِ عنهم .

أما عن فقر النفوس فيقول ابن النحّاس : الذي نشاهده من الناس لمّا أعرضوا عن الجهاد والغنائم سلّط الله عليهم فقر قلب ، وشدة حرص ، وغلبة شحّ ، وصار القليل من الدنيا عندهم خطيرًا جليلًا ، وأذلّهم الحرص والطمع ، فقلّ أن تجد منهم أحدًا إلا وقد استولت عليه الذِّلّة لمن يرى أن رزقه يأتي من جهته ، واستعبده الطمع والخوف من فواته ، ولو كان غنيًّا لكان حرًّا ، فهو في الحقيقة وإن كان ذا ثروة فهو فقير ، وإن كان في ظاهره عزيزًا فالذلّ قد استولى على قلبه وسكن فيه ، وليس عند من يرتزق من سيفه شيء من ذلك ؛ لأن رزقه من الغنيمة مأخوذ بالسيف ، ليس لأحد غير الله فيه منّة .

ولمّا كانت الغنيمة حلالًا محضًا ، ليس فيه شبهة ، كانت سببًا في تنوير القلب وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص من ساحته ، فصاحب الغنيمة وإن كان فقير اليد فهو غنيّ النفس ، وإن كان دثاره الظاهر الذلّ والمسكنة فشعاره الباطن العزّ والعظمة .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده حسن كما قال ابن النحاس ، ورواه أحمد بنحوه وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، رقم ٤٨٢٥ ، ومن طريق آخر بنحوه ، ٥٠٠٧ ، وقال الشيخ : إسناده صحيح . وأبو نعيم في الحلية بنحوه عن ابن عمر .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، إنما الغنى غنى النفس »[1] .

وأما من اكتسبه من الشُّبه ، وأذلَّه الطمع للخلق ، فهو وإن كان عزيزًا في الظاهر ، فقلبه بالذلّ عامر ، وإن كان في الظاهر غنيًّا بما جمع ، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع ، وتأبى المكاسب الدنيّة إلا أن ثورت هذه الأخلاق الرديّة[2] .

عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ، ألبسه الله الذِّلة ، وشم البلاء ، ودُيّث بالصَّغار ، وسيم الخسف ، ومنع النَّصَف[3] .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اثَّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا الآخرة إلَّا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم و تضرّوه شيئًا والله على كل شيء قدير** ﴾ [التوبة : ٣٨ - ٣٩] .

إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض ، ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع ، الدعة والراحة والاستقرار ، ثقلة اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القر ثقلة اللحم والدم والتراب ، والأرض وما لها من جاذبية تشدُّ إلى أسفل ، وتقاو رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

هؤلاء الذين يخشون القتل في الجهاد ، يتوعدّهم الله بالعذاب إن هم تركو الجهاد .

والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة – كتاب الرقاق – باب الغنى غنى النفس .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) مشارع الأشواق .

الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذابح الذلّ أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء ، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذلّ فدفعت راغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء(١) .

إن طلاب السلامة لا يحسّون العار ، فالسلامة هدف الراضيين بالدون . إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة ، وإن ضريبة الذل لأفدحُ في كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيّل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تُطاق ، فتختار الذل والمهانة ، هربًا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها .

تؤدي ضريبة الذل كاملة ، تؤديها من نفسها ، تؤديها من قدرها ، تؤديها مِنْ سمعتها ، تؤديها من اطمئنانها ، وكثيرًا ما تؤديها من دمها وأموالها وهي لا تشعر .

يقول الله تعالى : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨١ - ٨٣] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله - :

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان هؤلاء

---

(١) الظلال (٣ / ١٦٥٥) .

المخلفون فرحوا بالسلامة والراحة ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال ، ضعف همة ، وطراوة إرادة .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون** ﴾ ، فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال ، فكيف بهم في حر جهنم ، وهي أشد حرًّا ، وأطول أبدًا ، وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله .

﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة ﴿ **وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ [الحج : ٤٧] ، ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

وكما آثروا الراحة على الجهد وتخلفوا عن الركب في أول مرة فكذلك ﴿ **لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ فلمّا رضوا بالقعود أول مرة ، فكذلك جوزوا بأن منعوا من الانضمام إلى السائرين لركب الجهاد ، جزاءً وفاقًا من جنس العمل[1] .

وأيضًا يلوح الجزاء من جنس العمل في شأن المنافقين الذين جعلوا يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، وفي القلوب ما فيها ﴿**لقد ابتغوا الفتنة من قبل ...**﴾ [التوبة : ٤٨] .

قال تعالى: ﴿**ومنهمُ من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا...**﴾ الآية [التوبة : ٤٩] .

---

(١) الظلال (٣ / ١٦٨٢) .

روى محمد بن إسحق أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم ، وهو في جهازه لغزوة تبوك للجدّ بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جدّ في جلاد بني الأصفر!»- يعني الروم - فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله ، لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني لأخشى إنَ رأيت نساء بني الأصفر ألَّا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك ».

فماذا كان جزاؤهم ؟

﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ . فجهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات ، فلا يفلتون ، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة ، وعن انتظار العقاب عليها حتمًا . جزاءَ التخلف والكذب والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ [محمد : ٢٧ - ٢٨] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي هدّرها الله لهم ، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ؛ أي يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد ، فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال ، ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرّوا ، فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم .

ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله ، وضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه ، لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار[1] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، (٢٥-١١٨/٢٦-١١٩) الدار التونسية للنشر .

ولننظر كيف كان الجزاء من جنس العمل :

لمّا آثر الناس حياة الدعة والترف والإخلاد إلى القصور والعرض الزائل – على الجهاد في سبيل الله ، يلوح ذلك واضحًا جليًّا في نهاية الأندلس .

يقول الشاعر يروي ذلّ أمراء الأندلس وخنوعهم :

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ أسماء معتمـدٍ فيها ومعـتضدِ

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرِ يحكي انتفاخًا صورةَ الأسدِ

يقول ابن حزم في حرص ملوك الأندلس على عروشهم :

والله ، لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليهم ، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ ، فيمكنوهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس[1] .

هانت عليهم المنابر والمحاريب والجوامع ، فما لبثوا أن أقيم بها الصلبان وثبتت بها الأقسة والرهبان .

يقول ابن حبان شيخ مؤرخي الأندلس :

دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة ، فسفسف أخلاقهم، وسفّه أحلامهم وخبث ضمائرهم .

انظر إلى المعتصم بن صمادح يمنح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر ابن أبي عبد الله بن مشرف حين أنشده قصيدته التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العَصْب والحِبَرِ ضعيفة الخصْرِ والميثاق والنظرِ

ولمّا بلغ منها قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثرٌ إلّا الذي في عيون الغيد من حَوَرِ

قال المعتصم : لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل والٍ[2]

---

(١) رسائل ابن حزم (٣/١٧٦) .

(٢) الذخيرة (١٤/١٩٢) ، لابن بسام .

وانظر كيف يفعل الحرص على العرش والملك والتقاعس عن الجهاد ، انظر إلى الرجل الذي ترك الجهاد ، وضاعت على يديه الأندلس كيف ذلّ وافتقر : فهذا أبو عبد الله الصغير محمد بن علي بن نصر أو محمد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة يتقاعس عن الجهاد، ويسلّم غرناطة للملكين الكاثوليكيين نظير حق الملكية له ولأحفاده لكافة أرجاء وكور برجة ، ودلاية ، ومرشانة ، وبلذوذ، ولـوتشار، وشبيلش، وأجيجر، وأرجية، وأندرش التي ارتضى الإقامة فيها مع أهله وحشمه ، يحكمها باسم فرناندوا وإيزابيلا ، يؤدي الضرائب وكل الأتاوات لهما ، ويحصل الخراج والعشور .

كان أبو عبد الله صغيرًا في تهاونه وتخاذله ، حريصًا على دنيا تفلتت من بين أصابعه ، ويقف باكيًا أمام قصر الحمراء فتقول له أمه :

ابك بكـاء النساء ملكـًـا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولم يرثْ أحفاده وأولاده عنه غير الجوع والتشرد والحرمان .. فقد (رأى المقري في فاس أحفاد أبي عبد الله الصغير شيوخًا يتسولون ويعيشون من الصدقات .. وكان المقري قد نزل فاس في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عام ١٦١٨م ، الموافق ١٠٢٧ هـ ، يبحث عن آثار الملك أبي عبد الله الصغير ، وزار قصره وتجوّل في جنباته ، وكان ولداه قد باعاه منذ زمن مضى ، ثم زارها بعد ذلك بعشر سنوات ، وعرف من أمر بنيه وأحفاده وذلِّهم وفقرهم واحتياجهم للناس ما جعله يعتبر ويتعظ)(١) .

ويشاء الله أن يظل شاهد قبر أبي عبد الله الصغير – حيث كتب عليه اسمه، وتاريخ مولده، ويوم وفاته، وصفته– عتبة لباب منزل صغير بمدينة تلمسان، يطؤه الناس بأقدامهم في دخولهم وعند خروجهم .

فهل يقارن موقف أبي عبد الله الصغير بقول المعتمد بن عباد لألفونسوا السادس : رعي الجمال خير من رعي الخنازير .

---

(١) الإبادة لأحمد رائف (٣٠٤ – ٣٠٥) طبع دار الزهراء .

فجائع الدهر أنواع منوّعة ... وللزمان مسرّات وأحزانُ
وللحوادث سلوان يهوّنها ... وما لما حلّ بالإسلامِ سلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوىٰ له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
فاسأل بلنسيةً ما بال مرسيةٍ ... وأين شاطبة أم أين جيّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكمْ ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ
يبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدة ... حتى المنابر ترثي وهْيَ عيدانُ
أعندكم نبأ عن أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهمْ ... أسرى وقتلى فما يهتزّ إنسانُ[1]

وفي عصرنا هذا رأيت في الجرائد كما رأى غيري صورة وزير يهودي في الحكومة الإسرائيلية يدخل إلى الجامع الأزهر كسائح ، ويبلغ به الصلف والكِبْر أن لا ينحني ليفك رباط حذائه ، ويركع تحت قدميه شيخ معمم ممن يعملون بالمسجد ، ليفك له الرباط .

وشاهدت كما شاهد غيري في كل مكان الجندي العراقي المسلم الأسير في حرب الخليج وهو يُقبّل يد وقدم الجندي الأمريكي ، ويتذلل أمامه ، ويسأله العفو والمغفرة ويردّ العلج الصليبي على الجندي العراقي برطانة صليبية وقحة : لا بأس عليك ، أو لا تخف . وكان التلفاز في ديار الغرب يكرر عرض هذه الصورة :

اليومَ عادتْ علوجُ الرومِ فاتحةً ... وموطنُ العربِ المسلوبُ والسَّلَبُ

(١) من قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس ، وهي من عيون الشعر الإسلامي

ماذا فعلنا غضبنا كالرجال ولم نَصْدق وقد صَدق التنجيمُ والكتبُ
فأطفأتْ شهبُ الميراجِ أنجمَنَا وشمَسنَا وتحدّت نارَهَا الخُطَبُ
وقاتلت دوننا الأبواقُ صامدةً أما الرجالُ فماتوا ثَمَّ أو هربوا
حكّامنا إن تصدوا للحمى اقتحموا وإن تصدى له المستعمر انسحبوا
هم يفرشون لجيش الغزو أعينَهم ويدّعون وثوبًا قبل أن يثبوا
الحاكمون وواشنطن حكومتهم واللامعون وما شعُّوا وما غربُوا
لهمْ شموخ المثنى ظاهرًا ولهمْ هوى إلى بابك الخرمي ينتسبُ
تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها إذا امتطاها إلى أسياده الذَّنَبُ
وما تزال بقلبي ألف مبكية من رهبة البَوْح تستحيي وتضطربُ
يكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا ونحن من دَمنا نحسو ونحتلبُ[1]

وأما عن ذلّ المسلمين في البوسنة والهرسك .. فدماء القلب قبل العين لا تكفي لوصف المأساة .

يتحدث العشماوي عن سراييفو فيقول :

نناديكمْ وقد كَثُر النحيبُ نناديكمْ ولكنْ من يجيبُ
نناديكمْ وآهات الثكالى تحدثكم بما فعل الصليبُ
سراييفوا تقول لكم ثيابي ممزقة وجدراني ثقوبُ
محاريبي تئن وقد تهاوى على جدرانها القصف الرهيبُ
وأوردتي تقطع لا لأني جنيتُ ولا لأني لا أتوبُ
ولكني رفعت شعار دين يضيق بصدق مبدئه الكذوبُ
لنا في أرضنا نهرٌ وماءٌ وروضٌ في مرابعنا خصيبُ
لنا بيتٌ وأطفالٌ ولكن محتْ آثار منزلنا الخطوبُ
بناتُ المسلمين هنا سبايا وشمس المكرمات هنا تغيبُ

---

(١) من قصيدة للشاعر اليمني البردوني .

تبيتُ كريمةً ليلى وتصحـو وقد ألغى كرامتها الغـريبُ
تخبيء وجهها ياليت شعري بماذا ينطق الوجـه الكئيبُ
يموت الطفل في أحضان أم تهدهده وقد جفّ الحليب
بكتْ حزنًا عليه بغير دمعٍ وأين الدمعَ والظمأ النصيب

ويقول حفظه الله :

هذي الجراحُ أمَا تحرِّكُ ساكنًا فيكم أما للغافلين عقـولُ
أنا بينكمْ أُصلَى بنارِ قذائفٍ وتصاغ قصة حسرتي وتطولُ
أنا بينكمْ شعبٌ يذَبَّحُ جهرةً والشمسُ في كبد السماء تجولُ
شعب يُغذّى بالأسى أطفالُـه ويشردون وللنساءِ عويـلُ
أواهُ لو أبصرتمُ الطفل الذي أمسى وهيكل عظمه مشلولُ
أواه لو أبصرتـمُ الأم التـي ذبحت ولا كفنٌ ولا تغسيلُ
أين الأحبة يا صخور تحدثي هل من أخٍ يمحو الأسى ويزيلُ ؟
أين الأحبة ؟ واستجاب مُنْصِرٌ لندائِنا في كفِّـه الإنجيـلُ
أَوَ سنّ هذا في الحياة محمدٌ أتـلاهُ في قرآنِنا جبريـلُ ؟
يا إخوة الإسلام هذا ثوبنا بدموعنـا ودمائنـا مبلـولُ
عذرًا أخا الإسلام - إنا أمة ما زال يقلب رأسها التطبيلُ
أجفانُ أمتنا تُكحلُ بالقـذىٰ أيراك جفنٌ بالقذىٰ مكحـولُ

يكفيك أن جماجم الأطفال تلعب بها الأقدام كالكرة .

يكفيك أن تغتصب المرأة مع زوجها وبنيها ، ويذبح أطفالها ، وترغم على الشرب من دمائهم .

يكفيك أن صبية بنت خمس سنين يهتك عرضها وتضاجع .

فكيف تضاجع الفتيات والفتيات مرتجفة

وكيف لبنت خمس سنين قلت : الآن يا امرأتي

ولكن الغد آت يا لئيم الصرب ، ويا خنزير الغرب .

○ الجهاد يُذهب الهمَّ والغمّ ○

قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يُذهب الله به الهمّ والغمّ »(١) .

قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ١١١] .

من رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله ، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا ، وما الذي فات المؤمن الذي سلّم نفسه وماله ويستعيض الجنة ، والله ما فاته شيء ، فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت ، سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله ، أم في سبيل سواه ، والجنة كَسْب ، كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة ، فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك .

ودع عنك رفعة الإنسان ، وهو يعيش له ، ينتصر إذا انتصر ؛ لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه ، ويستشهد - إذا استشهد - في سبيله ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة ، ويستشعر في كل حركة ، وفي كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض ، وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

---

(١) صحيح الجامع ٣٩٤٢ ، رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة . قال الهيثمي : فيه عمرو بن الحصين وهو متروك ، والصحيحة ١٩٤١ ، ورواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وصححه ، وأقره الذهبي .

إن هذا وحده كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بإنطلاقه من إرهاق الضرورة ، وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة ، فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة ، فهو يدعو إلى الاستبشار ، وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال .

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه ، على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه الشُّقَّةُ والعناء ، يذهب الهم والغم ، والجزاء من جنس العمل ، ولكنها الشقة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

كثيرٌ همُّ أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ، وفي كل مكان ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص .

وانظر كيف أذهب الله بالجهاد همّ ألب أرسلان وغمّه .

فقد عاد ألب أرسلان إلى عاصمة دولته خراسان ، وجيشه بحالة منهكة ، لا يتعدى ما بقي منه حيًّا الخمسة عشر ألفًا ، أكثرهم مسخن بالجراح فاقد لسلاحه ، وما زال بينه وبين عاصمته مسافة شاقة ، واعترضه رومانوس الرابع امبراطور بيزنطية ، وهو يقود جيشًا قيل : إنه ضمّ مائة ألف مقاتل ، وقيل : ستمائة ألف مقاتل ، وسرعان ما يعلم ألب أرسلان الخطر الزاحف نحوه ، ويدرك أن لا قِبل له بملاقاة رومانوس الرابع وجيشه اللجب بجيش منهك قليل العدد والعدة ، فيحاول أن يحتال على رومانوس ، فيغريه بقبول مال عظيم ، فيرفض رومانوس ، فيعرض عليه أن يقطعه بعض أراضيه ، فيرفض رومانوس ويصر على زحفه ، وجمع ألب أرسلان وجوه مملكته ، وقال : قد علمتم ما نزل بالمسلمين

فما رأيكم ؟ قالوا : رأينا لرأيك تبع ، وهذه الجموع لا قبل لأحد بها ، قال : وأين المفر ؟ لم يبق إلا الموت ، فموتوا كرامًا أحسن .. وإني قد عزمت بحول الله وتأيده على القتال ، وسأخرج لتوي بكفني وحنوطي ، فمن رغب عن الجهاد فدونه المسالك ، فليسلك أيها أقرب إلى نجاته ، ومن رغب في لقاء الله فليتحنط وليلبس كفنه وليلحق بي لملاقاة رومانوس .

قال ألب أرسلان : إني هممت ألَّا أقاتلهم إلا بعد الزوال ، قالوا : ولم ؟ قال : لأن هذه الساعة لا يبقى على وجه الأرض منبر إلا أدعوا لنا بالنصر ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فقالوا : افعل . فلما زالت الشمس صلى ، وقال : ليودع كل واحد صاحبه، وليوص، ففعلوا ذلك. وما هي إلا ساعة حتى كان ألب أرسلان يمتطي جواده ، ووراءه خمسة عشر ألف جندي قد تكفنوا جميعًا بقماش أبيض ، وقد فاحت منهم رائحة الحنوط ، وتحتدم المعركة بين الجيش المكفن وبين الجيش البيزنطي ، ويتدافع المسلمون بأكفانهم يطرقون أبواب الجنة بجماجم الكافرين .

وانتصر ألب أرسلان .. وأحضر رومانوس أسيرًا بين يديه وفي عنقه حبل ، فقال : ما كنت صانعًا لو ظفرت بي ؟ قال : أو تشك أنت في قتلك حينئذ ؟ قال ألب أرسلان : وأنت أقل في عيني من أن أقتلك ، اذهبوا فبيعوه ، فطافوا به جميع العسكر والحبل في عنقه ينادى عليه بالدراهم والفلوس ، وما يشريه أحد ، حتى انتهوا في آخر العسكر إلى رجل ، فقال : إن بعتمونيه بهذا الكلب أشتريه ، فأخذوه وأخذوا الكلب وأتوا بهما ألب أرسلان ، فأخبروه بما صنعوا به ، وبما دفع فيه ، فقال : الكلب خير منه ؛ لأنه ينفع ، وهذا لا ينفع ، خذوا الكلب وادفعوا له هذا الكلب .. ثم إنه بعد ذلك أمر بإطلاقه ، وأن يجعل الكلب قرينه مربوطًا في عنقه ووكل به من يوصله إلى بلاده ، فلما وصل عزلوه من الملك وقتلوه[1] .

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام ، لزياد أبو غيمة ، وفضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٥٢ - ٥٥٣) .

القتل في سبيل الله حياة :

قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وقال ﷺ : « إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُرد أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تُركوا »[(١)] .

وقال ﷺ أيضًا : « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلُق من ثمار الجنة »[(٢)] .

قال المناوي :

« إن أرواح الشهداء في طير خضر » ؛ أي في أجواف طير خضر ، وليس هذا بحصر ولا بحبس ؛ لأنها إما أن توسع عليها كالفضاء ، أو يُجعل في تلك الحواصل من النعيم ما لا يوجد في فضاء واسع .

« تعلُق » بضم اللام ؛ أي تأكل تلك الطير بأفواهها من ثمرة الجنة ، فتجد بواسطة ريح الجنة ولذتها وبهجتها وسؤددها ما لم تحط به العقول[(٣)] .

وقال ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في جوف

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن كعب بن مالك انظر الجامع ١٥٥٥، السلسلة الصحيحة ٩٩٥.

(٣) فيض القدير (٢ / ٤٢٢) .

طير خضر ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، فتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم »[1] .

فانظر : كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل ، فليس بميت وإن قتل .

وإن كانت العبدان للموت أُنْشِئت فقتلُ امرئ في الله لا شكَّ أفضلُ

فوالله ، ما هي بدار مقام ، ولا محل اجتماع والتئام ، دار إن أضحكت اليوم أبكت غدًا ، وإن سرّت أعقب سرورها الردى ، وإن جلّت فيها النعم جميعًا ، حلت فيها النقم سريعًا ، إن أخصبت أجدبت ، وإن جمَّعت فرّقت ، وإن ضمَّت شتّتت ، وإن نقصت نغصت ، وإن أغنت عنت[2] ، وإن زادت أبادت ، وإن عمّرت دمّرت ، وإن أسفرت أدبرت ، وإن راقت أراقت ، وإن صافت حافت[3] ، وإن عمّت بنوالها غمّت بوبالها ، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وعَذْبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء، والشقاق والوصب[4]، والنصب والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، لا ثقة بعهودها، ولا وفت لوعودها ، محبها تعبان ، وعاشقها ولهان[5] ، والواثق بها خجلان ،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، صحيح الجامع ٥٠٨١ ، تخريج الطحاوية ٣٩٣ ، تخريج المشكاة ٣٨٥٣ .

(٢) عناه : كلفه ما يشق عليه .

(٣) أي جارت وظلمت .

(٤) المرض .

(٥) الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد .

قد سترت معايبها ، وكتمت مصائبها ، وأخفت نوائبها[(١)]، وخدعت بأباطيلها ، وغرت ببراطيلها[(٢)]، ونصبت شباكها[(٣)]، ووضعت أشراكها[(٤)]، وبهرجت زيفها[(٥)]، وجردت سيفها ، وأبدت ملامحها ، وسترت قبائحها ، ونادت الوصال الوصال ، أيها الرجال ، فمن رام وصالها ، وقع في حبالها ، وبدا له سوء حالها ، وعظم نكالها ، ووقع في أسرها ، لجهله بشرها ، وحاق به مكرها ، حيث لم يتبصر في أمرها ، فعضّ يديه ندمًا ، وبكى بعد الدمع دما ، وأسلمه ما طلب إلى سوء المنقلب ، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب .

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك ، وانهض على قدم التوفيق والسعادة عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة ، ولا يقعدك عن هذا الثواب ، سبب من الأسباب ، فذو الحزم السديد من جرّد العزم الشديد ، وذو الرأي المصيب من كان له في الجهاد نصيب ، ومن أخلد إلى الكسل ، وغرّه الأمل ، زلّت منه القدم ، وندم حيث لا يغني الندم ، وقرع السنَّ على ما فرط وفات ، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات : ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ [الاحزاب : ٤] . وحسبنا الله ونعم الوكيل[(٦)].

وإن سَفْرةً إليه بعدها تحط رحالنا عنده لمقاساتها أحلى من العسل..

يقول عز بن عبد السلام سلطان العلماء ، في كتابه أحكام الجهاد وفضائله عن قتل الشهداء .

أحيا الله فيه بعد مماتهم ، وعوضهم عن حياتهم التي بذلوها بأيديهم ، بحياة أبدية سرمدية ، لا يصفها الواصفون ، ولا يعرفها العارفون .

---

(١) جمع نائبة ، وهي المصيبة .

(٢) البراطيل : جمع برطيل بالكسر : الرشوة .

(٣) جمع شبكة ، وهي التي يصاد بها .

(٤) جمع شرك ، وهو حبالة الصيد .

(٥) بهرج الشيء : أباحه .

(٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ١٣١- ١٣٢) .

وكذلك لما فارقوا الأهل والأوطان أسكنهم في جواره ، وآنسهم بقربه ، بدلًا من أنس من فارقوه من أحبائهم لأجله ، فطوبىٰ لمن حصل على هذا الجزيل ، في جوار الرب الجليل[1] .

وقال أيضًا :

لما بذل الشهداء أنفسهم لأجل الله ، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها ، وجعلهم جيرانه ، يبيتون تحت عرشه ، ويسرحون من الجنة حيث شاءوا ، لما انقطعت آثارهم من السروح في الدنيا[2] .

يقول ابن القيم :

إن الشهيد لما بذل حياته لله ، أعطاه الله سبحانه حياة أكمل منها ، عنده في محل قربه وكرامته .

من بذل شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه[3] .

حياة غير الشهيد شوب النغص ، ممزوج بالغصص ، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا وإن سرّت يومًا أحزنت شهورًا ، أولها مخاوف ، وآخرها موت ومتالف ..

أما الشهيد ، فقتلٌ آخره حياة ، ولكن أي حياة ..؟!!

غير الشهيد يحيا مع من ..؟!

والشهيد يحيا عند من ..؟! .

فارق عندية أهل الدنيا الذين يموتون ، فمن الله عليه بالحياة عند الحي الذي لا يموت ..

لما مزقت أجسادهم في دار الدنيا لله عز وجل ، فمن الله عليهم بحواصل

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله ص٥٣ .

(٢) أحكام الجهاد ص٨٤ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣ / ٢٧٣) .

طير خضر ..

حبست أقدامهم عن السعي ، فمن الله عليهم بأن يسرحوا في الجنة حيث شاءوا ، وهذه خاصية لهم .

يقول الأشقر :

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين ، فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا يتنقل في أرجائها(١) .

لما حرموا رزق الدنيا ، فاستمر رزقهم ، وما أدراك بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار ؟!

الدنيا : إما مأكول ، أو مشروب ، أو مشموم ، والمأكول أفضله العسل ، وهو بزقة ذبابة ، والمشموم أفضله المسك ، وهو دم فأرة ، هذه هي الدنيا ، فهل يقاس عسل بعسل ؟!

عسل لم يقطف من الأزهار ، إنما يجري على رضراض الأنهار .

فاتتهم الحياة في الدنيا ، ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى .

ويقال : هم أحياء ؛ لأن الخَلَفَ عنهم الله ، ومَنْ كان الخلف عنه الله ، لا يكون ميتًا .

قال قائلهم في مخلوق :

وإن يكنْ عنا مضى بسبيله ... فما ماتَ منْ يبقْى له مثلُ خَالِدِ

وهم أحياء بذكر الله لهم ، والذي هو مذكور الحق الجميل بذكره السرمدي ليس بميت .

ولئن فنيت بالله أشباحهم ، فقد بقيت بالله أرواحهم ، لأن من كان

---

(١) القيامة الصغرى ، للأشقر .

فناؤه بالله ، كان بقاؤه بالله .

عليهم رداء الهيبة ، وهم في ظلال الأنس ..

يقول سيد قطب :

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق ، شهداء قتلى أعزاء أحياء قتلى كرامًا أزكياء ، فالذين يخرجون في سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب ، وأزكى الأرواح ، وأطهر النفوس ، إنهم أحياء ، فلا يجوز أن يقال عنهم : أموات لا يجوز أن يعتبروا أمواتًا في الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم : أموات بالشفة واللسان ، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه ، فهم لا بد أحياء ، إنهم قتلوا في ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين ، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة ، إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد ، وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع ، وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ، فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التي من أجلها قُتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد .

وحبوبُ سنبلة تجفُّ ستملأُ الوادي سنابل

وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد ، فهم ما يزالون عنصرًا فعالًا مؤثرًا في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الأولى ، فهم أحياء أولًا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس ، ثم هم أحياء عند ربهم .

أحياء ؛ ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت ، وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر ؛ لأنهم بعد أحياء .

أحياء ؛ فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ، يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ؛ فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ، ولا يتعاظمهم الأمر ، ولا يهولنها عظم الفداء .

ثم هم بعد أحياء مكرمون عند الله ، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه[1] .

ياليت شعري وما ارتفعت بنا هِمم إلى الجِنان وتالي القوم أوّابُ
إلى كواعب للأطراف قاصرة وظل طوبي وعطر الشدوِ ينسابُ
إلى قناديل ذهب علقت شرفًا بعرش ربي لمن قُتلوا وما غابوا

يقول صاحب الظلال :

حقيقة ضخمة في ذاتها ، وضخمة في آثارها ، إن الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتًا بل أحياء .

أحياء عند ربهم لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة مِن بعدهم ، ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثر والتأثير أهم خصائص الحياة .

فهم يرزقون عند ربهم .

وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله .

وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين .

وهم يحفلون بالأحداث التي تمر مِن خلفهم من إخوانهم .

فهذه خصائص الأحياء ، من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير .

فما الحسرة على فراقهم ؟! وهم أحياء موصولون بالأحياء والأحداث ، فوق ما نالهم من فضل الله ، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة ، يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه من فضله عليهم ، إن كان هناك حزن لفراقهم ، فالفرح كل الفرح فرحهم .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ [آل عمران : ١٥٧] فالموت في سبيل الله بهذا القيد وبهذا الاعتبار خير من الحياة ،

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٤٣ - ١٤٤) .

وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أغراضها الصغار ، من مال وجاه ومن سلطان ومن متاع ، خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته ، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون[١].

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُحَلَّى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجارُ من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أهل بيته »[٢] .

وعن كعب بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « أرواح الشهداء في صور طير خضر ، معلقة في قناديل الجنة ، حتى يرجعها الله يوم القيامة »[٣] .

قال القرطبي :

خديث كعب أصح من رواية من روى أن أرواحهم في جوف طير خضر ، قاله أبو عمر في الاستذكار ، وقال أبو الحسن القاس : أنكر العلماء قول من قال : في حواصل طير خضر ؛ لأنها رواية غير صحيحة ؛ لأنها إذا كانت كذلك فهي محصورة مضيق عليها .

قال القرطبي : الرواية صحيحة ؛ لأنها في صحيح مسلم ، فيحتمل أن تكون الفاء بمعنى على ، فيكون المعنى : لأرواحهم على جوف طير خضر ، كما قال تعالى : ﴿ **ولأصلبنكم في جذوع النخل** ﴾ [طه : ٧١] ؛ أي على جذوع النخل ، وجائز أن يسمى الظهر جوفًا ؛ إذ هو محيط به ، ومشتمل عليه . قال

---

(١) في ظلال القرآن (١ / ٥١٦) .

(٢) صحيح الجامع ٥٠٥٨ رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب ، أحكام الجنائز للألباني (٣٥ – ٣٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق بسندٍ صحيح .

أبو محمد عبد الحق : وهو حسن جدًّا[1] .

قال ابن النحاس :

في هذا الكلام كله نظر فإن حديث ابن مسعود صحيح لا شك فيه ، فلا يلتفت إلى قول من قال : إنه غير صحيح ، وأيضًا فإنا لا نسلم أن أرواحهم محصورة لكونها في جسد ؛ فإنه يلزم من ذلك أن تكون أرواح أهل الجنة في الجنة محصورة بأجسادها ، وأن يكون جعفر - رضي الله عنه - محصورًا بالجسد الذي رآه النبي ﷺ فيه ، وهو سيد الشهداء ، ولا ضرورة تدعو إلى التأويل الذي أوله أبو محمد - رحمه الله - بل الذي يظهر لي - والله أعلم - من الحكمة في جعل أرواحهم في هذه الأجساد أنهم لما جادوا بأجسادهم الكثيفة لله تعالى ، وبذلوها في حُبِّه ، وعرّضوها للآلام والمشاق الشديدة ، وسمحوا بها للفناء امتثالًا لأمر الله وطلبًا لمرضاته ، عوّضهم الله عنها أجسادًا لطيفة في دار النعيم الباقي ، يأكلون بها ويشربون ، ويسرحون في الجنة حيث يشاءون .

ولما كان ألطف الحيوانات أجسامًا الطير ، وألطف الألوان الأخضر ، وألطف الجمادات الشفافة الزجاج ، كما قال تعالى : ﴿ **الزجاجة كأنها كوكب دري** ﴾ [النور : ٣٥] وإن كانت من ذهب ، كما في حديث ابن عباس ، فهو المُفَرِّح طبعًا وخاصية ، وناهيك بذهب الجنة مفرَّحًا ، فلذلك - والله أعلم - جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد ، وهو الطير الملون بألطف الألوان ، وهو الخضرة ، يأوي إلى ألطف الجمادات ، وهي القناديل المنورة والمفرَّحة ، في ظل اللطيف الرحيم ، لتكمل لها لذة النعيم إلى جوار الرب الكريم ، فكيف يُظن أنها محصورة ؟! كلا والله ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليشمر المشمرون ، وعليه فليجتهد المجتهدون[2] .

فإن قيل : إذا كانت روح كل مؤمن على صورة طير في الجنة ، كما جاء

---

(١) التذكرة للقرطبي ص١٩٧ .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس ٧٣١ - ٧٣٢ .

في حديث كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق من شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه »[1] .

فبماذا يتميز الشهيد ؟؟ فالجواب من وجوه :

الأول : ما ذكره ابن كثير في تفسيره في هذا الحديث : إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بنفسها[2] .

فهي كالراكبة بالنسبة إلى أرواح المؤمنين وهذا حسن غير أنه يعارض حديث كعب بن مالك ، فإن فيه « أرواح الشهداء في صور طير خضر » .

الثاني : وهو أحسن منه ، فيه أن المراد بذلك روح المؤمن الشهيد ، دون غيره من عموم المؤمنين .

ويعضد ذلك ما حكاه القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه سراج المريدين من اجتماع الأمة على أنه لا يتعجل الأكل والنعيم إلا الشهيد في سبيل الله .

الثالث : أنه قد روى «تَعلَق»[3] بفتح اللام ، قال القرطبي : وهو الأكثر، ومعناه تسرح[4] .

يقول ابن النحاس : ومن خط القرطبي فقلت : فيكون المعنى أن روح المؤمن تطير في شجر الجنة وتسرح بينها إلى يوم القيامة ، لا أنها على شكل طائر يأكل ويشرب ، بخلاف روح الشهداء ، فإنها في جوف طير أخضر ، أو على صورة طير أخضر ، تأكل وتشرب وتتنعم ، وتأوي إلى قناديل في ظل العرش .

---

(١) حديث عظيم صحيح ، اجتمع في سنده ثلاثة من الأئمة الأربعة مالك والشافعي وأحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ١٤٢) .

(٣) تعلق : بضم اللام . تأكل .

(٤) التذكرة للقرطبي ص٩٣ .

○ الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا مس القرصة ○

قال رسول الله ﷺ : « الشهيد لا يجد ألم القتل ، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة »[(١)] .

وقال أيضًا : « الشهيد لا يجد مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها »[(٢)] .

وقال : « ما يجد الشهيد من مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »[(٣)] .

قال المناوي في فيض القدير : « إلا كما يجد أحدكم مس القرصة » عبّر بأداة الحصر ؛ دفعًا لتوهم تصور أن ألمه يفضل على ألمها ، وهذه تسلية لهم عن هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم ، وتهييج الصبر على وقع السيوف ، واقتحام الحتوف ، فالله تعالى يهون على الشهيد الموت ويكفيه سكراته وكربه .

○ الشهيد لا يُفتن في قبره ولا يُعذب ○

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال .. ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ... » .

ثبت في الصحيح : أن المرابط في سبيل الله لا يفتن في قبره .

---

(١) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٣٩ ، رواه الطبراني عن أبي قتادة ، تخريج الترغيب (٢/ ١٩٢) .

(٢) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٤٠ ، رواه النسائي عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٣٦ .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٨٩ .

عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر »[١] .

فالشهيد أولى وأحرى ؛ لأنه أفضل منه ، وما نال المرابط ما ناله من الفعل إلا بتعرضه للشهادة وتوقعه لها ، فكيف لا يعطى ذلك الفضل من نالها[٢] .

إن الفتنة في القبر بسؤال المَلَكين ، إنما هي لاختبار ما عند المرء من حقيقة الإيمان والتصديق ، ولا شك بأن من وقف للقتال ، ورأى السيوف تلمع وتقطع ، والأسنة تبرق وتخرق ، والسهام ترشق وتمرق ، والرءوس تندر ، والدماء تثعب ، والأعضاء تتطاير ، والناس بين قتيل وجريح وطريح ، فيثبت على ذلك ، ولم يولِّ الدبر ، ولم ينهزم ، وجاد بنفسه لله تعالى إيمانًا به ، وتصديقًا بوعده ووعيده ، كما وصف الله تعالى المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] فيكفيه هذا امتحانًا لإيمانه ، واختبار له وفتنة ، إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر ، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات ، وداخله الشك والارتياب ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا** ﴾ [الأحزاب : ١٢] .

فيكفي الشهيد هذا الامتحان من سؤال الفتان ... والجزاء عند الله من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وأبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين . وفيه حميد بن هانئ أبو هانئ ، وهو من رجال مسلم ، وإنما روى له البخاري في الأدب المفرد . وقال الحاكم في مكان آخر لسند فيه حميد : على شرط مسلم . ووافقه الذهبي .

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤ / ٢٥٧) .

هذه الآية ﴿ **ونُفِخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [الزمر: ٦٨] مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: «هم شهداء الله»[١].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ : « سألت جبريل عن هذه الآية : ﴿ **ونُفِخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، ثُنَيَّة الله تعالى ، متقلدون أسيافهم حول عرشه »[٢] .

فأين صعق السيوف ، من صعق القيامة ..؟!!

إن للموت لسكرات ، وإن هول المطلع شديد ، وإن للقبر عذابًا لا ينجو منه إلا الصالحون ، وإن فيه لسؤال المَلَكين الفَاتِنَيْن ، ثم بعد ذلك الخطر العظيم ، إما سعيدًا فإلى النعيم المقيم ، وإما شقيًّا فإلى عذاب الجحيم ، والشهيد آمن من جميع ذلك ، لا يَخْشَى شيئًا من هذه المهالك لا يجد إلا مسّ القرصة ، فما يقعدك عن انتهاز هذه الفرصة ؟!.

ثم تجاوز في القبر من العذاب ، وتفوز عند الله بحسن المآب ، وتأمن من فتنة السؤال ، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال ، فكم بين هذا القتل الكريم وبين الموت الأليم ، كم بين هذا ، ومن هم ﴿ **... أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠] قد أَمِنوا من عظيم الأهوال والكربات ، وسكنوا بأجلّ المحالّ في أعلى الغرفات ، وكرعوا من النعيم أكوابا ، وادّرعوا من التنعيم أثوابا ، ومُتعوا بجنان الفردوس مستقرًّا ومآبًا ، وتمتعوا بحورٍ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك في التفسير، وقال: هذا صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح : أورده السيوطي في الجامع ، وقال : رواه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد والحاكم وابن مردويه في التفسير والبيهقي في البعث عن أبي هريرة . وزاد على رواية الحاكم : « هم الشهداء ، ثنيـة الله تعالى ... حول العرش » . وصححه السيوطي والحاكم . انظر فيض القدير (٤ / ٧٨ – ٧٩) .

عين كواعب أترابًا ، أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان ، تأكل وتشرب وتأوي إلى قناديل معلقة في عرش الرحمن ، يتمنون الرجوع إلى هذه الدار ؛ ليقتلوا في سبيل الله عشر مرات ، لما بهرهم من ثواب الله الجزيل للجريح في سبيله والقتيل[1] .

○ ظل الملائكة على الشهيد ، والجنة تحت بارقة السيوف[2] ○

وانظر .. لمّا تحمّل الشهيد حرّ السيف ظللته الملائكة .

لما تحمل حرّ السيف وظللته السيوف يكون مأواه الجنة حيث الظل الممدود .

في حديث جابر في البخاري : جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مُثل به ، ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه ، فنهاني القوم ، فسمع صوت نائحة ، فقيل : ابنة عمرو ، أو أخت عمرو ، فقال : « لم تبكي ؟ - أو لا تبكي - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها » .

قال ﷺ : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[3] .

وقال عمار بن ياسر يوم صفين : الجنة تحت الأبارقة[4] .

○ الشهيد لمّا ترك أهله وأزواجه يزوج من الحور العين ○

وانظر إلى الشهيد ، لمّا اغبر بالتراب ، تُزيل الحورُ عنه التراب .

ولما ترك الأزواج ، وقرة عينه من الدنيا ، يوفر له هذا النصيب ، وليس لأحد نصيبه .

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٩٠) .

(٢) ترجمة البخاري ، كتاب الجهاد (٦ / ٣٨ - ٣٩) فتح الباري .

(٣) البخاري في الصحيح فتح الباري ، كتاب الجهاد (٦ / ٤٠) .

(٤) رواه الطبراني بسند صحيح ، انظر فتح الباري (٦ / ٥٦) .

قال ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال ... ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ... » .

عن مجاهد قال : قام يزيد بن شجرة في أصحابه فقال : إنها قد أصبحت عليكم ما بين أخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وفي البيوت ما فيها ، فإذا لقيتم العدو غدًا فقدمًا قُدمًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما تقدم رجل من خطوة إلا تقدم إليه الحور العين[1] فإن تأخر استترن منه ، وإن استشهد كانت أول نفحة كفارة خطاياه ، وتنزل إليه ثنتان من الحور العين فتنفضان عنه التراب ، وتقولان له : مرحبًا قد آن لك ، ويقول : مرحبًا قد آن لكما »[2].

وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : « إذا التقى الصفان أهبط الله الحور العين إلى السماء الدنيا فإذا رأين الرجل يرضين قُدْمه قلن : اللهم ثبته ، وإن فر احتجبن منه ، فإن هو قتل ، نزلتا إليه ، فمسحتا التراب عن وجهه وقالت : اللهم عفّر من عفره وترّب من ترّبه » والجزاء من جنس العمل ...

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلًا أسود أتى النبي - ﷺ - فقال له : يا رسول الله : إني رجل أسود منتن الريح ، قبيح الوجه لا مال لي ، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا ؟ قال : « في الجنة » فقاتل حتى قتل فأتاه النبي - ﷺ - فقال : « قد بيّض الله وجهك ، وطيّب ريحك ، وأكثر مالك » . وقال لهذا أو لغيره : « لقد رأيت زوجته من الحور العين ، نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته »[3].

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وابن الأثير في أسد الغابة ، ورواه ابن أبي شيبة موقوفًا مختصرًا بإسناد صحيح ، وعبد الرزاق موقوفًا بإسناد صحيح ، والطبراني ، قال الهيثمي : رواه الطبراني من طريقين ، رجال أحدهما رجال الصحيح .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الشعب ، وقال في آخره : فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال : « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ، تتنازعان ، تدخلان فيما بين جلده وجبته » .

انظر ...

لمّا ترك المجاهد الفراش والأزواج ، جاد عليه الملك الوهاب ، بكثرة الأزواج من الحور العين ، والجزاء عند الله من جنس العمل ..

ترك نساء الدنيا ، التي يروم منها غيرُه أقذر ما فيها ، ويخاف هجرها ، ويخشى تجافيها ، يحمله حبها على الكدّ والتعب والشقاء الشديد والنصب ، توردك الموارد المهلكة ، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه ، ففاز بوصال من خُلِقت من النور ، ونشأت في ظلال القصور ، مع الولدان والحور ، في دار النعيم والسرور ، والله لا يجفّ دم الشهيد حتى تلقاه ، وتستمتع بشهود نورها عيناه ، حوراء عيناء ، جميلة حسناء ، بكر عذراء ، كأنها الياقوت لم يطمثها إنس قبلك ولا جان ، كلامها رخيم ، وقدّها قويم ، وشعرها بهيم[1] ، وقدرها عظيم ، وجفنها فاتر ، وحسنها باهر ، وجمالها زاهر ، ودلالها ظاهر ، كحيل طرفها ، جميل ظرفها ، عذب نطقها ، عجب خَلْقها، حسن خُلُقها ، زاهية الحلى ، بهية الحلل ، كثيرة الوداد ، عديمة الملل ، قد قصرت طرفها عليك فلم تنظر سواك ، وتحببت إليك بكل ما وافق هواك ، لو برز ظفرها لطمس بدر التمام ، ولو ظهر سوارها ليلًا لم يبقَ في الكون ظلام ، ولو بدا معصمها لسبى كل الأنام ، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأ ريحها ما بينهما ، ولو تفلت في البحر المالح ، عاد كأعذب الماء ، كلما نظرت إليها ازدادت في عينيك حسنًا ، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسنًا ، أيجمل بعاقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها ؟! كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها ؟!

واعلم أن فراق زوجتك تلك لابد لك منه ، وكأن قد وقع ، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع ، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين بما لا يعلمه إلا رب العالمين .

فأعرض عنها اليوم، فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلابد لك منها.

---

(١) بهيم : ما كان لونًا واحدًا ، لا يخالطه غيره سوادًا كان أو بياضًا .

○ لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم ○

قال رسول الله ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا »(١) .

وقال ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الشحُّ والإيمان في قلب عبدٍ أبدًا »(٢).

وقال ﷺ : « من راح روحة في سبيل الله ، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة »(٣) .

وقال ﷺ : « ما اغبرتا قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النار »(٤) .

قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة : أملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأرسلها معي إلى مكة إلى الفضيل بن عياض سنة سبع وسبعين ومائة وهي :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرُنا ... رهجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ
لا يستوي وغبار خيلِ الله في ... أنف امرىء ودخان نارٍ تلهبُ

---

(١) صحيح : انظر صحيح الجامع ٧٤٩٣ ، رواه النسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٢) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة انظر صحيح الجامع ٧٤٩٢ ، وتخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٣) حسن: رواه ابن ماجة (الضياء عن أنس انظر صحيح الجامع ٦١٣٦، والصحيحة ٢٣٣٨).

(٤) رواه البخاري : فتح الباري (٦ / ٣٥) .

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت ، لا يَكْذِب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه ، فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ، ونصحني .

قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، لا يجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم »(١).

إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار ، فما الظن بمن بذل ماله وغرّر بنفسه في قتال الكفار .

○ الجرح في سبيل الله تعالى ○

قال رسول الله ﷺ : « زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس كلم يُكلم في الله إلا وهو يأتي يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك »(٢) .

وقال ﷺ : « كل كَلْمٍ يُكْلَمه المسلم في سبيل الله تعالى ، يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تَفجَّرُ دمًا ، واللون لون دم ، والعَرْفُ عَرْفُ مسك »(٣) .

وقال ﷺ : « لا يُكلم أحدٌ في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا وجاء يوم القيامة وجرحه يثعَبُ دمًا : اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٤).

وقال ﷺ : « ما من مكلوم يُكلم في الله ، إلا وجاء يوم القيامة ، وكَلْمهُ يدمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٥) .

وقال أيضًا ﷺ : « ... ومن جرح في سبيل الله ، أو نُكِب نكبة فإنها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والنسائي، وأحمد، والترمذي، وقال : حديث حسن صحيح، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) صحيح ، رواه النسائي عن عبد الله بن ثعلبة انظر صحيح الجامع ٣٥٦٧ ، وأحكام الجنائز ٦٠ ، الإرواء ٧٠٥ ، تخريج المشكاة ٢٩٢٤ والكلم : الجرح .

(٣) رواه البيهقي عن أبي هريرة . والعرْف : الرائحة .

(٤) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة ، ورواه أحمد ومسلم انظر صحيح الجامع ٧٦٤٩ . وهو صحيح ، ويثعب دمًا ؛ أي يتفجر ويجري .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة .

تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها لون الزعفران ، وريحها ريح المسك ، ومن خرج به جراح في سبيل الله كان عليه طابع الشهداء »[1] .

قال عز الدين بن عبد السلام :

إنما يجيء الجريح كذلك يوم القيامة ، تفضيلًا له على أهل الموقف ، ونداءً عليه بأنه بذل نفسه حتى جرح في سبيل الله[2] .

وقال ابن دقيق العيد في شرح العمدة :

مجيئه يوم القيامة مع سيلان الجرح فيه أمران :

أحدهما : الشهادة على كالمه[3] .

والثاني : إظهار شرفه لأهل المشهد والموقف ، بما فيه من رائحة المسك الشاهدة بالطيب[4] .

وعن معاذ بن جبل ، قال رسول الله ﷺ : « من جرح جرحًا في سبيل الله ، أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك »[5] .

قال ابن حجر :

عرف بهذه الزيادة أن الصفة المذكورة لا تختص بالشهيد ، بل هي خاصة لكل من جرح ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الجرح هو ما يموت صاحبه بسببه قبل اندماله لا ما يندمل في الدنيا ، فإن أثر الجراحة وسيلان الدم يزول ، ولا نفي ذلك أن يكون له فضل في الجملة ، لكن الظاهر أن الذي يجيء يوم القيامة « وجرحه يثعب دمًا » من فارق الدنيا وجرحه كذلك ، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان من حديث معاذ المذكور : « عليه طابع الشهداء » وقوله : « كأغزر

---

(١) رواه أحمد ، وابن حبان عن معاذ ، انظر صحيح الجامع ٦٢٩٢، تخريج المشكاة ٣٨٢٥.

(٢) أحكام الجهاد وفضائله لابن عبد السلام . (٣) جارحه .

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام مع حاشية العدة (٤ / ٥١٥) .

(٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٦ / ٢٥) : لأصحاب السنن ، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم .

ما كانت » . في قوله : « كهيئتها » ؛ لأن المراد لا ينقص شيئًا بطول العهد[١] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم ، يطير بهما مع الملائكة »[٢] .

إن الجرح في سبيل الله ، وكما قال رسول الله ﷺ : لما دميت أصبعه في بعض المشاهد : « هل أنت إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت » .

فكل شيء ناقص في عرف الدنيا إذا انتسب إلى طاعة الله ورضاه ، فهذا هو الكامل في الحقيقة .

وقد قال ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير في الجنة ، ذا جناحين يطير بهما حيث شاء ، مقصوصة قوادمه[٣] بالدماء »[٤] .

وانظر .. إلى أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح لما نزع يوم أحد الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ من المغفر فانتزعت ثنيتاه ، فحسنتا فاه ، فقيل : ما رئي فم قط أحسن من فم أبي عبيدة[٥] .

إن كان هذا في دار الدنيا فكيف في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

ومن أعجب ما روي عن سلفنا الصالح : إن حياشا بن قيس القشيري ، لما شهد اليرموك ، قتل من العلوج خلقًا كثيرًا ، وقطعت رجله يومئذ وهو لا يشعر بقطعها ، فلما انفصل من الحرب ، جعل ينشدها ، وفيه يقول سوار بن أوفى :

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ... ومنا الذي أدّى إلى الحي حاجبًا

يعني حاجب بن زرارة ، وهذا شيء لم يسمع مثله[٦] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٢٥) .

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد والحاكم عن البراء ، وصححه الألباني ، انظر صحيح الجامع ١٥٥٥ ، والسلسلة الصحيحة ٩٩٥ .

(٣) قوادم الطائر ، مقاديم ريشه ، وهي عشر في كل جناح .

(٤) إسناده حسن ، وانظر مجمع الزوائد في المناقب قال الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس بإسنادين أحدهما حسن .

(٥) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢/٩٧٨).

(٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٥١٥).

○ فضل السهر في سبيل الله ○

قال رسول الله ﷺ : « حُرِّمت النار على عين بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »[١] .

من سهر في سبيل الله فقد ترك غرضه من النوم طاعة لله بما يتجشَّمُهُ من خوف العدو ، ولذلك حرمت عليه النار[٢] .

○ الرِّبَاط[٣] ○

قال رسول الله ﷺ : « رباط شهر خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطًا في سبيل الله ، أمن من الفزع الأكبر ، وغُدي عليه برزقه ، ورِيحَ من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[٤] .

أما الرباط ، وهو ملازمة المحلّ الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين ، وإن كان وطنه بشرط نية الإقامة به لدفع العدو ، فارسًا كان أو راجلًا .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : فرض الجهاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ، وحقن دماء المسلمين أحبّ إليّ من سفك دماء المشركين[٥] .

---

(١) أخرجه البيهقي والدارمي، وابن أبي شيبة والحاكم وأحمد وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي .

(٢) أحكام الجهاد وفضائله لعز الدين بن عبد السلام .

(٣) قال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٢) : الرباط المرابطة ، وهو أن يربط هؤلاء خيولهم في ثغرهم وهؤلاء خيولهم في ثغرهم ويكون كل منهم معدًّا لصاحبه متربصًا لقصده ، ثم اتسع فيه فأطلقت على ربط الخيل واستورادها لغزو أو عدو حيث كان وكيف كان ، وقد يتجوز به للمقام بأرض والتوقف فيها .

(٤) رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٧٣ .

(٥) الجامع لمسائل المدونة (١٥٤ / ١) .

عن سلمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتان »[١] .

وعن عثمان - رضي الله عنه - رباط يوم في سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل .

وعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر »[٢] .

قال القرطبي :

حديث سلمان ، وحديث فضالة ، دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت ، كما جاء في حديث أبي هريرة « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم . فإن الصدقة الجارية ، والعلم المنتفع به ، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم ، وموت الولد ، والرباط أيضًا أجره مضاعف إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب ، فتنقطع بانقطاعه ، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة ؛ وهذا لأن أعمال البرِّ كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو ، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام . انتهى كلامه . وهو مليح جدا فتأمله[٣] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم ، قال القاضي عياض : رواه الأكثرون بضم الفاء جمع فاتن .

(٢) رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٣٢٥) ، فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٣٧١-٣٧٢) .

« رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه » لا يعارض رواية : « خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » ؛ لاحتمال إعلامه بالزيادة ، أو لاختلاف العاملين ، أو العمل أو الإخلاص أو الزمن .

« جرى عليه أجر عمله » الذي كان يعمله حال رباطه ؛ أي لا ينقطع أجره ، وهذه فضيلة لا يشركه فيها أحد ولا ينافيه عد جمع نحو عشرة ممن يجري عليهم ثوابهم بعد موتهم ؛ لأن المجرى على هذا ثواب عمله وثواب رباطه ، وأما أولئك فشيء واحد .

قال الطيبي : ومعنى « جرى عمله عليه »: أن يقدر له من العمل بعد موته كما جرى منه قبل الممات[1] .

وتأمل يا أخي .. كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

من مات مرابطًا جرى عليه عمله ، رباط ووقف النفس على دين الله ، يقابله جري لثواب العمل ..

فتأمل هذه .. رباط نفس وجسد ، وجري رزق وعمل ، والجزاء من جنس العمل .

المرابط أمام العدو يفزع لأي شاردة منه ، ويخاف أن يغير على بلاد المسلمين ، فيأمن الفزع الأكبر ، وهذا جزاء من جنس العمل .

هذا احتبست قدماه عن سعي الدنيا طلبا للرزق ، فغُدي عليه برزقه .

هذا لا يستنشق إلا الغبار ، ولذا رِيحَ من الجنة ، جزاءً وفاقًا .

قال أسد بن الفرات : ما من أحد إلا يرى حسناته وسيئاته يوم القيامة ، إلا المرابط فإنه يرى حسناته ، ولا يرى سيئاته ، وذلك أنه تمحى عنه سيئاته ، وتكتب حسناته[2] .

---

(١) فيض القدير (٤ / ١٢) .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٩٧) .

روى ابن المبارك: أن الحارث[١] بن هشام - رضي الله عنه - وهو أخو أبي جهل لأبويه ، خرج من مكة للجهاد ، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا ، فلم يُر أحد طَعِم إلا خرج يُشَيِّعه ، فلما كان بأعلى البطحاء وقف، ووقف الناس حوله يبكون ، فلما رأى جزعهم رق ، فبكى ، وقال : يأيها الناس ، إني والله ، ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد عن بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخرجت رجال ، والله ما كانوا من ذوي أنسابها ، ولا في بيوتاتها فأصبحنا ، والله لو أن جبال مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيل الله ، ما أدركنا يومًا من أيامهم ، والله لئن فاتونا في الدنيا لنلتمس أن نشاركهم به في الآخرة ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، وتوجه إلى الشام فأصيب شهيدًا .

وقال مصعب بن عبد الله : خرج الحارث بن هشام مع أهله إلى الشام ، فتبعه أهل مكة يبكون ، فرق وبكى ، ثم قال : أما لو كنا دارًا بدار ، وجارًا بجار ، ما أردنا بكم بدلًا ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، فلم يزل حابسًا نفسه ومَنْ معه بالشام مجاهدًا حتى ختم الله له بخير .

وكون الجزاء من جنس العمل يوضحه بأجلّ عبارة الحارث بن هشام : النقلة إلى الله عز وجل . النقلة إلى الكريم ...

من أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده .

○ الخيل ○

حصانك في سيناء يشربُ دمعه وجندك في حطين صلوا وكبروا

يقول الشاعر :

(١) ذكر المزي : أن الحارث شهد بدرًا وأحدًا مشركًا ، وأسلم يوم الفتح ، وكان شريفًا كبير القدر ، واستشهد يوم اليرموك .

جوادُ دينك في الميدان منطلقُ ... وبين عينيه من إصراره ألَـقُ
صهيله نغمٌ يُصغي الزمان له ... ونقعه لحجاب الشمس يخترقُ
تشدو حوافره لحنًا يهش له ... قلب التراب وتسترخي له الطرقُ
يسابق الريحَ في درب الإباء ... وكم خيلٍ سواه إلى الأهواء تستبقُ
جواد دينك يجري النور في دمه ... وتشرئبُّ إلى غاراته العنـقُ
تكفُّ عن وجهه الصحراء ما حملت ... من سَفْيها دينا عن ركضه الشفقُ
يُقضُّ مضجعُ كلِّ الصافنات إذا ... ثار الغبار وطارت نحوه الحَدَقُ
مجاهدٌ والأماني البيض لاهثة ... وراءه وبحار الشوق تصطفـقُ
إذا تلفَّتَ غنّى فجر غُرَّتـه ... لحنَ الضياء وأرخى طرفَه الغسقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبـه ... فجر تحفَّزَ لاستقبالـه الأُفـقُ

قال تعالى مقسمًا بالخيل : ﴿ **والعاديات ضبحًا** ﴾ [العاديات : ١] .

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطية وقتادة : الخيل التي يُغْزى عليها ، ويغار بها على العدوّ .

ولو لم يكن من فضل الخيل إلا إضافتها إلى الرحمن سبحانه تشريفًا لها وتكريمًا ، لكان كافيًا ، يا خيل الله ، اركبي ..

قال رسول الله ﷺ : « من احتبس فرسًا في سبيل الله ، إيمانًا بالله ، وتصديقًا بوعده ؛ كان شِبَعُهُ ورِيُّهُ ورَوْثُهُ وبَوْلُهُ حسنات في ميزانه يوم القيامة »[1] .

يريد ثواب ذلك ، لأن الأرواث بعينها توزن .

وقال ﷺ : « من ارتبط فرسًا في سبيل الله ، ثم عالج علفه بيده ، كان له بكل حبةٍ حسنة »[2] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة - الإرواء ١٥٨٥ .

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان عن تميم الداري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٨٤ ، الروض النضير ١٧٥ ؛ ورواه أحمد والطبراني في الأوسط والدولابي .

وقال ﷺ : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن ، فالذي يرتبط في سبيل الله ، فعلفه ورَوثه وبَولهُ في ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذي يُقامَر أو يراهَنُ عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها يلتمس بطنها ، فهي سِتْر من الفقر »(١) .

وقال ﷺ : « الخيل لثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر فأما الذي هي له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال لها في مرْجٍ أو روضة ، فما أصابت في طيلها من المرج والروضة ، كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنّت شرَفًا أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرّت بنهر فشربت ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات . ورجل ربطها تغنيا ، وسترًا ، وتعفُّفًا ، ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها ، فهي له ستر ، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي له وزر »(٢) .

قال ابن حجر :

المرج : موضع الكلأ ، وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن ، والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع .

« فما أصابت في طيلها » : هو الحبل الذي تربط به ويطول لها لترعى ، ويقال له : طِوَل بالواو المفتوحة قوله : « ولم يرد أن يسقيها » فيه أن الإنسان يؤجر على التفاصيل التي تقع في معنى الطاعة إذا قصد أصلها ، وإن لم يقصد التفاصيل(٣).

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٣٤٥ - الإرواء ١٥٠٣ .

(٢) رواه مالك وأحمد والبيهقي والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني ، صحيح الجامع ٣٣٤٧ .

(٣) فتح الباري (٦/٧٥ - ٧٦) .

عن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- قال: أثبت لي عن رسول الله- ﷺ - أنه قال : « من كان له فرس عربي فأكرمه ، أكرمه الله ؛ وإن أهانه ، أهانه الله »(١).

قال رسول الله - ﷺ - : « إنه ليس من فرس عربي ، إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم ، إنك خولتني مَنْ خولتني من بني آدم ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه »(٢) .

فما بالهم أهانوها ، ما خيولهم بالعاديات ، ولا هي بالموريات قدحًا ، وما هي بالمغيرات صبحا ..

لم يستقلوا الصافنات وإنما ... ركبوا بغالًا سعيهن ثقيلُ
وتجرَّدوا من كلِّ أبيض صارمٍ ... للمجد فيه تلألؤٌ وصليلُ
جاءوا يسوقهمُ الأعادي عنوةً ... فهمو لهم بين الأنام ذيولُ
جاءوا ويا بئس المجيء كأنهمْ ... حُمُرٌ تساقُ إلى الردى وعجولُ

وقال الشاعر :

لمن أكحلُ عين الشعر في زمنٍ ... فرسانه لعبوا بالنار واحترقوا
لمن نرقِّص أوزان الخليل وما ... في قومنا فارس إلا به رهقُ
لمن أغرد والأحداث تكشف لي ... عن ساقها وسرايا أمتي نَزِقُ
ما بال غرة هذا اليوم باهتة ... كأنما هي في وجه الضحى بهقُ
مُت يا سؤالي فكلُّ الراكضين إلى ... أوهامهمْ ذهبوا والثابتون بقوا
يا عازف الحرفِ ما كل الشداة ... شدوا ولا جميع القوافي ريحها عبقُ
جواد دينك ما زالت حوافره ... تشدو وما زال في الميدان ينطلقُ

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٤٩) .

(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي ذر ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤١٠ ، الترغيب (٢ / ١٦٢) .

○ النفقة في سبيل الله وإعانة الغازي ○

قال رسول الله ﷺ : « من أظلَّ رأس غازٍ أظلّه الله يوم القيامة ، ومن جهز غازيًا في سبيل الله فله مثل أجره حتى يموت أوْ يرجع ، ومن بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة »[١] .

وقال ﷺ للذي وقف ناقة مخطومة في سبيل الله عز وجل : « لك بها سبعمائة ناقة في الجنة »[٢] .

وقال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة »[٣][٤] .

ظلّ بظلّ ، وبيت ببيت ، وناقة بسبعمائة ناقة ، والجزاء من جنس العمل ...

عليكم بالجهاد في سبيل الله عز وجل ، فإنَّه باب يذهب الله به الهم والغم .

هموم الدنيا وغمها كثير ، ويظن الناس أنَّ الذي خرج يكثر همه وغمه ، فطرد الله عنه الهم والغم كيف لا ؟ « ومن قاتل فواق ناقة وجبت له الجنة ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣١٠/١) ، وابن ماجة (٢٧٥٨) ، وابن حبان (٤٦٢٨)، والبيهقي (١٧٢/٩) ، والحاكم (٨٩/٢) ، وأحمد (٢٠/١) ، وقال شعيب الأرنؤوط في الإحسان : رجاله ثقات ، رجال الصحيح .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٣٠ ، والسلسلة الصحيحة ٦٣٤ .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود .

(٤) يحتمل أن معناه لك بها أجر سبعمائة ناقة ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له بها في الجنة سبعمائة ناقة كلها وواحدة منهن مخطومة ، يركبهن حيث شاء للتنزه ، كما جاء في خيل الجنة ونجبها . قال الثوري : وهذا الاحتمال أظهر والله أعلم – النووي شرح مسلم .

ولا يجتمع غبار خيل الله ودخان جهنم في منخري رجلٍ أبدًا » .

وانظر إلى فرح ذلك الزاهد شقيق البلخي لما قال لمن كان بجواره في الصف : فرحك يعدل فرحك يوم زفت إليك امرأتك .

وانظر إلى فرح أهليهم ، فكيف بفرحهم همْ ؟!.

قال أبو قدامة الشامي : كنت أميرًا على الجيش في بعض الغزوات ، فدخلت بعض البلدان فدعوت الناس إلى الجهاد ورغبتهم في الثواب ، وذكرت فضل الشهادة ، ثم تفرق الناس ، وسرت إلى منزلي فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي : يا أبا قدامة ، فقلت : هذه مكيدة من الشيطان ، فلم أجبها فعادت فنادتني فلم أجبها فقالت: هكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة ؟! فوقفت لها ، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وحزمة مشدودة ، ثم انصرفت وهي تبكي ، قال : فنظرت إلى الورقة ، وإذا مكتوب فيها : دعوت الناس إلى الجهاد ، وحرضتهم على الثواب ، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد وقد قطعت أحسن ما فيّ وهما ضفيرتاي ، وقد أتيت بهما ، لتجعلهما قيدًا لفرسك ، لعل الله يرى ذلك فيغفر لي . فلما كانت ليلة القتال أخرجتُ الضفيرتين فقيدتُ بهما فرسي ، فلما طلع الفجر ووقع القتال ، فإذا أنا بغلام حسن الوجه صبور على الشدائد فتقدمت إليه ، يا بني أنت راجل ولا آمن أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها ، فارجع إلى موضعك ، قال : فالتفت إليّ وقال : كيف أرجع وقد قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار﴾ [الأنفال: ١٥] قال : فأعطيته قوسًا كان معي ، فقال : يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت : ما هذا وقت قرض ، فقال : بالله عليك أقرضني ، قال : فأعطيته سهمًا فوضعه في قوسه فقتل ، فقلت : أنا شريكك في الثواب ؟ فقال : نعم ، فأعطيته سهمًا آخر فقتل به روميًا آخر ، ثم ناولته الثالث فرمى به وقال : السلام عليك ، سلام مودع ، فجاءه سهم بين عينيه ، فخر صريعا ، فوقفت عليه وقلت : يا ولدي لا تنسني ، فإنك عاهدتني : فقال : نعم . ثم قال : يا أبا قدامة لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فائت والدتي وسلم عليها عني ، وناولها هذا الخرج ، فقلت :

ومن والدتك ؟ قال : التي قطعت شعرها وقالت : اجعله قيدًا لفرسك ، قال : فاشتغلت بالبكاء فقضى نحبه رحمه الله ، فدفنته ، فلما انقضى القتال وعدت إلى قبره ، رأيته على وجه الأرض قد قذفته الأرض ، فحفرت له حفرة أخرى فدفنته ، فقذفته ثانيًا ، فقال أصحابنا : دعه فهو غلام ولعله خرج من غير إذن والدته ، قال : فوقعت في حيرة فأذن مؤذن العشاء فقمت فصليت وجعلت أتضرع إلى الله وأبكي وأقول : يا رب ما أدري ما أصنع به ، قال : فسمعت صوتا : يا أبا قدامة دع ولي الله واذهب ، قال : فتركته فنزلت طيور فأكلته ، وأتت السباع فابتلعت العظام .

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى بيت والدته فطرقت الباب ، فخرجت طفلة صغيرة فلما رأت الخرج رجعت ونادت يا أماه : جاء أبو قدامة بخرج أخي ، وما أرى أخي معه ، واحسرتاه في العام الأول أصبنا بأبي ، وفي الثاني بأخي ، وفي هذا بأخي الآخر ، قال : فكدت أتلف من البكاء .

فخرجت تلك المرأة وهي تقول : أمهنيًا جئت أم معزيًا ؟ إن كان ولدي قد مات فعزني ، وإن كان قد استشهد فهنني . فقلت : لا والله ، بل استشهد ، فقالت : وما علامة ذلك ؟ قلت : قتل ، قالت : قبلته الأرض أم لا ؟ قلت : لا والله . قالت : الحمد لله . ثم فتحت صندوقًا وأخرجتْ مسحًا أسود وغلًّا من حديد وقالت : إنه كان إذا جنَّه الليل يلبس هذا المسح ، ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول : إلهي ، احشرني من حواصل الطير وبطون السباع ، فما لي عين تراك . وقد استجاب الله منه ذلك[1] .

* * *

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢ / ٦٩١ - ٦٩٢) .

فهرس الموضوعات

* * *

مطابع ابن تيمية بالقاهرة
هاتف ٥٨٦٤٢٤٠ / ٣٣٤٦٤٨ / ٠١١